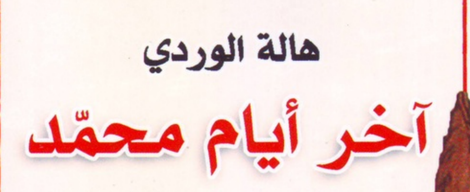


ترجمة

نضال حمدان

منشورات الجمل

هالة الوردي

آخر أيام محمّد

تحقيق في الموت الغامض للنبيّ

ترجمة

نضال حمدان

(ترجمة راجعتها المؤلفة)

منشورات الجمل

هالة الوردي: آخر أيام محمّد
ترجمة: نضال حمدان
الطبعة الأولى ٢٠٢٥

ص.ب.: ٨٠٠٣٢ ـ الشارقة ـ الإمارات العربية المتحدة
HELA OUARDI: LES DERNIERS JOURS DE MUHAMMAD

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«العلمُ نُفورٌ لا يأنَسُ إلاّ بقلبٍ تقيٍّ خاشعٍ».

الإمام مالك بن أنس

إلى روح جدّتي درعيّة
إلى عَلِيّ اعترافًا له بالجميل

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.
القرآن، سورة ٢١، الأنبياء: آية ٣٤

«أيّها القارئ، هذا كتاب حَسَن النيّة».
مونتين (Montaigne)

توطئة

ارْسُم لِيَ نبيًّا

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ...﴾ [سورة الكهف، الآية: ١١٠]

المدينة المنوّرة. الاثنين ٨ حزيران/يونيو ٦٣٢[1]. الشمس المتأوّجَة في كَبِدِ السماء تُلْهِب الأفق، لكنّ قيظ هذا اليوم الصيفي في شبه الجزيرة العربيّة كان لطيفًا مقارنة بالحمّى التي تلتهم جسد النبيّ. أبو القاسم، كما يحلو لخلاّنه تسميته، مضْطّجع في فراشه يحتضر. منذ بضعة أيام خَلَت وعائلته وصحابته وجمع المسلمين يعلمون أن النبيّ يُشرِف على النهاية. جوّ ثقيل يخيّم على المدينة المنوّرة والتوتّر في كل مكان منها محسوس. لا يعلم محمّد بأيّ شيء مما يدور في الخارج، فهو منذ فترة أصبح رهينة مَرْقَده لكنه، ومن خلال اضطراب أزواجه وأصحابه، يدرك أنهم يراقبون أنفاسه. أما هو ففي عالم آخر، لا يفكّر إلا في اللحظة التي ستُخَلِّصه من عذاب هذا الاحتضار؛ فهو لم يَعُد قادرًا حتى على الأنين، ويرجو الله بصمت كي يَدْعُوَه إلى جواره.

(١) في التقويم الإسلامي، يوافق هذا التاريخ الثالث عشر من شهر ربيع الأول من السنة إحدى عشرة من الهجرة. وسنرى في اللاحق من صفحات هذا الكتاب، أن الضبابيّة تلُفّ التأريخ الدقيق لوفاة الرسول.

في هذا اليوم بالذات، كان الجو هادئًا بشكل غريب ومحمّد بمفرده مع زوجته عائشة، التي كان والدها أبو بكر، صديق الرسول الحميم، قد زاره في الصباح الباكر زيارة خاطفة، ثم قصد منزله بالسُّنح، على مقربة من المدينة. أما عمر بن الخطّاب، فكان يَذْرَع المكان أمام باب حجرة الرسول جيئة وذهابًا، وهو يشِدُّ على دِرَّتِهِ بيد مرتعشة. في هذا الوقت، كان الأنصار مجتمعين حول سعد بن عُبادَة في سقيفة بني ساعدة بعيدًا عن حرارة الشمس وعن أعين الفضوليين، وقد بدأوا الاستعداد لما بعد محمّد.

في آخر النهار، فارق النبيُّ الحياة ورأسه في حِجْر عائشة «بين سَحْرِها ونَحْرِها»(*). نزل خبر الوفاة على المدينة كالصاعقة، وهرول المسلمون إلى بيت أبي القاسم في حالٍ من الهلع، وفي أذهانهم ما قاله لهم الرسول، في بداية الدعوة عندما كان ينذرهم باقتراب الساعة. كان البعض يصرخ غير مصدقٍ النبأ: «لا يمكن أن يكون قد مات! ألم يقل لنا إنه سيكون شهيدًا(**) علينا يوم القيامة؛ وكان البعض الآخر في حيرة

(*) العبارة من تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمّد بن جرير الطّبري، بيروت، دار الكتب العلميّة، المجلد الثاني (من السّنة الأولى للهجرة لغاية السّنة ٣٥ للهجرة)، ١٩٧١، ص٢٣٢. ومن السيرة النبوية لابن هشام، حقّقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السّقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القسم الثاني (الجزأين الثالث والرابع)، ص٦٥٥، حيث الحاشية رقم ١ تشرح «السَّحْر: الرئة وما يتّصل بها إلى الحلقوم؛ والنّحْر: أعلى الصدر». واللفظان واردان في قول عائشة: «مات رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بين سَحْري ونحْري وفي دوْري» (الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثاني، ص٢٣٢) والقول في السيرة النبوية لابن هشام، القسم الثاني، ص٦٥٥، حيث نلحظ استخدام لفظ «دولتي» عوض «دوْري»: «... بين سَحْري ونَحْري وفي دولتي». (م.)

(**) إن لفظ «شهيد» مستقى من الآية القرآنية التي قرأها أبو بكر «حين توفّى الله رسوله»، وهي: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [سورة البقرة ٢، الآية ١٤٣]. وردت هذه الآية في تاريخ الأمم والملوك للطبري،=

من أمره يهمس «إن الساعة قد أتت». وارتفعت أمام حجرة الرسول ضوضاء عارمة، صراخًا وبكاءً، مرفوقةً بتدافع هذا وذاك، فيما الوجوه مُخْتَقِنَة من شدَّة الحرّ وهَوْل الفَزَع.

وعندما رأى عمر بن الخطّاب هيجان هذا الحشد، صاح في القوم بصوته الجَهْوَرِي:

إنَّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد تُوُفي؛ إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما مات، ولكنه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أَنْ قيل قد مات؛ والله ليرجعَنَّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم كما رجَع موسى، فليُقطَعَنَّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم مات»(*).

كان عمر يصرخ ويَضْرِبُ الهواء بِيَدَيْه ويَخْبِط الأرض بقدمَيْه. فاستعراض القوة هذا كان أسلوبه المعتمد للإقناع!

في هذه الأثناء، وصل أبو بكر من السُّنْح ودخل بسرعة إلى حجرة خليله محمّد وطبَع قبلة على جبينه ثم خرج فورًا وحاول تهدئة عمر. ثم وبكل رصانة وثقة في النفس، توجّه إلى الحشد قائلًا: «أيّها الناس؛ إنه مَنْ كان يَعبُدُ محمدًا فإنّ محمدًا قد مات؛ ومَنْ كان يعبُدُ الله فإنّ الله حيٌّ

=المجلد الثاني، ص٢٣٨. وفي المجلد عينه، ص٢٤٢، نقرأ: «فقال عبد الله بن عبد الرحمن: فبدأ أبو بكر، فحمِد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: إنَّ الله بعث محمدًا رسولاً إلى خلقه، وشهيدًا على أمته، ليعبُدوا الله ويوحّدوه...».

(*) أورد الطبري قول عمر بن الخطاب، في تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثاني، ص٢٣٢؛ وكذا فعل ابن هشام في السيرة النبوية، القسم الثاني، ص٦٥٥.

لا يموت»(*)، ثم أضاف: «يقول الله في القرآن: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٤٤]. غريب أمر هذه الآية القرآنية؛ لا يذكر أيّ من الحاضرين ولا حتى عمر، أنه سمعها قبلًا! وعلى وقع كلمات أبي بكر، سكت الكل وتفرّق الجمع، واتّجه كلٌّ إلى منزله، مقفلًا بابه ومتوجّسًا مما سيحدث لاحقًا. خيّم صمت رهيب على المدينة، لم يُسمَع منه إلا صوت نباح بعيد...

مَرّ يومان على وفاته، والنبيّ لمّا يُدفَن بعد، فجثمانه المسَجَّى «عليه بُرْد حِبَرة» ملقى على السرير منذ الاثنين. انتظرت عائلة أبي القاسم يوم الأربعاء لتبدأ تحضيرات الدفن. وفي وقت متأخر من المساء، دخل عليّ الحُجرة المأتميّة مصحوبًا بأفراد آخرين من العائلة: عباس بن عبد المطَّلِب، وولداه الفضل وقُثَم، وعقيل بن أبي طالب، شقيق عليّ، وأسامة بن زيد، مولى محمّد الملقّب بـ «الحبّ ابن الحبّ»، وشُقْران خادمه.

وعملًا بتوصيات محمّد، تولّى عليّ الغُسْل ووارى الجثمان الثرى في الليلة نفسها؛ وسينقل عن عائشة قولها إنها ما علمت بدفن الرسول إلا لما سمعت «صوت المَسَاحي من جوف ليل الأربعاء»(**). كيف ذلك؟ أمِنَ المعقول أنها لم تعلم بأن زوجها يُدفن في حجرتها التي مات فيها؟ وأين اختفى أبو بكر وعمر بن الخطاب خليفتا المستقبل؟ يبدو أن كل صحابة محمّد قد تبخّروا فجأة؛ حتى عندما حان وقت حَفْر القبر، لم

(*) انظر الطبري، عينه، المجلد الثاني، ص٢٣٢ و٢٣٣ وابن هشام، السيرة النبوية، المجلّد الثاني، ص٦٥٦.

(**) الطبري، تاريخ...، المجلد الثاني، ص٢٣٩.

يُعثر على أبي عُبَيْدَةَ الجرّاح، وهو لاحِد المهاجرين المعتَمد. اختفاؤه هو الآخر أمر مريب.

لماذا لم يدفن محمّد يوم وفاته؟ ألم يأمر أتباعه بالإسراع في لَحْدِ موتاهم؟ ما من كتاب واحد من المصادر الإسلاميّة يفيدنا بمعلومة تبرّر تأخير دفن الرسول، وتفسّر هذا الغموض الذي يحيط باليومَيْن اللذين أهمل خلالهما جثمان محمّد. عادةً ما تكون كتب التراث الإسلامي ثرثارة، عالمة بأدقّ تفاصيل حياة الرسول وصحابته، ولكن عندما ننتظر منها تفسيرًا للغموض الذي يحوم حول هذه اللحظة المِفْصلية، تصبح فجأة بَكْماء وفاقدة للذاكرة. وعلى امتداد يومَيْن بل ربما أكثر، يفرَغ مسرح التاريخ فجأة من الممثّلين الكثر الذين كانوا قبل دقائق قليلة في اهتياج وامتياج. وكما في المأساة الإغريقية القديمة، لا يبقى وسط الرُّكْح إلا جسد رجل بلا روح ممدَّد فوق سريره.

من الاثنين وحتى ليل الأربعاء، بدا زمن البشر كأنه توقف ولكن زمن الطبيعة واصل مساره الحتمي، وبدأ جثمان محمّد بالتحلّل وانبعثت رائحة كريهة من داخل حجرته المغلقة سرعان ما ملأت أرجاء المكان. ويا لسخرية الأقدار! كان محمّد مولعًا بأرفع أنواع العطور، وها هو التعفّن ينال اليوم من جسده المسجّى تحت الرداء وفي ظل لامبالاة الجميع.

كيف لنا أن نفهم هذه الإهانة التي طالت النّبيّ الذي تُرك جسده يتعفّن في مشهد منفّر! أيُعْقَل أن تكون الدسائس السياسيّة والهرولة وراء الخلافة قد شغلت الأذهان حدَّ نسيان صحابته أداء أدنى واجب تقتضيه صيانة الكرامة البشرية ومراعاة حُرمة الميّت. هذا غَيْضٌ من فَيْض أسئلة يحاول هذا الكتاب الإجابة عنها من خلال «تحقيق» حول الأسابيع الأخيرة من حياة محمّد، وفترة احتضاره، وكذلك حول الساعات الأولى

التي تلت وفاته. إن ما سنعرضه في هذا الكتاب، سيفتح الباب على تساؤلات أخرى حول نهاية محمّد المليئة بالغموض، ومنها: لماذا مُنع من كتابة وصيّته قبل ثلاثة أيام على وفاته؟ وما كان تحديدًا السبب في موته؟

إن هذه الصورة الفظيعة لجثمان الرسول المهمل من قبل أقرب المقرّبين إليه (أولئك الذين سيحكمون باسمه بناء على العلاقة المميّزة التي كانت تربُطهم به) موجودة في المصادر الإسلاميّة هي نفسها؛ بل إن هذه الصورة المأساوية لا تزال، في اعتقادنا، مسيطرة على اللاوعي الجماعي للمسلمين، أو على عقلهم الباطني، وهي تتناقض تمامًا مع التقديس القريب من التأليه، الذي يحظى به النبيّ محمّد اليوم.

لا شك في أن الجيل الأول من المسلمين ما كان يعتبر محمّدًا شخصيّة مقدّسة بل هو نفسه كان دائمًا يذكّر مريديه بأنه إنسان، وهذا ما يقوله له الله في القرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ...﴾ [سورة الكهف، الآية: ١١٠]. أما اليوم، فقد وصل تقديس المسلمين لنبيّهم أبعد الحدود، لدرجة تحوّل معها في بعض الحالات، إلى هَوَس جنوني مرفوق بوَسْواس التجديف، وهو ما يوحي بأنّ عشق المسلمين لمحمّد سَجَنَه في هالة من التقديس وحنَّطَه، وهذا ما جعل منه كائنًا غير بشري تقريبًا.

إننا أبعد ما نكون اليوم عن زمن محمّد؛ إذ، وفي غضون ألف وأربعمائة عام، أصبح بالنسبة إلى الكثيرين من المؤمنين، فكرة مجردة تصمد بقوة أمام كل محاولات التجسيد. من هنا، أزعجت الرسوم الكاريكاتوريّة المسلمين إلى أقصى الحدود، ووصل الأمر في بعض الحالات إلى العَتَه الإجرامي. والسبب في ردّة الفعل العنيفة هذه لا يكمُن فحسب في أن الرسوم الشقيّة ساخرة، بل في وضعها الإصبع على ما

نعتقده نقطة ضعف في الإسلام، أي تحريمه القاطع لتصوير النّبيّ[1]. وفي عصرنا هذا الذي تهيمن الصورة عليه، لم يعد رفض «الأيقونات» في الإسلام حكمًا باليًا فحسب، بل مؤشرًا واضحًا على مفارقة تاريخيّة يجسّد بُعدها المأساوي ردَّ الفعل العنيف على تلك الرسوم الكاريكاتوريّة.

قد نجانب الصواب إن عَزَوْنا الفعل الإجرامي المفترَض به الثأر للنبيّ، إلى بضعة أفراد من ذوي «العقول المصابة بالأُكال»، كما كان يقول «ڤولتير» (Voltaire): فهذه الذئاب ليست في الحقيقة منفردة وإنما هي الجزء البارز من جبل جليدي، لكمونها في الامتثال الديني الذي يمكن اعتباره الشريك الصامت في الجريمة. في الواقع، إن المسلمين الذين يعتقدون صادقين نوعًا ما إنه من غير المقبول الرَّدَّ بالرصاص على قلم رصاص، يجدون أيضًا إنه من غير المقبول أن يكون محمّد محور سخرية في صورة كاريكاتورية، بل وأن يُرسَم نبيُّهم أصلًا.

في الواقع، إن إسلام ما يسمى بالمسلمين «المعتدلين»، كما إسلام المتعصّبين السفّاحين يحملان عِبْءَ ممنوع مقدّس واحد يُحرِّم كلّ

(١) لا بدّ من الإشارة إلى أن مسألة التمثيل المصوّر للرسول (والتمثيل البشري عمومًا) لم تكن، وخلافًا للفكرة السائدة، غرضًا على الدوام لحظر صارم في الإسلام. هذا ما تشهد عليه المنمنمات العديدة الممثّلة لمحمّد في المخطوطات الفارسيّة والعثمانيّة. غير أن هذا المُحَرَّم، الذي أحاط بالتمثيل، ترسّخ عبر القرون وأصبح عقيدة دينيّة غير قابلة للنقاش لدى المسلمين السّنة؛ في المقابل، لم يعرف الشّيعة هذا الحَظر بل يصوّرون الرسول حتى في أيامنا هذا.

انظر في هذا الصدد: سيلڤيا نايف، **هل تطرح الصورة إشكالية في الإسلام؟** Sylvia Naef, Y *a-t-il une question de l'image en islam?* Paris, Téraèdre, 2004.

وانظر أيضًا: كريستيان غروبر، «بين الكلمة والنور. تمثيلات النبيّ محمّد في الرسوم الزيتيّة الإسلاميّة». Christiane Gruber, "Between Logos (*Kalima*) and Light (*Nûr*). Representations of the Prophet Muhammad in Islamic Painting", *in Muqarnas*, 26, 2009, pp. 229-262.

تجسيد للنبيّ[١]. ذلك أن كل المسلمين، المسالمون منهم والعدائيّون، وجدوا أنفسهم أمام الرسوم الساخرة عاجزين عن الرَّدِّ من خلال نشر صور جميلة تعظّم نبيّهم؛ لأن دينهم يُحرّم عليهم التصوير[٢].

إن لهذه العلاقة بالصورة دلالة عميقة لكونها مؤشرًا على علاقة معقّدة بالذاكرة[٣]. وحدها الموضوعيّة في إعادة التشكيل التاريخي هي التي تمكّننا من تجاوز ثنائيّة «المعتَدِل» و«المتطرّف»، التي تفصُل بطريقة خياليّة ومانويّة بين المسلم الصالح والمسلم الطالح، إذ كل من المسلم «المعتدل» والمسلم «المتطرّف» يتّهم الآخر بتشويه الإسلام، لينتهيَ بهما الأمر إلى نقطة الصفر العقيمة، حيث كل فريق يُبْطل فِعل الآخر. هل بإمكاننا القول إن معضلة المسلمين اليوم تكمُن في أن نبيّهم قد أضحى

---

(١) كان لهذا الحظر أن «عَدَى» نوعًا ما غيرَ المسلمين. وعلى سبيل المثال، نذكّر بالقرار الذي اتخذه الناشر بيلان (Bélin) في العام ٢٠٠٦ بتغبيش وجه نبيّ الإسلام المصوّر في مُنَمْنَمَة فارسيّة عائدة إلى القرن السادس عشر، وذلك في كتاب التاريخ والجغرافيا المدرسي المخصّص للصف الخامس التكميلي. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المنمنمة المقصودة، والتي تبرز بوضوح تقاطيع وجه الرسول، ماثلة في كتاب البيروني (أبو الريحان، محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، المتوفّى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩ - ١٠١٠م)، **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، **Al-Bîrûnî, *al-Athâr al bâqiya*, Paris, BNF, Manuscrits orientaux, Arabe 1489, fol. 5v.**

(٢) إن فيلم «الرسالة» السينمائي المكرّس لحياة محمّد والذي نزل إلى الصالات في العام ١٩٧٦، قد حُظِّر عرضه في مصر بموجب فتوى صادرة عن جامع الأزهر، مع أنّ منتج الفيلم ومخرجه السوري مصطفى العقّاد (الذي لقي حتفه في انفجار في عمّان في العام ٢٠٠٥) احترم فيه حظر إظهار وجه الرسول. وفي بيان صدر عنه في الأول من شباط/فبراير من العام ٢٠١٥، أدلى الأزهر بفتوى استهدف بها الفيلم الإيراني الذي يعرِض لحياة الرسول محمّد والذي أنتجه المخرج السينمائي مجيد مجيدي؛ لكن هذا الإنتاج الضخم عرِض في طِهران في شباط/فبراير من العام ٢٠١٥.

(٣) إن تدمير داعش للتحف القديمة في متاحف الموصل في شباط/فبراير من العام ٢٠١٥ يشكّل، على سبيل المثال، تعبيرًا شديد العنف عن هذه المسألة.

رجلاً بلا ظِلّ، كائنًا بلا وجه بشري، مفصولاً عن التاريخ وعن التمثّل؟ وماذا لو وجب على إصلاح الإسلام أن يكون إصلاحًا جماليًّا لا فقهيًا؟

يسعى هذا الكتاب تحديدًا إلى تقديم صورة بشريّة للنبي محمّد، من خلال رسم ملامح رجل من دم ولحم مثلنا (وكذلك الشأن بالنسبة إلى المحيطين به). وفي هذا الصدد، لم نجد أفضل من الانكباب على الحِقبة الأخيرة من حياة رجل أصبح سجينًا لجسده المريض، واعيًا ضعفه، لكي نبرِزَ بشكل جليّ إنسانيّته.

وفي سرديّة آخر أيام محمّد، نجد كل المكوّنات التي نجدها عادة في نهاية كل شخصيّة تاريخيّة مؤثّرة: سلطان تهاوى إثر هزيمة عسكريّة مدوّية أمام الجيوش البيزنطيّة؛ محاولات اغتيال استهدفته؛ تدخلِيّة مفرِطة لمحيطه العائلي في شؤون الحكم؛ وصراع حامي الوطيس في محيطه القريب ساعة احتضاره قَصْدَ إرث مُلكه وثروته الضخمة.

وفي خِضمّ هذه الدوامة من المطامح، بقي محمّد رجلاً وحيدًا يواجه طمع صحابَته الضّاري. وبهذا، نصل إلى الاستنتاج الأزلي الذي لا يَمَسُّه تغيير، والقائل إن الدين في غالب الأحيان ليس إلا ستارًا تحتجب وراءه المطامع البشريّة.

من ناحية أخرى، يمكننا تحليل موقف الصّحابة الأكثر قربًا من النبيّ المحتضِر (ونعني بهم تحديدًا كُلًّا من أبي بكرٍ وعمر، وقد كانا المرشَّحَيْن الأوفر حظًّا لخلافته) المنشغلين بشكل محموم حول مَضْجعه، بإلقاء الضوء على الظروف الأليمة التي انبثقت دولة الخلافة في ظلّها. ذلك أن بوادر الشّقاقات والصراعات الداخليّة التي مزّقت الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا، كانت مرئيّة بوضوح أيام احتضار محمّد.

نتطلع من خلال سرد الأيام الأخيرة من حياة محمّد، إلى اقتلاع الرجل من الأسطورة الملحميّة - الدينيّة التي طُمِرَ تحتها وإرجاعه إلى

التاريخ، أي إلى «الزمن البشري»، كما يقول المستشرق جاك بيرك (Jacques Berque)[1]. ولا بدّ من القول في هذا الصدد إن هذا النهج قد فرض نفسه علينا لبداهته؛ إذ، وبناء على ما أشار إليه إرنست رينان (Ernest Renan)، كان محمّد «شخصيّةً تاريخيّةً حقًّا»[2]. ولنذكّر القارئ بأن النبيّ عاصر كلاً من فلافيوس أغسطس هرقل (Héraclius)، إمبراطور بيزنطيّة، وداجوبيرت الأول (Degobert Ier)، ملك الفَرَنْج، والبابا بونيفاس الخامس (Boniface V). غير أننا نتبيّن أن الجذور التاريخيّة للإسلام ماضية في الغوص في رمال الدوغماتيّة المتحرّكة. فعلى مَمَرّ القرون، بدا أن انغلاق الإسلام على نفسه في «تمثّل مطلق»، هو السبب اليوم في رفض [هذا الدين] «التَوافُق مَنْطِقِه مع زمن الآخرين»[3]، وذلك بناء على ما تشير إليه المؤرّخة جاكلين شابّي (Jacqueline Chabbi). ولمّا كانوا يرفِضون النظر إلى أنفسهم إلا في المرآة المُجَمِّلة التي تقدّمها لهم مصادرهم، يعتقد المسلمون بقدرتهم على اختزال تاريخهم بل ومستقبلهم في وهم الأزليّة والمعصوميّة.

ولانعدام قدرته على قَبول نفسه كجزء من الزمن البشري، يبدو

---

(١) نستند هنا إلى مؤلَّف وضعه جاك بيرك وهو بعنوان الإسلام في زمن العالم، Jacques Berque, *L'Islam au temps du monde*, Paris, Sindbad, coll. "La bibliothèque de l'islam", 1984.

(٢) انظر: إرنست رينان، «محمّد وجذور الدين الإسلامي»، Ernest Renan, "Mohamet, les origines de l'islamisme", *in Revue des Deux Mondes, Nouvelle Période*, t. 12, 1851, p. 1851.

وفي هذه المقالة، يؤكد رينان بدقّة على أن الإسلام وُلد «في خِضَمّ التاريخ» وعلى أن «جذوره موجودة على سطح التراب» (ص ١٠٦٥).

(٣) انظر: جاكلين شابّي «التاريخ والسّنة المقدّسة. السيرة المستحيلة لمحمّد» Jacqueline Chabbi, "Histoire et tradition sacrée. La biographie impossible de Mahomet", *in Arabica*, 43, 1996, p. 196.

الإسلام كأنه يتقدّم بخطىً ثابتة باتجاه الطريق المؤدّي إلى الخروج من التاريخ - وهو الخروج عينه الذي جابهه الدين الجديد منذ نحو أربعة عشر قرنًا، يوم مات محمّد. في الواقع، إن بدا لنا الفصل الأخير من حياة النّبيّ مهمًّا بما يكفي لِحَضّنا على سَبْر أغواره، فلأنه يضعنا أمام اللحظة الحاسمة التي واجه فيها الإسلام حقًّا «نهاية للتاريخ»؛ فبالنسبة إلى أتباعه، كان محمّد «نبيَّ آخر الزمان»، ولم يكن موته في نظرهم إلا مؤشرًا على الاقتراب الحتمي لنهاية العالم.

شكّل موت محمّد أزمة حقيقيّة وضعت استمرار الإسلام على المِحَك وهو فصل يبدو كأنه تتكثّف فيه جذور حالة التعسّر التي يعرفها الإسلام في صلب الحداثة. ومن شأن هذا الأمر أن يمكّننا من تحليل تصرّفات بعض المسلمين الذين جَيَّشهم الجنون الأخروي الكارثي، وجعلهم يستعجلون الخروج من التاريخ، فراحوا يجرّون العالم إلى ملاقاة القيامة، فارضين علينا مشهديّتها المروِّعة في مَسْرَحَة كابوسيّة، تتقزّز لها النفوس وتَقْشَعِرّ لها الأبدان.

إن هؤلاء الذين يمكن تشبيههم بالمسيح الدجّال، والبادين لنا كأنهم يخرجون علينا من زمن آخر والذين، لتشدّدهم الديني العنيف، الرافض للاختلاف والمحطِّم المسعور للصورة، يرهبوننا ويروّعوننا، ليسوا تجسيدًا لانحرافات كل توجّه متعصّب فحسب، بل إن هؤلاء المسلمين يعملون جاهدين على إعادة إحياء الأخرويّة الأوليّة، التي أسَّسَت بلا شك للعقيدة الدينيّة في الإسلام.

يعتمد السرد المقترح في هذا الكتاب والهادف إلى تقصّي الوقائع المتّصلة بآخر أيام محمّد، على القرآن ومجمَل المصادر الإسلاميّة، السّنيّة منها والشيعيّة، التي تحتوي كمًّا هائلًا من الروايات والمعلومات

المتعلّقة باحتضار النبيّ وموته[1]. وإذ نستند في هذا البحث إلى مقارنة الروايات المختلفة الموجودة في كتب الأحاديث والسير وكذلك في تفاسير القرآن، وكتب التاريخ والتراجم، نذكّر القارئ بأن هذه المصادر المَرجَعِيّة الوافرة العدد ليست معاصرة للأحداث التي ترويها، وإنما هي متأخِّرة عليها بقرن ونيّف في أحسن الحالات[2]. وما خلا طابَعها المتأخّر، تتميّز المصادر الإسلاميّة بخصائص أدبيّة فريدة نوعًا ما: فهي عندما تتطرّق إلى حدث ما، تقدّمه في روايات مختلفة مُجزّأة وصادرة عن رُواة متعددين. وفي هذه الكتب «المتعددة الأصوات»، يكتفي مؤلّفوها بإيراد الروايات في الحدث الواحد، رواية تلو الأخرى، حتى وإن تباينت فيما بينها، بل قُلْ تناقضت وتنافرت. ولعل المثل الأبلغ على هذا النهج هو ما صرّحت به عائشة التي تقول طورًا إن زوجها قتل بالسم وطورًا إنه توفي جرّاء إصابته بذات الجَنْب.

وفي ظِلّ هذه المتباينات وتلك المتناقضات، يهدُف عملنا إلى جمع شذرات الأُلغوزَة بحيث نعطي للسرديّات المتَشظيّة والروايات المتباعدة التي نجدها في المصنّفات الإسلاميّة، شكلاً سرديًا متسلسلاً. مما لا شكّ

---

(١) على العموم، تُختَتَم المؤلفات في سيرة محمد بسردية موته. وفي هذا الصدد، لفت عبد السلام شِدّادي إلى المعطى التالي: «إن كانت السردية في موت الرسول قد عرضت بطريقة أقلّ مأساوية من آلام السيّد المسيح، إلا أنها أكثر استفاضة وتزويدًا بالتفاصيل الملموسة. فالتجليّات الأولى للمرض الذي أودى بحياة محمد وتطوراته معروضة بواقعيّة». انظر: Abdessalam Cheddadi, *Les Arabes et l'appropriation de l'histoire. Émergence et premiers développements de l'historiographie musulmane jusqu'au IIe/VIIIe siècles*, Arles, Sindbad-Actes Sud, 2004, p. 92. ومن جهته، كرّس المؤرّخ المسلم الواقِدي (١٣٠ - ٢٠٧هـ/٧٤٧ - ٨٢٣م) لموت محمّد، بحثًا أحاديّ الموضوع بعنوان كتاب وفاة النبيّ. غير أن هذا المؤلف مفقود للأسف.

(٢) انظر: الفصل ذي العنوان «في ختام الكلام...» في نهاية هذا الكتاب.

فيه أن التأريخ الإسلامي، وخاصة كل ما اتصل منه بسيرة النبيّ، خاضع للمنحى التمجيدي التقديسي. لكن هذا التأريخ، وهنا مَكْمَن التناقض الأكبر فيه، يبدو منشغلاً ببناء شيء من الحقيقة التاريخيّة. لذا، يعترينا الاستغراب عندما نلاحظ أن وقائع بإمكانها خدش صورة آلِ محمّد وصحابَته، قد استُبْقِيَت في المصنّفات المفترض بها تقديم صورة مثاليّة عن الجيل الأول من المسلمين. في الواقع، لا يُقصي الطابَع التعظيمي للتراث الإسلامي بُعدًا نقديًا خفِيًا، يدمّر الصورة المقدّسة النمطيّة، علمًا أن هذا البعد ليس حِكرًا فقط على الأدبيّات الشيعيّة، وهي التي نشأت وتطوّرت في صُلْب المعارضة السياسيّة وعلى هامش التأريخ الرسمي الذي فرضته دولة الخلافة السنيّة[1]؛ بل إن الرواية السنيّة نفسها تكشِف لمن يقرأها في العمق، وأكثر من مرّة، عن أن التاريخ المقدّس لم «يُطَهَّر» بالكامل. فعلى سبيل المثال، إن استَبْصَرنا في موقف صاحبَيّ محمد، أبو بكر وعمر، خلال احتضار النبيّ والساعات الأولى التالية لوفاته، لوجدناه يعرِّض ذكرى الخليفتَين الأولَيْن للشُّبْهَات. إذ ثمّة تفاصيل (خسيسة في بعض الأحيان)، باتت اليوم مَسْكُوت عنها، لم تَلْقَ في المصادر المذكورة أعلاه أي تعديل ملحوظ يخفّف من فظاعتها أو يجمّلها، وهذا ما يدلّ على أنها على درجة عالية من المِصداقيّة. وما يعزّز موثوقيّة بعض المعلومات هو التطابق الغريب والمثير، الذي نلاحظه بين المصادر السنّية والشيعيّة المشهورة، والتي يُعتقد عن خطأ أنها على طرفَيّ نقيض. ونقاط التلاقي هذه وما تنتجه من مساحات

(١) لنلفِت من باب التذكير أنّ عليًا هو بالنسبة إلى الشّيعة، الخليفة الشرعي الوحيد للرسول. وهم يعتقدون أن الخلفاء الثلاثة (أبو بكر وعمر وعثمان) ليسوا إلا غاصبين للخلافة من بعده. ولقد انتهى عليّ إلى الوصول إلى سُدّة الحكم بوصفه الخليفة الرابع، لكن عهده اخْتُتِم بحرب أهليّة أُطلق عليها اسم «الفِتْنة الكبرى»، أدّت إلى مقتله في العام ٦٦١.

تقاطعِيّة، هي التي يشعر الدارس أمامها بأنه أقرب ما يكون إلى نواة الحقيقة التاريخيّة.

وكما نوّه به محمّد - علي أمير مُعِزّي، تقتضي مصلحة البحث من واضعه تفحّص «أرشيف المعارضة» التي «تبقى الإحاطة بها غير كافية»؛ ذلك أن «المزاعم الشيعيّة الحازمة والمكرَّرة ليست فقط هَذْرًا صنعه القهر والإحباط نتيجة الفشل»[1]. وعملاً بهذه التوصية، عقدنا في هذا الكتاب العزمَ على وضع السرديّات السنّية وتلك الشيعيّة الراوية لآخر أيام محمّد في المقابلة والمقارنة. في المُحَصّلة، تكمُن جدّة سرديتنا في عنصرَيْن متلازمَيْن: المقارنة غير المسبوقة بين المصادر السنيّة والشيعيّة، وكتابة سرديّة تراعي التسلسل الزمني للأحداث[2]. ذلك أن هذا الترتيب الزمني الذي نقترحه، يمكّننا من فهم ما جرى خلال آخر أيام محمّد وهو فصل

---

(١) انظر محمد - علي أمير مُعِزّي، القرآن الصامت والقرآن الناطق، المصادر المخطوطة المقدّسة في الإسلام بين التاريخ والحماسة Mohammad-Ali Amir-Moezzi, *Le Coran silencieux et le Coran parlant. Sources scriptuaires de l'islam entre histoire et ferveur*, Paris, CNRS, 2011, pp. 21-23.

(٢) نُحيل القارئ إلى مؤلَّفَيْن مهمَّيْن مرتبطَيْن مباشرة بمسألة موت الرسول، وقد صدرا مؤخرًا في الولايات المتحدة الأميركية. الأول من وضع ستيفِن ج. شومايكر ويتطرق إلى الموضوع من منظور تاريخي وسياسي، من دون الدخول في تفاصيل الظروف الماديّة لوفاة مؤسّس الإسلام؛ والمؤلَّف بعنوان: وفاة رسول. نهاية حياة محمّد وبداية الإسلام (Stephen J. Shoemaker, *The Death of a Prophet. The End of Muhammad's life and the Beginning of Islam*, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 2012).

أما المؤلَّف الثاني فوضعه ليور هاليڤي الذي يتوقّف من جهته فيه عند الطقس الجنائزي لدى المسلمين من منظور أنثروبولوجي، وذلك من خلال انكبابه تحديدًا على مجريات دفن محمد ودفن ابنته فاطمة. والكتاب بعنوان: قبر محمد. طقوس الموت وصناعة المجتمع الإسلامي: Leor Halevi, *Muhammad's Grave. Death Rites and the Making of Islamic Society*, New York, Columbia University Press, 2007).

أساسي في تاريخ نشأة الإسلام، كما يمكّننا من تجاوز الطابع المبهَم والمشتَّت والمتناقض للمعطيات التي تعجُّ بها المصادر الإسلاميّة. ومن هنا، نرى أن وضع الوقائع فوق الخطّ الزمني يجعلها منطقيّة وعقلانيّة تنطِق بمفردها.

ندرك جيدًا أن كتابنا هذا قد لا ينفُذ إلا إلى حقيقة تقريبيّة؛ ذلك أن البحث العلمي يتطلّع إلى حقيقة هي كالأفق الذي يتراجع كلما تقدّم الباحث في تقصّيه. وفي نهاية المطاف، ليس وضع المؤرّخ أقلّ يأسًا من وضع عالم الرياضيّات الراكض وراء الكسور العِشرية اللانهائية لرقم «باي» π والتي يستحيل التنبؤ بها؛ وهو ليس أقلّ يأسًا من وضع الفيزيائي الذي يسعى إلى التقاط المادة ولا يجد إلا أشكالاً؛ فالمؤرّخ هو أيضًا لا يلتقط من التاريخ إلا شكلاً متحوّلاً وفي صيرورة دائمة، أي أنّه لا يلتقط من التاريخ إلا التشابك اللامتناهي والمتمدّد لتمثّلاته.

الفصل الأول

تَبوك، آخر الغزوات

عَقِب هجرته إلى المدينة سنة ٦٢٢، انقطع محمد عن كونه الداعية المسالم الذي يدعو سكان مكّة إلى الإيمان التوحيدي، وانطلق مذ ذاك قائدًا غزوات موصولة هَدَف منها إعادة المشكّكين والكفّار إلى سبيل الله[١]. ولقد كان من شأن الإنجازات العسكريّة العديدة والغنائم الضخمة المحصودة من الغزوات المختلفة التي شنّها، أن ضاعفت عشر مرات قوة مَنْ أضحى بلا منازع وتصميمه، وهو الرجل الأكثر حَوْلاً وطَوْلاً والأكثر ثراء في الحجاز، لدرجة انتهى معها أسياد قُريش المُشْركين إلى الخضوع فالاستسلام. هذا، وبعد أن أبرم معاهدات سلام مع كبريات قبائل شبه الجزيرة العربيّة، قرّر النبي توجيه غزواته العسكريّة الأخيرة إلى الشمال.

ما كان هدفه من هذه الغزوات؟ فتح القُدْسِ فتحًا يكتسي بُعدًا أُخْرَويًا. في الواقع، كان بعض اليهود قد تحدَّوْا محمدًا بأن يحمل إليهم

---

(١) شَنّ محمد، انطلاقًا من المدينة، نحو ثلاثين غزوة (وجمع اللفظ «مغازي» أو «غَزَوات») على امتداد سبعة أعوام (من السنة الثانية حتى السنة التاسعة من الهجرة/ ٦٢٣ - ٦٣٠ للميلاد). كانت الهجمات المسلّحة التي قادها النبيّ أو التي أمر بها، من كل نوع ولون، إذ توزّعت بين المواجهة العسكريّة مع العدوّ في ساحة المعركة، ومنها وقعة بَدْر الكبرى (في السنة الثانية من الهجرة/ سنة ٦٢٤ للميلاد)، والهجوم المسلّح على حِصْن يهود خَيْبَر في السنة السابعة من الهجرة/٦٢٨ - أي سنة ٦٢٩ للميلاد).

دلائل على صدق دعوته: «فقالوا يا أبا القاسم إن كنت صادقًا أنك نبيّ فالحقّ بالشام[1] فإن الشامَ أرضُ المَحْشَر وأرضُ الأنبياء»[2](*). حَفَز أمرهُم هذا محمّدًا إذن على وضع خطّة تقضي بمواجهة الإمبراطوريّة البيزنطيّة على أراضيها. بَيْد أنَّ أقلّ ما يُقال في هذا المسعى هو أنه كان جسورًا لافتقار جيش المسلمين إلى العدد والعَتاد اللذين يجيزان له مواجهة بيزنطة ومقارعتها، وقد تبيّن الدليل على ذلك في مناسبتَيْن: في مُؤْتَةَ سنةَ ٦٢٩م وفي تَبُوكَ سنةَ ٦٣٠م.

وفي شهر جُمَادَى الأولى من سنةِ ثمانٍ من الهجرة (الموافق فيه أيلول/سبتمبر من سنةِ ٦٢٩م)، أمر محمد بشنّ غزوة مُؤْتَة الواقعة على بُعد خمسة عشر كيلومترًا جنوبي الكَرَك في الأردن الحالي، شرق البحر الميت، فأرسل جيشًا عَدَّ ثلاثة آلاف رجل لقتال الروم (أي البيزنطيّين). ولقد عاد السبب في قرار إعلان الحرب على بيزنطة إلى اغتيال الحارث بن عُمَيْر الأَزْدي اللِّهبي، مبعوث الرسول إلى ملك بُصْرى بكتابه يدعوه إلى الإسلام. يومذاك، عرض له شُرَحْبيل بن عمرو، سيّد غَساسِنَة البَلْقاء

---

(١) كانت الوحدة الإدارية المسمّاة سوريا (بلاد الشام في العربيّة) تضُمّ في تلك الحِقبة سوريا ولبنان والأردن وإسرائيل والأراضي الفلسطينيّة كما نعرفها بحدودها الحاليّة.

(٢) انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٧٥/٢ (ولاحقًا **الطبقات** اختصارًا)؛ وانظر أيضًا: البَيْهَقي، **دلائل النبوّة**، ٢٥٤/٥؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ١٧٨/١؛ السُّهَيْلي، **الرَّوْض الأُنُف**، ٣٨٧/٧؛ ابن منظور، **المختصر**، ٧٦/١؛ الذَّهبي، **تاريخ**، ٤٠٩/٣. بالنسبة إلى الإحالات إلى المصادر العربيّة التي نعرضها مبوّبةً بالتسلسل الزمني، يحيل العدد الأول إلى رقم المجلد، والثاني إلى رقم الصفحة (انظر: «فهرس المصادر والمراجع العربية» في ختام هذا المؤلِّف).

(*) وقعت المترجمة على الاقتباس في **تهذيب تاريخ دمشق الكبير** للإمام الحافِظ المؤرّخ ثِقَة الدين أبو القاسم عليّ بن الحسين بن هِبَة الله الشّافعي المعروف بابن عساكِر (المتوفّى سنةَ ٥٧١هـ)، هذَّبه ورتَّبه الشيخ عبد القادِر بَدرَان (المتوفّى سنةَ ١٣٤٦هـ)، بيروت، دار المسيرة، الجزء الأول، ص٤٠. (م.)

- وقد كان عاملاً عليها باسم هِرَقْل، إمبراطور بيزنطة -، «فأمر به فأوثِق رِباطًا، ثم قدّمه فضرب عُنُقَه صبرًا»(*). ومن باب الردّ على هذا الاعتداء، حشد النبيّ سريَّةً ضدّ الروم(1) مسندًا إمارتها إلى مولاه وابنه بالتبنّي قبل الإسلام، زَيْد بن الحارِثة، ومسديًا إليه تعليمات واضحة: «إن أصيب زيدٌ فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رَواحَة على الناس»(2). وفي توقّعه مقتلَ زيدٍ واحتياطه له بتسمية هذَيْن البديلَيْن مؤشّر إلى يقين محمّد بصعوبة هذه المواجهة العسكريّة وبالمخاطر الجسيمة المتربّصة بجنوده. وبالفعل، أَثْخَن البيزنطيّون في جيش الرسول تقتيلاً، ولقي عدد كبير من المسلمين حتفه في مؤتة ومن بينهم القادة الثلاث الذين أمّرهم محمد: زيد بن الحارِثة، وعبد الله بن رَواحَة، وجعفر بن أبي طالب(3). ولا بدّ من القول هنا إن انعدام التكافؤ

(*) الواقِدي، محمد بن عمر بن واقِد، **كتاب المغازي**، تحقيق الدكتور مارسْدن جونس، بيروت، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، الجزء الثاني، ص٧٥٥. (م.)

(1) الواقِدي، **كتاب المغازي**، ٧٥٥/٢؛ وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات**، ١٢٨/٢ - ١٢٩؛ ابن عبد البَرّ، **الاستيعاب**، ٢٩٨/١؛ ابن الأثير، **أُسْد الغابة**، ٤٠٨/١؛ ابن منظور، **المختصر**، ١٥٢/١؛ الذّهبي، **تاريخ**، ٤٧٩/٢.

(2) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٣٧٣/٢.

(3) خلال وقعة مؤتة بُتِرت يدا جعفر بن أبي طالب، فأطلق عليه الرسول لقب «ذي الجناحَيْن» أو «الطيّار»؛ وقال «لما أتاه مُصاب جعفر [...]: قد مرّ جعفر البارحة في نفر من الملائكة، له جناحان، مختضب القوادم بالدّم، يريدون بيشة» (الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٥٢/٢) وفي طبعة بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٨، المجلد الثاني، ص١٥١ - ١٥٢؛ وقال حسّان بن ثابت: «فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قتلىً تتابعوا بمؤتة، منهم ذو الجناحَيْن جعفر» (انظره في ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ٢٣٧/١)؛ وفي **الإعلام بفضائل الشام** لبُرهان الدين إبراهيم الغزازي الشافعي (المعروف بابن الفركاح)، ص١١٥: «روى عِكْرِمَة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: دخلت الجنّة فرأيت جعفر يطير مع=

في القِوى بين الجيشَيْن (ثلاثة آلاف رجل في الجهة المسلمة في مواجهة مئة ألف بيزنطي) كان بالغ الأهمية[١].

أمام هول الكارثة، أمسك خالد بن الوليد بزمام القيادة وواصل القتال بشجاعة طوال ثلاثة أيام. وقد قيل إن هذا المحارب الباسل حطّم تسعة سيوف في معارك مؤتة الدمويّة[٢]. بَيْد أن عبقريّته العسكريّة لم تُفْلِح في الحَؤول دون الهزيمة فأمر جنوده بالانسحاب. ارتضى محمّد القرار وهنّأ مَنْ أطلق عليه كُنْيَة «سيف الله المسلول»[٣] لكونه اعتبره، بلا منازع، أكثر صحابته موهبة استراتيجيّة في قيادة الجيش، وصاحب الشهرة التي تجاوزت حدود شبه الجزيرة العربيّة[٤]. بل إن الرسول قصد بنفسه مدخل

=الملائكة وجناحاه مضرّجان بالدّم». انظره في: خير الدين الزركلي، **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ترجمة جَعْفَر الطَّيَّار (م.))؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٢/١٠-١١؛ ابن الأثير، **أُسْد الغابة**، ١/ ٣٤٣). اكتسى وجه جعفر بن أبي طالب أهميّة كبيرة، لكن وجه أخيه عليّ حجبه في غالب الأحيان. كان النبيّ يَكُنُّ لابن عمّه جعفر معزّة خاصة ويرى فيه ليْمَه نوعًا ما (أي شبهه في قَدّه وشكلِه وخَلْقِه (م.)). (ابن حَنْبَل، **المسنَد**، ٢/٢١٣؛ البخاري، ٢/ ٩٦٠؛ وانظر أيضًا: التِّرمذي، **السُّنَن**، ٥/٦٥٤؛ النسائي، **السُّنَن الصغرى**، ٧/٤٣٣؛ البيهقي، **السُّنَن**، ١٠/٣٨٢).

(١) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٢/٣٧٥؛ ابن عبد البَرّ، **الاستيعاب**، ١/٢٩٨؛ ابن الأثير، **أُسْدُ الغابة**، ١/٤٠٨.

(٢) **الجامع المُسْنَد الصَّحيح المختَصَر من أمور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسُنَنِهِ وأيّامِهِ**، الشهير باسم **صحيح البخاري**، ٤/١٥٥٥.

(٣) كان النبيّ يعرف كيف يكافئ صحابته الأكثر استحقاقًا للتقدير فيمنحهم ألقابًا فخريّة. وكان العرب، الذين أعلنوا أنفسهم «أفخَر الأمم»، شديدي التأثّر بالألقاب الفخيمة الطنّانة!

(٤) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/٢٥١. ولقد استذكر المؤرّخ اليوناني ثيوفانيس (Théophane) البأس الأسطوري الذي اتّصف به خالد بن الوليد في **تاريخه** (*Chronographie*)، حيث أطلق عليه اسم شالِدوس (Chaledus)؛ أما كنيته «سيف الله المسلول» (*gladius Dei*) فمعروفة من الإغريق.

المدينة لاستقبال جيشه المنهزم، ممتطيًا دابّة وحاملاً بين يدَيْه عبد الله الصغير، وليد ابن عمّه جعفر بن أبي طالب[١]. يومذاك، استقبل المسلمون الساخطون الجند المندحرين بالصياح والاستهزاء، وراحوا يَحْثون عليهم التراب صارخين: «يا فُرّار، فَرَرْتُم في سبيل الله!»[٢].

لم تُثْني هزيمةُ مؤتةَ مع ذلك محمّدًا عن الإقدام على محاولة فتح ثانٍ وجّهه صوب بلاد الشام. إذ، وبُعيد فتح مكّة (في شهر رمضان من سنةِ ثمانٍ من الهجرة الموافق فيه كانون الثاني/يناير من سنةِ ٦٣٠م)، أمر النبيّ بغزوة تَبوكَ في شهر رَجَب من سنة تِسع (الموافق فيه أيلول/سبتمبر - تشرين الأول/أكتوبر من سنةِ ٦٣٠م)[٣]. إثر نكبة مؤتة، اختار محمّد هذه المرة اعتماد اختراق أكثر حذرًا باتجاه الشمال، لعلمه بأن الإمبراطور البيزنطي هِرَقْل يستعدّ لشنّ هجوم ضدّه[٤]. وإذ أخذ التهديد بكثير من الجِدّ وقرّر استباق هَجْمة العدوّ، توجّه النبيّ نحو تَبوكَ الواقعة شمال غرب شبه الجزيرة العربية، على بُعد ستمائة كيلومتر عن المدينة. وقد قيل إنَّ الجيش الذي جنّده محمّد كان أكبر الجيوش التي حُشِدت في شبه الجزيرة على الإطلاق، إذ عَدّ عشرات الآلاف من الرجال وعشرة آلاف من الجِياد[٥]؛ ولقد تولّى الرسول شخصيًا إمارة الجيش.

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢٥٢/٢.

(٢) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٣٨٢/٢؛ ابن سعد، الطبقات، ١٢٩/٢. دافع النبيّ عن جنده قائلاً: «ليسوا بالفُرّار؛ ولكنهم الكُرّار؛ إن شاء الله!» (انظره في ابن هشام، السّيرة النبوية، ٣٨٢/٢؛ وفي ابن سعد، الطبقات، ١٢٩/٢).

(٣) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٥١٥/٢ - ٥٢٦؛ البَيْهَقي، دلائل، ٢١٣/٥.

(٤) بل يقال إن الجيش البيزنطي تقدّم حتى وصل البَلْقاء في الأردن (انظر: الحلبي، السيرة الحلبية، ١٨٣/٣؛ وهذا عنوان سنعتمده لاحقًا في الإحالة إلى مؤلّف المصدر).

(٥) بحسب الروايات، عَدّ الجيش المتجه صوب تَبوك نحو ثلاثين ألف رجل (المَجْلِسي، بحار الأنوار، ٢١٨/٢١)؛ وفي بعض المصادر، يحكى أن عدد الجند بلغ ستين ألف رجل (السّيرة الحلبيّة، ١٨٥/٣).

كانت هذه آخر غزوات محمّد، وأكثرها كُلْفة ومشقّة. فبغرض تمويل الحملة، استنفر شبه الجزيرة العربية برمّتها[1]. وبذل عُثمان بن عَفّان، صاحب الثروة الطائلة، نفقة هائلة وغير مسبوقة، إذ بلغ قدرُها عشرةَ آلاف دينار، من دون احتساب الجِمال والجِياد[2]. ومكافأة له على سخائه، حظي عثمان، المكنّى بـ «ذي النورَيْن» لكونه صاهر النبيّ مرتَيْن، بدعاء خصّه به شخصيًا إذ قال: «اللهمَّ إرْضَ عن عثمان، فإني عنه راضٍ»[3]. وثمّة حادثة مثيرة للعجب بعض الشيء تظهر محمّدًا مقبِّلاً المال الذي وضعه عثمان في حِرجه وقائلاً: «ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»[4]. هذا، وقد جاد كل الصحابة الآخرين بمساهماتهم في تمويل غَزْوة تَبوك وقدّمت النساء حُليها[5]. ومن بين المانحين الأكثر بذلاً وسخاء، ذكرت المصادر الإسلاميّة أيضًا عبد الرحمن بن عَوْف، فكنّى النبيّ عثمان والأخير بـ «خزائن الله في الأرض»[6].

وقبل توجّهه إلى تَبوكَ، استعمل النبيّ صاحبه محمّد بن مَسْلَمَة الأنصاري[7] على المدينة، وعهِد إلى عليّ، ابن عمّه وصهره، بمهمّة السّهر على عائلته في غيابه. أثار هذا القرار النميمة والسخرية، إذ زعمت

(١) البَيْهقي، دلائل، ٢١٤/٥ - ٢١٥؛ السّيرة الحلبيّة، ١٨٣/٣.

(٢) السّيرة الحلبيّة، ١٨٤/٣.

(٣) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٥١٨/٢؛ وانظر أيضًا: ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٦/٤.

(٤) الحاكم النيسابوري، المُسْتَدْرَك، ١١٠/٣؛ وانظر أيضًا: البيهقي، دلائل، ٢١٥/٥؛ الذّهبي، تاريخ، ٦٢٩/٢.

(٥) السّيرة الحلبيّة، ١٨٤/٣.

(٦) عينه.

(٧) وفي روايات أخرى أن الرسول «استعمل على المدينة، مَخْرجَه إلى تَبوكَ، سِباعَ بن عُرْفُطَة». ابن سعد، الطبقات، ١٦٥/١؛ ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٥١٩/٢؛ البيهقي، دلائل، ٢١٩/٥.

الألسنة الخبيثة أن النبيّ لا يثق بعليّ، لكونه أقصاه عن المسؤوليّات السياسيّة. وتهامس بعض الناس قائلين: «ما منعه أن يخرج به إلاّ أنّه كَرِه صُحْبَتَه»[1] فيما قال غيرهم: «ما خلّفه إلاّ استثقالاً له، وتخفّفًا منه»[2]. وأيًا يكن السبب، كانت تلك المرة الأولى التي لم يرافق فيها عليّ أبا القاسم إلى ساحة القتال[3]. وإذ ألمّ به امتعاض عميق جرّاء ما تناهى إلى مسمعه، مضى عليّ حتى أتى الرسول النازلَ بالجُرْف واستوضحه مُراده مما فعل، فقال: «يا نبيّ الله، زَعَم المنافقون أنّك إنّما خَلّفتني أنك استَثْقَلْتَني وتخفّفْت مني؛ فقال: كذبوا، ولكني خَلَّفْتُك لِما تركتُ ورائي، فارجع فاخْلُفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا [ابن أبي طالب][4] أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلاّ أنّه لا نبي بعدي»[5]. وبعد أن أصغى إلى هذا الإيضاح الدبلوماسي والحازم في آن، قفل عليّ راجعًا إلى المدينة.

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ٢٤/٣؛ وانظر أيضًا: البَلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٣٤٨/٢؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ١٧٥/٤٢.

(٢) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٥١٩/٢؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٣١/٢؛ بل إن الشيعة، من أكثر أنصار عليّ حماسة، يستذكرون هذه السّالفة (المَجْلسي، **بِحار الأنوار**، ٢٠٨/٢١).

(٣) ابن سعد، **الطبقات**، ٢٣/٣.

(٤) وجد مؤلفو السّنة، وبغرض الإثقال على الشيعة بلا شكّ، لذاذة خبيثة في الإشارة إلى عليّ بهذه العبارة بحيث يؤكّدون على أنه ابن مُشْرِك. في الواقع، وعلى الرغم من أنه أحاط ابن أخيه محمّد بمحبة أبويّة، رفض أبو طالب، والد عليّ وعَمّ الرسول، الدخول في الإسلام وقرر الموت على شِرْكِهِ.

(٥) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٥٢٠/٢؛ وانظر أيضًا: ابن أبي شَيْبَة، **المصنّف**، ٣٦٦/٦؛ ابن حَنْبَل، **المسند**، ١٧٩/٥؛ ابن سعد، **الطبقات**، ٢٤/٣؛ ابن ماجَة، **السّنن**، ١/ ٤٥؛ النسائي، **السّنن**، ٤٢٥/٧، ٤٣٠/٧؛ الطبراني، **المعجم الكبير**، ٩٧/١٢؛ ابن حِبّان، **الصحيح**، ٣٦٩/١٥؛ البيهقي، **دلائل**، ٢٢٠/٥؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٣١/٢؛ المتّقي الهندي، **كنز العمال**، ٥٩٩/١١.

تلقّى المسلمون قرار الخروج إلى تَبوكَ بفتور بسبب الذكرى المؤلمة والمذِلّة التي خلّفتها هزيمة مؤتة في أنفسهم وكانت لا تزال تلازمهم. وثمّة سبب آخر لعدم تحمّسهم، كَمَن في حلول موسِم القطاف وإرادتهم في المُقام في أغواطهم وبساتينهم يتفيّؤون ظلال أشجارهم المحمّلة ثمارًا[1]. وفي الواقع، كانت الفترة التي اختارها محمد لشنّ المعركة عسيرة بشكل خاص، يغلِب عليها القَيْظ والجَدْب، فأنزل الله آية للمناسبة ليذكّر المسلمين المتحفّظين والمتردّدين أن الحرّ الذي يخشَوْنه لا يُعَدّ شيئًا إزاء نار جهنّم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٨١].

من ناحية ثانية، طالما تعلّق الأمر بقتال القبائل العربيّة المحليّة العديمة الاكتراث بالإسلام أو بشنّ هذه الغَزْوة أو تلك، كان المسلمون يعرفون أنَّ لديهم ما يتوسّلونه للنصر. لكن إزاء قدرة الجيش البيزنطي اللوجستيّة على التحكّم بشؤون الميدان، شعر جنود النبيّ أنها تفوق قدرتهم فَخَشَوْا هزيمة جديدة تُنْزَل بهم. عبثًا تكلموا في الأمر مع أبي القاسم الذي عاندهم متَشبّثًا بموقفه وأسدى أوامره بإعداد الجيش للمسير. بل إنه ذهب هذه المرة حدّ الإفصاح عن مقصد هذه الحملة وهو الذي اعتاد، لشدّة ارتيابه، الإبقاء على خُططه طَيّ الكتمان[2].

حتى الأشهر الأخيرة من حياته، أبقى محمّد إذًا على سياسة احترابيّة بامتياز[3]، بحيث إنه لم يكن يمنح أيّة استراحة لإخوته في الدين الذين

(١) البيهقي، دلائل، ٢١٣/٥.

(٢) عينه.

(٣) لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن هذه السياسة «العدوانيّة» نوعًا ما كانت تجد لها ما=

وجدوا أنفسهم متورّطين في نوع من الحرب المزمنة، وبخاصة أن الله قد قال لهم في القرآن ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ...﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٦]. كان لهذه السياسة في الواقع جانبها العملي المنفعي الذي يتيح مَلْءَ الخزائن بأموال الغنائم، والذي يحافظ على التماسك الداخلي للمسلمين كلّما اضطُروا إلى مواجهة عدوّ خارجي.

في البداية، ألهبَت الانتصارات المتلاحقة حماسَة المسلمين الذين رأوْا في أنفسهم جنود الله الذين يستحيل على أحد قهرهم. لكن هزيمة مؤتة أمام البيزنطيّين زعزعت هذه القناعة الراسخة. وبغرض تحفيز جنده وطاعة الأمر الذي دعاه إليه الله قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾[١]، انصرف محمّد إلى اجتذاب جنوده عن طريق ترغيبهم بما ينتظرهم من غنائم مغرية، إذ قال لهم: «أُغزوا تَبوكَ تغنَموا بناتَ الأصفرِ ونساءَ الرّوم»[٢]. فإذا بأحد صحابته وهو أبو وَهَب، الجَدّ بن قَيْس يقول له: «يا رسولَ الله، أَوَ تأذن لي ولا تَفْتِنّي؟ فوالله لقد عَرَف قومي أنه ما من رجل بأشدّ عُجْبًا بالنساء مني، وإنّي أخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفرِ أن لا أَصْبِرَ [عنهن[*]]»[٣]. وإذ تفهَّم حاله، أعرض عنه

=يؤازرها في استراتيجيّات من التحالفات والتسويات والتنازلات، ما يؤشّر إلى تمتّع محمّد بعملانيّة سياسيّة متبحّرة.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٢) انظر كلاً من: **تفسير المجاهد**، ٢٨١/١؛ **تفسير الطبري**، ٢٨٧/١٤؛ الطبراني، **المعجم الكبير**، ٦٣/١١؛ **تفسير أبي حيان**، ٤٣١/٥؛ السُّيوطي، **الدُّرّ المنثور**، ٤/ ٢١٣.

(*) ورد هذا الضمير في الطبري، **تاريخ الأمم والملوك** (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٨، الجزء الثاني، ص١٨١). وفي الواقدي، **كتاب المغازي**، الجزء الثالث، ص٩٩٢. (م.)

(٣) البَيْهَقي، **دلائل**، ٢١٣/٥.

الرسول وأذِن له بعدم المشاركة في الحملة المرتَقَبة[1]. ومن جهته، ذكر القرآن هذه السالفة في الآية ٤٩ من سورة التَّوْبَة: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي...﴾.

كان معارضو محمّد، الذين تنعتهم المصادر الإسلامية بلفظ «المنافقون»، مبتهجين لفكرة أن يَرَوْا النبيّ يُمْنَى بهزيمة جديدة أمام البيزنطيّين فراحوا يقولون لـ «جنود الله»، «إرجافًا وترهيبًا»[*]: «أَتحسَبون جِلاد بني الأصفر كقتالِ العربِ بعضهم بعضًا!»[2] وعندما بلغت مقالتُهم التهكميّة مَسْمَع الرسول، استدعى أصحابها الذين وجدوا أنفسهم ملزمين بتقديم اعتذاراتهم، متذرّعين بأن الأمر لا يعدو كونه مزاحًا لا يقصِدون به أذىً، فإذا بآية قرآنيّة تنزل لتنبّه الساخرين: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٦٥][3].

الذهاب إلى قتال بيزنطة؟ يا له من قرار متهوِّر! هذا ما كانت تعتقده الغالبيّة. وما خلا المموِّلين الأسخياء من أمثال عُثمان وابن عَوْف، اللذين كانا يترقّبان بلا شك عوائد استثماراتهما[4]، لم يستطع المسلمون أخذ قرار السير إلى تَبوكَ على محمَل الجدّ. غير أن لا التحفظات المكتومَة ولا السخرية التي كانت بالكاد مستترة، تمكّنت من ثَني محمد عما صمَّم عليه: سيزحف جيش المسلمين إلى تَبوكَ.

---

(١) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٥١٦/٢؛ وتفسير **الطَّبَري**، ٢٨٧/١٤.

(*) اشتَقّت المترجمة هذه العبارة من ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٥٢٥/٢.

(٢) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٥٢٥/٢؛ وانظر أيضًا: الذهبي، **تاريخ**، ٦٤٢/٢؛ **السّيرة الحلبية**، ١٠٢/٣.

(٣) **تفسير ابن كثير**، ١٧١/٤.

(٤) جنى كل من عُثمان وابن عوف الكثير من المال نتيجة الحملات العسكرية التي أمر بها محمّد (انظر: الواقدي، **كتاب المغازي**، ٥٢٣/٢).

كان الخروج يوم الخميس[1]. وسرعان ما تأكّدت مخاوف المسلمين، إذ كانت غَزْوة تَبوكَ منهكة وقاسية لدرجة أُلصقت بها مُذ ذاك الحين لفظة «العُسْرَة» في القرآن: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ...﴾[2]. ولشدّة الحَرّ، لم يستهِل الجيش مسيره إلاّ مع هبوط الليل. ولقد استبدّ الظمأ بالجند «حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكْراشَها ويشربون ماءَها»[3]، فانتهى المسلمون إلى عِصيان أوامر النبيّ. فعندما وقعت أبصارهم في الطريق على بئر كان قد حظّر عليهم المساس بها خِشية نفاذ مائها، جسر نفر من المنافقين - مرة أخرى - على تحدّي تنبيهه وراحوا يَسْتَقون ما فيها ويرتوون بلا وازع، حتى أوشك ماؤها على النضوب. تقدَّم النبيّ إذ ذاك وشرب هو الآخر حُسْوَةً سرعان ما بَصَقها، فإذا بالنبع يَشِلّ وَشْلاً حتى فاض بالرّوايا[4]. وتروي كتب التراث الإسلامي أنَّ النبيّ، وبقصد إنقاذ المسلمين من العطش، اجْتَرَح معجزات أخرى: فبعد أن فرغ من إحدى صلواته، هطل المطر دُفاقًا[5]. وثمّة فصل آخر يروي كيف أنّ محمّدًا، وبينما كان الجوع هو الآخر يعصِف بمعسكر المسلمين[6]، أتى بمعجزة تذكّر بتلك التي أتى بها

---

(١) البيهقي، **دلائل**، ٢١٩/٥؛ (وابن سعد، **الطبقات**، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٧، المجلد الثاني، ص١٦٧ م.).

(٢) سورة التّوبة، الآية: ١١٧.

(٣) ابن سعد، **الطبقات**، ١٦٧/٢؛ وانظر أيضًا: البَيْهَقي، **دلائل**، ٢٢٩/٥؛ **السّيرة الحلبيّة**، ١٨٩/٣.

(٤) البَيْهَقي، **دلائل**، ٢٣٦/٥؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٣٧/٢؛ **السّيرة الحلبيّة**، ٣/ ١٩٣.

(٥) البَيْهقي، **دلائل**، ٢٣٠/٥ - ٢٣١.

(٦) **صحيح مُسْلِم** للإمام أبي الحسين مُسْلِم بن الحجّاج القُشَيْرِيّ النَّيسابوريّ (٢٠٤ - ٢٦١هـ)، بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ٤٢/١.

يسوع يوم عَمَدَ إلى تكثير خمسة أرغفة لإطعام الجموع[١]. وبالإضافة إلى ذلك كله، كان المسير إلى تَبوكَ شاقًا لدرجة لم يَقْوَ معها الرجال ولا النبيّ هو نفسه، على الاستيقاظ لأداء صلاة الفجر، لشدّة ما أضناهم التعب![٢].

لكن، عندما وصل جيش المسلمين إلى تَبوكَ، لم يجد البيزنطيين الذين، حسبما قيل، لاذوا بالفرار. ولكي يثبت أنه لا يخشى هجومًا محتملًا، بقي جيش النبيّ في تَبوك نحو عشرين يومًا ولم يطوِ الخيام، في حين لا ينبغي لأي جيش الإقامة في ساحة المعركة أكثر من ثلاثة أيام. لم تحصل المواجهة إذًا. وإثر انتصار محمّد بلا قتال في تَبوكَ[٣]، لاذت قبائل عربية متديّنة بالمسيحيّة ومستقرّة في المنطقة بالفرار بلا أدنى مقاومة، مخلّفة ورائها مقتنياتها وأملاكها وأراضيها، فيما جاء النبيَّ صغارُ الملوك والأمراء الذين يعيشون في بلاد الشام على الحدود مع شبه الجزيرة العربيّة، ودفعوا له الجزية لقاء حَقْن دمائهم[٤].

إذ ذاك، فكّر النبيّ باستكمال اختراقه باتجاه بلاد الشام فيطارد البيزنطيّين حتى يصلَ عِقْرَ دارهم. لكن ثمّة مَنْ نصحه بالعدول عن الأمر لأن فيه، حسبما قيل له، ما قد «يُفزِع» هِرَقْل. ومن جهته، أوصاه صاحبه

---

(١) البَيْهَقي، دلائل، ٢٢٩/٥؛ السّيرة الحلبيّة، ١٩٨/٣.

(٢) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٠٣/٣ - ٤٠٤؛ السّيرة الحلبية، ١٩٣/٣.

(٣) في معرض حديثه عن تَبوك، يقول ماكسيم رودِنسون إنها كانت «فشلاً جزئيًا»؛ انظره في كتابه محمّد (Maxime Rodinson, *Mahomet*, Paris, Le Seuil, 1968; rééd. 1994, p. 336).

(٤) نذكر من بين هؤلاء اسم صاحب مدينة أَيْلة الواقعة على ضفاف خليج العَقَبَة، يُحَنَّة بن رُؤْبَة الذي رفض دخول الإسلام (ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٥٢٥/٢). ولقد أقدم سكان ثلاث نواحي يهودية مجاورة على الفعل نفسه (البَيْهَقي، دلائل، ٢٤٧/٥ - ٢٤٩؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٤١/٢٠).

عمر بن الخطّاب بالرجوع إلى المدينة[1]، إذ كان دخول بلاد الشام في نظره، يشكّل مخاطرة كبيرة، خاصة وأن الأمر لا يتعلّق بأصقاع صحراوية كتلك التي اعتاد الجنود المسلمون الخوض فيها. وثمّة من ذكّر محمّدًا بالعدد المهول للجيش البيزنطي وقوامه مئتين وخمسين ألف مقاتل... لكن للسائل أن يتساءل: ألم يكن المسلمون يعلمون، حتى قبل المسير إلى تَبوكَ، أنهم سيقاتلون واحدًا من أقوى جيوش العالم؟

إن غزوة تَبوك والروايات المتضاربة التي تقدّمها المصادر الإسلامية في شأن خاتمتها، تطرح الكثير من التساؤلات حول أهدافها الحقيقيّة. فالتفاصيل القليلة التي يزوّدنا الواقِديّ بها، توحي بأن غزوة تَبوك، التي لم تشهد أية معركة، كانت أقرب إلى الرحلة التجاريّة منها إلى الحملة العسكريّة. إذ يؤكد صاحب **المغازي** بدقّة لافتة، أن صحابة النبي قاموا في تَبوكَ بعمليّات تجاريّة، مُوردًا شهادة الصحابي زيد بن ثابت، عندما قال: «غَزَوْنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تَبوكَ، فكنّا نشتري ونبيع، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرانا ولا ينهانا»[2]. وبالنظر إلى أن تَبوك كانت محورًا تجاريًا مهمًّا، نطرح السؤال: هل كان محمّد، وعَقِب الفشل الذريع الذي انتهت إليه الحرب العسكريّة على مُؤْتَة، يعتزم إعلان حرب اقتصاديّة على بيزنطة؟

انتهت غزوة تَبوك بانعطافة صغيرة في دُومَة الجَنْدَل (الواقعة حاليًا في شمال المملكة العربيّة السعوديّة)[3]، وقد كانت نقطة تقاطع تجاريّة واقتصاديّة حيث اختار الكثير من العرب الاستقرار، وحيث سبق لمحمّد

(١) الواقِدي، **كتاب المغازي**، ٣/١٠١٩؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٢/٣٧؛ **السّيرة الحلبيّة**، ٣/٢٠٠.

(٢) الواقِدي، **كتاب المغازي**، ٣/١٠٣٥.

(٣) تبعد تَبوك عن دُوْمَة الجَنْدَل ثلاث مئة وثلاثين كيلومترًا.

أن دفع بسرايا[1]. وقبل طيّ الخِيام في تَبوك، استهدف النبيّ إذًا، مرة جديدة، دُوْمَة الجَنْدَل باعثًا إليها خالد بن الوليد على رأس سريّة من أربعمئة فارس، لاختطاف أُكَيْدَر بن عبد الملك الكِنْدِي، وقد كان على هذه المدينة ملكًا عربيًا نصرانيًا طائل الثراء. نقلت المصادر الإسلاميّة رواية هذا الاختطاف بالتفصيل وفيها أن أُكَيْدَر كان واقفًا مع زوجته في مِصْطَبَة حصنه في ليلة يُضيئُها البِزْرِقان أي البدر، عندما تناهى إلى مسمعه صوت طريدة. فقال لزوجته: «سأخرج للصيد». وما أن خرج من حصنه حتى راح خالد بن الوليد وفيلقه اللذين كانا يترصَّدانه، بملاحقته. فإذا بالصّياد يتحوّل إلى مَصيد؛ وخلال الهجوم الذي اختطف فيه، قُتِل أخوه حسّان. كان أُكَيْدَر يلتحف «قَبَاءً» أي رداء مدبّجًا بخيوط الذهب، فاستلبه خالد بن الوليد، «سيف الله المسلول»، على الفور[2]. وفي ختام

---

(١) قبل ثلاث سنوات، وتحديدًا في شهر شعبان من سنة سِتّ من الهجرة، بعث النبيّ صاحبه عبد الرحمن بن عوف على رأس سرايا إلى دُوْمَة الجَنْدَل، بقصد دعوة ساكنيها إلى اعتناق الإسلام. (الواقِدي، **كتاب المغازي**، ٥٦١/٢؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٤/٢ - ٥). وفي اللاحق من الزمن، علم الرسول أن أعراب دُوْمَة الجَنْدَل ينوون الاقتراب من المدينة، فقرر أن يقصِدها بنفسه في شهر ربيع الأول من سنة تسع من الهجرة (يوافق فيه شهر حزيران/يونيو من سنة ٦٣٠م) على رأس ألف من المسلمين، لكنه عندما وصلها لم يجد بها أحدًا، ذلك أن سكّانها لاذوا بالفرار، ما أن علموا بخبر قدومه (الواقِدي، **كتاب المغازي**، ٤٠٣/١؛ ابن سعد، **الطبقات**، ٦٢/٢). وفي **السّيرة النبويّة**، يؤكد ابن هشام، أن النبيّ، «في شهر ربيع الأول سنةَ خمس» (يوافق فيه شهر تموز/يوليو من العام ٦٢٦م)، قاد غَزْوة عسكريّة غريبة إلى دُوْمَة الجَنْدَل لكنه «رجع قبل أن يصل إليها» (ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٢١٣/٢). ومن جهته، يفيد ابن كثير أن الرسول وصل إلى دُوْمَة الجَنْدَل في السنة نفسها ليلاحظ أن سكان المدينة قد لاذوا بالفرار (ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ١٧٧/٣ - ١٧٨).

(٢) الواقِدي، **كتاب المغازي**، ١٠٢٦/٣؛ ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٥٢٦/٢؛ الطَّبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٨٥/٢. إنه لمن الغرابة بمكان ظهور هذا القَبَاء أو الرداء=

هذه المطاردة، قَدِم خالد بالرهينة على الرسول؛ فإذا بالمسلمين الحاضرين يُفْتَنون بثياب المُلَيْك الباذخة وحُليه. وإذ رآهم على هذه الحال، قال لهم أبو القاسم: «أتعجبون مِنْ هذا! فوالذي نفس محمّد بيده لمناديل سعد بن مُعاذ في الجنّة أحسن من هذا![1]» ولكي ينجوَ بحياته، سارع أُكَيْدَر إلى دفع جزية عظيمة، وهي الضريبة المفروضة على أهل الكتاب، لقاء حماية المسلمين لعشيرته. ولقد سبق للنبيّ أن مارس هذا النوع من المقايضات خلال وقعة بَدْر الكبرى، عندما أطلق سراح سجناء الحرب مقابل دفع نقدي. غير أن أُكَيْدَر لم يكن حقيقة سجين حرب، بل ضحيّة خطف. ولأسباب مفهومة نوعًا ما، أبى الدخول في الإسلام، إذ كيف له أن يؤمن بدين قطاع طرق يختطفونه من أمام منزله ليلاً، يقتلون أخاه، ويُلزمونه بدفع فِدْيَة؟

من الممكن اعتبار غزوة تَبوكَ كحدث رئيسي شهدته الأشهر الأخيرة من حياة النبيّ، مع أنها لم تكن ملحمة بل، على العكس من ذلك، معركة هجينة، توَّجها فعلٌ يدخل في باب قَطْع السّابلة. لكن، إن بقيت هذه الغزوة في الحوليّات، فبسبب الحدث الأكبر الذي جرى في طريق العودة إلى المدينة حيث، وبينما كان يتسَلَّق شِعْبًا، وقع النبيّ ضحيّة

=المدبَّج بالذهب، في حديث قال فيه مسلم إنه كان «هدية» قدّمها أُكَيْدَر للرسول (صحيح مسلِم، ١٤٢/٦)!

(١) البخاري، ٩٢٢/٢؛ وانظر أيضًا: **صحيح مسلم**، ١٥/٧؛ السّهيلي، **الرَّوْض الأُنُف**، ٣٩٧/٧. أطلق لقب «السَّعْدان» على كل من سعد بن مُعاذ - وقد كان صاحب النبي، ومنتسبًا إلى قبيلة أَوْس وحليفَه الأساسي بين أنصار المدينة - وسعد بن عُبادة، سيّد الخَزْرَج. شارك سعد بن مُعاذ في المعارك الأساسيّة التي خاضها المسلمون، ورُمي بسهم يوم الخندق فمات من أثر جرحه. وتقول الأسطورة الإسلاميّة: «اهتزّ عرش الرحمن لموت سعد بن مُعاذ!».

محاولة اغتيال، سجّلت كتب التراث الإسلامي ذِكراها تحت اسم «مؤامرة العَقَبَة».

الفصل الثاني

مؤامرة العَقَبَة[1]

تستحضِر المصادر السّنيّة والشيعيّة، في تقاطع كبير بينها، محاولَة الاغتيال التي استهدفت الرسول في العَقَبَة[2]؛ بل إن التفسيرات القرآنيّة الرئيسيّة هي نفسها تحيل إلى هذه المؤامرة في شرح الآية ٧٤ من سورة «التوبة»[3]: ﴿... وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا...﴾[4]. وقعت محاولة الاغتيال

(١) لا تزوّدنا المصادر بمعلومات دقيقة في شأن الموقع الجغرافي المحدّد لهذا المكان؛ ومن جهته، فإن لفظ «عَقَبَة» اسم نوع يعني «مَرقىً صَعْبًا من الجبال» و«الطريق في أعلاها» و«ممرًا جبليًا» و«شِعْبًا» و«فجًا»، ويدل مجازًا على «المجاز الصعب»؛ وبناء عليه، يمكن توسّل اللفظ للدلالة على أماكن عدة. من جهتنا، نعتقد أن المقصود هنا بلا شكّ عَقَبَة الخُرَيْطَة الواقعة إلى الشمال من المملكة العربيّة السعوديّة في حدودها الحاليّة (على بعد مئة كيلومتر تقريبًا من جنوب شرق تَبوك). ولا يزال يُطلق على هذا المكان المعروف بصعوبته الكبيرة، مُسَمّى «عَقَبَة الموت».

(٢) بالنسبة إلى المصادر السّنيّة، يسعنا ذكر: الواقِدي، كتاب المغازي، ١٠٤٢/٣ - ١٠٤٥؛ ابن حَنْبَل، المُسْنَد، ٢١٠/٣٩؛ ابن قُتَيْبَة، المعارف، ٣٤٣/١؛ البَيْهَقي، دلائل، ٢٥٦/٥ - ٢٥٩؛ البَيْهَقي، السُّنَن، ٣٣/٩؛ السُّيوطي، جامع الحديث، ١١/ ٩١٩٢؛ السّيرة الحلبيّة، ٢٠١/٣.
أما بالنسبة إلى المصادر الشيعيّة، فنحيل تحديدًا إلى المَجْلسي، بحار الأنوار، ٢١/ ١٨٥ - ٢٥٢.

(٣) تفسير الزَّمَخْشري، ٢٩١/٢ - ٢٩٢؛ تفسير البَيْضَاوي، ٨٩/٣؛ تفسير أبي حيّان، ٥/ ٤٦٤؛ تفسير ابن كثير، ١٨١/٤؛ تفسير ابن عاشور، ٢٧٠/١٠.

(٤) سورة التوبَة، الآية: ٧٤.

هذه عند عودة محمّد إلى المدينة، وقد امتطى ناقة وسار في مسلك شديد الانحدار، في حين بقيت القافلة تتقدّم في طريق محاذية للنهر. كانت خطّة المتآمرين تقضي باغتنام فرصة مرور الرسول من مكان وعِر ومُنحدِر لافتعال حادثة.

كان الرسول على علم بهذه المؤامرة، وطلب من عمّارَ بن ياسِر وحُذَيْفَة بن اليَمان، مواكبته في حراسة مشدّدة(١). أمسك عمّار بزمام الناقة، وتولّى حُذَيْفَة سَوْقَها. كان الليل مُدْلَهِمًّا عندما قام رجال مُتَلثّمون فجأة بقذف أَخْفاف الراحلة بالحجارة، بحيث تفقد توازنها(٢).

---

(١) يقول المَجْلِسي إن الملاك جبريل أتى النبيّ بالخبر (المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢١/ ٢٤٧)؛ أما ابن كثير فيقول إن الله هو مَنْ أخطر رسوله بنيّة المنافقين (**تفسير ابن كثير**، ١٨١/٤).

(٢) **السّيرة الحلبية**، ٢٠١/٣. ولقد أَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ في **دلائِلِ النُّبوة** (٢٥٦/٥-٢٥٩)، عَنْ عُرْوَةَ قالَ: «رَجَعَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ قافِلاً مِن تَبُوكَ إلى المَدِينَةِ، حَتّى إذا كانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ مَكَرَ بِرَسُولِ اللّهِ ﷺ ناسٌ مِن أصْحابِهِ فَتَآمَرُوا أنْ يَطْرَحُوهُ مِن عَقَبَةٍ في الطَّرِيقِ فَلَمّا بَلَغُوا العَقَبَةَ أرادُوا أنْ يَسْلُكُوها مَعَهُ، فَلَمّا غَشِيَهم رَسُولُ اللّهِ ﷺ أُخْبِرَ خَبَرَهم فَقالَ: مَن شاءَ مِنكم أنْ يَأْخُذَ بَطْنَ الوادِي فَإنَّهُ أوْسَعُ لَكم. وأخَذَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ العَقَبَةَ، وأخَذَ النّاسُ بِبَطْنِ الوادِي، إلاّ النَّفَرَ الَّذِينَ مَكَرُوا بِرَسُولِ اللّهِ ﷺ؛ لَمّا سَمِعُوا ذَلِكَ اسْتَعَدُّوا وتَلَثَّمُوا، وقَدْ هَمُّوا بِأمْرٍ عَظِيمٍ، وأمَرَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمانِ وعَمّارَ بْنَ ياسِرٍ فَمَشَيا مَعَهُ مَشْيًا، فَأمَرَ عَمّارًا أنْ يَأْخُذَ بِزِمامِ النّاقَةِ، وأمَرَ حُذَيْفَةَ يَسُوقُها، فَبَيْنَما هم يَسِيرُونَ إذْ سَمِعُوا وكْزَةَ القَوْمِ مِن ورائِهِمْ قَدْ غَشُوهُ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وأمَرَ حُذَيْفَةَ أنْ يَرُدَّهُمْ، وأبْصَرَ حُذَيْفَةُ غَضَبَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَرَجَعَ ومَعَهُ مِحْجَنٌ، فاسْتَقْبَلَ وُجُوهَ رَواحِلِهِمْ فَضَرَبَها ضَرْبًا بِالمِحْجَنِ، وأبْصَرَ القَوْمَ وهم مُتَلَثِّمُونَ لا يَشْعُرُ وإنَّما ذَلِكَ فِعْلُ المُسافِرِ فَرَعَبَهُمُ اللَّهُ حِينَ أبْصَرُوا حُذَيْفَةَ وظَنُّوا أنَّ مَكْرَهم قَدْ ظُهِرَ عَلَيْهِ، فَأسْرَعُوا حَتّى خالَطُوا النّاسَ، وأقْبَلَ حُذَيْفَةُ حَتّى أدْرَكَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ، فَلَمّا أدْرَكَهُ قالَ: اضْرِبِ الرّاحِلَةَ يا حُذَيْفَةُ وامْشِ أنْتَ يا عَمّارُ. فَأسْرَعُوا حَتّى اسْتَوى بِأعْلاها فَخَرَجُوا مِنَ العَقَبَةِ يَنْتَظِرُونَ النّاسَ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحُذَيْفَةَ: هَلْ عَرَفْتَ يا حُذَيْفَةُ مَن هَؤُلاءِ الرَّهْطُ أوْ أحَدًا مِنهُمْ؟ قالَ حُذَيْفَةُ: عَرَفْتُ راحِلَةَ فُلانٍ وفُلانٍ. وقالَ: كانَتْ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وغَشِيتُهم وهم مُتَلَثِّمُونَ. فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ عَلِمْتُمْ ما كانَ شَأْنُهم=

نجح حُذَيْفَة وعمّار في السيطرة على البهيمة واجتناب الأسوأ، وخرج النبيّ من الحادثة سالمًا معافى، لكنه أضاع مَتاعًا سقط عن مطيّته («السَّوْط والحَبْل وأشباههما»(*)). انصرف حُذَيْفَة وعمّار إلى ملاحقة المعتدين، وجعلا يضربان «وجوه رواحلهم»(**) بمِحْجَنَيْهما، غير أن هؤلاء فرّوا وسارعوا إلى التخالط بما تبقّى من السائرين في رِكاب القافلة. وأثناء هروب الرَّكْب، سقط بعض المتآمرين عن جيادهم، «ومنهم من انكسرت رجله، ومنهم جنبه، واشتدت لذلك أوجاعهم، فلما جبرت واندَمَلَتْ بقيت عليهم آثار الكسر إلى أن ماتوا»[1].

من كان إذًا هؤلاء المتآمرون؟ تزوّدنا المصادر الإسلامية بأجوبة مختلفة، فأعداء محمّد كثيرون... وثمّة روايات سُنيّة توحي بأن منفّذي المؤامرة ليسوا من الأعداء المعلَنين للرسول، بل هم منافقون من صحابته[2]، في وقت تحدّثت روايات أخرى عن «نفر من أصحاب الرسول»[3]. غموض كبير لَفّ هوية هؤلاء المتآمرين الذين خَفيت أسماؤهم ولم يُستَطع تحديد عددهم (لعلهم عَدُّوا خمسة عشر شخصًا؟)[4]. مع ذلك، يزوّدنا بعض المؤلفين السُّنة بأسماء كل من عبد

=وما أرادُوا؟ قالُوا: لا واللّهِ يا رَسُولَ اللّهِ. قالَ: فَإنَّهم مَكَرُوا لِيَسِيرُوا مَعِي حَتّى إذا طَلَعْتُ في العَقَبَةِ طَرَحُونِي مِنها».

(*) الواقِدي، كتاب المغازي، ١٠٤٣/٣. (م.)

(**) عينه، ١٠٤٢/٣. (م.)

(١) المَجْلسي، بحار الأنوار، ٢٣١/٢ - ٢٣٢.

(٢) الواقِدي، كتاب المغازي، ١٠٤٣/٣.

(٣) البَيْهقي، دلائل، ٢٥٦/٥.

(٤) تقول المصادر إن عدد المهاجمين تراوح بين اثني وخمسة عشر رجلًا، بحسب الروايات؛ فعلى سبيل المثال، يتحدّث ابن حَنْبَل عن «رَهْطٍ» محجمًا عن تزويدنا بأيّة معلومة دقيقة أخرى (ابن حَنْبَل، المُسند، ٢١٠/٣٩).

الله بن أبي سَلُول وسعد بن أبي سَرْح[1]، في حين يعمِد المؤلفون الشّيعة إلى اتهام صاحبَيّ النبيّ المقرَّبَيْن أبا بكر وعمر[2]. وفي تفسيره القرآني، عزا أبو حيّان المؤامرة إلى قريشيِّين لم يَرْتَضوا فتح مكّة (وقد وقع، من باب التذكير، قبل غزوة تَبوك بوقت قليل) فأرادوا انتقامًا القضاء على الرجل الذي أهانهم وأذلَّهم[3]. في المقابل، يؤكد الواقِدي أنه لا يوجد قريشي واحد في عصبة المتآمرين.

على الرغم من اللُّبْس المحيط بهُويّة المتآمرين، ثمّة معلومة متّفق عليها تقريبًا بالإجماع: وحدهما حُذَيْفَة وعمّار، اللذان كانا شاهدا عيان على الحادث، علموا مَنْ هم، إما لأنهما، أثناء ملاحقتهما المعتدين، تعرّفا على رواحلهم، إما لأن النبيّ سَرَّ لهما بأسمائهم. وبحسب أغلبيّة المصادر، فإن محمّدًا كشف لحُذَيْفَةَ، نَجِيَّهُ الملقّب بـ «صاحب السِرّ»[4]، هويّة المتآمرين[5] وسأله مع ذلك عدم البوح بها: «فَسَمّاهم لَهُما وقالَ: اكْتُماهم». واللافت للانتباه هو أنّ الرسول لم يُسِرّ بأسماء المعتدين لا إلى أبي بكر ولا إلى عمر المفترض أنهما أقرب صحابته إليه...

صبيحة الاعتداء، طرح أُسَيْد بن الحُضَيْر على محمّد السؤال التالي:

---

(١) ابن قُتَيْبَة، كتاب المعارف وأخبار الخَلاَيق، ٣٤٣/١.

(٢) ينقل المَجْلسي شهادة حُذَيْفَة الذي أفاد بأن عدد المتآمرين بلغ أربعة عشر رجلاً من أكثر صحابة محمد اعتبارًا وهيبة، وتحديدًا أبو بكر وعمر (المَجْلسي، بحار الأنوار، ٢٢٣/٢١).

(٣) فيما يلي أسماء هؤلاء كما أوردها أبو حيّان: عبد الله بن أُبيّ، عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، تُؤَيْمَةَ بن أُبَيْرِق، الجلاّس بن سويد، أبو عامر بن نعمان وأبو الأحوص (تفسير أبي حيّان، ٤٦٤/٥).

(٤) صحيح البخاري، ١٣٦٨/٣.

(٥) البَيْهقي، دلائل، ٢٥٧/٥ - ٢٥٩.

«يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي، فقد كان أسهل من العَقَبَة؟ قال: يا أبا يحيى، أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما اهتَمّوا به؟ قالوا: نتبعه في العَقَبَة، فإذا أظلم الليل قطعوا أنساع راحلتي ونَخَسوها حتى يطرحوني من راحلتي»(*). إذ ذاك، حثَّ أُسَيْدٌ النبيّ على الانتقام وعلى «ضرب عنق» المسؤولين عن المكيدة، غير أن محمّدًا أجابه: «إنّي أكره أن يقول الناسُ إن محمّدًا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه»(**). وعندما قال له أُسَيْد مستهجِنًا: «يا رسول الله، فهؤلاء ليسوا بأصحاب!»، أجاب النبي، وقد أذعن للأمر، قائلاً: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلاَّ الله؟ [...] أليس يُظهرون أنّي رسول الله؟ [...] فقد نُهِيتُ عن قَتْل أولئك»[1].

في الواقع، تتّفق كل المصادر على القول إن النبيّ امتنع عن الانتقام من المعتدين. فما كان السبب يا ترى؟ مما لا شك فيه أنَّ أبا القاسم وجد نفسه في وضع دقيق للغاية: ذلك أن الضالعين في محاولة الاغتيال تلك كانوا إما ذوي نفوذ كبير بحيث لا يمكنه مواجهتهم، إما مُقَرَّبين للغاية والكشف عن هويتهم في تلك الحالة يُلحق بالرسول ضررًا معنويًا كبيرًا وينتقص من هيبته أمام القبائل العربيّة. مع ذلك، تحمِلنا كل المعطيات على الاعتقاد أن منفّذي الاعتداء هم صحابته؛ ففي صحيحه، ينقل مسلِم حديثًا مثيرًا للاضطراب نطق به النبيّ، إذ قال لحُذَيْفَةَ: «فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا، فِيهِمْ ثَمَانِيَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ

(*) الواقدي، كتاب المغازي، ٣/١٠٤٣. (م.)

(**) الواقدي، عينه، ٣/١٠٤٤. (م.)

(١) الواقدي، كتاب المغازي، ٣/١٠٤٤؛ وانظر أيضًا: البَيْهَقي، دلائل، ٥/٢٥٧. وتجدر الإشارة إلى أن ردّ فعل محمّد يرِد كما هو لدى المصنّفين الشيعة أيضًا (المَجْلسي، بحار الأنوار، ٢١/٢٣٤).

فِي سَمِّ الخِيَاطِ»[1]. وفي شرحه، ربَط النَّوَويّ هذا الحديث بمحاولة اغتيال تعرّض لها النبيّ، من دون أن يذكر بصراحة ووضوح مؤامرة العَقَبَة[2].

وثَمّة تقارب آخر بين المصادر الإسلاميّة يضاعف الاضطراب، ويتمثّل في أن محمّدًا لم يعاقب بالتأكيد مهاجميه، لكنه قال مع ذلك لحُذَيْفَةَ، «صاحب السِّرّ»، إنه يحظّر أداء صلاة الموتى «على فلان، وفلان، وفلان»[3]، وذلك تماشيًا مع الآية القرآنية: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ...﴾[4]. لكن عمر كان يعرف أن حُذَيْفَةَ عالم بأسماء المتآمرين؛ لذا فإنه كان، إن أُخْبِر بوفاة أحدهم ممَّن ظَنَّ تورّطه في مؤامرة العَقَبة ممكنًا، يأخذ بيد حُذَيْفَةَ ليرى ما إذا كان يرتضي الذهاب لحضور جنازته والصلاة عليه[5]. وفي هذا الشأن، رواية تستحق منا عرضَها، وهي تلك التي دارت أحداثُها في عهد الخليفة أبي بكر، ورواها حُذَيَفَة فقال:

مَرّ بي عمر بن الخطاب وأنا جالس في المسجد، فقال: يا حذيفة إنَّ فلانًا قد مات فأشهده قال ثم مضى حتى إذا كاد يخرج من المسجد التفت إليّ فرآني وأنا جالس فعرف فرجع إليّ فقال يا حذيفة أنشدك الله أمن القوم أنا قلت اللهم لا ولن أبرئ أحدًا بعدك قال فرأيت عيني عمر (يعني أنه بكى)[6].

---

(١) صحيح مُسْلِم، ص١٢٠٣ (٥٠ - كتاب صفات المنافقين/ح٢٧٧٩).
(٢) النَّوَويّ، شرح صحيح مسلِم، ١٢٥/١٧.
(٣) الواقِدي، كتاب المغازي، ١٠٤٥/٣.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٨٤.
(٥) الواقِدي، كتاب المغازي، ١٠٤٥/٣.
(٦) ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٢٧٦/٢؛ ولنشِر إلى أننا في المعجم الكبير للطبراني، نجد أن هذا الجواب أبكى عمرًا؛ غير أنّنا لا نجد وصفًا لردّ فعل عمر هذا، لا في سِيَر=

لماذا طرح عمر هذا النوع من الأسئلة؟ أكانت تساوره شكوك في شأن ولائه الشخصيّ للرسول؟

وبهذا تُدْرِج مؤامرة العَقَبَة نهايةَ مسيرة محمّد في تناظر مع بداية رسالته النبويّة: ففي أول التنزيل، اضطهد القريشيون في مكّة محمّدًا وسخِروا منه؛ بل إنهم ذهبوا حَدّ محاولة قتله، ما دفعه إلى الهجرة إلى المدينة؛ وفي نهاية أيّامه، ها هو محمّد يمُرّ من جديد بالتجارب الأليمة نفسها. تنطوي هذه الدوريّة في سيرة النبيّ على وظيفة مَثَلِيّة، فمحمّد، كما يسوع الذي خانه يوضاس (يهوذا الإسخريوطي)، كان محاطًا بالمنافقين وبالأصدقاء المزيّفين. وكما لو أنهم أرادوا إضفاء السُّموّ والعظمة على صورة النبيّ، أعطى مصنّفو السيرة النبويّة لنهاية حياته طابعًا مأساويًا يتناقض والطابع المَلْحَمِيّ لانتصاراته وفتوحاته.

تتضمّن الفصول الأخيرة من حياة محمّد هي الأخرى مؤشّرات تفصِح عن وجود نزاع داخليّ دمَغ تاريخ الإسلام لقرون من الزمن. ففي طريق عودته من غزوة تَبوكَ وما إن استعاد روعه إثر محاولة الاغتيال التي تعرّض لها، حتى اضطر النبيّ إلى مواجهة محنة أخرى. إذ، وبينما كان على مشارف المدينة، قصد قُبَاء[1] ليفتتح مسجِد الضِّرار[2]، الذي كان

=أعلام النبلاء، للذّهبيّ (٢٩/٤) ولا في كتاب المحلّى لابن حزم (١٥٧/١٢)؛ أما في كنز العمال (٣٤٤/١٣)، فيورِد المتّقي قول حُذَيْفَةَ لعمر: «ولن أخبر به بعدك أحدًا»؛ في الواقع، كان حذيفة بقوله هذا يدين أحد المتآمرين يوم وفاته.

(١) كان مشيّدو مسجد قُبَاء قد سألوا النبي، قبل بضعة أسابيع، المجيء إليه والصلاة فيه؛ لكن، وبما أنه كان «يتجهّز إلى تَبوك»، قال لهم إنه قد يفعل لدى عودته («ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلّينا بكم فيه»؛ الواقِدي، كتاب المغازي، ١٠٤٦/٣).

(٢) ينطوي هذا اللفظ على جَذْر «ضَرّ» و(الضَّرُّ والضُّرُّ) ضِدُّ النفع وسوء الحال والشِّدة؛ وفي الكليّات «الضَّرّ بالفتح شائع في كل ضرر وبالضمّ خاصٌّ بما في النفس كمرضٍ=

الهدف من تشييده تجنيب المرضى مشقّة الانتقال إلى المدينة، وإيواء السكان في «الليلة المَطيرة والليلة الشّاتِيَة»[1]. غريب هذا السبب: هل يستدعي عدد الأيام الممطرة في الجزيرة العربية تشييد مسجد لهذا الغرض؟ في الواقع، كان المحفّز الحقيقي وراء تشييد هذا المسجد، تفريق المسلمين والمَساس بوحدة أمّة المؤمنين، لأن المنافقين كانوا يرتادونه للسخرية من الرسول[2]. وإذ أنذره الملاك جبريل بالخطر الذي يمثّله هذا المسجد، سارع محمّد إلى استدعاء اثنَيْن من «رجاله المأجورين» هما مالك بن الدُّخْشُم ومَعَن بن عَديّ[3]، وأسدى لهما أمر هدمه وتحريقه[4]، وبعيد دَكّ المسجد، تحوّل المكان الذي شيّد فيه إلى كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة[5]. وثمّة آيتان في سورة التوبة (١٠٧ - ١٠٨) تخلّدان ذكرى مسجد الضّرار: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ...﴾.

إن ردّ فعل محمّد المتشدّد إزاء تشييد مسجد الضّرار المنشقّ، فيه دلالة على الفكر الوحدوي المهيمن على المِخيال الإسلامي. ذلك أن فكرة الوحدة في الإسلام لا تتمظهر فحسب في الإيمان بإله واحد، بل

=وهُزالٍ» (عن أقرب الموارد في فُصَح العربية والشوارد، للشرتوني اللبناني، المجلد الثاني، ص٦٨١، مادة «ضَرُّهُ» (والتوسّع في الشرح من المترجمة).

(١) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٥٢٩/٢ - ٥٣٠؛ البَيْهقي، دلائل، ٢٥٩/٥ - ٢٦٤.

(٢) ابن كثير، البداية، ٢٧/٥؛ وفي السّيرة النبوية (٥٣٠/٢)، يزوّدنا ابن هشام بمَسْرَد بأسماء الرجال الاثني عشر الذين كانوا وراء تشييد المسجد المنشَق.

(٣) ابن كثير، البداية، ٢٧/٥.

(٤) تفسير البَغَوِيّ، ٩٣/٤ - ٩٤؛ السّهَيْلي، الرّوْض، ٤٠٤/٧.

(٥) تفسير القرطبي، ٢٥٨/٨.

إنها تتجسّد كذلك على مستوى النظام السياسي الرافض لأيّ شكل من أشكال السلطة المعارضة أو السلطة الموازية. إذ لا بدّ للأمّة من البقاء موحّدة؛ كما لا بدّ لأيّة نيّة في الانشقاق أو حتى الابتعاد أن تُقاوَم بكل حزم. لذا، أوصى النبي في واحد من أحاديثه بضرب مَنْ يسعى إلى تفريق الأمّة بالسيف، أيًا تكن منزلته[1]: «فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هذه الأُمَّةِ وهي جَميعٌ، فَاضْرِبُوهُ بالسَّيْفِ، كَائِنًا مَنْ كَانَ».

وقد طبّق عمر بن الخطاب هذه التوصية بحذافيرها يوم هاجم منزل فاطمة ابنة محمّد نفسه، لإيوائها معارضي الخليفة الأول أبا بكر:

عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ مُحَارِبٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ التيمي، وعن ابْنِ عَوْنٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ يُرِيدُ الْبَيْعَةَ، فَلَمْ يُبَايِعْ. فَجَاءَ عُمَرُ، ومعه فتيلة. فتلقته فاطمة على الباب، فقالت فاطمة: يا ابن الْخَطَّابِ، أَتُرَاكَ مُحَرِّقًا عَلَيَّ بَابِي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ أَقْوَى فِيمَا جَاءَ بِهِ أَبُوكِ[2].

وبمقتضى توصية النبيّ هذه، شنّ أبو بكر ما يُعرف بـ «حروب الرِّدَّة» بمجرّد وصوله الى السلطة، وقاتل فيها بلا شفقة ولا رحمة كلّ من عارض مشروعيّته كخليفة، رِدَّةً وخروجًا عن الملّة. وعندما يستذكر تلك الحروب الضارية التي شُنّت إبّان وفاة محمّد، يقول سُهَيل بن عمرو، أحد صحابة الرسول: «إنَّ ذلك لم يَزِد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربْنا عنقه»[3].

---

(١) صحيح مسلم، ١٤ - باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع: ٥٩ - (١٨٥٢): «فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هذه الأُمَّةِ وهي جَميعٌ، فَاضْرِبُوهُ بالسَّيْفِ، كَائِنًا مَنْ كَانَ» (ص ٨٣٢). مع ذلك، رأينا توًا كيف أن محمّدًا أبدى حِلْمًا مثيرًا للعجب حِيال ماكِري العَقَبَة الذين رفض عقابهم.

(٢) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٥٨٦/١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٩٧/٥؛ وانظر أيضًا: ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٥٥٤/٤.

يتّضح لنا بناء على ما تقدّم أن مسجِد قُبَاء مكان رمزي بامتياز: إذ، وبالنظر إلى تمثّل السلطة في الإسلام، تُظْهر قصّته ومصيره بأن لدور العبادة في الإسلام بعدًا سياسيًا جليًا، كما تبيّن وجود خلط كبير في الإسلام بين المعارضة السياسيّة والمعارضة الدينيّة[1].

إن الهزيمة الكارثيّة التي تكبّدها المسلمون في مُؤْتَةَ في العام ٦٢٩م، ثم التجربة الأليمة التي عاشوها في غَزوة تَبوكَ في العام التالي (٦٣٠م)، ساهمتا في إضعاف سلطة الرسول الذي أصبح منذ ذلك الحين، وبسبب مبادراته الجسورة حدّ التهور، عُرضةً للانتقادات في صلب أُمّته. ضِفْ إلى ذلك أن الحملات العسكرية الأخيرة التي قادها الرسول والتي لم تَلْقَ النجاح المأمول، شكّلت منعطفًا خطيرًا في مسيرته، إذ مثّلت بداية أزمة سياسيّة داخليّة عميقة، طبعت الأشهر الأخيرة من حياته. غير أن هذه الأزمة التي ظلّت خامدة ودفينة ما دام الرسول ممسكًا بزِمام السلطة بيدٍ من حديد، ما لبث أن تفجّرت في وضْح النهار، ما إن ظهرت العلامات الأولى للوَهَن الجسدي الذي نال من أبي القاسم. لكن، غداة غَزوته الأخيرة، لم تكن هموم محمّد سياسيةَ الطابَع فحسب؛ إذ عَقِبَ عودته من تَبوكَ مباشرة، خاض الرجل تجربة شخصيّة أليمة: وفاة ابنه إبراهيم.

(١) إن الاتهام بـ «الرِّدّة» هو الذي لا يزال مستخدمًا في أيامنا هذه، في سياق سياسي مَحض، لإدانة كل حركة انشقاقيّة أو مناهضة للثورة.

الفصل الثالث

موت إبراهيم، الابن المرجوّ

بعد بضعة أشهر على غزوة تبوك، فَقَدَ النبيّ ابنه إبراهيم البالغ من العمر نحو سنتين[1]، وهو الذي ولدته له سَرِيَّته مارِيَة القِبطِيَّة، التي «أهداها له المُقَوْقِس صاحب الإسكندرية»[2]، قبل ثلاث سنوات.

وصلت مارِيَة المدينةَ في العام ٦٢٩م. وما أن وقع بصر أبي القاسم على هذه المرأة وقد «كانت بيضاء جَعْدَة جميلة»[*] ذات بشرة خزفيّة، حتى تلوّى قلبه شغفًا بها؛ إذ أحسَّ جِيال المِصريّة بهوى جيّاش سرعان ما أثار لدى أزواجه غيرة ضارية[3]. ولعدم توفّر مكان[4] يسمح له بالاختلاء بسريّته الجديدة، اغتنم محمّد فرصة تغيّب حَفْصَة، ليشغَلَ حجرتها مع مارِيَة. ولسوء الحظ، وكما يحدث في المسرحيّات الهَزْليّة،

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١/١٣٤ - ١٤٤؛ البلاذُريّ، **أنساب الأشراف**، ٢/٨٦ - ٨٨.

(٢) الطّبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/١٤١.

(*) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، المجلد الأول، ص١٣٤. (م.)

(٣) ابن سعد، **الطبقات**، ١/١٣٤.

(٤) ابْتَنَى محمّد لكل من زوجاته حجرة، وكان يتنقّل بين الواحدة والأخرى بحيث لا يحتبِس أكثر من يوم مع زوجة واحدة إلا فيما ندر.

دخلت حَفْصَة فجأة لتكتشف زوجها بين ذراعَيّ خليلته. فإذا بالزوجة المخدوعة تقول صارخة: «يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَعَلَى فِرَاشِي، والله لقد سُؤْتَني». كان شعور حفصة بالمهانة كبيرًا، وبخاصة أن مارِيَة ما كانت زوجة شرعيّة للنبيّ. فقالَ رسولُ اللهِ:

«واللَّهِ لأُرضيَنَّكِ، وإنِّي مُسِرٌّ إليكِ سِرًّا فاحفَظيه». فقالَ: «إنِّي أُشهِدُكِ أنَّ سُرِّيَّتي هذه عليَّ حَرامٌ رِضًا لَكِ». وكانَت حَفصَةُ وعائشَةُ تَظاهرَتا على نِساءِ النَّبِيِّ، فانطَلَقَت حَفصَةُ فأَسَرَّت إلَيها أن أبشِري أنَّ محمّدًا قَد حَرَّمَ عَلَيه فتاتَه. فلَمّا أخبَرَت بسِرِّ النَّبِيِّ أظهَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ عَلَيه، فأَنزَلَ اللهُ على رسولِ اللهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

تقول بعض المصادر إنَّ محمّدًا، ولشدّة غضبه، طلّق حَفْصَة لأنها لم تستَطِع لَجْم لسانها[2]. صُعق والدها عمر للخبر، وراح الخليفة المستقبلي، الذي اعتاد التعبير عمّا في نفسه بطريقة ضجّاجة، يصرخ حاثِيًا عَلَى رَأْسِهِ التُّرَابَ وهو يقول: «ما يَعْبَأ الله بعمر وابنته بعد هذا»[3]. وجد محمّد نفسه في موقف شديد الدّقة لرغبته في عدم التنكيد على صاحبَيْه، أبو بكر (والد عائشة) وعمر (والد حفصة)؛ فإذا بالملاك

---

(١) **تفسير الطّبري**، ٤٧٨/٢٣؛ وانظر أيضًا: البَيْهَقي، **السّنن**، ٧٥٨/٧ - ٧٥٩.

(٢) أَحَصل الطلاق أم لم يحصل؟ يستحيل علينا الجزم لأنه يمكن للمصدر الواحد أن يجيب عن السؤال إيجابًا أو نفيًا (انظر في هذا الشأن: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/ ٥٩).

(٣) البلاذُري، **أنساب**، ٥٩/٢؛ وانظر أيضًا: الطّبراني، **المعجم الكبير**، ٢٩١/١٧؛ الذَّهبي، **سِير أعلام النبلاء**، ٤٨٣/٣.

جبريل يتدخّل شخصيًا ليقول للرسول: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُرَاجِعَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ رَحْمَةً لِعُمَرَ»[1]؛ فإنها قوامة صوامة، وإنها زوجتك في الجنة»[2].

ولقد ترافق الأمر الذي أسداه جبريل للرسول بنزول الآيات الأولى من سورة التحريم التي تجيز لمحمّد النَّكْثَ في يمينه، واسترجاع زوجتَيْه عائشة وحفصة في الوقت عينه الذي يستعيد علاقته بماريَة، وذلك عن طريق إصابة غايتين بآية واحدة[3]. في غضون ذلك، وسعيًا منه إلى قَصْر الشرّ، قرر أبو القاسم إبعاد سَرِيَّته وإسكانها في إقامته الصيفيّة الواقعة في العالية - بالمدينة - والمعروفة اليوم باسم «مَشْرَبَة أم إبراهيم»، (إشارة إلى كنية مارية)[4]. وثَمّة مَن زعم أنَّ محمّدًا أقفل على نفسه بمعيّة القِبْطِيَّة الجميلة في المَشْرَبَة، غائبًا عن الأنظار شهرًا بطوله: «فَاعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ نِسَاءَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ حِينَ أَفْشَتْهُ حَفْصَةُ إِلَى عَائِشَةَ تِسْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً»، وَكَانَ قَالَ: «مَا أَنَا بِدَاخِلٍ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا»[5].

---

(١) الذهبي، سِيَر، ٤٨٣/٣.

(٢) ابن سعد، **الطبقات**، ٨٥/٨؛ وانظر أيضًا: الطّبراني، **المعجم الكبير**، ٣٦٥/١٨؛ الحاكِم النيسابوري، **كتاب المُستَدْرَك**، ١٦/٤؛ الهَيْثَمي، **مجمَع الزوائد**، ٣٩٢/٩؛ المتّقي، **كنز العمال**، ١٣٨/١٢.

(٣) سورة التحريم، الآيات: ١ - ٣: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

(٤) إن العالية، التي كانت تخصّ يهود بني النَّضير، مُلك للنبيّ واقع في واحد من أحياء أعالي المدينة.

(٥) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٤٩/١؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٨٤/٨؛ البُخاري، **صحيح البخاري**، ٨٧١/٢؛ مسلم، **صحيح مسلم**، ١٩٣/٤؛ النّسائي، **السُّنَن**، ٢٥٧/٨؛ البَيْهَقي، **كتاب السُّنَن الكبرى**، ٦٠/٧؛ **تفسير ابن كثير**، ١٦٣/٨؛ المتّقي، **كنز العمال**، ٥٣٨/٢.

كان هوى محمد بمارِيَة قد بلغ أوجه عندما، وعقب بضعة أشهر من التسرّي (فهو لم يتزوجها أبدًا)، أنجبت للرسول، في ذي الحِجّة من سنةِ ثمانٍ من الهجرة (أي في آذار/مارس من العام ٦٣٠م) صبيًّا لم يكن ينتظره. كانت سعادة النبيّ لغَمْرتها عصيّة على الوصف، فسارع إلى عَتْقِ مارِيَة وولدَها وزفَّ الخبر السعيد إلى صحابته قائلاً: «إنَّهُ وِلِدَ لِيَ اللَّيْلَةَ غُلامٌ وَإنِّي سَمَّيْتُهُ باسمِ أبي إبْرَاهِيمَ»[1].

«وغارَ نساء رسول الله، واشتدّ عليهنّ حين رزق الولد من مارِيَة»[2] التي، عندما حَمَلت، جاء الرسولَ من لَمَّح له بأن محظيّته الجديدة على علاقة حميمة بالعبد مأبور (وقد كان هو الآخر هدية من مُقَوْقِس الإسكندريّة). كَلَمَت هذه المزاعم أبا القاسم الذي كان شديد الغيرة، ويقرّ بطبعه هذا[3]؛ فأرسل على الفور بعليّ لضرب عنق العبد ثأرًا لشرفه. فَوَجَدَهُ خَصيًا فَتَركه:

وأَكْثَرُوا عَلَى مَارِيَةَ أُمِّ إبْرَاهِيمَ فِي قِبْطِيٍّ ابْنِ عَمٍّ لَهَا يَزُورُهَا وَيَخْتَلِفُ إلَيْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: «خُذْ هَذَا السَّيْفَ فَانْطَلِقْ فَإِنْ وَجَدْتَهُ عِنْدَهَا فَاقْتُلْهُ» قَالَ: قلت يا

(١) إن القابلة التي استقبلت الطفل هي سلمى «مولاة النبي» (ابن سعد، **الطبقات**، ١/١٣٥) أي معتوقته، وزوجها أبو رافع، معتوقه هو الآخر، هو الذي سارع فزفّ البشرى السعيدة إلى محمّد الذي كافأه «فوهب له عبدًا» (ابن سعد، عينه).

(٢) ابن سعد، **الطبقات**، ١/١٣٥ - ١٣٦؛ وانظر أيضًا: ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٣/٤٤. والاقتباس أعلاه وارد في **السّيرة النّبوية** لابن كثير، ٤/٦٠٢.

(٣) في أحد الأيام، بلغ الرسولَ قولُ سعد بن عبادة: «لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مفصِح عنه»، فقال: «أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير منه» (ابن أبي شَيْبَة، **المصنَّف**، ٥/٤٥٠؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٠/١٠٤؛ البُخاري، ٦/٢٦٩٨؛ مسلم، ٤/٢١١؛ الطبراني، **المعجَم الكبير**، ٢٠/٣٩٠؛ الحاكِم النيسابوري، **كتاب المستَدْرَك**، ٤/٣٩٨.

رسول الله، أكون فِي أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحماة لاَ يثنيني شيء حَتَّى أَمْضِيَ لِمَا أَمَرْتَنِي بِهِ، أَم الشَّاهِدُ يرى مَا لا يَرَى الْغَائِبُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «بل الشَّاهِد يرى مَا لا يَرَى الْغَائِبُ». فَأَقْبَلْتُ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ فَوَجَدْتُهُ عِنْدَهَا، فَاخْتَرَطْتُ السَّيْفَ، فَلَمَّا رَآنِي عَرَفَ أَنِّي أُرِيدُهُ، فَأَتَى نَخْلَةً فَرَقِيَ فِيهَا ثُمَّ رَمَى بِنَفْسِهِ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ شَالَ رِجْلَيْهِ، فَإِذَا بِهِ أجب أمسح مَاله مِمَّا للرِّجَال لاَ قَلِيلٌ وَلاَ كَثِيرٌ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَرَفَ عَنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ»(١).

مع ذلك، «كانَ النَّبِيُّ فِي شَكٍّ حَتَّى جَاءَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ، فَاطْمَأَنَّ إِلَى ذَلِكَ».(٢)

غَبَطَت إذًا ولادةُ إبراهيمَ النبيَّ، وهو الذي حُرِم الذُّريَّة الذَّكَرِيَّة وتألّم لسنوات عديدة من استهزاءات أعدائه القرشيّين. وإن كانت الرغبة في الأبوّة قد شغلت بال أبي القاسم لزمن طويل(٣)، فلأنَّ إنجاب العديد من البَنين كان علامة فارقة ميّزت الأنبياء الذين سبقوه. يقول الله في القرآن [سورة الرعد، الآية: ٣٨]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً...﴾. وإن تبيَّنا أمر النساء، لوجدنا النبي مغمورًا لأنه كان

---

(١) ابن إسحاق، **السّيرة النبوية**، ٢٧١/١؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٦٠٢/٤. قالت مصادر أخرى إن الرسول بعث بصاحبه المتهوّر عمر بن الخطّاب للاضطلاع بالمهمّة وتخليصه من عشيق ماريَة المزعوم (ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٤٥/٣ - ٤٦؛ الهَيْثَمي، **مَجْمَع الزوائد**، ١٦١/٩ - ١٦٢). وثمّة رواية غريبة تعلمنا بأن مأبور قد خصى نفسه بنفسه منعًا لإثارة الشكوك! (الهَيْثَمي، **مَجْمَع الزوائد**، ١٦١/٩).

(٢) الهَيْثَمي، **مَجْمَع الزوائد**، ١٦١/٩.

(٣) كان محمد يحثُّ إخوته في الدين على الابتهال إلى الله لكي يَمِنَّ عليهم بذُرِّية ذكريَّة؛ قال: «لا يدع أحدكم طلب الولد فإن الرجل إذا مات وليس له ولد انقطع اسمه» (الطبراني، **المعجم الكبير**، ٢١٠/٢٣؛ المتقي، **كنز**، ٢٨١/١٦).

مِزواجًا؛ لكنه لم يكن كثير الإنجاب. وفي أحد الأيام، ثمّة مَنْ سمعه يقول بشيء من الحسرة: «إنَّ الله جعل ذُرِّيَّة كل نبيّ في صُلْبه وإنَّ الله تعالى جعل ذُرِّيتي في صُلْب عليّ بن أبي طالب»[1].

وإن كان ألم النبيّ كبيرًا جرّاء افتقاره إلى ابن شرعيّ، فلأنه كان ملزَمًا بتحمّل تهكّمات الثّالبين، الذين نعتوه بـ«الأَبْتَر»، وهذا لفظ محقّر يعني حقيقة «الرجل المقطوع الذنب»، ومجازًا «مَنْ لا عقِبَ ذكري له»[2]. وإذ نَمِيَ إليه هذا اللقب، فَقَدَ أبو القاسم هدوئه ورباطة جأشه ولعن بالاسم (وهو أمر نادرًا ما فعله) القرشِيّ العاص بن وائل الذي كان أول من أطلقه عليه[3]. ولأنه كان غيورًا جدًا على هيبته، لم يكن محمّد يحتمل بتاتًا الاستهزاء والسخرية[4]. فعندما نقل له عمّه العبّاس نمائم

---

(١) الطبراني، المعجم الكبير، ٤/٤٣؛ المتّقي، كنز، ١١/٦٠٠؛ إن واحدة من خصائص الرسول تكمن في اعتبار ولديّ ابنته كذُريّته الخاصة؛ ولقد شكّل هذا الامتياز المقصور على محمّد، غرضًا لفصل في كتاب البيهقي، السّنن، ٧/١٠٠ - ١٠١. [عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «الحسن والحسين ابناي من أحبهما أحبني ومن أحبني أحبه الله ومن أحبه الله أدخله الجنة ومن أبغضهما أبغضني ومن أبغضني أبغضه الله ومن أبغضه الله أدخله النار». أبو عبد الله، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحَين، بيروت، دار الكتاب العربي، ج٣، كتاب معرفة الصحابة، ص١٦٦ (م.)].

(٢) وردت هذه الكُنْيَة المحقَّرة في سورة من القرآن (سورة الكوثر وترتيبها ١٠٨) يعد فيها الله رسوله بنهر في الجنّة هو نهر الكوثر، وذلك مؤاساة له مما طاله من أذى واستهزاء: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ وفي التفسير الشيعي، يحيل الكوثر إلى فاطمة، بنت الرسول، التي أعطته ذريّته الذكرية الوحيدة، أي حفيدَيْه الحسن والحسين.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٣/٧؛ تفسير ابن كثير، ٤/٥٥٢؛ إن الشخص الذي لعنه الرسول بالاسم هو بحسب ابن هشام في السّيرة النبويّة (١/٤٠٩): الأسود بن المطّلِب بن أسد أبو زمعة.

(٤) كان الهجاء السياسي والشعري اللاذع في شبه الجزيرة العربية سلاحًا مُستهابًا؛ ولأنه=

القرشيّين الذين يعتبرونه لقيطًا، من خلال تشبيهه بنخلة نَبَتَتْ وحيدة فوق كُثَيب، احمرَّ وجه الرسول غضبًا وتعرّق حَنَقًا[1]. كما درج أعداؤه على وصفه بـ «الصُّنْبُور»[2]، فقالوا: «دَعُوهُ فَإِنَّمَا هو رجل أَبْتَر لا عَقِبَ له، لو مات لانقطع ذِكْرُهُ وَاسْتَرَحْتُمْ مِنْهُ»[3]. ما من مرّة بلغ فيها سوء التقدير هذا الجلاء!

يعزو أهل السنّة إلى محمّد العديد من الأبناء الذين أنجبهم من زواجه الأول بخديجة وماتوا جميعهم في سِنّ مبكّرة جدًا. غير أن قِلّة الإجماع على عدد هؤلاء البنين وأسمائهم (طاهر، مُطَهَّر، طيّب، عبد الله، عبد مناف وعبد العُزّة) تجعل الشكوك تخيّم على الأمر[4]. أما كُنْيَتُه «أبو

=كان حريصًا على صورته، لم يرتضِ محمّد أن تكون هيبته عرضة للاستهزاء بلا عقاب؛ ولقد كانت له ردّات فعل عنيفة إزاء الشعراء الذين كتبوا فيه قصائد تهكميّة، ومنهم كعب بن الأشرف الذي أجاز الرسول بضرب عنقه (ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٥١/٣ - ٥٧؛ البُخاري، ١٤٨٢/٤).

(١) ابن حَنْبَل، **مسند**، ٥٧/٢٩؛ التِّرْمِذي، **سُنَن**، ٥٨٤/٥؛ الحاكم النيسابوري، **المستدرَك**، ٢٧٥/٣؛ البَيْهقي، **دلائل**، ١٦٧/١؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣١٥/٢. وستسنح لنا فرصة العودة، في التالي من فصول هذا الكتاب، إلى «الرواية العائليّة» لمحمّد.

(٢) يعني الصُّنْبُور «النخلة دَقّت من أسفلها وانجردَ كَرَبُها وقَلَّ حِملها؛ والمنفردة من النخيل؛ وسَعَفات يخرجن في أصل النخلة؛ والنخلة تخرج من أصل النخلة الأخرى من غير أن تغرس؛ والرجل الضعيف الذليل بلا أهل ولا عقِب ولا ناصر». (توسعت المترجمة في الشرح نقلاً عن سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، **أقرب الموارد في فُصَح العربية والشوارد**). أما المؤلفة، فلقد أوردت المصادر التالية: **تفسير الطبري**، ٢٤/ ٦٥٨؛ **تفسير البغوي**، ٥٦٠/٨؛ **تفسير ابن كثير**، ٣٣٤/٢.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ٣٩٣/١؛ **تفسير البغوي**، ٥٦٠/٨؛ **تفسير الطبري**، ٢٤/ ٦٥٦ - ٦٥٨؛ **تفسير ابن كثير**، ٥٠٤/٨؛ السّيوطي، **الدُّرّ المنثور**، ٦٥٢/٨.

(٤) ابن إسحاق، **السّيرة النبويّة**، ٨٢/١؛ ابن سعد، **الطبقات**، ٧/٣؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٦٠٧/٤ - ٦٠٩.

القاسم»، فلا تقوى في أية حالة من الحالات على الجزم بوجود ابن له كان يُدعى «قاسمًا»[1]، في حين أن وجود الطفل إبراهيم متّفق عليه بالإجماع في كل المصادر.

«فلما بلغ ابنه إبراهيم يومه السابع، عقّ عنه الرسول بكِبْشَيْن، وحلق رأسه، وتصدّق بوزن شعره ورقًا على المساكين، وأخذوا شعره فجعلوه في الأرض مدفونًا»[2]. وتنافست نساء الأنصار في إبراهيم مَنْ ترضعه منهن، فجاءت أم بُرْدَة كَبْشة بنت المنذر بن عدي بن النجار، امرأة البراء

---

(١) من المعلوم أن الكُنْيَة في شبه الجزيرة العربية لا تحيل حكمًا إلى الأسماء الحقيقية للأطفال: فعلى سبيل المثال، لم يكن لأبي بَكْر ابنًا اسمه بَكْرًا. وبناء على ما تفيد به جاكلين سوبليه (Jacqueline Sublet)، يمكن للكنية أن تكتسي قيمة عاطفيّة أو اجتماعيّة تُعْزا إلى الطفل منذ ولادته (انظر: حجاب الاسم. مَبْحَث في اسم العلم العربي *Le Voile du nom. Essai sur le nom propre arabe*, Paris, PUF, 1991).
وفي شأن كِنيَة «أبو القاسم» المعزوّة إلى الرسول، فمن المرجَّح جدًا أن تفيد بلقب يحيل إلى وظيفة محمّد الذي كان يعتبر نفسه «قاسِمًا»، أي من يقسِم الغنائم، وتوسعًا خيرات الأرض. (وقد قال: «تَسَمَّوْا باسمي، ولا تَكَنَّوْا بكُنْيَتي، فإنّي أنا أبو القاسم، أقسِمُ بينكم» (م.)) (انظر: جان لوي دِكليه، «كنية الرسول وقِسمة الغنائم» Jean-Louis Déclais, "La *Kunya* du Prophète et le partage du butin", in *Arabica*, vol. 46, 1999, pp. 176-192.
وانظر أيضًا: محمد هـ. بنخيرة، «الأعلاميّات والدين: في شأن إصلاح اسم العلم خلال القرون الأولى للإسلام» Mohammed H. Benkheira, "Onomastique et religion: à propos d'une réforme du nom propre au cours des premiers siècles de l'Islam", in Christian Müller et Muriel Roiland-Rouabah (dir.), *Les Non-dits du nom. Onomastique et documents en terre d'Islam.* Mélanges offerts à Jacqueline Sublet, Beyrouth, Presses de l'IFPO-IRHT, 2013, pp. 319-356.

(٢) الإمام مالك، المُوَطّأ، ٥٠١/١؛ ابن سعد، الطبقات، ١٣٥/١؛ وفي المصدر عينه (ص ١٣٦)، اختار النبي مرضعة من المدينة انتمت إلى قبيلة بني النجّار، وكان اسمها أمّ بُرْدَة (أو أم سيف).

بن أوس فكلمت رسول الله أن ترضعه، فأعطاها إياه، فكانت ترضعه بلبن ابنها، فكان إبراهيم في بني مازن بن النجار، وكان محمّد يأتي أم بَرْدة فيقيل عندها، ويخرج إليه إبراهيم فيحمله ويقبله[1].

كان حنان أبي القاسم على الأطفال مشهورًا وقد قال فيه الصحابي أَنس بن مالك: «ما رأيتُ أحدًا كان أرحم بالعِيال من رسول الله»[2]. ولأنه حرِم لسنوات من النَّسل (إذ ما من واحدة من النساء العديدات اللواتي تزوجهن عقِب وفاة خديجة، أنجبت له ولدًا)، كان الرسول يشعر بعاطفة لا محدودة حِيال أحفاده الحسن والحسين، وَلَدَيّ ابنته فاطمة، وأُمَامة بنت ابنته البِكر زينب[3]، وأسامة ابن ابنه بالتبنّي زيد بن الحارثة.

مع وفادة إبراهيم إلى الحياة، أصبح محمّد رجلًا مغمورًا بالنِّعم. فبالإضافة إلى حُسْنِه، كان الطفل متمتّعًا بصحّة جيدة. وفي يوم، حمله الرسول إلى عائشة، فقال: «انْظُري إلى شَبَهِهِ بي»؛ فردّت عليه عائشة بنبرة حقد دفينة: «ما أرى شَبَهًا!» وإذ ارتضى ألا يعلّق على تلميح زوجته الكيّاد، غيّر الرسول الموضوع وقال: «ألا تَرَيْنَ إلى بياضِه ولحمِهِ؟»، فأجابته عائشة غير مكترثة بمديح زوجها للصبي وقائلة بازدراء: «مَنْ سُقِيَ ألبانَ الضّأن سَمِنَ وابيضّ»[4].

غير أن سعادة محمّد كانت وجيزة، إذ مات إبراهيم وهو ابن حوالى عشرين شهرًا. ولقد أمكن للمختصين تأريخ موته بدقّة لأن ذلك اليوم، أي الثلاثاء الواقع فيه السادس والعشرين من كانون الثاني/يناير من العام ٦٣٢ (التاسع والعشرين من شوّال من سنة عَشْر من الهجرة)، شهد

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ١٣٦/١.

(٢) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٥٢/١٩؛ مسلِم، ٧٦/٧؛ ابن حِبّان، **صحيح**، ٤٠٠/١٥.

(٣) ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٦٠٩/٤.

(٤) ابن سعد، **الطبقات**، ١٣٧/١؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٦٠٣/٤.

كسوفًا شمسيًا[1]. وقد رأى المسلمون في هذه الظاهرة إشارة من السماء؛ لكن الرسول، المناهض للتطيّر وغيره من الخرافات، قال لهم إن الأمر لا يعدو كونه مصادفة؛ قال: «أمّا بَعْدُ أيّها الناسُ إنّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيَتَانِ من آياتِ الله لا يَنْكَسِفَانِ لموت أحَدٍ ولا لحَيَاة أحدٍ»[2].

عقِب وفاة ابنها، تقهقرت منزلة مارِيَة في الحريم، واستعادت عائشة مكانها كزوجة مفضّلة. كان حزن النبيّ لامتناه وثمّة من رآه، وهو المعروف برباطة جأشه، يبكي بحرقة؛ فإذا بصاحبه عبد الرحمن بن عوف يعجَب لحاله قائلاً: «أتبكي يا رسول الله! أوَلَم تَنْهَ عن البكاء؟»[3]، فأجابه النبي: «إنما أنا بشر، تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، والله يا إبراهيم! إنا بك لمحزونون»[4]. وإذ هدّه الجزع، قال الرسول وَهُوَ مستقبل الجبل: «يَا جَبَلُ، لَوْ بِكَ مَا بِي لَهَدَّكَ»[5].

---

(١) أثبت الفلكي المصري محمود إفندي، الذي ارتكز على مصنّفات أهل السنّة وعلى الحسابات الفلكيّة، أن وفاة إبراهيم الصغير، المولود في شهر ذي الحجّة من سنة ثمانٍ من الهجرة (أواخر شهر آذار/مارس من العام ٦٣٠م)، عاش سنة وعشرة أشهر وستة أيام (انظر: «بحث في التقويم العربي قبل الدين الإسلامي وفي سِنّ النبيّ محمد» "Mémoire sur le calendrier arabe avant l'islanisme et sur la naissance et l'âge du Prophète Mohammad", *in Journal asiatique*, février - mars 1858, .(pp. 109-192

(٢) ابن أبي شَيْبَة، **المصنّف**، ٢/٢١٦؛ ابن سعد، **الطبقات**، ١/١٤٢؛ البُخاري، ١/٣٦٠؛ **صحيح مسلِم**، ٣/٣١؛ ابن ماجَة، **السّنن**، ١/٤٠٠؛ الطبراني، **المعجَم الكبير**، ١٧/٢١١؛ الحاكم النيسابوري، **المستَدْرَك**، ١/٤٨٠؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤/٦١٥؛ المتّقي، **كنز**، ٧/٨٢٧.

(٣) ابن سعد، **الطبقات**، ١/١٣٨.

(٤) ابن سعد، **الطبقات**، ١/١٣٧؛ ابن عبد البَرّ، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ١/٥٥؛ ابن كثير، **السّيرة**، ٤/٦١٣ - ٦١٤.

(٥) البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ١/٤٥٢.

لقد أحيا موتُ إبراهيم في قلبه ألم فراق العديد من الغوالي: أبواه وجدّه وأعمامه الذين كان يحبّهم، وثلاث من بناته (زينب، ورُقَيَّة وأم كُلْثوم) ومَحْظِيّه زيد وخديجة زوجته الأولى المحبوبة. وما لبث الرسول أن قال إن إبراهيم سيكمل رضاعته في الجنّة حيث تنتظره مرضعًا[1].

إن الفضل بن عباس هو مَنْ غسل جسد الطفل الراحل ومحمّدًا مَن صلّى عليه[2]؛ وفي مقبرة البَقيع بالمدينة، جلس النبيّ بمعيّة عمّه العبّاس «على شفير القبر»[3]، ونزل الفضل حاملًا الجثمان في الحفرة مرفوقًا بأسامة بن زيد (وهما شخصيّتان حضرتا جنازة الرسول التي سيكون لنا عود إليها) وسوّى محمّد بيده جَدَثَ ابنه[4].

وفي شهر كانون الثاني/يناير ذاك من العام ٦٣٢م، ألمّ بمحمّد حَدْس بأن الله يُهيّئه لنهايته. في الواقع، كيف له ألا يرى في وفاة ابنه تمثيلًا مستَبَقًا لموته؟ شكّل هذا الحداد منعطفًا في مسيرته، إذ بدءًا من ذلك اليوم، أصبح النبيّ صَموتًا أكثر من العادة، وأمسك عن القيام بأي عمل سياسيّ أو عسكريّ؛ فهو ما عاد يفكّر مذ ذاك إلاّ بخلاص روحه. ومما لا شك فيه أن السّعي إلى التطهّر هو الذي حمله، عقِب شهرين على وفاة إبراهيم، على اتخاذ القرار بإتمام فريضة الحجّ الذي كان يعلم بالتأكيد أنه سيكون الأخير. وقد اغتنم هذه المناسبة المهيبة ليبلّغ جموع المسلمين بأنه قد أتمّ رسالته.

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ١٤٠/١.

(٢) ابن سعد، عينه، ١٤١/١.

(٣) ابن عبد البَرّ، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ٥٩/١.

(٤) ابن سعد، **الطبقات**، ١٤٣/١.

الفصل الرابع
حَجَّة الوداع

مُذ لَحَد ابنَه إبراهيم، انطوى محمّدٌ على نفسه ونال الجمودُ من مشاريعه الكبيرة في مواجهة بيزنطة وفتح القدس. ولم يطُل الأمر بصحابته وأهل بيته حتى لاحظوا تخليه التدريجيّ عن الشؤون السياسيّة. لذا، لم يستغربوا عندما أبلغهم في أوائل شهر آذار/مارس من العام ٦٣٢م بقراره بالخروج إلى مكّة لإتمام مناسك حَجّته الأخيرة، أي حَجّة الوداع[١]: «قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ذُو الْقَعْدَةِ، تَجَهَّزَ لِلْحَجِّ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْجَهَازِ لَهُ. فقدم المدينة بشر كثير يأتمّون برسول الله في حجته ولم يَحُج غيرها منذ تنبؤ إلى أن توفاه الله». واستخلَف صاحبه أبا دُجَانة السَّاعديّ على المدينة[٢].

(١) يُطلَق على هذه الحجَّة أيضًا اسم «حَجّة البلاغ» أو «حَجّة التمام». كان الرسول قد قضى قبلها عُمْرَةً في سنة سبع من الهجرة، سمّيت بـ «عُمْرَة القضاء»، وذلك إثر عودته من خَيْبَر في شهر ذي القَعْدَة (أي في شهر آذار/مارس من العام ٦٢٩م). ويذكر الواقِدي عُمْرَة أخرى أتمّها الرسول قبل عام، في زمن هُدْنة الحُدَيْبِية (في شهر ذي القَعْدَة من سنة ستٍ، أي في شهر آذار/مارس من العام ٦٢٨م، وهو ما سيكون لنا عَوْدٌ إليه في اللاحق من فصول هذا الكتاب).

(٢) يقول آخرون إن الرسول عهد بشؤون المدينة إلى سِباع بن عُرْفُطَة الغِفَارِيّ، الذي سبق له مرارًا أن حَلّ محلّه خلال غَيْباتِهِ عن المدينة؛ ولقد أقَرَّ ابن هشام بالاسمَيْن في السّيرة النبوية، ٢/٦٠١.

وفي يوم السبت لخمس ليال بَقِيْنَ من ذي القعدة من سنةِ عشرٍ من الهجرة (أي في الثالث والعشرين من آذار/مارس من العام ٦٣٢)، غادر الرسول المدينة[١]، «مغتسلاً متدهنًا مترجلاً متجردًا في ثوبين صحاريَّيْن إزار ورداء»، يرافقه عدد غفير من الناس: صحابته، أنصارًا ومهاجرين؛ «وأخرج معه نساءه كلهن في الهوادج». كانت راحلة النبي المتظلِّلَة بـ «رَثّ وقطيفة»[٢]، تتصدّر وسط القافلة السّاعية في موكب مهيب. أما عليّ، المتواجد آنذاك ناحية نَجْران يجمع الصّدقات[٣]، فلقد التحق بالرسول ليؤدّيَ بمعيّته فريضة الحجّ.

عندما انتشر خبر خروج محمّد بين القبائل العربيّة، راح الحجّاج يتدفّقون من كل حَدْب وصوب قاصدين مكّة التي لم تشهد مثل تلك الحشود من قبل[٤]. ولقد عاد السبب في مهابَة الحدث إلى أن ختام ذاك العام العاشر من الهجرة، شهد المرة الأولى التي أَمَّ فيها النبيّ بشخصه مناسِكَ الحجِّ، وهي مَهَمّة كان في العادة يعهَد بها إلى صحابته. ففي سنة ثمانٍ، استخلف عَتّاب بن أُسَيْد على مكّة ليرأس الحَجّة التي حضرها المسلمون والمشرِكون[٥] على السواء. وبأسلوب لا يخلو من الطرافة، قال الواقِدي إن القرشيّين في تلك السنة، غطّوا وجوههم من الجزع لما رأوْا بِلالاً، مؤذّن الرسول، يعلو الكعبة داعيًا إلى الصلاة، وقالوا منتحبين: «الحمد لله الذي أَمات أبي ولم يشهد هذا اليوم، حين يقوم

(١) ابن هشام، عينه.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٧٧/٢.

(٣) الطبري، **تاريخ الملوك والأمم**، ٢٠٤/٢؛ وانظر أيضًا: السُهَيْلي، **الرَوْض الأُنُف**، ٧/ ٥٠٣.

(٤) ابن سعد، **الطبقات**، ١٧٢/٢.

(٥) الطبري، **تاريخ الملوك والأمم**، ١٧٧/٢.

بلال بن أمّ بلال ينهق فوق الكعبة!»[1]. وفي العام الموالي، أي في سنة تسع من الهجرة (آذار/مارس من العام ٦٣١م)، أوفد محمّد على عجل أبا بكر ليئمّ الحجّة[2]، عاهدًا له بالمَهمّة الشاقة القاضية منه إبلاغ أهل الشّرك إن وجودهم في مكّة ما عاد مقبولاً: ولقد طلب الرسول من ابن أبي قُحَافَةَ[3]، أن يتْلُوَ في تلك المناسبة الآيات الثلاثين الأوائل من سورة «التوبة»، وأن يبلّغ المشركين أنهم، مذ ذاك، فقدوا حقّهم في الدخول إلى مكّة لإتمام مناسك الحجّ الوثني[4]. لكن صبيحة خروج أبي بكر، أعْدَل الرسول عمّا طلب وسأل عليًا اللحاق بابن أبي قُحَافَةَ ليقرأ بنفسه آيات البراءة على الحجيج[5]. شعر أبو بكر إذ ذاك بحزن عميق يعتصر فؤاده لاعتقاده أن النبيّ قد بعث بعليّ في إثره ليراقبَه[6]، فعاد أدراجه إلى المدينة ليسأل محمّدًا عن السبب في هذا الإجراء والدمع مِلْءَ مُقْلَتَيْه؛

---

(١) الواقِدي، كتاب المغازي، ٧٣٨/٣.

(٢) الواقِدي، كتاب المغازي، ١٠٧٦/٣ - ١٠٧٧؛ وانظر أيضًا: ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٢١٥/٣٠؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٦٨/٤؛ السّيُوطي، جامع الأحاديث، ٣٠٥/٣٦؛ المتّقي، كنز العمال، ٢٩١/٥.

(٣) كُنية أخرى تَخُصّ أبا بكر (نوردها للقارئ من باب التذكير).

(٤) ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١]. لحظ كازيمرسكي (Kasimirski) إمكانية أن يُترجم لفظ «براءة» العربي بعبارة «déclaration d'immunité» أي «بيان إعفاء» يمنحه محمّد للمشركين لفترة من الزمن، أو بعبارة «إحلال من كل عهد مع المشركين» [أو «نقض ما بين رسول الله صلّى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهد» (ابن هشام، السّيرة النبوية، ٥٤٣/٢ (م.))]. وتمنح هذه الآيات الثلاثين الأوائل من سورة التوبة عَبَدَة الوثَن مهلة من أربعة أشهر للدخول في الإسلام؛ فإن انقضت ولم يهتدوا، أضحى الرسول «براءً» من أيّ التزام تجاههم.

(٥) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٥٤٣/٢ - ٥٤٦.

(٦) النّسائي، السّنن، ٤٣٥/٧؛ وانظر أيضًا: الذهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ١٧٦/٢ - ١٧٧.

قال: «يا رسول الله، بأبي أنت وأمّي! أَنزَل في شأني شيء؟ قال: لا، ولكن لا يبلّغ عني غيري أو رجل مني [ويقصد الهاشميّين[1]]. أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار، وإنك صاحبي على الحوض، قال: بلى يا رسول الله، فسار أبو بكر على الحَجّ، وعليّ يؤذن ببراءة»[2]. فَانْصَرَفَ أَبُو بَكْرٍ، وَهُوَ كَئِيبٌ.

في الحقيقة، كانت مَهَمّة أبي بكر غاية في الصعوبة والمجازفة، لأنه كان من الممكن لردّ فعل الوثنيّين أن يكون عنيفًا. في الظاهر، يمكننا اعتبار تكليف أبي بكر بهذه المهمة الدقيقة دليلاً على ثقة محمّد به؛ لكن إرسال عليّ في أعقابه، وما ولّده هذا الأمر من شعور لدى أبي بكر بالمهانة، يبيّن أن الرسول ما كان يثق به تمام الثقة.

في الواقع، لم تكن تلك المرة الأولى التي يُبدي فيها أبو القاسم شيئًا من الرِّيْبَة إزاء محيطه المقرّب. فزوجته عائشة، بنت أبي بكر، حاضرة في غالب الأحيان لتبلّغ والدها بنوايا الرسول الخفيّة[3]. فعلى سبيل المثال، عندما كان محمّدٌ، في سنةِ ثمانٍ من الهجرة (أي في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٦٣٠م)، يتجهّز لفتح مكّة، أبقى خطّته طَيّ الكِتمان؛ حتى صحابته الأكثر قُربًا منه لم يعلموا بأيّ من مَراميه، ولم تَفْلَح جهود أبي بكر يومها في استنطاق ابنته عائشة في شأنها. ولكي يصرِف الانتباه عن مَقْصده، دفع محمّدٌ بسَرِيّة صغيرة لقتال قبيلة بدويّة

---

(١) الهاشميون أبناء هاشِم بن عَبْدِ مَنَاف، والد جَدّ الرسول.

(٢) البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٨٤/٢؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٩٢/٢؛ البَيْهقي، **دلائل**، ٢٩٣/٥ - ٢٩٨.

(٣) ثمّة من قال أيضًا إن بلالاً، معتوق أبي بكر والمؤذّن الشهير المعتَمَد من الرسول، كان موكلاً هو الآخر بتقديم حساب عن حركات النبيّ وسكناته لأبي بكر (البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ١٨٣/٢).

معادية؛ ولم يكتشف الصّحابة أن المقصَد إنما هو فَتح مكّة إلا في الطريق. ولقد اعتاد أبو القاسم على اللجوء إلى مثل هذا النوع من التضليل: ففي كل مرّة خطّط فيها لغزوة أو حملة، دفع بسريّة في اتجاه مخالف «لئلاّ تَذهَبُ الأخبارُ بأنّه يريدُ كذا وكذا»[١]: «قَلَّ مَا كَانَ يَخْرُجُ فِي وَجْهٍ مِنْ مَغَازِيهِ إِلاَّ أَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ غَيْرَهُ»، ذلك أن محمّدًا كان محاطًا بالجواسيس وكان يعلم ذلك جيدًا.

بما أن حَجَّة سنة تسع من الهجرة، التي اشترك في إمامتها كلّ من أبي بكر وعليّ، قد رسَّخت النَّهْيَ عن الشِّرك في شبه الجزيرة العربيّة وحوّلت حَجّ الجاهلية إلى حَجّ الإسلام، أمكن لمحمّد في العام التالي الخروجَ إلى مكّة، التي ما عادت مذ ذاك «مدنّسة» بوجود الكَفَرة، وتعليم المسلمين مناسِك الحَجّ وسُنَنِه، وهو ما توافق ونوعًا من أنواع إتمام الدين. تلك هي الفكرة التي عبّرت عنها آية أُنزِلت خلال هذه الحجّة: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾[٢]. وثَمّة جملة مماثلة نطق بها الرسول في «خطبَة الوداع»[٣] الشهيرة التي ألقاها على المسلمين خلال هذه الحجَّة الأخيرة، ترجع صدى هذه الآية؛ قال: «اليوم أكملتُ لكم دينَكم».

في جبل عَرَفة وأمام حشد لم يُرَ له نظير، ألقى محمّد من عَلٍ «جمل

---

(١) الواقِدي، **كتاب المغازي**، ٩٩٠/٣؛ وفي **الطبقات الكبرى** لابن سعد (١٦٧/٢): «ما يريد غَزْوَةً يغزوها إلا ورّى بغيرها». وانظر أيضًا: وابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٣١/٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٣) في الواقع، يتعلّق الأمر بسلسلة من المواعِظ توجّه بها الرسول إلى المسلمين في أوقات مختلفة من الحَجّة، في كل من عَرَفَة ومِنىً؛ وعلى ممرّ الزمان، جُمِعت هذه الشذرات ونظّمت في ما يُطلق عليه اليوم اسم «خطبَة الوداع». غير أننا لا نجد أيّ ذِكر لها في أقدم كتب أهل السُّنة. ففي الفصل الذي كرّسه لحَجَّة الوداع في **الطبقات الكبرى** (١٧٢/٢ - ١٨٩)، لا يأتي ابن سعد ولا مرّة على ذكر هذه الخطبة.

أحمر»[١] خُطبة مُؤسّسة[٢]، قام له فيها رَبيعَة بنُ أُمَيّةَ بنِ خَلَفٍ، الواقف في جانبه، مقام المِصْوات[٣]، أي الّذِي كان يَصْرُخُ فِي النّاس بقول رسول الله وهو بعَرَفَة. ومنذ الجملة الأولى، أفصح المقال عن فحواه الإيصائي[٤]، إذ قال الرسول: «أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لَعلّي لا ألْقاكم بعد عامي هذا في هذا الموقف أبدًا»[*]. ومع أن أهل السُّنة أعْطَوا روايات مختلفة عن هذه الخطبة، إلا أننا نلاحظ عَوْدًا متكررًا إلى بعض الموضوعات ذات الطبيعة الشعائريّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة، كالدّم والأموال والنّسِيءَ[٥] والنساء وكتاب الله والسُّنة النبويّة... إلخ. وفي الموضوعات المختلفة التي استحضرَتْها، عرضت خطبة الوداع للعديد من التقاطعات مع القرآن؛ بل إنها تبدو كما لو أنها

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ١٨٥/٢.

(٢) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٠٣/٢ - ٦٠٤.

(٣) ابن هشام، عينه، ٦٠٥/٢.

(٤) بناء على ما يقوله ألفرد - لوي دو پريمار (Alfred-Louis de Prémare) في الأمر، ينتمي هذا النوع من الخطب إلى نوع أدبي معروف، هو الخطبة الإيصائيّة أو الخطبة - الوصيّة التي نجدها في النصوص البيبليّة. ومن أراد تحليلاً مفصلاً لخطبة الوداع، فلينظُرْه في: ريجيس بلاشير، «خطبة محمد يوم حجّة الوداع» Régis Blachère, "L'allocution de Mahomet lors du pèlerinage d'adieu", *in Mélanges Louis Massignon*, Damas, 1956, pp. 223-249.

وفي مقالة ألفرد - لوي دو پريمار، «الخطبة - الوصيّة لنبيّ الإسلام»، Alfred-Louis de Prémare, "Le discours testament du Prophète de l'islam", *in* Floréal Sanagustin (dir.), *Paroles, signes, mythes. Mélanges offerts à J. Bencheikh*, Damas, Institut français d'études arabes de Damas, 2011.

(*) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٠٣/٢. (م.)

(٥) «عَدّة الشهور».

تستعيد بكلام آخر مُسْهَب ما ورد فيه في شأن بعض المواضيع، كمعاملة النساء والتقويم الإسلامي(١).

إن ما يوحّد بين العناصر المتنوعة والمتفاوتة التي تشكّل في الواقع الخطبة المشار إليها بلفظ «الوداع»، هو «الإرادة المعبّر عنها في التأسيس لزمن جديد»(٢)، وهو ما يفيد به المجاز الماثل في اكتمال الدورة الزمنيّة؛ قال محمد: «وإن الزّمان قد استدار كَهيْئَتِه يَوْمَ خَلَقَ الله السماواتِ والأرضَ»(*). يتّضح لنا إذًا أن اكتمال الدورة الزمنيّة يتناسب وإتمام الرسالة النبويّة؛ قال الرسول: «اليوم أكملتُ لكم دينكم»(**). ومع أننا لا نجد ذكرًا لهذه الجملة لا في **السّيرة النبويّة** لابن هشام ولا في **كتاب المغازي** للواقِدي، إلا أن أغلبيّة مجامع الحديث تنسب هذا البلاغ إلى النبيّ، في حين أن هذه الجملة تجد لها في القرآن استكمالاً، لكون الله يستعيد كلام رسوله ويستفيض فيه. وبين خطبة الوداع والقرآن، نرى أنَّ «ضمير المتكلم «أنا»» الذي «يكمِل الدين» إنما هو عائد تارة إلى النبيّ، تارة إلى الله هو نفسه. وإذ يورِدون شهادة عمر بن الخطّاب، يؤكد

---

(١) بالنسبة إلى ألفرد - لوي دو بريمار (Alfred-Louis de Prémare)، ليست «خطبة الوداع» هي النص الذي يستعيد محتوى القرآن ويُسْهب فيه، بل إن القرآن هو الذي، ومن خلال استعادة المواعظ الواردة في الخطبة المذكورة، «يصحّح» أو «يصوّب» أو يرتّب تصريحات الرسول (انظره في المقالة المشار إليها في الحاشية ٢٣، أي: «Le discours testament du Prophète de l'islam».

(٢) عينه. تشدّد «خطبة الوداع» تشديدًا بالغًا على موضوعة الزمن؛ ففيها استحضار للشهور القمريّة الأربعة التي كان العرب يعتبرونها حُرُمًا. ويستعيد القرآن هذا الموضوع مؤكدًا على إمكانية إلغاء الطابع المقدّس لبعض شهور الهدنة عندما يكون المسلمون منخرطين في حرب شاملة ضدّ الكفرة (سورة التوبة، الآيتان: ٣٦ - ٣٧).

(*) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٦٠٤/٢. (م.)

(**) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤٢٧/٤. (م.)

مفسّرو القرآن أن هذه الآية (الثالثة من سورة المائدة) قد أنزلت يو جمعة: «يقول عمر بن الخطاب لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ عَلَى رَسُو اللَّهِ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، نَزَلَتْ عَشية عَرَفَة فِي يَوْ جُمُعَةٍ»[1].

ومن هنا، نجدنا أمام جملة نلمُس فيها بلوغ التداخلَ بين أحادي الرسول وبين القرآن، حدّه الأقصى، ليزول بالتالي الحدّ المساميّ ف الواقع بين هاتَيْن المُدوّنتَيْن. وهنا، نتنبّه إلى أنهما إناءَيْن مُسْتَطْرَقَيْن حيث كلام الله وكلام رسوله يتمازجان في تقاطع لا يعود فيه البيا البشري والبيان الإلهي إلا بيانًا واحدًا...

تبقى اللحظة الأكثر مهابة في خطبة الوداع هي تلك التي يرفع فيه محمّد الصوت ملتمسًا شهادة أخيرة؛ قال: «اللهمّ هل بلّغت؟»؛ قا الجمع: «اللهمّ نعم». إذ ذاك قال الرسول: «اللهمّ اشهَد»[*]. وبهذا وصل محمّد إلى ختام مَهمَّته، فهو «أكمل أَدَاءَ الرسالة التي أمره ال تَعَالَى بإبلاغها»[**]، وأصبح البشر مذ ذاك مرتبطين بحرية إرادته واختيارهم. ذلك أن الرسول حذّر المسلمين في خطبته الوداعيّة م الشّقاقات والفِتَن وذكّرهم بما عليهم من واجبات حِيال عائلته؛ قال «وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تَضِلّوا أبدًا، أمرًا بيّنًا، كتابَ الله[***] وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي». والمثير للعجب هو أن هذه الجملة المنحاز تمامًا لـ «أهل البيت» مذكورة ليس في النصوص الشيعيّة فحسب، بل وف

---

(١) انظر تحديدًا: تفسير الطّبري، ٥٢٤/٩؛ وتفسير ابن كثير، ٢٧/٣.

(*) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٠٤/٢. (م.)

(**) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٢٧/٤. (م.)

(***)ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٠٤/٢. (م.)

المصادر السّنيّة أيضًا[1]. في المقابل، ومن باب السّعي بلا شك إلى صَدّ المزاعم الشّيعيّة، عمدت بعض الروايات السّنيّة لخطبة الوداع إلى استبدال العنصر الأخير من الجملة بآخَر، بحيث تجعل محمّدًا يقول التالي: «وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تَضِلُّوا أبدًا، أمرًا بيّنًا، كتابَ الله وسُنَّة نبيّه»[2].

إذ ذاك، استأذن محمد الحجيج بالانصراف قائلًا لهم إنهم لن يَرَوْنَه محاطًا بمثل هذا الجمع الغفير الذي احتشد في يومهم ذاك[3]. كان تأثّر عمر بالغًا لدرجة اغْرَوْرَقَت معها عيناه بالدموع وأدرك أن وفاة الرسول باتت وشيكة[4]. ولما سُئِل عمّا يُبكيه، قال: «إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان»[*]، موحيًا بقوله هذا إن الرسول على وشك أن «يَنْقُص»، أي أن يموت[5]. وفي **المصنَّف** يكتب ابن شَيْبَة ناقلًا ما قاله عمر في شرحه للاضطراب الذي ألَمَّ به ذلك اليوم؛ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، بَكَى عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ: «مَا يُبْكِيكَ؟» قَالَ: أَبْكَانِي أَنَّا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا، فَأَمَا إِذْ أُكْمِلَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكْمُلْ شَيْءٌ إِلاَّ نَقُصَ. فَقَالَ: «صَدَقْتَ»»[6]. وإذ أعلن لأتباعه في موقف مَهيب بلوغ مَهمَّته نهايتها، أعلمهم محمّد نوعًا ما باعتزاله وهيّأهم،

---

(١) التّرمِذي، السّنن، ٦٦٢/٥؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ٦٦/٣؛ الجَزَري ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، ٦٥/١.

(٢) مالك، الموطأ، ٨٩٩/١؛ (وابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٠٤/٢ (م.)).

(٣) الواقِدي، كتاب المغازي، ١١٠٣/٣؛ ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٠٣/٢.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٣٣/٥ - ٢٣٤؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٢٧/٤.

(*) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٢٧/٤.

(٥) تفسير البغوي، ١٣/٣؛ تفسير ابن كثير، ٢٦/٣.

(٦) ابن أبي شَيْبَة، المُصنَّف، ٨٨/٧.

بشكل غير مباشر، لفراغ وشيك في السلطة. فَهم صحابة أبي القاسم جميعهم الرسالة.

أما بالنسبة إلى الشيعة، فلقد قرّر النبيّ في نهاية حجَّة الوداع تسليم عليّ المِشعَل، معلنًا عن قراره هذا في طريق العودة إلى المدينة، عندما وصل موكبه إلى مستوى غدير خُمّ(*). لم يتأخر ردّ فعل الصحابة الآخرين بالبروز، إذ سارعوا، لاستيائهم، إلى حَبْك مؤامرة، وإلى تحرير ميثاق، وإلى محاولة اغتيال محمّد لقطع طريق الخلافة على عليّ.

(*) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٢٥/٤: «فأما الحديث الذي رواه ضَمْرة عن ابن شَوْذب، عن مَطَر الوراق، عن شَهْر بن حَوْشب، عن أبي هريرة، قال لما أخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلم بيد عليّ قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾. قال أبو هريرة: وهو يوم غدير خُمّ». (م.)

الفصل الخامس

مؤامرة الصّحيفة الملعونة

تشكّل حَجَّة الوداع في الأدبيّات الشيعيّة لحظة أساسيّة اختُتِمَت بحدثَيْن: الأول، قرار الرسول باستخلاف عليّ، والثاني، المكيدة التي حاكها صحابته بغرض قتله وإقصاء صهره عن الخلافة؛ بل إنّ المتآمرين ذهبوا حَدّ تحرير وثيقة (أطلق عليها الشيعةُ اسم «الصحيفة الملعونة»)، وقّعوا عليها في الكعبة، وذلك خلال حَجَّة النبيّ الأخيرة. تستحضر المؤلّفات الرئيسيّة للشّيعة هذا الفصل الذي استُتْبع بمحاولة اغتيال محمّدٍ وهو في طريق عودته إلى المدينة[1]. وإذ استندوا على شهادة حُذَيْفَة بن اليَمان، «صاحب سِرّ» الرسول، يكرّر مصنِّفو هذه المؤلّفات الروايةَ نفسها وإن بشيء من الاختلافات في بعض التفاصيل[2].

يوم وصول محمّد لأداء مناسِك حَجَّة الوداع، أتاه الملاك جبريل فكشف له الآيات الأولى من سورة العنكبوت ﴿الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ

(١) انظر تحديدًا كتاب سُلَيم لصاحبه سُلَيم بن قيس، وإرشاد القلوب لواضعه الدُيْلَمي وبحار الأنوار للشيخ محمد باقر المَجْلِسي.

(٢) نستند في هذا الفصل على المصنّف الشيعي لصاحبه المجلسي، بحار الأنوار (٩٦/٢٨ - ١١٠) تحديدًا وهو الذي يزوّدنا بتفاصيلَ كثيرة في شأن الصحيفة الملعونة، من حيث مضمونها وظروف تحريرها، في الفصل ذي العنوان: «المِحَن والفِتَن».

يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(١). وفي هذه الزيارة أيضًا، أعلم جبريل محمّدًا بأن الله يأمره باستخلاف عليّ لأن أجَله يقترب(٢). قام إذ ذاك النبيّ باستدعاء عليّ وسَرَّ له بخبر تعيينه هذا بقرار إلهي. شُغِل بال عائشة، المستعدّة دومًا لتجسّس الأخبار، للخَلْوة الطويلة بين الرجلَيْن. فسألت زوجها عن الأمر، قال: «ستعلمين ذلك إذا أنا قُمْتُ به في الناس»(*). لكن أمام إصرارها، انتهى الرسول إلى إعلامها طالبًا منها التكتّم على السّر بانتظار اللحظة المناسبة. غير أن عائشة سارعت إلى إخبار حَفْصَةَ بما سمعته من النبيّ وقامت كل منهما باطلاع أبيها عليه، أي أبو بكر وعمر. اعتزم الاثنان حينذاك بحزم إقصاءَ عليّ عن الخلافة وافتكاك السلطة منه. ثم ما لبثا أن اختليا، خلال حجّة الوداع، بثلاثة صحابة آخرين كانوا: أبو عبيدة بن الجرّاح، ومعاذ بن جَبَل، وسالم بن الحبيبَة، وقاموا خمسَتُهم بكتابة الوثيقة الملعونة التي وقّعوها على مِسَلَّة رخاميّة حمراء حُشِرت بين دعامتَيْن في الكعبة.

وفي رواية أخرى للحدث، تؤكّد المصادر الشيعيّة أن العهدة عقدت في منزل أبي بكر في المدينة(٣). وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الرواية ترتكز أيضًا على شهادة صاحب سِرّ الرسول، حُذَيْفَةَ بن اليمان، الذي أخذ الخبر عن أَسْماء بنت عُمَيْس الخثعمِيّة، امرأة أبي بكر(٤). قالت

---

(١) سورة العنكبوت (وترتيبها في القرآن ٢٩؛ الآيات: ١ - ٣).

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ٢٨/٩٥ - ٩٦.

(*) المَجْلِسيّ، بحار الأنوار، بيروت، دار الاتحاد الثقافي العربي، ٢٠١٢، المجلد ٢٨، ص٦٠. (م.)

(٣) المَجْلِسيّ، بحار الأنوار، ١٠٢/٢٨.

(٤) تزوجت أسْماءُ بنتُ عُمَيْس بن مُعَد بن تَيم بن الحارث الخَثْعَمِي على التوالي بكل من: جعفر بن أبي طالب، ثم بأبي بكر، وأخيرًا بشقيق زوجها الأول عليّ بن أبي طالب.=

أسماء لحُذَيْفَةَ إنَّ المكيدة حِيكت في منزل أبي بكر وإنَّ سعيد بن العاص، أحد أبناء بني أميَّة، هو الذي كتب الصحيفة التي يعترض فيها الصحابة على مبدأ التوريث في السلطة السياسية أيًّا يكن. ولقد شهد على هذه الصحيفة أربعة وثلاثين رجلاً، منهم صحابة الرسول الأكثر رِفعةً، وتحديدًا أبو بكر وعمر اللذين درج الشيعة على الإحالة إليهما بوصفهما خائنَين(١). ومما جاء في هذه الصحيفة:

وإن ادّعى مدَّعٍ أنّه مستَحِقٌّ للخلافة والإمامة بقربه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمَّ هي مقصورة عليه وعلى عقبه، يرثها الولد منهم عن والده، ثمَّ هي كذلك في كل عصر وزمان لا تصلح لغيرهم، ولا ينبغي أن يكون لأحد سواهم إلى أن يرثَ الله الأرض ومن عليها، فليس له ولا لولده، وإن دنا من النّبي نسبه، لأن الله يقول - وقوله القاضي على كلِّ أحد -: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾(*)؛ [...] ومن كره ذلك من فعالهم فقد خالف الحقّ والكتاب، وفارق جماعة المسلمين فاقتلوه، فإنَّ في قتله صلاحًا للأمة، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من جاء إلى أُمّتي وهم جميع ففرّقهم فاقتلوه، واقتلوا الفردَ كائنًا مَنْ كان من النّاس(٢).

=وبالنظر إلى هذه الزيجات الرفيعة الشأن، كانت أسماء بلا شك امرأة بالغة التأثير. وإبّان احتضار النبيّ، كانت أسماء بقرب أزواجه: ميمونة - وهي أختها -، وعائشة وحَفْصَة.

(١) يكرّس سُلَيْم بن قَيس فصلاً يدرج فيه اعترافات أدلى بها كل من المتآمرين يوم وفاته (انظر: كتاب سُلَيْم، ٣٤٥/١).

(*) سورة الحجرات وترتيبها في القرآن ٤٩، الآية: ١٣.

(٢) يسعنا قراءة النصّ الكامل للصحيفة الملعونة في بحار الأنوار، ١٠٣/٢٨ - ١١١.

من الواضح أن الشخص المستَهدف بالقتل هو عليّ؛ لكن اللواحق من الأحداث التي عَقِبَت كتابة الصحيفة، توحي في إمكان أن يكون الرسول شخصيًا هو المقصود في حال قرّر استخلاف أحد أفراد عائلته.

إثر كتابتها «باتّفاق ممّن أثبت اسمه وشهادته»[*] آخرها، عُهِدَ بالصحيفة إلى أبي عبيدة الذي قَصَدَ مكّة ودفنها داخل الكعبة[١]؛ وهي لم تستخرج من موضعها إلا في خلافة عمر. ولقد قيل إن محمّدًا ألمح إلى صحيفة ملعونة في واحد من أحاديثه (الذي يستشهد به أهل السّنة كذلك)[٢]، وفيه توجّه إلى أبي عُبَيْدة بن الجرّاح - الذي اشتهر بفعل قتالي بطولي تمثّل في قتل والده في موقَعَة بَدْر[٣] - قائلاً بنبرة ساخرة: «بَخٍ بَخٍ[٤] من مثلك وقد أصبحت أمين هذه الأمة؟»[٥]؛ ثم تلا آية قرآنيّة: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[٦]. وبهذا أوحى النبيّ أنه على علم بالمعاهدة وبدور أبي عُبَيْدَة

(*) المجلِسيّ، بحار الأنوار، بيروت، دار الاتحاد الثقافي العربي، ٢٠١٢، المجلد ٢٨، ص٦٥. (م.)

(١) كان لأبي عبيدة، في اللاحق من الأيام، دور مهم في اجتماع سقيفة بني ساعدة حيث بويع أبو بكر خليفةً.

(٢) التِّرمِذي، السّنن، ٦٦٧/٥؛ ابن حَنْبَل، المسنَد، ٢٥٢/٢٠؛ البُخاري، ١٥٩٢/٤؛ النّسائي، السُّنن، ٣٢٩/٧؛ الحاكم النيسابوري، المستَدْرَك، ٦١٦/٣؛ المتقي، كنز العمال، ٦٤١/١١.

(٣) الإصفهاني، حِلْيَة الأولياء، ١٠٠/١ - ١٠١؛ الذهبي، سِيَر، ٦/٣.

(٤) يعبِّر هذا اللفظ في العربية عن الإعجاب أو الاستحسان أو الرضا. وفي اعتقادنا أنه مستخدم في هذا السياق بوصفه قلبًا للمعنى في أسلوب تهكميّ يُراد به السخرية.

(٥) يتعلّق الأمر هنا برواية شيعيّة للحديث السّنّي الذي يمجّد وجه عُبَيْدَة.

(٦) المَجْلِسيّ، بحار الأنوار، ١٠٥/٢٨.

فيها بوصفه المؤتَمن على السِّر. ومن ناحية أخرى، أكّد حُذَيْفَةُ إن النبيّ قارن هذه الصحيفة بتلك التي وقّعها القريشيّون يوم عزموا على قتله في مستهل بَعْثَته النبويّة؛ قال: «لقد أصبح في هذه الأمة في يومي هذا قوم ضاهوهم في صحيفتهم التي كتبوها علينا في الجاهليّة وعلّقوها في الكعبة [...] ولولا أنّه سبحانه أمرني بالإعراض عنهم للأمر الذي هو بالغه لقدّمتهم فضربتُ أعناقهم»[1].

عَقِب التوقيع على الصحيفة الملعونة، راحت الأحداث تتسارع. فإذ علموا باستخلاف عليّ الوشيك، وجب على الصّحابة المتآمرين الانتقال سريعًا إلى التنفيذ، محاولين اغتيال الرسول. لكن، وفي مسير الرجوع إلى مكّة، أصدر الملاك جبريل للنبيّ أمرًا بإعلان عليّ خليفةً إعلانًا رسميًا من دون انتظار الوصول إلى المدينة. وفي اليوم الرابع لهذه الرحلة (الموافق فيه الثامن عشر من شهر ذي الحِجّة، أي بين العاشر والسادس عشر من شهر آذار/مارس من العام ٦٣٢م بحسب التقويم الشيعي)، وإذ شارف الموكب على موقف غدير خُمّ (الواقع إلى شرق طريق المدينة - مكّة، أي على بعد نحو مئة وثمانين كيلومترًا عن المدينتَيْن)، جمع الرسول الناس لإبلاغهم بالقرار الإلهي. وكما هو معلوم يُعَدُّ «حديث الغدير» واحدًا من النصوص الرئيسيّة عند الشّيعة، لاندراجه في مدوّنة من أحاديث الرسول الشاهدة على خِياره لخليفته، ولكونه يشكّل خطبة طويلة نطق فيها بجملة مفتاحيّة، هي: «فمن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه».

عن البراء بن عازب قال أقبلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حَجَّة الوداع حتى أتينا غدير خم فكسح لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرتين فأخذ بيد علي

---

(١) عينه، ١٠٦/٢٨.

بن أبي طالب فقال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا: بلى، قال: ألست أولى بكل مؤمن من نفسه، قالوا: بلى، قال: فهذا مولى من أنا مواليه أو مولى مواليه. اللهم والي من والاه وعادِ من عاداه.

الغريب في الأمر هو أن حديث غدير خُمّ مثبَت في المصادر الرئيسيّة للسّنة[1] وفيها نرى عمرًا وأبا بكر يسارعان هما أيضًا فيتقدّمان لمبايعة ابن عَمّ النبيّ، بل إن عمرًا هنَّأ عليًا بشيء من السخرية، إذ قال له: «هنيئًا لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن»[2].

وفي معرض تفسيره للآية ٦٧ من سورة المائدة[*]، ينقل الرّازي مشهدًا نرى فيه عمرًا يسارع إلى مبايعة عليّ ما أن فرغ الرسول من خطبته في غدير خُمّ[3]، في حين لمّحت مصادر سنيّة أخرى إلى هذه الخطبة تلميحًا مُبهمًا ولم تُنْكِرْها[4]. فعلى سبيل المثال، يؤكّد مسلم في

(١) ابن أبي شَيْبَة، **المُصَنّف**، ٣٧٢/٦؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **المسنَد**، ٢٦٢/٢؛ ابن ماجَة، **السُنَن**، ٤٥/١؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٣٥٦/٢ - ٣٥٨؛ النَسائي، **السُنَن**، ٤٣٧/٧؛ الحاكم النيسابوري، **المستَدْرَك**، ١١٨/٣؛ الذهبي، **السّير**، ٥٠١/٢؛ الهَيْثمي، **مجمع الزوائد**، ١٠٤/٩؛ ابن حَجَر، **فتح الباري**، ٧٤/٧؛ المُتّقي، **كنز**، ١٥٧/١٣.

(٢) ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٢٢١/٤٢؛ المتّقي، **كنز**، ١٣٤/١٣.

(*) ترتيبها في القرآن ٥.

(٣) **تفسير الرازي**، ٤٠١/١٢: «نَزَلَتِ الآيَةُ فِي فَضْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ» فَلَقِيَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: هَنِيئًا لَكَ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ أَصْبَحْتَ مَوْلاَيَ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ».

(٤) ابن أبي شَيْبَة، **المصنف**، ٣٦٩/٦؛ ابن حَنْبَل، **المسنَد**، ٢٦٩/٢؛ الطّبراني، **المعجَم الكبير**، ١٧١/٥؛ الحاكم النيسابوري، **المستَدْرَك**؛ **تفسير ابن كثير**، ٢٨/٣؛ المتّقي، **كنز العمّال**، ١٣٤/١٣.

صحيحه، أنّ النبيّ، وخلال الوقفة في غدير خُمّ، ألقى خطبة الثَّقَلَيْن(*)، وفيها قال: «وإنّي مخلّف فيكم الثَّقَلَيْن ما إن تمسّكْتُم بهما لن تَضِلّوا ولن تزِلّوا: كتاب الله وعِتْرَتي أهل بيتي هما الخَليفتان فيكم»[1]. ومع أنه لم يكن استخلافًا صريحًا لعليّ، إلا أن هذا الحديث يثبِت صحّة المزاعم الشيعيّة لكونه يمنح أهل بيت النبيّ الأهميّة نفسها التي يوليها للقرآن في قيادة الأمّة الإسلاميّة. ولكونه أقرب أهل البيت إلى الرسول (فهو ابن عمّه وصهره ووالد حفيدَيْه)، فإن عليًا، وبناء على ما تثبته المصادر السّنيّة هي نفسها، منصَّب ضمنيًا هنا «بإمْرَة المؤمنين»(**).

وفي هذا الصّدد، لا بدّ من التنبّه إلى أن الجملة المِفتاحيّة التي نطق بها الرسول في خطبة الغدير (عليّ «وليّ كلّ مؤمن»(***))، موجودة صراحة في أماكن مختلفة من المصادر السّنيّة وإن لم تكن بالضرورة في سياق الفصل المفرَد لغدير خُمّ. وثَمّة من المؤلّفين السّنة مَنْ نقل أنّ النبيّ، وفي معرِض دفاعه عن عليّ ضِدّ النمائم التي طاله بها بعض الصحابَة، «إحمرّ غضبًا» وقال: «إنَّ عليًا وليّ كل مؤمن من بعدي»[2]، مضيفًا: «مَنْ سَبّ عليًا سبّني»[3].

(*) مفردها الثَّقَل ومعناها «كل شيء نفيس مَصون»، عن سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، أقرب الموارد في فُصَح العربيّة والشّوارِد، المجلد الأول، مادة «ثَقَلَ». (م.)

(١) صحيح مسلم، ١٢٢/٧.

(**) المجلِسيّ، بحار الأنوار، طبعة بيروت ٢٠١٢، المجلد ٢٨، ص٧٧. (م.)

(***) عن المجلِسيّ، بحار الأنوار، المجلد ٢٨، ص٧٦. (م.)

(٢) ابن ماجَة، السُّنَن، ٤٣/١ - ٤٤؛ وانظر أيضًا: التِّرمِذي، السُّنَن، ٦٣٢/٥؛ النّسائي، السُّنَن، ٤١١/٧، ٤٣٢/٧، ٤٣٧/٧ - ٤٣٨، ٤٤٠/٧ - ٤٤١؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ١٢٨/١٨؛ الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٤٩٩/٢؛ المتّقي، كنز العمّال، ١١/ ٦٠٨.

(٣) النّسائي، السُّنَن، ٤٤١/٧: ذِكْرُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «مَنْ سَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ سَبَّنِي». وفي المصدر عينه، ٤٢٢/٨: «أَخْبَرَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ=

على العموم، وفيما يتعلّق بالأحاديث التي تبرز وجه عليّ أو أي وجه آخر من أهل بيت الرسول، فلقد أبقى كتّاب السّيرة النبويّة من السنّة على الالتباس يريدون به التملّص، إذ كيف يشيدون بمناقبه وبشمائل «العائلة المقدّسة» من دون أن يُبْدوا تساهلاً في تعاملهم مع المزاعِم الشيعيّة؟

بحسب المصادر الشيعيّة، اتّبع المتآمرون الذين حاولوا اغتيال الرسول، وهو في طريق العودة من الحَجّ، الاستراتيجيّة نفسها التي اعتمدوها في طريق العودة من تَبوكَ، إذ اغتنموا فرصة سلوك الرسول ممرًا جبليًا شديد الصعوبة على عَقَبة هَرْشى، بين الجُحْفَة والأَبْواء، في الطريق الساحلي الذي كان يَسْلُكه الحجيج، وحيث نزول المنحَدر شاق بشكل خاص. وكما في محاولة الاغتيال السابقة، راح المتآمرون يدَحْرِجون الحصى من الدِّباب بين قوائم الناقة، بحيث تفقد توازنها فتسقط في التَّلْعَة(*). وبعدما اجتاز محمّد الشِّعب خلال الليل، غفا فوق راحلته، فأيقظه الملاك جبريل ونبّهه إلى الخطر الذي يتربّص به. اقترب إذ ذاك النبيّ من المتآمرين ونادى عليهم واحدًا واحدًا؛ فلما سمعوا

=أَبِي بُكَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْجَدَلِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَقَالَتْ: «أَيُسَبُّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكُمْ؟» فَقُلْتُ: «سُبْحَانَ اللهِ أَوْ مَعَاذَ اللهِ» قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ سَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ سَبَّنِي»». انظر أخيرًا: النّسائي، السُّنن، ٤٣٨/٧: «فَقَدِمَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ عَلِيًّا، فَتَنَقَّصْتُهُ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَغَيَّرُ وَجْهُهُ وَقَالَ: يَا بُرَيْدَةُ «أَلَسْتُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟» قُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ» فَإِذَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ قَدِ احْمَرَّ فَقَالَ: «مَنْ كُنْتُ وَلِيَّهُ، فَعَلِيٌّ وَلِيُّهُ»».

(*) التَّلْعَة: قيل ما علا من الأرض وما سفل؛ القطعة المرتفعة من الأرض؛ جمعها: تَلَعاتٌ وتَلْعٌ وتِلاعٌ أي مسايل الماء من الأسناد والنجاف والجبال حتى ينصبّ في الوادي؛ ولا يكون التلاع إلا في الصحاري. (عن أقرب الموارد في فُصَح العربية والشوارد، المجلد الأول، مادة «تَلَعَ». (م.))

أسماءهم، لاذوا بالفرار. تقول الأسطورة الشيعيّة إن ناقة الرسول هي التي نطقت لتُطَمْئِنَه: «قال حذيفة: «[...] حتّى إذا صرنا في رأس العقبة، ثار القوم من ورائنا، ودحرجوا الدباب بين قوائم الناقة، فذعرت وكادت أن تنفر برسول الله صلّى الله عليه وسلم فصاح بها النبيُّ صلّى الله عليه وسلم أن أسكني، وليس عليك بأس. فأنطقها الله تعالى بقول عربيّ مبين فصيح، فقالت: والله، يا رسول الله لا أزلت يدًا عن مستقرّ يَدٍ، ولا رِجْلاً عن موضع رِجْل، وأنت على ظهري»[1].

بلغ عدد المعتدين أربعة عشر رجلاً وهم، بالنسبة إلى الشيعة، الأشخاص أنفسهم الذين حاولوا اغتيال النبيّ لدى عودته من تَبوكَ. وفي هذه المحاولة الثانية، التي أحبطت في اللحظة الأخيرة، كان شاهدا العيان هما نفسَيْهما أيضًا، عمّار بن ياسِر وحُذَيْفَةَ بن اليمّان اللذين رأيا المتآمرين يَفِرّون[2]. أما بالنسبة إلى الرسول، فلقد أتى ردّ فعله هذه المرة مشابهًا لذاك الذي أبداه إثر مكيدة العَقَبَة، إذ امتنع عن معاقبة المعتدين، بل إنه أحجم عن إدانتهم، مكتفيًا بالقول: «فإنَّ الله لهم بالمرصاد وسيمهلهم قليلاً ثم يضطرّهم إلى عذاب غليظ»[*].

تتَّهم الأدبيَّات الشيعيّة صراحة الصحابة المقربين من الرسول، أي أبا بكر وعمر تحديدًا، عازية إليهما المسؤوليّة في محاولَتَيّ الاغتيال[3]. ومع

---

(١) المجلِسيّ، بحار الأنوار، ٩٩/٢٨.

(٢) رأى حُذَيْفَةَ المعتدين الأربعة عشر وقد كانوا: تسعة من قريش (أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطَلْحَة، وعبد الرحمن بن عَوْف، وسعد بن أبي وقّاص، وأبو عُبَيْدة بن الجرّاح، ومُعاوية بن أبي سُفيان، وعمرو بن العاص)، يرافقهم خمسة «أُخر»: أبو موسى الأشعري، والمُغيرة بن شُعْبَة الثقفي، وأوس بن الحدثان البصريّ، وأبو هُرَيْرَة وأبو طَلْحَة الأنصاريّ. (انظر: المجلِسيّ، بحار الأنوار، ٩٩/٢٨ - ١٠٠).

(*) المجلِسيّ، بحار الأنوار، المجلد ٢٨، ص٩٩. (م.)

(٣) كتاب سُلَيم، ١٦١ - ١٦٢؛ وانظر أيضًا: المجلِسيّ، بحار الأنوار، ٩٩/٢٨.

أنه كان لكل من الخليفتَيْن المستقبليَّيْن حوافِزه بالتأكيد، إلا أن التشابه الكبير بين المحاولتَيْن يجعل من وجودهما التاريخي عُرضة للشَكّ. في المقابل، وعلى صعيد تحليل التمثّلات، ينطوي هذا التكرار على مَعان بالغة الأهميّة لكونه، وكما كل تكرار موصول، يشكّل دلالة على الضّيق المستَشْعَر به حِيال حدَث محرج، ما يحمل المتبصِّر في هذه وتلك من المحاولتَيْن، على استِشْفاف آثار «جريمة أصليّة» (أو «جريمة بَدئيّة» كما يمكن أن يصفها علماء النفس التحليلي).

يؤكّد كتاب **سُلَيْم** وهو واحد من المصنّفات الأكثر قِدَمًا التي وصلتنا وقد وضعه مؤلِّف شيعي[١]، أن عليًا وشى بالمتآمرين علانية غداة وفاة الرسول، قائلاً بالفم الملآن: لقد وفيتم بصحيفتكم الملعونة التي تعاقدتم عليها في الكعبة. فردّ عليه أبو بكر سائلاً: «فما علمك بذلك؟ ما أطلعناك عليها». فإذا بعليّ يتوجه بالكلام إلى صحابة آخرين كانوا حاضرين المجلس، طالبًا منهم الإدلاء بشهادتهم في الأمر، فقال: «أنتَ يا زُبير وأنت يا سلمان وأنت يا أبا ذُرّ وأنت يا مِقداد أسألكم بالله وبالإسلام أما سمعتم رسول الله يقول ذلك وأنتم تسمعون أن فلانًا وفلانًا حتى عَدّ هؤلاء الخمسة قد كتبوا بينهم كتابًا وتعاهدوا فيه وتعاقدوا على ما صنعوا؟» أجابوا: «اللَّهمَّ نعم، قد سمعنا رسول الله يقول ذلك لك: إنهم قد تعاهدوا وتعاقدوا على ما صنعوا وكتبوا بينهم كتابًا إن قُتِلْتُ أو مُتُّ أن يزووا عنك هذا يا عليّ»[٢].

وروى سُلَيْم أيضًا أن أُبَيّ بن كعب أقفل على نفسه في منزله غداة

(١) انظر: «في خِتام الكلام...» في آخر هذا الكتاب.
(٢) **كتاب سُلَيْم**، ١٥٤ - ١٥٥.

وفاة الرسول - وقد كان له صاحبًا وواحدًا من كتّاب الوحي بين يديه - واجتماع سقيفة بني ساعدة منعقد. ولما أتاه بعض الصحابة في طلبه، رفض أن يفتح لهم بابه، قائلاً: «أعلم أنكم جئتم إليّ في شأن الصحيفة»، ما يثبت أنه كان على دراية بقضيّة الصحيفة الملعونة[1]. وفي المؤلفات السّنيّة، يُعْزا إلى أُبَيّ جملة لعلها كلّفته حياته، إذ قال يومًا: «هلك أصحاب العُقْدَة وربّ الكعبة ولا آسي عليهم»؛ بل إنه استنزل لعنته هذه عليهم مرات ثلاث[2]. ويقال إن أُبَي هدَّد بأن يكشف يوم الجمعة التالي سِرًّا خطيرًا يمكن أن يُكِلّفَه حياتَه:

عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا عُتَيُّ بْنُ ضَمْرَةَ قَالَ: «قُلْتُ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «مَا لَكُمْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلم نَأْتِيكُمْ مِنَ الْبُعْدِ نَرْجُو عِنْدَكُمُ الْخَبَرَ أَنْ تُعَلِّمُونَا فَإِذَا أَتَيْنَاكُمُ اسْتَخْفَفْتُمْ أَمْرَنَا كَأَنَّا نَهُونُ عَلَيْكُمْ»، فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَئِنْ عِشْتُ إِلَى هَذِهِ الْجُمُعَةِ لَأَقُولَنَّ فِيهَا قَوْلاً لاَ أُبَالِي اسْتَحْيَيْتُمُونِي عَلَيْهِ أَوْ قَتَلْتُمُونِي»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ مِنْ بَيْنِ الأَيَّامِ أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَإِذَا أَهْلُهَا يَمُوجُونَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فِي سِكَكِهِمْ فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ هَؤُلاَءِ النَّاسِ؟ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَا أَنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ؟ قُلْتُ: لاَ قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ مَاتَ سَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، قُلْتُ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فِي السِّتْرِ أَشَدَّ مِمَّا سَتَرَ هَذَا

---

(١) عينه.

(٢) ابن أبي شَيْبَة، **المصنَّف**، ٤٦٨/٧؛ ابن حَنْبَل، **المُسْنَد**، ١٨٦/٣٥ - ١٨٧؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٥٠٠/٣- ٥٠٢؛ الطّبراني، **المعجم الأوسط**، ٢١٧/٧؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٤٣٥/٤٩.

الرَّجُلَ» فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «هَلَكَ أَصْحَابُ الْعُقْدَةِ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَلاَ آسَى عَلَيْهِمْ»، أَحْسِبُهُ قَالَ: مِرَارًا»[1].

لكن أُبَي وُجِد ميتًا عشية ذلك اليوم[2]، وهو ما يغذّي الشكوك؛ لعل أُبَيًا - وقد كان للرسول صاحبًا، ومتمتعًا بمنزلة خاصة وملقّبًا بـ «سيّد القرّاء» - كان يعرف أكثر مما ينبغي. وفي أية حال، اندرج موته في مجموعة من الميتات الغامضة الأخرى التي أعقبت وفاة الرسول، كوفاة سيّد الخَزرَج، سعد بن عُبادة، وقد كان خصمًا لأبي بكر، ومرشّحًا للخلافة، ورافضًا لمبايعة الخليفة الجديد، إذ قال: «وأَيْمُ الله لو أنَّ الجِنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم، حتى أُعرَض على ربّي، وأعلَم ما حسابي»[3]. وكما لو أن كلامه قُبل على الفور، قتل سعد في اللاحق من الأيام، كما يقول أهل السّنّة، بسهمَيْن رماه الجنُّ بهما.

يروي ابن سعد في **الطبقات**: «أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا سعيد بن أبي عروبة قال سمعت محمد بن سيرين يحدث أن سعد بن عبادة بال قائمًا فلما رجع قال لأصحابه إني لأجد دبيبًا فمات فسمعوا الجن يقول:

قَدْ قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزْرَجِ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةْ
وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ فَلَمْ نُخْطِ فُؤَادَهْ[4]»

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ٥٠٠/٣؛ وانظر أيضًا: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٣٤٠/٧؛ الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٢٤٢/٣.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٥٠١/٣؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٣٤١/٧. لم يحَدَّد تاريخ وفاة أُبَيّ بن كعب بدقّة؛ قال بعضهم إنه قُبِضَ في العام ٢٢ (في خلافة عمر)، وقال آخرون في العام ٣٠ (في خلافة عثمان). والفرضيّة الثانية أكثر احتماليّة لأن أُبَيّ ساهم في غالب الظّن في جمع القرآن الذي أمر به عثمان وكان عضوًا في اللجنة التي رَئسها زيد بن ثابت.

(٣) الطّبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٤٤/٢.

(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٦١٧/٣؛ انظر أيضًا: ابن عبد البرّ، **الاستيعاب**،=

ما يهمّنا الآن هو أن عودة محمّد من مكّة تَمّت في جوّ من الاحتقان الشديد. فالخُطب التي ألقاها خلال حَجّة الوداع وفي غدير خُمّ لم تترك أيّ شك يساور صحابته في أن اللحظة التي ستُطرح فيها خلافته، باتت لا محال وشيكة. كان محيط النبيّ في الواقع يستَعِر بالاهتياج، والمطامع ماضية في تأجُجها، والدسائس السياسيّة متفلّتة من أعِنّتها؛ بدأ إذ ذاك العدّ العكسي. وسرعان ما تزايد التوتّر عشرة أضعاف عندما، وعقب وصوله مباشرة إلى المدينة في نهاية ربيع العام ٦٣٢م، بدأ إذ ذاك النبيّ يشعر بالعوارض الأولى للمرض الذي كان ليسرّع من أجَله.

=٥٩٩/٢؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٧٢/٢. ثمّة مصادر عربية لا تضمن صحّة هذه الرواية «المنافِيَة للعقلانيّة» وتؤكد بوضوح على أن عمر أمر بإعدام سعد بن عُبادة، «الخصم المعارض»؛ إذ زَوّد النفر الذي بعث بهم إلى سعد بتعليمات واضحة: البيعة أو الموت؛ فقُتِل سعدٌ بسهام لم يكن الجِنّ من رماه بها، بل قتلةُ عمر المأجورين (البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٧٢/٢).

الفصل السادس

بَعْثُ أُسامَةَ

«بعدما قضى حجّة الوداع»[*]، وصل محمّد المدينةَ مريضًا. لم تكن مشقّات السفر هي السبب، إنما صُداع في الرأس كان يعاني منه باستمرار. ومع أنَّ أبا القاسم اعتاد الشَّقيقة التي كانت تجبره في بعض الأحيان على ملازمة البيت («كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما أخذته الشقيقة فيلبث اليوم واليومين لا يخرج»[1]) إلا أن هذه المرة كان الرؤاس فظيعًا لدرجة أغرقه معها في حال من الخمول منعته من السّير، بل حتى من الوقوف على رِجْلَيْه. لم يعد من عمره إلاّ القليل. ومع أن أهل السِّيَر لا يُجمعون على طول مدّة مرض النبي، إلا أنه يسعنا الاستنتاج مما كتبوا أن وضعه الصحيّ أضحى ينذِر بالخطورة بَدْءًا من النصف الثاني من شهر أيار/مايو من العام ٦٣٢م (أي آخر أيام شهر صَفَر من سنة إحدى عشرةَ من الهجرة)[2]. وبهذا يكون مرضه قد دام مدة تراوحت بين عشرة أيام وثلاثة عشر يومًا[3].

(*) الطّبريّ، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٢٤/٢. (م.)

(١) الطّبريّ، عينه، ٢٢٤/٢ - ٢٢٦.

(٢) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٦٤٢/٢؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٠٦/٢، ٢٧٢/٢؛ الطّبريّ، **تاريخ...**، ٢٢٦/٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٥٠٦/٤؛ ابن كثير، **البداية**، ٢٧٥/٥ - ٢٧٦.

(٣) عمد ابن كثير إلى إيجاز الروايات المتعددة في تاريخ بدء مرض الرسول وتاريخ وفاته.=

مع اشتداد المرض عليه، نال الإرهاق من أبي القاسم لدرجة فقد معها القدرة على الطواف على نسائه، وهو الذي اعتاد التنقل بين منزل هذه ومنزل تلك، بحيث يمضي ليلة واحدة في وفادة كلّ منهنّ. هذا ما أوجب حَمْلَه في «ثوب» يمسك بأطرافه أربعة رجال[(١)]: «أَخْبَرَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ اللَّيْثِيُّ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ: «أَنَّ النَّبِيَّ صلّى الله عليه وسلّم كَانَ يُحْمَلُ فِي ثَوْبٍ يُطَافُ بِهِ عَلَى نِسَائِهِ وَهُوَ مَرِيضٌ يَقْسِمُ بَيْنَهُنَّ»[(٢)].

كان محمد في بيت ميمونة، «آخر امرأة تزوجها»[(*)]، عندما شعر بتردّي حاله وبالحمّى تقبِض عليه[(٣)]. جمع إذ ذاك أزواجه واستأذنَهُنَّ

=وفي هذا الصدد، يقول المؤلّف إن هذا اللُّبْس في التسلسل الزمني يجد له ما يفسّره في ظهور القمر بين مكّة والمدينة: إذ التمس سكان المدينة هلال شهر ذي الحِجَّة يومَ خميس، في حين رآه أهل المدينة في اليوم التالي أي الجمعة؛ وبهذا، أيًا تكن مدة الأشهر (تسعة وعشرين يومًا أو ثلاثين يومًا)، فإن أول أيام ربيع الأول وقع في يوم خميس، وبالتالي كان الثاني عشر من هذا الشهر يوم اثنين (انظر: ابن كثير، **البداية**، ٢٧٥/٥ - ٢٧٦). وإذ يتوسّل الحجّة نفسها، يشرح ابن كثير أيضًا التباين في شأن التاريخ الدقيق لوفاة الرسول، وهو ما سنراه في اللاحق من صفحات كتابنا هذا.

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٣١/٢؛ البَيْهقي، **السّنن**، ٤٨٧/٧؛ البلاذُرِيّ، **أنساب الأشراف**، ٢١٦/٢؛ الذّهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٣٣٠/٢؛ ابن كثير، **البداية**، ٢٦٢/٥ وفيها يؤكّد أن موالي الرسول الأربعة كانوا: أبو مُوَيْهِبَة، وأبو رافع، وشُقْران، وثَوْبان النبوي.

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٣١/٢؛ البيهقي، **سُنَن**، ٤٨٧/٧؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢١٦/٢؛ الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٣٣٠/٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٦٢/٥.

(*) عن ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٣٢/٨. (م.)

(٣) بحسب روايات أخرى، نال المرض الشديد من الرسول «وهو في بيت زينب» (الطّبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٢٦/٢). أما البلاذُري فيقول في **أنساب الأشراف** (٢١٤/٢)، إن النبيّ شعر بالعوارض الأولى للمرض وهو عند سريته رُبَيْحَة، وهي كانت مولاته.

الاستقرار في بيت عائشة[1]؛ فارتَضَيْنَ الأمر «فأذِنَّ له»: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ حَتَّى اسْتُعِزَّ بِهِ وَهُوَ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ فَعَرَفَ نِسَاءُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ فِي بيتي، فَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمُنَا الَّذِي يُصِيبُنَا لأُخْتِنَا، يَعْنِينَ عَائِشَةَ»[2].

وعلى الرغم من مخالفته للإرشادات الصحيّة التي كانت تقتضي من الرسول التقيّد بها، وجد هذا الانتقال له ما يسوّغه في كون عائشة، على ما يبدو، ممرضة ممتازة:

عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَقَدْ صَحِبْتُ عَائِشَةَ فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ كَانَ أَعْلَمَ بِآيَةٍ أُنْزِلَتْ وَلاَ بِفَرِيضَةٍ وَلاَ بِسُنَّةٍ وَلاَ بِشِعْرٍ وَلاَ أَرْوَى لَهُ وَلاَ بِيَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ وَلاَ بِنَسَبٍ وَلاَ بِكَذَا وَلاَ بِكَذَا وَلاَ بِقَضَاءٍ وَلاَ طِبٍّ مِنْهَا. فَقُلْتُ لَهَا: يَا خَالَةُ الطِّبُّ مِنْ أَيْنَ عُلِّمْتِهِ؟ فَقَالَتْ: كُنْتُ أَمْرَضُ فَيُنْعَتُ لِيَ الشَّيْءُ وَيَمْرَضُ الْمَرِيضُ فَيُنْعَتُ لَهُ وَأَسْمَعُ الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه[3].

في الواقع، إن وَقَعَ الخِيار على عائشة فلبراعتها في مراقبته والتجسّس عليه.

كان نقل الرسول مضنيًا. إذ، عندما هَمّ بالخروج من منزل ميمونة، وجب على رجُلَيْن حمله، فراحت ساقاه المتراخيتان تخطّان في الأرض. وقد روت عائشة هذه المشهدِيّة، فقالت: «لما ثَقُلَ رسول الله، صلّى الله

---

(١) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٤٣/٢؛ وانظر أيضًا: البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/ ٢١٥ - ٢١٦؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤٤٥/٤.
(٢) ابن سعد، الطبقات، ٢٣٣/٢؛ وانظر أيضًا: البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢١٦/٢.
(٣) الذّهبي، سِير أعلام النبلاء، ٤٥٦/٣.

عليه وسلّم، واشتدّ به وجعه [...] فخرج بين رَجُلَيْن تخطّ رِجلاه في الأرض بين ابن عباس، تعني الفضل، وبين رجل آخر»(*)[1]. وإذ عَلّق على هذه الشهادة، قال ابن العبّاس إنَّ الرجل الآخر الذي لم تسمِّه عائشة ليس إلا عليًا، مؤكدًا «إن عائشة لا تطيب له نفسًا بخير»(**)[2]، فهي لم تغفر له موقفه ضدّها في حادثة الإفك الشهيرة حين أُتّهمت بالخيانة الزوجيّة. وسنرى في اللاحق من صفحات هذا الكتاب إلى أيّ حدّ لعبت التشنّجات العائليّة دورًا جوهريًا في اللحظات الأخيرة من حياة الرسول.

كان لإقامة محمّد في منزل عائشة عواقب حاسمة بلا أي شكّ. فانطلاقًا من تلك اللحظة، لا يعود في متناولنا تقريبًا إلا شهادة هذه المرأة الذكيّة والكيّادة. وبما أنّها كانت الشاهد الوحيد على ساعات احتضار زوجها الرهيبة، فإنه كان من الاستحالة بمكان تقريبًا الاقتراب من المحتضِر دون المرور بها... لكن في هذا الطور من الأحداث، كان الرسول لا يزال مسيطرًا بعض الشيء على الأمور، وهذا ما جعله يتّخذ قرارات سياسيّة ومنها تعيين العُمّال لتجميع الصَّدقات وإرسال بعض المبعوثين إلى الملوك بكتب يدعوهم فيها إلى الإسلام[3].

قبل بضعة أيام على موته[4]، أمر محمّد أُسامَةَ بن زيد بن حارِثة،

(*) عن ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٣٢. (م.)

(١) لنلفِت في دَرْج الكلام إلى القوة الرمزية التي تنضح بها هذه الصورة حيث نرى النبيّ مستندًا على جَدّ العباسيين وجدّ أنصار عليّ.

(**) عن ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٣٢. (م.)

(٢) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٢/٦٤٩؛ ابن سعد، **الطبقات**، ٢/٢٣٢؛ ابن ماجة، **السُّنن**، ١/٥١٧؛ الطّبري، **تاريخ...**، ٢/٢٢٦؛ ابن كثير، **البداية**، ٥/٢٤٥.

(٣) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٢/٦٠٥ - ٦٠٧؛ الطّبري، **تاريخ...**، ٢/٢٤٧.

(٤) ابن سعد، **الطبقات**، ٢/١٩٠؛ يؤكّد ابن سعد على أن الأمر بِبَعْث أسامَةَ أُسدِيَ السبت، أي قبل يومين على وفاة الرسول.

بقيادة سَرِيَّة، أي حملة عسكريّة، باتجاه سوريا[١]. كانت الأصقاع التي استهدفتها تلك البَعْثَة كلًا من البَلْقاء والدّاروم، على الحدود الفلسطينيّة في عمق الأراضي البيزنطيّة[٢].

ثَمّة سببان دفعا النبيّ إلى إرسال أسامَةَ باتجاه البَرّ البيزنطي: من جهة، خبر أفاده بأنَّ الفيالق البيزنطيّة بدأت الاحتشاد على الحدود بنيّة الهجوم عليه؛ ومن جهة ثانية، رغبته في الثأر لموت زيد (والد أُسامَةَ) الذي قتله البيزنطيّون في موقعة مُؤْتَة قبل سنتين[٣]. لكن لماذا هذه الرغبة المفاجئة في الثأر لموت زيد في حين أن غَزْوة تَبوكَ، التالية مباشرة لغزوة مؤتَةَ، لم يكن لها هذا الهدف[٤]؟ ثم إن العدد القليل من الجنود الذين استُنْفِروا لبعثة أسامة هذه (وقد تراوح قوامُها بين سبع مئة وثلاثة آلاف رجل) يجعل من حافز الثأر من الجيش البيزنطي الجبّار، حافزًا منعدم الصِّدقِيّة[٥]. في الواقع، كان لبَعثة أُسامَةَ مرامي سياسيّة داخليّة سنَعْرِض لتفاصيلها لاحقًا.

أَسْدى النبي إلى خواص صحابته، ومنهم أبو بكر وعمر، الأمرَ

---

(١) فيما يلي التسلسل الزمني للأحداث كما يزوّدنا به ابن سعد، في **الطبقات الكبرى** (٢/ ١٨٩ - ١٩١): يوم الاثنين، أي قبل أربعة ليال على انقضاء شهر صَفَر من سنة إحدى عشرة من الهجرة، أمر الرسول المسلمين «بالتهيؤ لغزو الروم»؛ وفي اليوم التالي، أي الثلاثاء، أمّر أسامة على الجيش؛ غادر الأخير المدينة يوم الخميس «وعَسْكَر بالجُرْف» بمعية الخواص من صحابة النبيّ.

(٢) بحسب الواقدي في **كتاب المغازي** (١١١٨/٣)، كان المقصد الحقيقي لآخر غزوة أمر بها محمّد هو «أُبنَى» (المعروفة اليوم باسم خان الزيت).

(٣) ابن سعد، **الطبقات**، ١٩٠/٢.

(٤) عُدْ إلى الفصل الأول من كتابنا هذا: «تَبوكَ آخر الغزوات».

(٥) ابن حجر، **فتح الباري**، ١٥٢/٨ - ١٥٣.

بالانضمام إلى جيش أُسامَة[1]، غير أن قراره هذا لم يجد لديهم اسْتِسَاغَةً، فهم لم يحبّذوا بالفعل أن يُعْهَد بالقيادة إلى شاب في السابعة عشر من عمره، أي في سِنّ ابن من أبنائهم، ناهيك عن أنه ليس إلا معتوقًا، أي ذات منزلة اجتماعيّة أدنى من منزلتهم. فراح القوم يتهامسون قائلين: «يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين؟ فَكَثُرَتْ الْقَالَةُ فِي ذَلِكَ»[2]. يسعنا بالتأكيد العجبَ لرؤية محمّد يعيّن شابًا غِرًّا على رأس جيش يضِمّ رجالاً متمرّسين. مع ذلك، إن تبصّرنا في الأمر جيدًا، لوجدنا أن الصحابة المقرّبين من محمّد لم يتميّزوا يومًا بالبسالة العسكريّة؛ بل إن ثمّة شُبْهة تحوّم حتى حول عمر فتتهمه بالفرار وغزوة أُحُد الشهيرة على أشدّها[3]. كما أن النبيّ لم ينسَ أن أبا بكر وعمر قد فشلا فشلاً ذريعًا في هجومهما على الحصن اليهودي أثناء غزوة خَيْبَر[4]. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الطّبريّ ينعت المحتجّين على تكليف أسامةَ بالمهمَّة، بـ «المنافقين»[5]؛ ولنذكّر بأن هؤلاء المنافقين أنفسهم، الذين لم يُعْمَد أبدًا إلى المجاهرة بأسمائهم بدقّة مع أنهم مقرّبون من الرسول، قد اعترضوا على غَزْوَة تبوكَ وحاولوا، كما قيل، اغتيال محمّد

(١) لا يذكر الواقدي أبا بكر في معرض تعداده لأسماء الصحابة الذين استُدْعوا للانضمام إلى بعثة أسامَة (كتاب المغازي، ٣/١١١٨).

(٢) ابن سعد، الطبقات، ٢/١٩٠؛ وفي ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٢/٦٥٠: «أمَّرَ غلامًا حَدَثًا على جِلّة المهاجرين والأنصار»؛ وانظر أيضًا: الواقدي، كتاب المغازي، ٣/ ١١١٨.

(٣) يقال إن عمرًا، لما استشرف هزيمة المسلمين في أُحُد، فرّ مهرولاً من ساحة المعركة. وفي شأن فرار عمر من موقعة أُحُد، انظر: تفسير الطّبريّ، ٣٢٧/٧.

(٤) في غَزْوة خَيْبَر، وإذ كان يعاني آلام الشّقيقة، كلّف محمّد أبا بكر وعمرًا بالخروج للقتال لكنهما عادا بخفّيْ حُنَيْن (انظر: الطّبريّ، تاريخ الأمم والملوك، ٣/١٣٦).

(٥) الطّبريّ، تاريخ...، ٢/٢٢٥: «وقد أكثر المنافقون في تأمير أسامة».

في طريق عودته منها. وعلى العموم، عندما نتصفّح كتب التراث الإسلامي، نلاحظ في غالب الأحيان أن الحَدّ الفاصل بين مفهومَيّ «الصحابي» و«المنافق» ليس إلاّ خيطًا رفيعًا.

عندما تناهت إلى مسمعه هذه الاعتراضات على تولية أُسامَةَ، غَضِبَ رَسُولُ اللّٰهِ صلّى الله عليه وسلم، غَضَبًا شَدِيدًا[١]. وعلى الرغم من مرضه الذي راح يتمَظهر في دلالات مثيرة للقلق، اعتلى مِنبَر المسجد «وقد عَصَبَ على رأسه عِصابةً وَعَلَيْهِ قَطِيفَةٌ»[*] بسبب الشقيقة، ليدعوَ المسلمين إلى الانتظام؛ قال:

أمّا بعدُ، يا أيّها الناس، فما مَقالةٌ بلغتْني عن بعضكم في تأميري أُسامةَ بن زيد؟ واللهِ، لئن طَعَنتم في إمارتي أُسامةَ لقد طعنتم في إمارتي أَباه من قبله[**]؛ وإيمُ اللهِ، إن كان للإمارة لَخَليقًا [وفي الأصل: «لخليق»] وإنَّ ابنه من بعده لَخليقٌ للإمارة، [...] وإنَّ هذا لمن أَحبِّ الناس إليّ، وإنهما لَمُخِيلان [أي «خليقان»] لكلّ خير»؛ ثم أضاف: «أَنْفِذوا بَعْثَ أسامة»[٢].

في ذلك اليوم، كانت نبرة الرسول شديدة الحزم لدرجة قيل معها إنه

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ٢/١٩٠.

(*) عن الواقِدي، **كتاب المغازي**، ٣/١١١٩. (م.)

(**) يقصد «يومَ جعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها» (نقلاً عن الزركلي، **الأعلام**، ٣/ ٩٦٠ (م.)).

(٢) الواقِدي، **كتاب المغازي**، ٣/١١١٩؛ انظر أيضًا: ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٢/ ٦٥٠؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/١٩٠؛ و٢/٢٤٨ - ٢٥٠ وهذا هو: «ذكر ما قاله رسول الله، صلّى الله عليه وسلم، في مرضه لأسامة بن زيد، رحمه الله»؛ و٤/ ٦٨؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٢/٥١.

رفع الصوت[1]. ولكي يوقف ثالبي أُسامَةَ عند حدّهم نهائيًا، ذكّر محمّد سامعيه بأن زيدًا، والد «الغلام»، كان بالنسبة إليه أَحَبّ الناس إلى قلبه وأن ابنه، إثر موته، هو من يَشْغَل عنده هذه المكانةَ من بعده: «فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « أَنْ تَطْعُنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ وَايْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»[2].

كان الرسول يحبّ أُسامَةَ بقدر ما أَحَبّ أباه، زيد بن حارثة، وقد كان له من المقربين الثّقات. وحتى اقتران محمّد بزينب، وقد كانت زوج زيد (وهذا قران شهير استجَرَّ حَظْرَ التَبنّي في الإسلام)، كان الأخير ابن الرسول بالتّبنّي[3]. غير أن هذا الزواج لم يكدِّر العلاقة بين الرجلَيْن ولم يشوِّهها، بل إن إمارة العديد من الغَزَوات أُسْدِيَت إلى زيْد الذي كُلِّف مرتَيْن الاضطلاعَ بشؤون المدينة في غياب محمّد عنها. ومن جهتها،

---

(١) ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٥٦/٢.

(٢) ابن حَنْبَل، **المُسْنَد**، ٣٢٥/٨؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات**، ٤٣/٣؛ **تفسير البُخاري**، ٢٤٤٤/٦.

(٣) يشرح المؤرخ دايفد باورز (David S. Powers) حَظْر التبنّي في الإسلام بالاستناد على عقيدة النبوّة كما وصفها القرآن (في سورة الأحزاب وترتيبها ٣٣، الآية: ٤٠): ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ...﴾. انظره في: دايفد س. باورز، **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم. صناعة النبيّ الأخير** David S. Powers, *Muhammad Is Not the Father of Any of Your Men. The Making of the Last Prophet*. Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 2009).

وفي هذا الشأن، انظر أيضًا: إدوار كونت، «الأنساب النبويّة، تأمّلات في شخص محمّد» Édouard Comte, "Filiations prophétiques. Réflexions sur la personne de Muhammad", *in* Pierre Bonte et Édouard Comte, *Émirs et Présidents: figures de la parenté et du politique dans le monde arabe*. Paris, CNRS, 2001, pp. 57-58.

قالت عائشة: «مَا بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فِي جَيْشٍ قَطُّ إِلاَّ أَمَّرَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ بَقِيَ بَعْدَهُ لاَسْتَخْلَفَهُ»(١).

في كتب التراث الإسلامي، ثمّة فِقْرات تنطوي على كثير من المعاني توحي معها بشيء من اللُّبس الذي يَشوب علاقة محمّد بيزيد: «عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا رَأَيْت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرْيَانًا قَطّ إِلاّ مَرَّةً وَاحِدَةً، جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مِنْ غَزْوَةٍ يَسْتَفْتِحُ، فَسَمِعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَهُ فَقَامَ عُرْيَانًا يَجُرّ ثَوْبَهُ فَقَبَّلَهُ»(٢).

وعندما قتل زيد في موقعة مؤتَةَ، عبَّر النبيّ جِهارًا عن الحزن الذي اجتاحه و«انتحب»؛ فإذا بالعجب ينال من سعد بن عُبَادَةَ الذي سأله: «يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذا شوق الحبيب إلى حبيبه»(٣). ومُذ ذاك جَيّر النبيّ عاطفته إلى ابن الفقيد.

إن أُسامَةَ المولود في مكّة نحو العام ٦١٥م، هو ابن زيد الذي أنجَبَتْه له أم أيمَن، واسمها بَرَكَة بنت ثَعْلَبَة، وقد كانت حاضنة محمّد الحبشِيّة التي ورثها عن أبيه(٤). وبهذا كان أُسامَةَ ابن شخصَيْن غاليَيْن على قلب الرسول: زيد الذي كان يعتبره ابنه، وأمّ أيمن التي قال لها أبو القاسم

---

(١) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٤١٢/٤٣؛ انظر أيضًا: البلاذُري، أنساب الأشراف، ١١٣/٢.

(٢) يذكر الواقِدي هذه السالفة مرتين في كتاب المغازي، ١١٢٦/٣ و٥٦٥/٢؛ انظر أيضًا: ابن سعد، الطبقات، ٩٠/٢؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ١١٤/٢؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٣٦٦/١٩؛ المتقي، كنز العمال، ٩٧٦/١٠.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٤٧/٣؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ١١٤/٢.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٦٧/٦. تروي عائشة: «شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا وأم أيمن عنده، فقالت: يا رسول الله اسقني، فقلت لها: ألرسول الله صلى الله عليه وسلم تقولين هذا؟ فقالت: ما خدمته أكثر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدقت، فسقاها» (انظر: السّيرة الحلبيّة، ٧٨/١).

يومًا: «أمّ أيمن، أمّي بعد أمّي»(١). أما أسامة بن زيد فلقد كُنّيَ بـ «الحِبّ ابن الحِبّ»(٢). وثمّة من صحابة محمّد مَنْ جزم أنه لم يَرَ قطُّا الرسول يظهر حبًّا بقدر ذاك الذي أظهره حِيال أسامَةَ، «ما حاشا [بلا شك ابنته] فاطمة»(٣). ولقد زخرت كتب التراث الإسلامي بالكثير من المشهديّات التي يُظْهِر فيها الرسولُ عاطفةً جياشةً لامتناهيَةً حِيال هذا الشاب الذي لم يكن بهيّ الطَّلْعَة، بل «وَكَانَ شَدِيْدَ السَّوَادِ، خَفِيْفَ الرُّوْحِ، شَاطِرًا شُجَاعًا»(٤). وفي يوم سقط أسامَةَ وكَلَم وجهه، رأى القوم أبا القاسم «يَمُصّ شَجَّتَه ويَمُجّهُ»(٥) بنفسه. إن عائشة التي نقلت الحادثة، أقرَّت بأنها «تَقَذَّرَتْه» رافضة إماطَة الدمّ عن جبهته(٦). وفي حديث آخر، يلفِت إلى متناقضات عائشة التي لا تنتهي، نرى المحظيَّةَ تسارع إلى كَشْط مُخاط أسامَةَ الصغير عِوض محمّد الذي قال لها: «يا عائشة أَحِبّيه، فإنّي أحبّه»(٧)؛ بل إن محمّدًا نفسه «يُنَحّي مخاطَ» أسامة، معتوقه، بثوبه(٨). ولقد بلغَ عطف الرسول بالصبيّ الصغير مبلغًا دفعه إلى تأنيب ابنته بسببه:

---

(١) ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٥١/٨؛ السّيرة الحلبيّة، ١٥٤/١. يقال إن الرسول قال الشيء نفسه في فاطمة بِنْت أَسَد، أمّ عليّ بن أبي طالب (انظر: الطّبراني، المعجم الكبير، ٣٥١/٢٤).

(٢) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٦٨/٢؛ انظر أيضًا: ابن عبد البَرّ، الاستيعاب، ٧٥/١؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٥٢/٨.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٢٥٠/٢؛ انظر أيضًا: ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٥٦/٨، ٥٩/٨.

(٤) الذهبيّ، سِيَر، ١٠٧/٤.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ٦٢/٤؛ السُّهيلي، الرَّوْض، ٥٠٩/٧؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٦٨/٨؛ ابن الأثير، أُسْدُ الغابة، ١٨٠/١.

(٦) ابن سعد، الطبقات، ٦٢/٤؛ وانظر أيضًا: البلاذُريّ، أنساب الأشراف، ١١٧/٢؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٦٦/٨ - ٦٧.

(٧) التِّرمِذي، السّنن، ٦٧٧/٥؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٦٦/٨.

(٨) السُّهَيْلي، الرَّوض الأُنُف، ٥٠٩/٧.

إذ، وفي يوم كانت فيه فاطمة «تمسح عن وجه أُسامَة شيئًا»، خيِّل لمحمّد أنها تؤذيه، «فاجْتَذَبَه [...] وانْتَهَرها» بقسوة، فابتعدت وهي تعتذر[1].

وفي شأن معتوقه المفضّل قال محمّد: «لو أنّ أسامة جارية لحَلّيتُها وزيّنتُها حتى أُنفِقَها»[2]. وعندما يصفون مشاهد من حياة محمّد العائلية وفيها نراه يلاطف حفيدَيْه الحَسَن والحسين، يحرص الرُّواة في المصادر الإسلامية بانتظام على إظهار أُسامَةَ مستفيدًا هو الآخر من حنان الرسول وعَطْفِهِ. وفي هذه المشاهد، يتبدّى لنا أبو القاسم قائلًا في معرض كلامه عن الحَسَن وأسامَةَ اللذَيْن يجلسهما «على فخذه»: «اللهمّ إنّي أُحبّهما فأحبَّهما»[3]. ومما لا شكّ فيه أن الأمر يتعلّق هنا بمناورة سنيّة هدفها تنسيب المحبّة الأبويّة التي كان الرسول يكُنّها لابنَيّ عليّ، مشيرة بذلك إلى أن الحَسَن والحسَيْن لم يستأثِرا بها وحدهما دون غيرهما[4].

---

(١) الواقِدي، كتاب المغازي، ١١٢٦/٣.

(٢) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٥٠/٤٣؛ انظر أيضًا: ابن سعد، الطبقات، ٦٢/٤؛ ابن ماجة، السّنَن، ٦٣٥/١؛ البلاذُريّ، أنساب الأشراف، ١١٧/٢؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٦٧/٨؛ السّهيلي، الرّوْض، ٥٠٩/٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٦٢/٤؛ وانظر أيضًا: تفسير البُخاري، ١٣٦٩/٣؛ النّسائي، فضائل الصّحابة، ٢٤/١؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ٣٢/٣؛ المتّقي، كنز العمّال، ١٢٠/١٢.

مع ذلك، يجزم مؤلفو السّنّة من مَصاف التّرمذي أن الرسول نطق بهذه الجملة قاصدًا بها حفيدَيْه الحَسَن والحُسَيْن (التّرمذي، السّنن، ٦٥٦/٥). وفي الواقع، ليس من النادر رؤية المؤلّفين من مصاف ابن عساكِر يقوّلون الرسول الجملة نفسها في حالتَيْن مختلفتَيْن: الأولى في شأن الحَسَن وأُسامَةَ، والثانية في شأن الحسن والحسين (ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ١٥٥/١٤ و٤٧/٨). يكشف هذا اللُّبس عن نوايا المصنّفين من أهل السّنّة وعن حريّة التصرّف التي كانوا يجيزونها لأنفسهم إبّان وضعهم لسيرة محمّد.

(٤) مع ذلك، لا يسعنا القول إن توصيف العاطفة التي كان الرسول يكُنّها لأُسامَةَ ناتج فحسب عن «مناورة» سُنية؛ فالشيعة أنفسهم يقرّون بالمكانة المميّزة لأُسامَةَ في قلب محمّد (انظر في هذا الشأن: كتاب سُلَيم، ٤٢٤/١).

وفي يوم، أنزل فيه محمّد بسارقة انتمت إلى بني المخزوم، وهم كانوا قبيلة قرشيّة معتَبرة، حكمًا يقضي ببتر يدها[1]، نال الانفعال من الجمع أمام شدّة العقوبة؛ وعندما أراد القريشيون ثَنْي محمّد عن قراره، فَزَعوا «إلى أسامة بن زيد يَسْتَشْفِعونه» لعلمهم بأن الرسول لا يردّ له طلبًا. لكن عندما طلب منه مَحْظيّه إعادة النظر في حكمه على السارقة المخزوميّة، استشاط أبو القاسم غضبًا وتلوّن وجهه:

فَقَالَ: «أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟» قَالَ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ خَطِيبًا، فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا». ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ فَقُطِعَتْ يَدُهَا[2].

وبالنظر إلى المكانة الخاصة التي كان يشغلها أسامَة في قلب النبيّ، لا يسعُنا إلا التساؤل عن السبب الذي حدا بصحابة محمّد إلى العجب لرؤيته يؤمِّره على بَعْثَة عسكرية. لكن، وعلى الرغم من استيائهم، نفّذ الصحابَة الأمر وشرعوا يستعدّون للخروج. مع ذلك، ولكونهم لا يجرؤون على نقض النبيّ ومنازعة أوامره صراحة، راح الصحابَة المنتدَبون يَسْتَبْطِئون في الخروج للالتحاق بالمعسكر القائم في الجُرْف،

(١) تتضح هَيْبَة قبيلة بني مخزوم عندما نعلم أنّ فاطمة بنت عمرو، جدّة الرسول لأبيه، كانت من عِدادها.

(٢) **صحيح البُخاري**، ١٣٦٦/٣؛ انظر أيضًا: **صحيح مسلم**، ١١٤/٥؛ ابن ماجة، **السّنن**، ٨٥١/٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٦٠١/٣.

على بعد بضعة كيلومترات شمال غرب المدينة[1]. وأمام تقاعسهم وقلّة حماستهم، لم يتوقّف محمّد، الذي أنهكه المرض، عن إسماعهم أمره قائلاً: «أَنْفِذوا بَعْثَ أُسامَة»، وجعل يكرره مرّات ومرّات حتى أُغمي عليه[2]. ومن جهتهم، جزم المؤلّفون الشيعة بأن النبيّ لم يكتفِ بإسداء أمره القاسي ذاك، بل دفع إليهم باثنين من الأنصار، هما قَيْس بن سعد بن عبادَة، سيّاف الرسول[3]، والحُباب بن المنذِر الأنصاري، لحملهم على الطاعة بالقوة، فيَلْحَقون بالمعسكر[4]. ولقد روى حُذَيْفَةُ كيف أن أبا بكر وعمرَ وأبا عبيدة اخْتَلَوْا بأسامة وصحابة آخرين قائلين للفتى: «إلى أين ننطلق ونخلِي المدينة ونحن أحوَج ما كنّا إليها وإلى المقام فيها؟» غير أن أسامة لم يصغِ إليهم وبقي حريصًا على الامتثال لأوامر الرسول فلم يتخلّف[5]. وبحسب الشيعة:

خلا أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بأسامة وجماعة من أصحابه

---

(١) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٥٠/٢.

(٢) يتعلّق الأمر هنا بالرواية الشيعية المطبوعة على الدوام بالشّجى وباستثارة العواطف والمشاعر. (انظر: مفيد، الإرشاد، ١٨٤/١).

(٣) يؤدي قيس بن سعد بن عبادة مهام صاحب الشرطة في خدمة الرسول (تفسير البخاري، ٢٦١٦/٦؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ٣٤٦/١٨؛ ابن عبد البَرّ، الاستيعاب، ٣/ ١٢٨٩؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٤٠٢/٤٩ - ٤٠٣؛ ابن الأثير، أُسْدُ الغابة، ٤/ ١٢٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠٧/٨؛ المتّقي، كنز العمّال، ٥٧٧/١٣).

(٤) الدَّيْلَمي، إرشاد القلوب، ٢٣٧/٢؛ المَجْلسيّ، بحار الأنوار، ١٠٨/٢٨؛ علي خان المدني، الدّرجات الرفيعة، ٢٩٠/١.

(٥) المَجْلسيّ، بحار الأنوار، ١٠٨/٢٨؛ قيل إن أُسامَةَ، وإذ لاحظ تدهور صحّة الرسول، فكّر بتأجيل خروجه إلى مؤتَةَ إلى وقت لاحق (ابن أبي الحديد، شرح النّهج، ٥٢/٦؛ المَجْلسيّ، بحار الأنوار، ٤٣٠/٣٠)؛ وثمّة مصدر سُنّي يذكر هذا الأمر أيضًا: الذهبي، سِير أعلام النبلاء، ٣٣٢/٢.

فقالوا: إلى أين ننطلق ونخلي المدينة ونحن أحوج ما كنا إليها وإلى المقام بها؟ فقال لهم: وما ذلك؟ قالوا: إن رسول الله قد نزل به الموت، ووالله لئن خلينا المدينة لَتَحدُثنَّ بها أمور لا يمكن إصلاحها، ننظر ما يكون من أمر رسول الله ثم المسير بين أيدينا، قال: فرجع القوم إلى المعسكر الأول وأقاموا به وبعثوا رسولاً يتعرّف لهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأتى الرسول إلى عائشة فسألها عن ذلك سرًا، فقالت امضِ إلى أبي وعمر ومن معهما وقل لهما: إن رسول الله قد ثقل فلا يبرحن أحد منكم وأنا أعلمكم بالخبر وقتًا بعد وقت. واشتدت علّة رسول الله فدعت عائشة صُهَيبًا فقالت: امضِ إلى أبي بكر وأعلمه أن محمدًا في حال لا يرجى، فهلُمَّ إلينا أنت وعمر وأبو عبيدة ومن رأيتم أن يدخل معكم، وليكن دخولكم في الليل سرًا، قال: فأتاهم الخبر فأخذوا بيد صهيب فأدخلوه إلى أسامة فأخبروه الخبر، وقالوا له كيف ينبغي لنا أن نتخلَّف عن مشاهدة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واستأذنوه في الدخول، فأذن لهم وأمرهم أن لا يعلم بدخولهم أحد، وإن عوفي رسول الله رجعتم إلى عسكركم، وإن حدث حادث الموت عرفونا ذلك لنكون في جماعة الناس.

فدخل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ليلاً المدينة، ورسول الله قد ثقل فأفاق بعض الإفاقة فقال: لقد طرق ليلتنا هذه المدينة شرّ عظيم، فقيل له: وما هو يا رسول الله؟ فقال: إن الذين كانوا في جيش أسامة قد رجع منهم نفر يخالفون عن أمري، ألا إني إلى الله منهم بريء، ويحكم نفذوا جيش أسامة، فلم يزل يقول ذلك حتى قالها مرات كثيرة [...] فلما أصبح

رسول الله من ليلته تلك التي قدم فيها القوم الذين كانوا تحت يدي أسامة، أذن بلال ثم أتاه يخبره كعادته، فوجده قد ثقل، فمنع من الدخول إليه، فأمرت عائشة صُهَيبًا أن يمضي إلى أبيها فيعلمه أن رسول الله قد ثقل في مرضه، وليس يطيق النهوض إلى المسجد، وعلي بن أبي طالب قد شغل به وبمشاهدته عن الصلاة بالناس، فاخرج أنت إلى المسجد فصلِّ بالناس فإنها حالة تهنئك وحجة لك بعد اليوم، قال: فلم يشعر الناس وهم في المسجد ينتظرون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو عليًا يصلي بهم كعادته التي عرفوها في مرضه، إذ دخل أبو بكر المسجد وقال: إن رسول الله قد ثقل، وقد أمرني أن أصلّي بالناس، فقال له رجل من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: وأنّى لك ذلك وأنت في جيش أسامة، ولا والله لا أعلم أحدًا بعث إليك ولا أمرك بالصلاة. ثم نادى الناس بلال فقال: على رَسْلِكم رحمكم الله لأستأذن رسول الله في ذلك، ثم أسرع حتى أتى الباب فدقَّه دقًّا شديدًا فسمعه رسول الله فقال: ما هذا الدقّ العنيف؟ فانظروا ما هو؟ قال: فخرج الفضل بن العباس ففتح الباب فإذا بلال، فقال: ما وراءك يا بلال؟ فقال: إن أبا بكر قد دخل المسجد وقد تقدّم حتى وقف في مقام رسول الله، وزعم أن رسول الله أمره بذلك، فقال: أوَليس أبو بكر مع جيش أسامة، هذا هو والله الشرّ العظيم الذى طرق البارحة المدينة، لقد أخبرنا رسول الله بذلك، فقال رسول الله: أقيموني أقيموني أُخرجوا بي إلى المسجد، والذي نفسي بيده، قد نزلت بالإسلام نازلة وفتنة عظيمة من الفتن. ثم خرج معصوب الرأس يتهادى بين علي والفضل بن العباس، ورجلاه تجران في الأرض حتى دخل

المسجد وأبو بكر قائم في مقام رسول الله وأكثر الناس وقفوا عن الصلاة ينتظرون ما يأتي بلال، فلما رأى النا رسول الله قد دخل المسجد وهو بتلك الحالة العظيمة المرض، أعظموا ذلك. وتقدّم رسول الله فجذب أبا بكر ورائه فنحاه عن المحراب وأقبل أبو بكر والنفر الذين كانوا فتواروا خلف رسول الله وأقبل الناس فصلّوا خلف رسول وهو جالس، حتى قضى صلاته ثم التفت فلم يرَ أبا بكر فقا أيها الناس ألا تعجبون من ابن أبي قحافة وأصحابه الذ أنفذتهم وجعلتهم تحت [يديّ] أسامة، وأمرتهم بالمسير الوجه الذي وجهوا إليه فخالفوا ذلك ورجعوا إلى المدينة ابت الفتنة[1].

قد يبدو لنا عدم اصطبار أبي القاسم على رؤية صحابته يخرجون مواكبة أسامَةَ، مثيرًا للعجب. في الحقيقة، عرض الشيعة لهذا الا بوصفه مناورة سياسيّة، هدف محمّد من ورائها إلى إقصاء خوا صحابته عن المدينة لكي يتسنى له استخلاف عليّ كما يبتغي فيضع أمام الأمر الواقع[2]. هذا ما يفسّر اعتماده على أسامة ليبطِل استباقيًا رغبة تراودهم بالاعتراض على ما عزم عليه. ومن الواضح أن الشاب يُنتَدَب إلا لولائه الراسخ لأبي القاسم. وإن تبصّرنا في مجريات الأ جيدًا، للاحظنا معلومتَيْن سبق للمصادر السّنيّة أن أقرَّتهما، وهما تؤيّ الرواية الشيعيّة: من جهة، إن الصحابة الذين سيحولون فيما بعد د خلافة عليّ لمحمّد هم أنفسهم الذين أمرهم هذا الأخير بالالتحاق بج

(١) المَجْلسيّ، بحار الأنوار، ١٠٨/٢٨.
(٢) المَجْلسيّ، عينه، ١٠٨/٢٨ - ١١٠.

أسامة؛ من جهة أخرى، وعلى عكس الصحابة الآخرين، لا وجود لعليّ في عِداد أولئك الذين أمرهم النبيّ بمواكبة أُسامَةَ.

تطرح الروايات السّنيّة والشيعيّة في هذه البَعْثة نقاط تقاطع أساسيّة: ففي الروايتَيْن، يتّخذ إصرار الرسول على إخراج صحابته من المدينة طابعًا مسرحيًّا حيث تجد استمالة النفوس واستثارة العواطف والمشاعر ما يضاعف حدَّتهما. ومن جهة أخرى، يترافق الوَهَن الجسدي للرسول بضعف ينال من سلطته السياسيّة وتلك المعنويّة (وهو ما تؤكّده الأحداث الموالية). وبالفعل، كانت تِلك المرّة الأولى التي يتِمّ فيها تجاهل أوامر هذا الرجل المتمتّع بهِبَة لَدُنيّة ونفوذ قويّ، تجاهلاً فجًّا فيه إهانة كبيرة للرسول، أتى بها اثنان من أولئك الذين سيخلُفونه.

طوال مرضه، لم يكن عصيان صحابة محمّد لأوامره الدلالة الوحيدة على تضاؤل سلطانه. فبينما كان مُضْطَّجعًا في مَرْقَده لا يفارقه إلا ليقصِد المسجد للصلاة، كانت الأخبار السيّئة تصلُه من بضعة أصقاع شبه الجزيرة العربية، حيث بدأ مُدّعو النبوّة بحشد العديد من المناصرين حولهم، مهدّدين بهذا وحدة الأمة الإسلاميّة. وفي هذا ما يزوّدنا بلا شكّ بالدليل على أن بعثة أُسامَةَ التي أمر بها النبيّ في بلاد الشام، ما كانت إلا حلًّا مؤقتًا: إذ، إن أخذنا في الاعتبار الخطر الواقعي الذي مثّله بروز الحركات الانشقاقيّة، يصبح من المنطقي بمكان أن يعمِدَ محمّد إلى الدفع بكتيبة تخنُقُها في مهدها. غير أن الأمر ليس كذلك: فبالنظر إلى اقتراب أجَلِه، يسعنا الجزم أن النبيّ ما كان ينوي الانخراط في عمليّات عسكريّة كبرى؛ بل لعلّه فكّر في استحقاقات أقصر أمَدًا، وتحديدًا في خلافته التي لم يكن في وسعه تدبيرها وضبطها إلا إن أقصى صحابته عن المدينة...

الفصل السابع
الجدران تتصدّع

غالبًا ما تُقْرَن وفاة النبيّ بإشكاليّة المنافسة بين خلفائه المحتملين. لكن إن نحن تفحّصنا الأيام الأخيرة من حياة الرجل، لأدْركنا أنّ هذه الأزمة تتجلّى على مستوى شبه الجزيرة العربيّة بمجملها حيث، وهذا واقع بقي مكتومًا بطريقة مثيرة للغرابة، وُوجِه محمّد بحركة تمردِيّة واسعة، بل قل ثوريّة، قادها أولئك الذين أُطلق عليهم اسم «الدجّالين». إذ، وخلافًا للصّحابة الذين شُغِلوا بمسألة الخلافة فحسب، كان هؤلاء يعارضون سلطة محمّد ويَدْحَضون حتى مبدأ نبوّته.

طرح التهديد السياسي والديني الذي شكّله الدجّالون على الإسلام خطرًا جدّيًا بما يكفي ليجعلَ من العمل الأول الذي أقدم عليه الخليفة أبو بكر، هو شَنّ حروب دمويّة ضدّهم سمّيت بـ «حروب الرِّدّة». وفي اعتقادنا أنّ المصادر الإسلاميّة كما المورّخين المعاصرين قد قلّلوا من أهميّة الدور الحاسم الذي لعبه أدعياء النبوّة أواخر حياة محمّد[1].

---

(١) كثيرًا ما حذّر محمّد أمّته من ظهور الدجّالين وهم يتساوَوْن و«المسيح الدجّال»، وفي ذلك قال: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجّالون كذّابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله» (أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب المناقب ٦٦١٦/٦؛ السّهيلي، الروض الأُنُف، ٤٩٨/٧. أو: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي=

أصبح أبو القاسم، الذي أضناه المرض بشكل محسوس، رهينة مَرْقَده، وهو الذي كان حتى وقت قصير السّيد العظيم القوة الذي وَفَدت لمبايعته نحو مئة قبيلة في سنة تسع من الهجرة (يوافقها في التقويم الميلادي سنة ٦٣٠ - ٦٣١) «والتي أُطلق عليها اسم سنة الوفود»[١]. فبعد أن كان منبوذًا لفترة طويلة، نجح محمّد، الذي تحلّى بذكاء سياسي يفوق عصره بكثير، في إخضاع قسم كبير من شبه الجزيرة العربيّة. ومن باب سَعْيه إلى ترسيخ سيادته على الأعراب، كان يُعنى عناية خاصة بصورته، ويعرف كيف يبرز سلطته للعِيان بكثير من الأُبَّهة. كان الرسول رجلًا جذّابًا يفتِن من يُجانبه. ولقد عمدت مؤلّفات التراث الإسلامي في غالب الأحيان، إلى تكريس فصل كامل لوصف وسامته: فهو كان «عظيم [و] أَدْعَج العينَيْن، أَهْدَبَ الأشفار»[٢]؛ بشرته البيضاء اللون «المُشْرَبَة «حُمْرةً»» دفعت بابن سعد إلى تشبيه عنقه الوضّاءة بـ «إبريق[*] فِضّة»[٣]؛ وعندما يفتَرّ ثغرُه عن ابتسامة عريضة، يتراءى لناظريه «كأن وجهه فِلْقَة القمر»[٤]؛ كما كان «سَبْط الشعر [...] ذا وفرة»[**] يعتني به

=بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وأنه سيكون في أمّتي ثلاثون كذّابون، كلهم يزعم أنه نبيّ، وأنا خاتم النبيّين لا نبيّ بعدي» (أخرجه أبو داود في السّنن، ٣٢٤/١١ والتِّرمِذي، السّنن، ٤٦٦/٦).

(١) في سنة تسع من الهجرة، ضرب إلى المدينة ما بين ستون ومئة من الوفود لمبايعة محمّد وإعلان دخولها في الإسلام (ابن هشام، السّيرة النبوية، ٥٥٩/٢).

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١ - ٤١٠ - ٤١٢.

(*) الإبريق: السَّيف البراق. (م.)

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٤١٠/١.

(٤) الواقِدي، كتاب المغازي، ١٠٥٥/٣؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٢٩٠/٣.

(**) ابن سعد، الطبقات، ٤١٠/١.

على الدوام[١]، وكانت عائشة هي مَن تغسله وتسرّحه[٢]. وعندما كان يتدثّر «بحلّته الحمراء»، التي كان يلبَسها أيام «العيدين والجمعة»[*]، كان محمّد يلفِت كل الأنظار المفتونة بمحيّاه: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْبُوعًا وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْهُ»[٣]. ولكونه شديد الهوى بالعطور، «يتطيّب [...] بذكارة الطِّيْب، [أي] المِسْك والعنبر»[**] وهما عطراه المفضلان[٤]، كانت الروائح الفاخرة «إذا أقبل»[***] تفوح منه دائمًا[٥]. كان الرجل إذن ذا تأنّق لافت وذا حرص على نظافته وصحّته ووسامته لدرجة ما كان يسافر إلا وفي مَتاعه

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ٤١٢/١؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٢٩٠/٣. وفي **الطبقات** (١/ ٤٢٧ - ٤٢٩) يقول ابن سعد، بحسب الروايات الصادرة عن شهود عيان، إن شعر النبيّ كان «لا يجاوز [...] أذنيه» أو «إنّ جمّته لتضرب قريبًا من منكبيه»، أو «شعره قريب من عاتقيه» أو «بين أذنيه وعاتقه» أو «كان إلى أنصاف أذنيه»، وعن عائشة: «كان [...] فوق الوفرة ودون الجمّة»؛ وعن غيرها: «كانت له لِمّة تغطي شحمة أذنيه».

(٢) ابن حَنْبَل، ١٤٤/٤١؛ أبو داود، **السّنن**، ٤٨١/٢؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٤/ ١٦٠. ويقال إن عائشة كانت تضُمّ شعر النبيّ في «ضفائر أربعًا» أو في «أربع غدائر» (ابن سعد، **الطبقات**، ٤٢٩/١).

(*) عن ابن سعد، **الطبقات**، ٤٥١/١. (م.)

(٣) ابن سعد، عينه، ٤٢٨/١ - ٤٥١؛ انظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ٢١٩٨/٥؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٢٨٥/٣ - ٢٨٦ و٢٩٨/٣؛ وفي هذه المصادر، يُقدَّم ارتداء الرجال اللباس الأحمر تارة بوصفه سُنّة الرسول وتارة بوصفه أمرًا محظورًا يَنهى الرسول نفسه الرجال عنه (أبو داود، **سُنَن**، ٩٢/٤؛ التّرمذي، **سُنَن**، ١١٦/٥).

(**) عن ابن سعد، عينه، ٣٩٩/١. (م.)

(٤) ابن سعد، عينه، ٣٩٨/١ - ٣٩٩.

(***) عن ابن سعد، عينه.

(٥) ابن سعد، عينه، ٤٢٨/١؛ ٤٥٠/١ - ٤٥١؛ البلاذُرِيّ، ٢١٩٨/٥٠؛ ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٢٨٥/٣ - ٢٨٦؛ ٢٩٨/٣.

مِشط ومرآة وسواك[١] ومِكْحَلَة[٢]، في حين لم يكن البدو المتّصفون بخشونة العيش وغلاظة الطبع معتادين على هذا القدْر من الأناقة الرّاقية.

أنشأ محمّد نظامًا سياسيًا جديدًا أمكن له فرضه على قسم كبير من شبه الجزيرة العربية، ما حمل السيّد العربي وَزَرْ بن جابر بن سَدوس على القول في شأنه يومًا: «إنّي لأَرَى رَجُلًا لَيَمْلِكَنّ رِقَابَ الْعَرَبِ»[٣].

صحيح أن شيوخ القبائل العربيّة (ومنها هاشم بن عبد مناف، جدّ النبيّ الأكبر) قد سَعَوا خلال الجاهليّة إلى التجمّع في نوع من الاتحاد، غير أن الحافز في مبادراتهم تلك لم يكن إلا مطامِعَ قبليّة ضيّقة، فلم تُفْضي بالتالي أبدًا إلى تنظيم سياسي موحَّد ذي طابع مركزيّ شبيه بالنظام الإمبراطوري، بل إلى مجموعة مفكّكة من القبائل المحتكمة على سلطة تَنْبَسط رقعتها أو تنكمش بحسب الظروف. وبغرض تجاوز هذا الطابع المتقلقل والمتشرذم الذي اتُّصفت به الأعرابيّة البدويّة، لم تكن القوة وحدها هي الكافية، بل وجب إيجاد «رافعة أخلاقيّة»، أي رسالة قادرة على الحَشد. ولقد وجد محمّد المُلْهَم هذه الرسالة، فكانت الإسلام.

مع ذلك، وفي مستهل صيف العام ٦٣٢م ذاك، كان النبيّ، الملك المنهوك القوى جرّاء المرض، يشهد على المؤشّرات الأولى على الوهن الذي أصاب سلطانه العظيم. إذ لاحظ أنه ما عاد يجد له طاعة لدى صحابته الذين كانوا حتى وقت قصير يَجْثون أمامه عَلَى الرُّكَبِ[٤]. مما لا شكّ فيه أنّ الرسول كان في بعض الأحيان يواجَه بأفعال تَنْضَح بالتمرّد

(١) يستخدم المسلمون السّواك (وهو عود يُتّخذ من شجر الأراكِ) لضمان نظافة الفَمْ والأسنان.

(٢) ابن سعد، **الطبقات**، ٤٨٤/١.

(٣) السّهيلي، **الرّوض الأُنُف**، ٤٧٤/٧.

(٤) ابن حَنْبَل، **المُسْنَد**، ١٩٨/١٥؛ **تفسير ابن كثير**، ٧٢٩/١.

يأتي بها أعراب منزوعو اللجام لا يُضْبَطون، ذهبوا في يوم حدّ اختطاف رداءه[1].

لكنه في كل مرّة فُرض عليه التعامل مع مسلمين مشاغبين، لم يكن محمّد يجد أيّة صعوبة تذكَر لتحجيمهم؛ ففي طريق العودة من تَبوكَ، عندما لم يَنْصَع بعض الجند إلى أوامره، واستقَوا ماء بئر قبل وصوله إليها، سَبّهم ونعتهم بأبشع النعوت[2]. لكن هذه المرة، كان الرسول متعبًا جسديًا؛ ومَنْ هم الذين يَعْصَوْن أوامرَه؟ صحابته المقرّبون...

وإذ نال منه الألم جراء ما آلت إليه حاله، لاحظ محمّد، الذي كان وضعه الصحي المتردّي في تفاقم من يوم إلى آخر، أن جدران أمّته بدأت تتشقّق. فالدجّالون من أمثال مُسَيْلَمَة وطُلَيْحَةَ، باتوا يجمعون حولهم عددًا معتبَرًا من الأتباع. ذلك أن نجاح محمّد قد غذّى بالفعل المطامِح وحفّز البعض على استخدام «وصفة» كانت له ناجعة بامتياز.

لم يكن مسيلمة الملقّب بـ «الكذّاب» والذي برز قبل المَرْضَة الأخيرة للرسول بوقت قصير، ظاهرة معزولة؛ بل إن آخرين راحوا يظهرون في كل مكان من شبه الجزيرة العربية تقريبًا حيث بدأوا بحشد عدد مهم من المريدين. ولقد حفظ الرُواة في المصادر الإسلاميّة أقلّه ثلاثة منهم كانوا على التوالي: أسود وطليحة وامرأة عرفت باسم سَجاح، ادّعت النبوّة

---

(1) في يوم من الأيام، وعقب إحدى الغزوات، فرض أعراب من البدو على الرسول أن يعطيهم على الفور حصّتهم من الغنائم، قائلين له: «يا رسول الله، اقسمْ علينا فيئنا الإبل والغنم»؛ لن تبرح مكانك ما دمت لم تَقْسِم. ثم ما لبثوا أن نزعوا عنه رداءه، بناءً على ما يقوله الطّبري في تاريخ الأمم والملوك (١٧٥/٢)، وهم يصرخون ويأتون بحركات بذيئة. فصاح بهم الرسول: «رُدُّوا عليَّ رِدائي أيها الناس!» (وانظر أيضًا: ابن الأثير، أُسْدُ الغابة، ٧٦٩/٣).

(2) مالك، الموطّأ، ١٤٣/١ - ١٤٤؛ الواقِدي، كتاب المغازي، ١٠١٢/٣.

هي الأخرى[1]. أدّى نجاح هؤلاء إلى إغراق محمّد في قلق عميق؛ بل إنه أَسَرّ لأبي بكر، الخبير في تفسير الأحلام[2]، بالكوابيس التي كانت تقِضّ عليه مضجَعه بشأنهم. ففي ليلة، راوده منام أبصر فيه نفسه وقد عُصِرت ذراعاه بسوارَيْن من الذهب، نفخهما فطارا، قال: «فأوَّلْتهما هذين الكذّابَيْن: صاحب اليمن وصاحب اليمامة»[3]، ويقصِد بهما الأسود ومسيلمة.

كان مُسَيْلَمَة بن حبيب، وهو سيّد من أسياد قبيلة بني حنيفة، هو أول مَنْ ظهر من الدجّالين في منطقة اليمامة[4] وبحسب الطّبري، حلّ هذا الرجل في المدينة حيث استمع إلى محمّد ثم عاد إلى قبيلته عازمًا على الحَذْو حَذْوَه، فأعلن نفسه نبيًّا هو الآخر، بل إنه طرح نسخة «مخفّفة» من الإسلام، إذ عفا مريديه من الصلاة وشرّع لهم الخمر والنكاح، وهو أمر ما كان ليكدّرَ خاطر الأعراب الذين راحوا يتّبعونه بأعداد غفيرة. كان مسيلمة الذي اعتاد، في كلامه، الإكثار من الأسْجاع قائلاً إنه أُعْطيها من السماء، يثير اهتمام العرب الشديدي التأثر بمَلَكات الفصاحة والبلاغة، وكان يزعم أن جبريل يأتيه.

وإذ استقوى بنجاحه وسَطْوَته، وجّه مَنْ تلقّب بـ «الرحمان»[5]،

---

(١) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٥٩٩/٢؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٥١/٢.

(٢) السُّيوطي، تاريخ الخلفاء، ٤٢/١.

(٣) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٥٩٩/٢؛ ابن حَنبل، المُسْنَد، ٢٤٠/٤؛ الطّبري، تاريخ...، ٢٢٥/٢؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٧/٢؛ المُتّقي، كنز العمّال، ٨/ ٥٤٣.

(٤) اليمامة منطقة قديمة واقعة شرقي هضبة نَجْد في المملكة العربيّة السعوديّة.

(٥) يحيل لفظ «الرحمن» أيضًا لدى المسلمين، إلى واحد من أسماء الله الحُسْنى وعددها تسعةٌ وتسعون.

رسالة إلى محمّد أواخر سنة عشرٍ من الهجرة[1] قال له فيها: «من مُسَيْلِمة رسول الله، إلى محمّد، رسول الله: سلام عليك، فإنّي قد أُشرِكت في الأمر معك، وإن لنا نصفَ الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قُرَيشًا قوم يَعْتَدون»[2]:

بعد أن فرغ من قراءة الرسالة، سأل الرسول المبعوثَيْن: «فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال؛ قال: أمّا والله لولا أن الرُسُلَ لا تُقْتَلُ لضربتُ أعناقكما. ثم كتب إلى مسيلمة: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب. سَلامٌ على من اتَّبَع الهدى؛ أما بعد، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين»[3].

وما لبث أتباع مسيلمة أن ازدادوا عددًا نتيجة زواجه بسَجَاح بنتِ الحارِث، وقد كانت امرأة بالغة النفوذ من بني تميم، ادّعت هي الأخرى النبوّة[4].

بحسب الطّبريّ، حفّزت حَجّة الوداع التي أتمَّها محمّد، ظهور «من ادّعى النبوّة من الكذابين»[5]، ومنهم الأسود باليمن وطُلَيْحَة بن خُوَيْلِد من بني أَسَد، اللذين احتشد حول كل منهما عدد غفير من الأتباع. فإذا

---

(١) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٢/٦٠٠ - ٦٠١.
(٢) ابن هشام، عينه، ٢/٦٠٠؛ وانظر أيضًا: الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٠٣.
(٣) الطّبري، عينه، ٢/٢٠٠ - ٢٠٤؛ السُّهيلي، الرّوض، ٧/٤٩٩.
(٤) الطّبريّ، تاريخ...، ٢/٢٧٠. سيقوم خالد بن الوليد بقتل مُسَيْلمة في ختام معركة دامية أمر بها الخليفة الجديد أبو بكر؛ والمقصود بها معركة اليمامة الشهيرة التي ستكلّف العديد من صحابة الرسول حياتهم والتي تندرج في حروب الرِّدّة. أما المتنبّئة سجاح، فستنتهي إلى الدخول في الإسلام، في عهد أبي بكر (الطّبريّ، تاريخ...، ٢/٢٧٨).
(٥) الطّبريّ، عينه، ٢/٢٠٤.

بالحركة الردّيّة تنتشر كما النار في الهشيم، في كل مكان تقريبًا من شبه الجزيرة العربيّة. وفي المصادر الإسلاميّة، خبر خروج الأَسْوَد بن كَعْب العَنْسي، العائد في مَنْبِته إلى قبيلة مِذْحِج اليمنيّة المرموقة، وقد كان سيّدًا ثريًا ومتفوّهًا بليغًا، يصنع الأعاجيب ويأتي بضروب من السِّحر يوهِم مَنْ يراها بأنها معجزات يجترحها[1]. وكما مُسَيْلِمَة، حقّق الأسْوَد نجاحًا لدى قبيلته وأهل نجران[2]، فاستَقرَّ في صنعاء، مدينة الملوك، حيث أحسن الناس وفادَته لدرجة وثبوا معها على عامِل الرسول في اليمن وطردوه من المدينة[3]. وبهذا أظهر العرب، الذين اتّبعوا أسودَ، انشقاقهم من خلال طرد العمّال الذين كان محمّد قد انتدبهم لتحصيل الصّدقات والزّكاة، بحيث فقد الرسول، قبيل وفاته، سيطرته على اليمن[4].

ومع أنّه كان مريضًا قابعًا في مَرْقَده إلا أن النبيّ كان لا يزال قادرًا على التأثير في سيرورة الأحداث: «وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابَهُ حِينَ بَلَغَهُ خَبَرُ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ مَعَ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: وَبَرُ بْنُ يُحَنَّسَ الدَّيْلَمِيُّ. يَأْمُرُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُنَاكَ بِمُقَاتَلَةِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ وَمُصَاوَلَتِهِ»[5].

ولم يطُل الأمر بالرجل حتى قُتِل طعنًا في قصره. وعندما وصل خبر مقتله الرسول أثلَج قلبه لدرجة تحسّنت معها صحّته، فخرج يزفّ بنفسه البشرى إلى المسلمين؛ قال: «قتل الأسود البارحة، قتله رجل مبارك من

(١) الذّهبيّ، كتاب تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ١٥/٣.
(٢) منطقة تقع اليوم في أقصى الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية، على الحدود مع اليمن.
(٣) الطّبريّ، تاريخ...، ٢٢٥/٢.
(٤) الذّهبيّ، كتاب تاريخ الإسلام، ١٥/٣.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٣٩/٦.

أهل بيت مباركين. قيل: ومن هو؟ قال: فيروز [الدّيلمي]. فاز فيروز». وإذ عصب رأسه نتيجة الآلام التي كانت تصدّعه، شكر محمّد الله وتابع قائلاً إن الآخَرَيْن يفنيان أيضًا، ويحفظ الله الإسلام إلى يوم القيامة[1].

أما مدّعي النبوّة الثالث الذي شغل محمّدًا فعلاً، فكان طُلَيْحَة من بني أَسَد، الذي حذا حَذْو مُسَيْلِمة وطرح في «سوق الدين» إسلامًا أكثر تساهلاً، عفا بموجبه مُتّبعيه من واجبَيّ الصلاة والصوم. وإذ استقوى هو الآخر بالنجاح الذي حقّقه كما الآخرَيْن، حشد جيشًا عظيمًا وقرّر مهاجمة محمّد في المدينة؛ وبحسب الطّبري:

كتب إليّ السري بن يحيى يقول: حدثنا شعيب بن إبراهيم التميمي عن سيف بن عمر قال: حدثنا سعيد بن عبيد أبو يعقوب عن أبي ماجد الأسدي عن الحضرمي بن عامر الأسدي قال: سألته عن أمر طليحة بن خويلد فقال: «وقع بنا الخبر بوجع النبي صلى الله عليه وسلّم ثم بلغنا أن مسيلمة قد غلب على اليمامة وأن الأسود قد غلب على اليمن فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى ادعى طليحة النبوة وعسكر بسميراء واتبعه العوام واستكثف أمره وبعث حبال ابن أخيه إلى النبي صلى الله عليه وسلّم يدعوه إلى الموادعة ويخبره خبره»؛ وقال حبال إن الذي يأتيه ذو النون فقال لقد سمى ملكًا فقال حبال أنا ابن خويلد فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: «قتلك الله وحرمك الشهادة».

كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ بْنُ يَحْيَى، يَقُولُ: حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ

---

(1) الطّبري، تاريخ...، ٢٢٥/٢؛ انظر أيضًا: ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٤٢/٦. تجدر الإشارة هنا إلى أن الأسود الدجّال، وبحسب ابن كثير نفسه، لم يقتل في حياة النبيّ بل في مستهل عهد الخليفة الأول أبي بكر (انظره في البداية، ٣٣٧/٦). لا يندر هذا النوع من التناقض والالتباس في كتب التراث الإسلامي.

إِبْرَاهِيمَ التَّمِيمِيُّ، عَنْ سَيْفِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُبَيْدٍ أَبُو يَعْقُوبَ، عَنْ أَبِي مَاجِدٍ الأَسَدِيِّ، عَنِ الْحَضْرَمِيِّ بْنِ عَامِرٍ الأَسَدِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ أَمْرِ طليحة ابن خُوَيْلِدٍ، فَقَالَ: وَقَعَ بِنَا الْخَبَرُ بِوَجَعِ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلم، ثُمَّ بَلَغَنَا أَنَّ مُسَيْلِمَةَ قَدْ غَلَبَ عَلَى الْيَمَامَةِ، وَأَنَّ الأَسْوَدَ قَدْ غَلَبَ عَلَى الْيَمَنِ، فَلَمْ يَلْبَثْ إلا قَلِيلا حَتَّى ادَّعَى طُلَيْحَةُ النُّبُوَّةَ، وَعَسْكَرَ بِسَمِيرَاءَ، وَاتَّبَعَهُ الْعَوَّامُ، وَاسْتَكْثَفَ أَمْرُهُ، وبعث حبال ابن أخيه إلى النبي صلّى الله عليه وسلم يَدْعُوهُ إِلَى الْمُوَادَعَةِ، وَيُخْبِرُهُ خَبَرَهُ وَقَالَ حِبَالٌ: إِنَّ الَّذِي يَأْتِيهِ ذُو النُّونِ، فَقَالَ: لَقَدْ سمى مَلِكًا، فَقَالَ حِبَالٌ: أَنَا ابْنُ خُوَيْلِدٍ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلم: قَتَلَكَ اللَّهُ وَحَرَمَكَ الشَّهَادَةَ![1].

وهنا نطرح السؤال: هل كان طُلَيْحَةَ المعسكِر وقتذاك على مقربة من المدينة [المنوّرة] والعارف على الأرجح بمرض الرسول، يترقّب وفاة محمّد، ليَشِنَّ هجومًا على هذه المدينة[2]؟ ولا بدّ لنا من أن نلفِت القارئ إلى أن الطّبريّ، كما أسلفنا، قد ربط بوضوح مرض النبيّ بالحركات الانشقاقيّة التي راحت تتعمّم عاصفةً بشبه الجزيرة العربية[3]. وسيُقْبَض محمّد وهو لمّا يحُلّ هذه الإشكاليّة بعد، بحيث إن أبا بكر، وما أن أصبح خليفةً، حتى تولّى حلّها بشكل جذريّ.

إن أعدنا وضع مسألة مدّعي النبوّة في سياق الظروف التاريخيّة التي

---

(١) الطّبريّ، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/٢٢٥.

(٢) يؤكد ابن عساكِر على أن طليحة كان قد مَنّى النفس بتحقيق هذا المشروع قبل مرض محمّد (ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ١٥١/٢٥). أما ابن كثير، فيقول بوضوح إن المدينة كانت مهدّدة بالحصار وبالهجوم غداة وفاة الرسول (ابن كثير، **البداية**، ٣٤٢/٦).

(٣) الطّبريّ، **تاريخ...**، ٢/٢٢٥.

أحاطت بالشهور الأخيرة من حياة محمّد، لأمكن لنا اعتبارها عنصرًا حاسمًا. فالمناطق التي برز فيها هؤلاء مناطق غنيّة واستراتيجيّة. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّهم لم يكتفوا بقيادة حركات «انفصاليّة» هادفين فحسب إلى القطع مع السلطة المركزيّة في المدينة، بل، إن استندنا إلى ما لاحظناه في حالة طُلَيْحَةَ المعسكِر على مقربة من المدينة، لتبيّن لنا إن انشقاقهم كان أكثر من انشقاق ديني وسياسي لأنّه هدّد نقطة سلطة محمّد المركزيّة. ومما لا شكّ فيه أن الانكسارات العسكريّة التي مُنِيَ محمّد بها أمام البيزنطيّين قد سرّعت من وتيرة هذه الحركات التمرّديّة.

في الواقع، كان الاهتداء إلى الإسلام أبعد ما يكون عن الجماهريّة في شبه الجزيرة العربيّة. وحده الحجاز هو الذي أقبل على الدين الجديد؛ أما في المناطق الأخرى، فكان الخضوع للإسلام، خضوعًا سياسيًا وعسكريًا، إذ دخل العرب فيه لأغراض نفعيّة (أي اجتنابًا لدفع الجزية وهي الضريبة المفروضة على غير المسلمين). وفي صحائف مختلفة، يذكر القرآن نِفاق هؤلاء الأعراب ويحتفظ بأثر مواقف مُذِلّة للرسول الذي وجد نفسه في يوم وقد تخلّى المسلمون عنه فجأة وهو ماضٍ في خطبة الجمعة، لكونهم سمعوا ضرب الطبول المنذِرة بوصول دَحْيَةَ بن خليفة الكَلْبي[1]، القادم من بلاد الشام بحمولة من الزيت، فهرولوا لإبرام صفقات تجاريّة مخلّفين محمّدًا شبه وحيد وسط المسجد:

يقول تعالى ذكره: وإذا رأى المؤمنون تجارة أو لهوًا (انْفَضُّوا إِلَيْهَ) يعني أسرعوا إلى التجارة (وَتَرَكُوكَ قَائِمًا) يقول للنبيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: وتركوك يا محمد قائمًا على

(١) لنشِر إلى أن هذه الشخصية تشغل مكانة فريدة لم يُعْمَل على سَبْر أغوارها بعد؛ يقال إن الملاك جبريل كان يتجلّى لمحمد في محيّا هذا الرجل الذي كان ذا وسامة لافتة.

المنبر؛ وذلك أن التجارة التي رأوها فانفضّ القوم إليها، وتركوا النبيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم قائما كانت زيتًا قدم به دحية بن خليفة من الشام[1].

وعند وفاة محمّد، كثر هم المسلمون الذين، وإذ تذرّعوا بالطابع الشخصي الذي اتخذته مبايعتهم للرسول، شعروا أنفسهم بحِلّ من التزاماتهم الماليّة. ومع أنهم أبقَوْا على مجاهرتهم بإسلامهم إلا أنهم رفضوا إرسال الزّكاة إلى المدينة. لكن ردّ فعل الخليفة الجديد أبي بكر لم يتأخّر، إذ أعلن عليهم حربًا لا رحمة ولا هوادَة فيها لاعتبارهم من أهل الرِّدَّة. وفي حروب الرِّدَّة تلك، التي افتتحت عهد الخليفة الأول للإسلام بحمّام من الدماء، لا ينبغي للحافز الديني حَجْب الحوافِز الاقتصاديّة، إذ كان هدف إرجاع هؤلاء الأعراب إلى الإسلام أقل وزنًا من إرجاع الضرائب إلى الخليفة في المدينة.

تدعونا جملة هذه العناصر إلى التخفيف من حِدّة الجزم الذي أبداه المؤرّخ هشام الجعَيْط يوم كتب: «ترك النبي محمّد عند وفاته دينًا مُكتملاً ودولة مهيمنة على الجزيرة العربية كلّها، مترابطين بشكل لا يقبل الانفكاك»[2].

ذلك أن بعض العرب لم ينتظر موت الرسول ليرتَدّ، بل إن محمّدًا قد ووجه، إبّان حياته، بحركات عِصيانِيّة مثيرة للقلق. وعندما أمسى

(١) سورة الجمعة وترتيبها في القرآن ٦٢، الآية ١١: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. أما مصدر الخبر فهو: تفسير الطّبريّ، ٣٨٦/٢٣؛ انظر أيضًا: تفسير القُرْطُبي، ١١٠/١٨؛ تفسير البغويّ، ١٢٤/٨؛ السّيوطيّ، الدُّرّ المنثور، ١٦٥/٨.

(٢) هشام الجعيط، الفتنة: جدليّة الدين والسياسة في الإسلام المبكّر، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٢، ص٣٣.

الوضع واحدًا من أخطر الأوضاع والنبيّ منزوع الطاقة وغير قادر بالتالي على التصدّي للخطر، وجب بلا شك على المقرّبين منه، التطلّع إلى انقلاب يتمكّنون بموجبه من السيطرة على الأمور... وإن لم يكن الأمر كذلك فكيف السبيل إلى تفسير إقدام عمر، وما إن بويع أبو بكر خليفةً، على التعبير له عن امتنانه لكونه تدارك سريعًا الفراغ الخطير في السلطة عقِب وفاة محمّد، إذ قال له: «لولا أنت هلكنا»:

عن أبي رجاء العطاردي قال أتيت المدينة فإذا الناس مجتمعون وإذا في وسطهم رجل يقبل رأس رجل وهو يقول أنا فداؤك لولا أنت هلكنا فقلت من المقبِّل ومن المقبَّل قال ذاك عمر بن الخطاب يقبل رأس أبي بكر في قتال أهل الردة الذين منعوا الزكاة[١].

(١) ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٥٠٢/٤٣؛ وانظر أيضًا: المُتّقي، كنز العمّال، ٤٩٦/١٢.

الفصل الثامن
بداية النهاية

ثَمّة بَصْمَة موغِلة في المأساويّة دَمَغَت الأيام الأخيرة من حياة النّبيّ المضطر إلى التصدّي لتجارب عديدة ما عاد يقوى على مواجهتها: الحَداد على ابنه إبراهيم، ومحاولة الاغتيال التي تعرّض لها، وعِصيان المقرّبين منه لأوامره، وانشقاقات من كل شكل ولون. لذا، عندما أتاه الملاك جِبريل مُسْتَخبرًا عن أحواله، أجابه محمّد قائلًا: «أَجِدُني يا جبريل مغمومًا وأَجِدُني يا جِبريل مَكْروبًا»[1]:

أخبرنا محمد بن عمر حدثني أيوب بن سيار عن جعفر بن محمد عن أبيه قال لما نزل بالنبي صلى الله عليه وسلَّم الموت دعا بقدح من ماء فجعل يمسح به وجهه ويقول اللهم أعني على كرب الموت قال وجعل يقول ادن مني يا جبريل ادن مني يا جبريل ثلاثًا[2].

---

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٥٨/٢ - ٢٥٩؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ١٢٩/٣؛ البَيْهقي، دلائل النّبوّة، ٢١١/٧؛ الهَيْثَمي، مجمَع الزوائد، ٣٥/٩؛ المتّقي، كنز العمّال، ٢٦٣/٧.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٥٧/٢ - ٢٥٨؛ وانظر أيضًا: البَيهقي، دلائل، ٢١٠/٧.

«ثم دنا جبريل من محمّد فتدلّى إليه»(*). كان الرسول [خلال مرضته الأخيرة تلك](**) هائمًا في نفسه كرحّالة ضَلَّ وُجْهَته وأضاع مَقْصَده.

شَلَّ المرض محمّدًا طوال أسبوعَيْن تقريبًا، لازم خلالهما الفراش في منزل عائشة، حيث ما عاد يرى إلا بِطانته الأكثر قُربى منه. ولم يطل الأمر بقدراته الحركيّة حتى تلاشت، فكان لا يخرج إلا نادرًا وقد اتكأ على ابنيّ عمومته، عليّ والفضل بن عبّاس، بحيث لا تَمَسّ رِجلاه الأرض. راحت غَلَبَة المرض تزداد شيئًا فشيئًا وآفاق «محمّد الفاتح» تتقلّص حتى وصلت حدَّ إطار مَضْجَعه.

إنَّ ما كان يُحسَب في البداية علامات تعب عَمَّ جسد النبي، بات في عيون الجميع عوارضَ مرض خطير، نستقرؤه في المقاطع الطويلة التي كرّستها كتب التراث الإسلامي لوصف المَرْضَة الأخيرة للرسول، حيث التأكيد على الآلام الحادّة التي كانت تعصِف برأسه وعلى الحمّى التي كانت تستنفده بما يصعُب احتماله لدرجة ما عاد يُستطاع معها جَسّ نَبْضِه:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: جِئْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا عَلَيْهِ صَالِبٌ مِنَ الْحُمَّ، مَا تَكَادُ تَقَرُّ يَدُ أَحَدِنَا عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الْحُمَّى أَخْبَرَنَا بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ عُمَرَ دَخَلَ عَلَى

(*) «قال الطّبريّ (ت ٣١٠هـ) في تفسير جامع البيان في تأويل القرآن: «أي ثُمّ دَنَا جبريل من مُحَمّد صلى الله عليه وسلّم فَتَدَلّى إليه»؛ «قال الحافظ البَيْهَقي (ت ٤٥٨هـ) في كتابه دلائل النّبوّة عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إنما ذلك جبريل عليه السلام كان يأتيه في صورة الرجال وإنه أتاه في هذه المرة في صورته فسَدّ أفق السماء»، رواه البخاري عن محمّد بن يوسف عن أبي أسامة، ورواه مسلم عن ابن نمير» (انظر الشيخ جميل بن محمّد عَلي حَليم، **التفسيرُ الأسمى لقوله تعالى ثُمّ دَنَا فَتَدَلّى**، دار المشاريع، على الموقع الإلكتروني .https://m.facebook.com (م.)

(**) إضافة من المترجمة ضَنًّا بانسيابيّة الجملة. (م.)

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مَحْمُومٌ أَوْ مَوْرُودٌ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَقَبَضَهَا مِنْ شِدَّةِ حَرِّهِ، قَالَ: فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا أَشَدَّ وِرْدَكَ، أَوْ أَشَدَّ حُمَّاكَ(١).

كان الرسول يترنّح مرتعدًا بين الغَيْبَة والصَّحْوَة والخَمِيصَة التي يغطّي بها وجهه مرّةً «ومرّةً يكشِفها عنه»، حارِقة(٢)، وفي متناوله على الدوام «قدح فيه ماء وهو يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول اللهم أعني على سكرات الموت»(٣). ويُحكى إنّه لما وصل حجرة عائشة حُمَّ في مِخْضَب امرأته حَفْصَة وصُبَّت عليه سبع قِرَب من الماء، استُقِيت «من آبار شتّى»(٤) (أفيكون ذلك طَقْسًا؟).

أصبح الرسول شديد الهُزال والشّحوب لدرجة قال معها صاحبه أَنَس بن مالك لمّا عاده، «كأنّ وجهه ورقةٌ بمصحف»(٥) بيضاء. وإذ افترسته شقيقة متواترة لا تطاق، عَصَب رأسه على الدوام ومضى يتقَلّب وجعًا

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ٢٠٨/٢ - ٢٠٩؛ وانظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/ ٢٥٧؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٧٠/٤.

(٢) ابن سعد، **الطبقات**، ٢٠٨/٢؛ الحاكم النيسابوري، **المستَدْرَك**، ٩٩/١؛ البَيْهقي، **دلائل النبوّة**، ٢٠٤/٧؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٧٢/٤. ولقد كرّس ابن هشام في **السّيرة النبوية** (٦٦٥/٢) فصلًا لخَمَيْصَة الرسول السوداء، وهي «ثوب خَزٍّ أو صوف معلَّم» (ابن هشام، عينه) أو «كَساء أسود مربَّع له علمان» (ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤/ ٤٧٢).

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٥٨/٢؛ وانظر أيضًا: البخاري، **كتاب تفسير القرآن**، ١٦١٦/٤ - ١٦١٧؛ النّسائي، **السّنن**، ٩٨/٧.

(٤) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٢٦/٢؛ وانظر أيضًا: ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٢/ ٦٤٩؛ ابن سعد، **الطبقات**، ٢٣٢/٢؛ الدّارمي، **المُسْنَد الجامع**، المعروف بـ **سُنَن الدارمي**، ٥١/١؛ النّسائي، **كتاب الوفاة**، ٢٨/١؛ ابن كثير، **البداية**، ٢٤٥/٥.

(٥) ابن سعد، **الطبقات**، ٢١٦/٢؛ **كتاب تفسير القرآن**، ٢٤٠/١ - ٢٤١؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٣٥/٢.

فلا يُسْمَع له إلا حَشْرَجة موصولة[١]. وعلى الرغم من شدّة ضيقه، كان أبو القاسم يحظّر على أزواجه الاستفاضة في التعبير عن اضطرابهن[٢]؛ وعندما صاحت أمّ سَلَمَةَ جزعًا لرؤيتها تدهور حاله بلمح البصر، قال لها: «مَهْ! إنه لا يصيح إلاّ كافِرٌ!»[٣] كان وجعه بالغ الحِدّة لدرجة كان معها يُغْشيه من وقت إلى آخر؛ وإثر لحظات من الصَّحْوَة، كان يقع من جديد فجأة في حالة ذهول تمنعه من النطق ولو بكلمة واحدة:

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ اسامه ابن زيد، قال: لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلّم هَبَطْتُ وَهَبَطَ النَّاسُ مَعِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَدَخَلْنَا على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وَقَدْ أُصْمِتَ فَلا يَتَكَلَّمُ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ يَضَعُهَا عَلَيَّ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَدْعُو لِي[٤].

وهكذا صار محمّد يغيب عن نفسه وعمَّن حوله.

في اليوم الخامس من شهر ربيع الأول (أي قبل أسبوع على وفاته)، اغتنم الرسول لحظة نادرة من الارتياح نتيجة تخفّف المرض، وخرج إلى المسجد الملاصِق لمنزله لأداء الصَّلاة ووداع المسلمين المحتشدين فيه بأعداد غفيرة[٥]. إذ ذاك وفد إليه الملاك جبريل وكشف له سورة النصر (وترتيبها في القرآن ١١٠)؛ قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[٦]

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، ٢٠٦/٢.

(٢) عينه.

(٣) ابن سعد، عينه، ٢١٠/٢.

(٤) ابن سعد، عينه، ١٩١/٢؛ وانظر أيضًا: الطّبريّ، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٣٠/٢.

(٥) ثَمّة مؤلّفون يقولون إن هذا الاجتماع وقع يوم الخميس، أي قبل خمسة أيام على وفاة الرسول (انظره في ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٥٠/٥). أما السورة، فهي الأخيرة المكتملة التي أنزلت على محمد.

(٦) يقول معظم المفسّرين إن الآية تلمِح إلى فتح مكّة.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[1].

رأى محمّد في هذه السورة الدلالة على وشوك موته؛ ولقد حفّزته الآية الأخيرة تحديدًا بما تذكره في شأن الغفران الإلهي، على الاستغفار لإدراكه أن الأمر لن يطول به حتى يغادر هذا العالم[2]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن موضوع الاستغفار هو في لبّ الظهور العلني الأخير لمحمّد الذي عقد العزم فيه على تبرئة ذمّته وإرضاء ضميره[3].

وإذ كان يتهادى في مِشْيَتِه، دخل الرسول المسجِد، يَسْنُدُه ابنا عمومته، الفضل وعليّ، اللذين سارا به إلى المنبر.

ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَبَكَتِ الْعُيُونُ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ نَبِيٍّ كُنْتُ لَكُمْ؟» فَقَالُوا: جَزَاكَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ خَيْرًا؛ [...] فَجَزَاكَ اللهُ عَنَّا أَفْضَلَ مَا جَازَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ. فَقَالَ لَهُمْ: «مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، أَنَا أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ وبِحَقِّي عَلَيْكُمْ، مَنْ كَانَتْ لَهُ قِبَلِي مَظْلَمَةٌ فَلْيَقُمْ فَلْيَقْتَصَّ مِنِّي. فَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، فَنَاشَدَهُمُ الثَّانِيَةَ، فَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، فَنَاشَدَهُمُ الثَّالِثَةَ: مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ وبِحَقِّي عَلَيْكُمْ مَنْ كَانَتْ لَهُ قِبَلِي مَظْلَمَةٌ فَلْيَقُمْ فَلْيَقْتَصَّ مِنِّي قَبْلَ الْقِصَاصِ فِي الْقِيَامَةِ». فَقَامَ مِنْ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ شَيْخٌ كَبِيرٌ يُقَالُ لَهُ عُكَّاشَةُ، فَتَخَطَّى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، لَوْلاَ أَنَّكَ نَاشَدْتَنَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى مَا كُنْتُ

(١) يقول بعض المفسرين، مثل القُرْطُبي وابن كثير، إن السورة أنزلت يوم حجّة الوداع، في حين يؤكد التقليد الشيعي أن السورة كشِفَت للرسول أثناء احتضاره.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/٢٢٥؛ تفسير الطبري، ٢٤/٦٦٨ - ٦٦٩.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٢٧ - ٢٢٨؛ الطبراني، المعجم الكبير، ٣/٥٨.

بِالَّذِي يُقْدِمُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا، كُنْتُ مَعَكَ فِي غَزَاةٍ، فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا وَنَصَرَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكُنَّا فِي الانْصِرَافِ حَاذَتْ نَاقَتِي نَاقَتَكَ فَنَزَلْتُ عَنِ النَّاقَةِ، وَدَنَوْتُ مِنْكَ لِأُقَبِّلَ فَخِذَكَ، فَرَفَعْتَ الْقَضِيبَ فَضَرَبْتَ خَاصِرَتِي، وَلاَ أَدْرِي أَكَانَ عَمْدًا مِنْكَ، أَمْ أَرَدْتَ ضَرْبَ النَّاقَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعِيذُكَ بِجلاَلِ اللهِ أَنْ يَتَعَمَّدَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالضَّرْبِ، يَا بِلاَلُ انْطَلِقْ إِلَى مَنْزِلِ فَاطِمَةَ وَائْتِنِي بِالْقَضِيبِ الْمَمْشُوقِ». فَخَرَجَ بِلاَلٌ مِنَ الْمَسْجِدِ وَيَدُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، وَهُوَ يُنَادِي: «هَذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي الْقِصَاصَ مِنْ نَفْسِهِ». فَقَرَعَ الْبَابَ عَلَى فَاطِمَةَ، فَقَالَ: «يَا بِنْتَ رَسُولِ اللهِ نَاوِلِينِي الْقَضِيبَ الْمَمْشُوقَ». فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: «يَا بِلاَلُ وَمَا يَصْنَعُ أَبِي بِالْقَضِيبِ وَلَيْسَ هَذَا يَوْمَ حَجٍّ وَلاَ يَوْمَ غَزَاةٍ؟» فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ مَا أَغْفَلَكِ عَمَّا فِيهِ أَبُوكِ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوَدِّعُ الدِّينَ وَيُفَارِقُ الدُّنْيَا، وَيُعْطِي الْقِصَاصَ مِنْ نَفْسِهِ». فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «يَا بِلاَلُ وَمَنْ ذَا الَّذِي تَطِيبُ نَفْسُهُ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ يَا بِلاَلُ فَقُلْ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ يَقُومَانِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَيَقْتَصُّ مِنْهُمَا، وَلاَ يَدَعانِهِ يَقْتَصُّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». فَدَخَلَ بِلاَلٌ الْمَسْجِدَ، وَدَفَعَ الْقَضِيبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَضِيبَ إِلَى عُكَّاشَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِلَى ذَلِكَ، قَامَا فَقَالاَ: «يَا عُكَّاشَةُ هَذَانِ نَحْنُ بَيْنَ يَدَيْكَ فَاقْتَصَّ مِنَّا، وَلاَ تَقْتَصَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «امْضِ يَا أَبَا بَكْرٍ وَأَنْتَ يَا عُمَرُ، فَامْضِ فَقَدْ عَرَفَ اللهُ مَكَانَكُمَا ومَقَامَكُمَا». فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ،

فَقَالَ: «يَا عُكَّاشَةُ أَنَا فِي الْحَيَاةِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلاَ تَطِيبُ نَفْسِي أَنْ يُضْرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهَذَا ظَهْرِي وَبَطْنِي، اقْتَصَّ مِنِّي بِيَدِكَ وَاجْلِدْنِي مِئَةً، وَلاَ تَقْتَصَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَلِيُّ اقْعُدْ فَقَدْ عَرَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَقَامَكَ ونِيَّتَكَ». وَقَامَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فَقَالاَ: «يَا عُكَّاشَةُ أَلَيْسَ تَعْلَمُ أَنَا سِبْطَا رَسُولِ اللهِ؟ فَالْقِصَاصُ مِنَّا كَالْقِصَاصِ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». فَقَالَ لَهُمَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْعُدَا يَا قُرَّةَ عَيْنِي، لاَ نَسِيَ اللهُ لَكُمَا هَذَا الْمُقَامَ». ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عُكَّاشَةُ اضْرِبْ إِنْ كُنْتَ ضَارِبًا». فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، ضَرَبْتَنِي وَأَنَا حَاسِرٌ عَنْ بَطْنِي». فَكَشَفَ عَنْ بَطْنِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَاحَ الْمُسْلِمُونَ بِالْبُكَاءِ، وَقَالُوا: «أَتُرَى عُكَّاشَةُ ضَارِبٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟» فَلَمَّا نَظَرَ عُكَّاشَةُ إِلَى بَيَاضِ بَطْنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّهُ الْقَبَاطِيُّ، لَمْ يَمْلِكْ أَنْ كَبَّ عَلَيْهِ وَقَبَّلَ بَطْنَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «فِدَاءٌ لَكَ أَبِي وَأُمِّي، وَمَنْ تُطِيقُ نَفْسُهُ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْكَ؟» فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِمَّا أَنْ تَضْرِبَ، وَإِمَّا أَنْ تَعْفُوَ». فَقَالَ: «قَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ رَجَاءَ أَنْ يَعْفُوَ اللهُ عَنِّي فِي الْقِيَامَةِ»[1].

قبل أن يستأذن المسلمين بالانصراف، صلّى محمّد على أصحابه ممن سقطوا شهداء واستغفر لهم، ثم أضاف: «إن عبدًا من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله». عندها، راح أبو بكر يبكي، إذ كان الوحيد الذي أدرك أن الرسول إنما يريد بكلامه هذا

---

(١) الطبراني، المعجم الكبير، ٥٨/٣ - ٦١.

نفسه. فقال له أبو القاسم: «على رِسْلك يا أبا بكر! [...] فإني لو كنت متّخذًا من العباد خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلاً؛ ولكن صحبة وأخاءُ إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده»[١].

إثر ذلك، أمر الرسول بأن تسَدّ الأبواب المطلّة مباشرة على المسجد، باستثناء باب منزل أبي بكر[٢]. لم تكن تلك المرة الأولى التي نرى فيها الأخير يدرك قبل غيره إيحاءات الرسول ومقاصد أقواله. كان صديق محمّد هذا فطِنًا، نافذ البصيرة، وأكثر صحابته يقظَة وحيويّة. ذلك أنه رأى بوادر النهاية قبل الآخرين، وسارع في الوقت المناسب بلا شك إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة، بحيث لا يدع خلافة صديقه في مهبّ الريح تتلاقفها الأقدار كيفما شاءت. وفي مستهل الدعوة، كانت بصيرته الثاقبة تلك هي التي دفعت به إلى السّير في ركاب محمّد، وقد كان فردًا مهمّشًا يُلقي مواعظه وحيدًا في الصحراء. وبهذا كان أبو بكر أول المسلمين، إذ عرف أنّ مَنْ يدعوه بودٍ «خليلي»، إنما هو المنذِر بحلول زمن جديد سيغيّر وجه العالم.

في خِتام ذاك الاجتماع الأخير في المسجِد، نظر محمّد باتجاه عمر وقال: «عمر معي وأنا مع عمر، والحقّ بعدي مع عمر حيث كان»[٣]. ومما لا شك فيه أنّ ردّ فعل كل من أبي بكر وعمر لا يعدو كونه، في هذه السّرديّة، إضافات هدفت إلى إسباغ القيمة على الخليفَتَيْن المستقبلِّيَيْن وإلى إرساء شرعيّتهما السياسية، إذ جسّد أبو بكر الصّدق

(١) الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٢٧.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢/٥٣؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ١/١٧٣؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢/٣٧٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣/٢٠؛ السُّيوطي، جامع الأحاديث، ٢٥/٢٣٧؛ المُتّقي، كنز العمّال، ١٠/١٥٨.

(٣) ابن ماجة، سنن، ١/٤٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٢٧.

والوفاء وعمر شِدّة العزم وصرامة المبادئ. ثم إن الرُّواة في المصادر الإسلاميّة أضفَوْا على هذا المشهد دلالة رمزيّة: فباب منزل أبي بكر الذي تركه محمّد مفتوحًا هو شعار باب الخلافة السياسيّة[1]. أما عليّ، الذي دعا عكاشَةَ إلى جَلْدِه عوض محمّد، فبقي حبيسَ نوع من أنواع الشّجن الذبائحي البذّال، وبات يجسّد روح الشهادة التي تميّز الحساسيّة الشيعيّة.

لمّا آبَ الرسول إلى منزله، بقي فيه مضطجعًا أيامًا ثلاثة. وفي يوم الأربعاء السابق لوفاته، شعر بشيء من التحسّن فأيقظ مولاه أبا مويهبة أو أبا رافع[2] في جوف الليل قائلاً له إنه أُمِرَ بزيارة قبور المسلمين في بَقيْع الغَرْقَد. وإذ وصله مصحوبًا بخادمه[3]، توجّه الرسول في مشهد تراجيديّ بالكلام إلى الموتى بنبرة تنضح كآبةً؛ قائلاً:

«السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه»[4].

في هذه الخطبة التشخيصيّة المقتضَبَة، بدا محمّد القانِط والمكروب كأنه توّاق إلى الموت الذي بات يرى فيه انعتاقًا خلاصيًا. لا شكّ في أنه كان يخشى أن يعاين عاجزًا انحطاطه الشخصي. وما لبث الرسول أن أردف، قال: «أقبلت الفِتَن كقِطَع اللّيل المظلم يتبع بعضها بعضًا آخرها أوّلها، الآخرة شَرٌّ من الأولى»[5]. ثم توجه بالكلام إلى مولاه أبي مويهبة

---

(١) هذا ما يقوله ابن كثير صراحة في السيرة النبويّة، ٤/٤٥٦.

(٢) يذكر ابن سعد الرجلَيْن في الطبقات الكبرى، ٢/٢٠٤.

(٣) يجزم الشيعة بأن الرسول قام بهذه الزيارة إلى تربة بَقيْع الغَرْقد بصحبة عليّ.

(٤) ابن هشام، السيرة النبويّة، ٢/٦٤٢؛ وانظر أيضًا: ابن حنبل، مُسْنَد، ٢٥/٣٧٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/٢٠٤؛ الدارمي، سنن، ١/٥٠؛ الطبري، تاريخ...، ٢/ ٢٢٦؛ المُتقي، كنز العمّال، ١٢/٢٦٢.

(٥) ابن حنبل، مسند، ٢٥/٣٧٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/٢٠٤؛ الدارمي،=

فقال: «يا أبا مويهبة، إنّي قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلْد فيها ثم الجنّة، خيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربّي والجنة». أجابه المولى قائلاً: «بأبي أنت وأمّي! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلْد فيها». فقال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربّي والجنّة»(١). ثم أقبل محمد يصلّي لأهل البقيع ويستغفر لهم وقفل عائدًا إلى بيته. في صباح اليوم التالي، تدهورت حالته الصحيّة تدهورًا جدّيًا، فأدرك المحيطون به أن النهاية باتت وشيكة لا محالة.

نَبّه وشوك موت محمّد المطامِع لأن الرجل لم يكن ذا سَطْوة فحسب، بل صاحب ثروة طائلة أيضًا(٢). وثمّة رواية نلحظُ فيها تأثير التقليد المتّبع في سِيَر القدّيسين، تصف الفَقْر المدقع الذي كان الرسول يعيش فيه(٣)، وتروي شكوى عائشة من قِلّة القوت يوم قالت باكيةً إنها وزوجها لا يَقْتاتان لأشهر إلا من «الأَسْوَدَيْن»، أي «التمر والماء»(٤) ولا يأكلان قَدْر ما يُشْبَع به(٥)؛ وثمّة مَن قال إن محمدًا كان يبقى «ثلاثة أيام»

=سُنن، ١/٥٠؛ الطبري، تاريخ...، ٢/٢٢٦؛ الطبراني، المعجم الكبير، ٢٢/٣٤٦؛ الحاكم النيسابوري، المستَدْرَك، ٣/٥٧. ولا بدّ من الإشارة أن الرسول، وبحسب ابن هشام، استعمل هذه الصورة حيث يقارن نقص المرتَقَب بروزها بـ «قطع الليل المظلم» ليس في تربة بَقيْع الغَرْقد، بل لحظة خروجه من المسجد قبل بضعة أيام على وفاته (ابن هشام، السّيرة النبوية، ٢/٦٤٢).

(١) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٢/٦٤٢؛ وانظر أيضًا: ابن حنبل، مُسْنَد، ٢٥/٣٧٦: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/٢٠٤؛ الدارمي، سنن، ١/٥٠؛ الطبري، تاريخ...، ٢/ ٢٢٦؛ الطبراني، المعجم الكبير، ٢٢/٣٤٦؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/٥٧.

(٢) على الرغم من كل أملاكه ومقتنياته، كانت درع الرسول، يوم توفّي، مرهونة عند رجل من يهود المدينة. ولقد أوردت السّنّة في شأن مستوى معيشته، سرديّات متناقضة.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ١/١٨٦ - ١٨٧؛ ١/٤٠٠.

(٤) ابن حَنْبل، المسنَد، ٢٦/١٧٨؛ ابن سعد، الطبقات، ١/٤٠٧؛ البخاري، كتاب تفسير القرآن، ٢/٩٠٧؛ ابن ماجة، السّنن، ٢/١٣٨٨.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ١/٤٠٠ - ٤٠١.

بلا طعام يدخل فيه و«يشدّ صلبه بالحجر من الغَرَث»[1] [أي من الجوع]؛ بل «كان يأتي [على آل محمّد] الشهران»[*] لا ينيرون خلالهما مصباحًا، ولا «يخبزون خبزًا، ولا يطبخون قِدرًا»[2]، «وكان [لمحمّد] جيران من الأنصار [...] يرسِلون إليه بشيء من لبن»[3]. وثمّة فصل في **الطبقات الكبرى** لابن سعد مكرّس لـ «ذكر شِدّة العيش» على محمّد[4]، حيث يردُ وصفه متلويًا من الجوع إلى حدّ لو كان له ما يُسْرَج به لائتدم به[5]. بل قيل في بعض النصوص إنّ النّبيّ توفّي مُثقَلاً بالديون، ولكي يشتري ما يُقْتات به، رَهَن درعه «عند رجل من اليهود»[*][6] «بثلاثين صاعًا من شعير»[**] ليطعم عياله[7]؛ ولقد تولّى أبو بكر لاحقًا دفع الرهن[8].

غير أنّ صدقيّة هذه الروايات في الفاقة المزعومة لمحمّد وجدت لها

---

(1) ابن سعد، **الطبقات**، ١/٤٠٠. وكما سنرى في اللاحق من صفحات هذا الكتاب، فإن هذه المشهدِيّات تتناقض تناقضًا صارخًا مع سرديّات أخرى تصف شراهة الرسول بشكل خاص.

(*) ابن سعد، **الطبقات**، ١/٤٠٥.

(2) عينه، ١/٤٠٥.

(3) عينه، ١/٤٠١.

(4) عينه، ١/٤٠٠ - ٤١٠.

(5) عينه، ١/٤٠٥.

(*) عينه، ١/٤٠٨.

(6) واسمه عبد الشّهم؛ انظره في: ابن حَجَر، **فتح الباري**، ٥/١٤٠.

(**) ابن كثير، **السيرة النبوية**، ٤/٥٦٢.

(7) ابن أبي شَيْبَة، **المصنّف**، ٤/٢٧٢؛ وانظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **المُسْنَد**، ٤/٤٥٦؛ ابن سعد، **الطبقات**، ١/٤٠٨؛ البخاري، **كتاب تفسير القرآن**، ٣/١٠٦٨؛ ابن ماجة، **السُّنَن**، ٢/٨١٥؛ الطبراني، **كتاب المعجم الكبير**، ١١/٢٦٨؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤/٥٦٢.

(8) ابن حَنْبل، **المُسند**، ٤/١٩؛ ابن حَجَر، **فتح الباري**، ٥/١٤٢.

ما يدحضها في مقاطع أخرى تصف الثروة العظيمة العائدة للرسول الذي كان، مما لا شكّ فيه، يعيش الفقر غداة الهجرة، علمًا أنّ - وهذا أمر حَريّ بنا التذكير به في معرض كلامنا هنا - ما من راوٍ واحد شرح مآل الثروة الضخمة التي كانت لخديجة، زوجته الأولى الغنيّة التي كان من المفترَض أن يرثها بعد موتها. مع ذلك، لم يطُل الأمر بسياسته الاحترابيّة حتى سَدَّت النّقص في المال؛ فالرسول المحارب أقرَّ هو نفسه بالأمر يوم قال: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي»[1]. ثم إن الغزوات المختلفة، وبخاصة منها غزوة خَيْبَر وما استتبعها من سَلْب ونَهْب، أمِنَت محمّدًا وعموم أمّته من العَوَز. ففي قِسمة الغنائم، كان الرسول يستنزل لنفسه نصيبًا نسبيًّا منها، امتثالاً منه لآية قرآنيّة تأمره بأن يقتطع بانتظام، ومن كل ما يُغْنَم، «خُمْسَه»[2]. ولحظة نزول هذه الآية، زَفّ محمّد البُشْرى لآل بيته، وبخاصة منهم ابنته فاطمة؛ قال: «أبشروا آل محمد فقد جاءكم الغنى»[3]. ولا تتردّد كتب السّنّة في التأكيد على أن أبا القاسم كان يلجأ إلى أساليب عنيفة كالخطف (وهو ما رأيناه آنفًا في حالة أُكيدِر، سيّد دَوْمَة الجَنْدَل) أو التعذيب كذاك الذي أُخْضِع له كِنانَة بن الربيع، الذي ظَلّ يُعَذَّب بأمر من النّبيّ حتى يفصِح عن مخبأ كنوز بني النَّضير[4]. ولكي يملأ الخزائن، فرض محمّد كذلك على أتباعه وأنصاره عدة أنواع

---

(١) صحيح البُخاري، ٣/١٠٦٦.

(٢) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾، سورة الأنفال وترتيبها في القرآن ٨، الآية: ٤١.

(٣) ابن شيبة، تاريخ المدينة، ١/٢١٠؛ الذهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٢/٣٧٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣/٢٤.

(٤) كان الزُّبَيْر بن العوّام، ابن عمّ النبيّ، هو مَنْ عَذّب كِنانَة الذي لم يتحمّل التنكيل به فقضى جرّاءه (انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/٣٣٦؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/١٣٨).

من الضرائب منها واحدة مثيرة للاستغراب، إذ كان يأخذ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا[1]!

قال الله لرسوله في القرآن: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ (٩٣ : ٨)[2]، فأضحى محمّد ملاّكًا، من بين مقتنيات أخرى، لعدّة واحات وقعت شمالي شرقي الحِجاز، ومنها الْحَوَائِطُ السَّبْعَةُ مِنْ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ[3]، ومثلها واحة فَدَك الشهيرة التي منح ابنته فاطمة حقّ الانتفاع بها[4]. وسرعان ما غدا النّبيّ بالغ الثراء لدرجة أنشأ معها صندوقًا مخصّصًا لـ «شراء» اهتداء الكفّار إلى الإسلام، والمقصود بهؤلاء ﴿... الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ...﴾ (٩: ٦٠)[5]، أي الذين اسْتُميلت قلوبهم فتألّبت حول الإيمان، وبخاصة منهم المناهضين القرشيّين - ومنهم أبو سُفيان -، الذين كانوا لا يكترثون للإسلام لتعلّق قلوبهم بالمال.

من الواضح أن مَنْ يخلُفَ النّبيّ يرثِ ليس سلطانه فحسب، بل وممتلكاته الضخمة أيضًا. وبما أن اسم الخليفة أبي بكر ما كان واردًا في لائحة الوَرَثَة الشرعيّين، فإنّه اتّخذ، غداة وصوله إلى السلطة، قرارًا جذريًا وحاسمًا وضع بموجبه يده على ثروة صديقه، إذ حَرَم آل البيت من مال الرسول ومنحه للأمّة. ولكي يُسَوِّغ وضع اليَدّ هذا، أَشْهَر حديثًا

---

(١) عبد الرزّاق، كتاب المصنّف، ٩٠/٦؛ وانظر أيضًا: ابن حَنْبَل، المُسند، ٤٤٤/٣٦؛ الدّارَقُطْنِيّ، سُنَن، ٤٩١/٢؛ البَيْهَقِي، السُّنَن، ٣٢٦/٩؛ المتّقي، كَنْز العمّال، ٥/ ٨٦٦.

(٢) لاستيبان هذه الآية، انظر خصوصًا: تفسير الرّازي، ١٩٩/٣١.

(٣) ابن شَبَّة، تاريخ المدينة، ١٧٥/١؛ وفيه يكرّس المؤلّف فصلاً لوصف ثروة الرسول العظيمة، انظر: ١٧٣/١ - ١٧٥.

(٤) البلاذُري، فتوح البُلدان، ٤٠/١ - ٤١؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ١٧٣/٢.

(٥) وهذه عبارة موجودة في القرآن، في سورة التوبة.

قال فيه محمّد إن الأنبياء لا يُورِّثون[1]، وهو ما لم تغفره فاطمة أبدًا لخليفة أبيها.

بالعودة إلى سياق الأحداث، ولما رأى موته يقترب، أظهر محمّد زُهدًا بالدنيا ومتاعها؛ وقيل إنه صفّى كل ما كان يملكه قبل لقاء وجه ربّه. ويقول ابن سعد: «مات رسول الله وما ترك دينارًا ولا دِرهمًا ولا عبدًا ولا أَمَةً ولا وَليدةً»[2]؛ كما أنه أعتق، قبل وفاته، أربعين عبدًا[3]. وخلال احتضاره، أودع عائشة سبعة دنانير، طالبًا منها التخلّص منها لرغبته بلقاء الله مجرّدًا من كل متاع الدنيا[4]؛ بل إنه أمرها بأن تبعث بالذهب إلى عليّ لكي يوزّعه على المحتاجين[5]؛ ولقد اضطر الرسول إلى تكرار أمره هذا ثلاث مرات على مَسْمَع عائشة التي ما كانت على ما بدا تتعَجّل في الامتثال له[6]، لشدّة الكراهية التي كانت تضمِرها لابن عَمّ زوجها.

أما صحابة الرسول وأفراد عائلته، فإن أشدّ الطمع كان يحرّكهم،

---

(١) عن أبي بكر قال: سمعتُ رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، يقول: «إنّا لا نُورث، ما تَرَكْناه صدقةٌ»؛ قال أبو بكر لفاطمة: «إني سمعتُ رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يقول: إنما هي طُعْمَة أطعمنيها الله فإذا متُّ كان بين المسلمين». ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ١/ ٣٠٦؛ ابن سعد، الطبقات، ٣١٤/٢ - ٣١٥؛ صحيح البخاري، ١٥٤٩/٤؛ أبو داود، سُنن، ١٠٠/٣؛ صحيح مسلم، ١٥٣/٥؛ النّسائي، سُنن، ٩٨/٦؛ السّيوطي، جامع الأحاديث، ٤٢٣/٩؛ المُتقي، كَنْز العمّال، ٢١/١١.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ٣١٧/٢؛ ٢٦٠/٢؛ ابن ماجة، السُنن، ٩٠٠/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٥٦٠/٤.

(٣) السّيرة الحلبيّة، ٤٩٨/٣.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ٢٣٧/٢ - ٢٣٨؛ السّيرة الحلبيّة، ٤٩٨/٣.

(٥) ابن سعد، عينه، ٢٣٩/٢.

(٦) ابن سعد، عينه، ٢٣٩/٢.

لدرجة لا يتّسع معها كتابنا هذا لمقاربة المسألة الواسعة التي طرحها الإرث المالي للرسول ولا للخصومات والمشاحنات العديدة التي أثارها بين أقاربه[1]. بل إن العديد من كتب التراث الإسلامي تتوقف عند رجال من أمثال أبي بكر وعمر، فتصفهم في غالب الأحيان كرجال قابلين نوعًا ما للارتشاء؛ بل إن أبا بكر، وحتى بعد «مبايعته» خليفةً، ظَل رجل أعمال يبرم في الأسواق الصفقات التجارية المُدِرّة للأرباح، لدرجة اضطّر معها صديقاه عمر وأبا عُبَيْدَةَ إلى القول له إن سلوكيّاته هذه لا تليق بِمَنْ كان خليفة الرسول!

> لما استخلف أبو بكر أصبح غاديًا إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له: «أين تريد يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم» قال: «السوق»، قالا: «تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين»؛ قال: «فمن أين أطعم عيالي؟»؛ قالا له: «انطلق حتى نفرض لك شيئًا»؛ فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة وما كسوه في الرأس والبطن[2].

وعند دنوّ أجله، قال أبو بكر لابنته عائشة: «انظري يا بُنَيَّة ما زاد من مال أبي بكر منذ وُلّيت هذا الأمر فردّيه على المسلمين»[3]. لماذا عبّر أبو بكر عن هذا الطلب؟ هل كانت الشكوك تراوده في مشروعيّة إثرائه؟ ومن جهته، أقرّ عمر بأنه يفكّر في صفقاته التجارية حتى أثناء أدائه الصلاة

---

(١) انظر على سبيل المثال البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/١٦٩ - ١٧٠.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ٣/١٨٤؛ وانظر أيضًا: ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٣٠/٣٢١.

(٣) ابن قُتَيْبَة، كتاب المعارِف، ١/١٧١؛ وانظر أيضًا: ابن خَلّكان، وَفَيات الأعيان، ٣/ ٦٥؛ مُحِبّ الدين الطَّبَري، الرياض النَّضِرَة في مناقِب العَشَرَة، ١/٢٠٠.

معترفًا بأنه، ولشدّة انشغاله بالمال، كان يقول: «إني لأحسب جزية البحرين وأنا في الصلاة»[1].

وفي مشهديّات أخرى ليست أكثر رِفعة من غيرها، يبدو عمر شارد الذهن خلال الصلاة ومشغولاً بالمواشي التي أرسلها إلى بلاد الشام[2]:

رَوَى صَالِحُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ فِي كِتَابِ الْمَسَائِلِ عَنْ أَبِيهِ مِنْ طَرِيقِ هَمَّام بْنِ الْحَارِثِ أَنَّ عُمَرَ صَلَّى الْمَغْرِبَ فَلَمْ يَقْرَأْ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ، فَقَالَ: إِنِّي حَدَّثْتُ نَفْسِي وَأَنَا فِي الصَّلاَةِ بِعِيرٍ جَهَّزْتُهَا مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى دَخَلَتِ الشَّامَ، ثُمَّ أَعَادَ وَأَعَادَ الْقِرَاءَةَ[3].

بل إن عمر ذهب حدّ التعبير عن حَسْرَته من خلال اعترافه بأن الأعمال التجاريّة قد حالت دون قضائه وقتًا أطول في جوار الرسول قائلاً: «أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ»[4]. ومع عثمان بن عفّان استفحل هذا الطابع الإثرائي للخلافة أكثر، واقترن بإفراط في محاباة الأقارب حتى اتّخذ نِسبًا مهمّة تسبّبت في مقتل ثالث الخلفاء قَتْلَةً شديدة العنف. وبالنظر إلى هذه المعطيات، فإن الرسول لم يخطئ بلا شك يوم تنبأ بأن خلفاءه سيكونون من أهل البدانة والخيانة: «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ بَعْدَكُمْ

---

(١) ابن أبي شَيْبَة، المصنّف، ١٨٦/٢؛ وانظر أيضًا: البَيْهَقي، السُّنَن، ٣٤٩/٢؛ ابن حَجَر، فتح الباري، ٩٠/٣؛ السيوطي، جامع الأحاديث، ٤٨٨/٢٦؛ المتّقي، كنز العمّال، ٢١٦/٨.

(٢) يقول الذّهبي في سير أعلام النبلاء (٢١٤/٢) إنّ عمر استمر تاجرًا حتى إبّان تولّيه الخلافة.

(٣) ابن حَجَر، فتح الباري، ٩٠/٣.

(٤) ابن حَنْبَل، المُسند، ٣٥٢/٣٢؛ صحيح البخاري، ٧٢٧/٢؛ ٧٤٥/٢؛ ٢٦٧٦/٦.

قَوْمًا يَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»[١].

ندرك إذّاك على نحو أفضل الوِقْفَة المحمومة لكل من أبي بكر وعمر وقد عِيْل صبرَهما في جوار الرسول الفاحش الثراء والقابع في سرير المرض. في الواقع، كان كلهم يفكّر في الخلافة. بل إنّ العبّاس، عمّ محمد، قال لعليّ: «إنّي والله لأرى أنّ رسول الله، صلّى الله عليه وسلم، سيُتوفّى في وجعه هذا، أنّي أعرف وجوه بني عبد المطّلب عند الموت»[٢]؛ وأضاف: ««فانطلق بنا إليه فنَسأله مَن يَستخلف، فإن استخلف منّا فذاك، وإلا أوْصَى بنا فَحَفِظَنَا مَن بَعْدَه!» أجابه علي: «أخشى أن يقول لا؛ والله لئن سألناها رسول الله فمنَعنَاها لا يعطيانها النّاس أبدًا»[٣]. وفي صياغة أخرى، قال العبّاس لابن أخيه عليّ: «ندخل على النبيّ، صلى الله عليه وسلّم، فنسأله إلى من هذا الأمر[٤] من بعده،

---

(١) صحيح البخاري، ٢/٩٣٨.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/٢٤٥؛ وانظر أيضًا: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٥٤؛ ابن حَنْبَل، المُسْند، ٤/٢٠٥؛ صحيح البُخاري، ٤/١٦١٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٢٩؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٤٢/٤٢٤؛ ولقد كرّس ابن سعد، فصلاً في الطبقات الكبرى (٢/٢٤٦ - ٢٤٧)، في «ذكر ما قاله العبّاس بن عبد المطّلب لعليّ بن أبي طالب في مرض رسول الله» وعشيّة موته.

(٣) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٢/٦٥٤؛ ابن سعد، الطبقات، ٢/٢٤٥ - ٢٤٦؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/٢٤٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٢٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/٢٤٧؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤/٤٩٨. وبحسب ابن هشام، عينه: «فتُوُفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتدّ الضُحاء من ذلك اليوم».

(٤) أكّد محمد علي أمير - معزّي على الطابع الخاص جدًا للفظ «أمر» بالعربية، فكتب يقول: «يعني لفظ أمر (السلطة) في اللغة العربيّة حرفيًا: «عمل»، «مسألة»، «شيء» و«أمر»؛ وهو بالتالي لفظ متعدّد المعاني تصعب ترجمته [...] وله على الدوام معنى السلطة الشرعيّة، وخلافة الرسول، لكون لفظ «الخلافة» يعني حرفيًا «إمارة الرسول».=

فإن كان فينا لم نُسْلِمْه والله ما بقي منّا في الأرض طارقٌ، وإن كان في غيرنا لم نطلبها بعده أبدًا!» أجابه علي برباطَة جأش: «يا عمّ وهل هذا الأمر إلاّ إليك؟» وإذ توجه بكلامه إلى العباس وسلالته، أي العبّاسيين، أضاف عليّ: «وهل من أحدٍ ينازعكم في هذا الأمر؟» ثم تفرّق عليّ والعبّاس ولم يدخلا على النبي[(١)].

كان العبّاس، المتسلّح بطيب النوايا، يتمنى بقاء الخلافة في آل البيت فيما نرى عليًا [في مصادر السنّة][(*)] رجلاً تجاوزته الأحداث؛ وإذ كان على قناعة بأنّه خليفة الرسول الوحيد، بقي على الحياد مستقويًا بثقة بالنفس امتنع بموجبها عن أيّة مبادرة؛ ما يفسّر كلماته هذه: «وهل مَن يجرؤ على منافستكم؟»[(٢)] وفي اللاحق من الأيام، أخذ عليه عمّه العباس بشدة قلّة تبصّره قائلاً: «أشرت عليك في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن تسأله فإن كان الأمر فينا أعطاناه وإن كان في غيرنا أوصى بنا فقلت أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد بعده فمضت تلك»[(٣)].

وبسبب من فتوره وقصوره، أخِذ عليّ على حين غِرّة وسقطت الخلافة من يده. وإذ كان منشغلاً بجهاز ابن عمّه وحميه، سُمِع التكبير مؤذنًا بمبايعة الخليفة الأول[(٤)]. وما أن سلب أبو بكر وعمر السلطة من الهاشميّين حتى أصيب العبّاس بالذهول، وصاح في عليّ قائلاً: «مَا قَدَّمْتُكَ إِلَى شَيْءٍ إلا تَأَخَّرْتَ عَنْهُ». وَكَانَ قَالَ لَهُ: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّه

=انظره في القرآن الصامت والقرآن الناطق (Mohammad-Ali Amir-Moezzi, *Le Coran silencieux et le Coran parlant*, *op. cit.*, p. 40).

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/٢٤٦.

(*) إضافة من المترجمة ضنًا باستقامة المعنى.

(٢) المَقريزي، رسائل، ١/٤٩ - ٥٠.

(٣) الجوهري، السّقيفة وفَدَك، ١/٤٤؛ انظر أيضًا: ابن أبي الحديد، شرح النّهج، ٢/٤٨.

(٤) عينهما.

صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخْرُجْ حَتَّى أُبَايِعَكَ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ، فَلا يَخْتَلِفُ عَلَيْكَ اثْنَانِ. فَأَبَى وَقَالَ: أَوَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ حَقَّنَا وَيَسْتَبِدُّ عَلَيْنَا؟ فَقَالَ الْعَبَّاسُ: «سَتَرَى أَنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ». فَلَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ يَا عَلِيُّ؟»[1].

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/٢٦٥.

الفصل التاسع

محمّد و«روايته العائليّة»(*)

كانت الأجواء في حجرة الرسول المحتضِر تَعْبَق برائحة الدسائس. فمحمّد القابع في العزلة التي فرضها المرض عليه، وحيد وسط مناورة سياسيّة عائليّة، كانت عائشة تحرّك خيوطها من وراء السّتار. إذ لا مجال بالنسبة إلى الزوجة ذات الثمانية عشر ربيعًا والمفعمة حيويةً، لتَرْك خلافة

(*) بحسب الدكتور حسن المُودن، ««الرواية العائليّة» مصطلح نفساني وضعه مؤسّس التحليل النفسي [العيادي] سيغموند فرويد في نصّ أصدره سنة ١٩٠٩ تحت عنوان رواية العصابيين العائلية (Sigmund Freud, *Le roman familial des névrosés et autres*, Paris, Payot, coll. "Petite Bibliothèque Payot", 2014). وتعتبر مارت روبير (Marthe Robert) أول من وظّف هذا المصطلح النفساني في قراءة الأدب والرواية أساسًا، في كتابها الصادر سنة ١٩٧٢ تحت عنوان رواية الأصول، أصول الرواية (*Roman des Origines et origines du roman*, Paris, Grasset, coll. "Essais et documents", 1988). والمقصود بـ «الرواية العائليّة» هو أن هناك حكاية عائليّة أصليّة هي، منذ القدم، نواة كل الخرافات والأساطير والآداب السرديّة. وهذه الحكاية العائليّة حكايتان: حكاية «العالم العائلي المَعْثُور عليه»، وفي هذه الحكاية نجد إعادة صوغ للعائلة الواقعيّة التي خيّبت الآمال، وتعويضها من خلال عمليّات التمثيل والتخيّيل، بعائلة أخرى ملكيّة ونبيلة؛ وحكاية «العالم العائلي المَعيش»، وفي هذه الحكاية لا تعوّض العائلة الواقعيّة بأخرى متخيّلة، بل تتمُّ مواجهة عنصر غير مرغوب فيه من عناصر هذا العالم العائلي المَعيش من أجل أن يستعيد خصائصه الأصليّة والطبيعيّة» (عن الموقع الإلكتروني: https://www.abdullahzayed.com). (م.)

زوجها تُفْلِت من يَدِ أبيها. وإذ لازمت سرير الرجل المريض، راحت عائلة الرسول توظّف منهجيّة الغزو السلميّ[1]. فأبو بكر وعمر، خليفتا المستقبل نَسَجا بمساعدة بِنْتَيْهما عائشة وحَفْصَة، حول محمّد شبكة خفِيّة، ما يدعونا إلى الاستنتاج بأن مؤسّسة الخلافة كانت شديدة الارتباط بالعلاقات العائلية التي أرساها الرسول مع صحابته: فالخلفاء الراشدين الأربعة الأوائل كانوا له أحماءً وأصهارَ، والسلطة السياسيّة في الإسلام كانت قبل كل شيء (ولعلها لا تزال كذلك اليوم) مسألة عائليّة بامتياز. إذ ثَمّة مشهد نقله لنا ابن كثير، يظهر بوضوح وزن العلاقات العائليّة، وتأثير النساء تحديدًا، في تلك اللحظة الحاسمة. كتب صاحب **السّيرة النبويّة**، نقلاً عن الرُّواة قائلاً: «لما اشتد برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجعه أرسلت عائشة إلى أبي بكر، وأرسلت حفصة إلى عمر، وأرسلت فاطمة إلى عليّ»[2]. أُرسل إذن في طلب الخلفاء المستقبليّين الثلاثة، هذا من قبل ابنته وذاك من قبل زوجته، علمًا أن غياب عثمان الكلّي طوال احتضار الرسول أمر مثير للاستغراب حقًا.

بقيت الرابطة الزوجيّة بآل البيت على أهميّتها حتى بعد وفاة محمّد، وهو ما يفسّر إقدام عمر، الخليفة الثاني، وقد كان في سِنّ متقدّمة للغاية، على الزواج بحفيدة الرسول، أم كُلثوم (بنت عليّ وفاطمة) التي ما كانت يومذاك إلاّ طفلةً. وعندما طلب يدها للزواج من عليّ والدها، نال العجب من الأخير الذي لفته إلى طراوة عودها مقارنة بسنّه. فإذا

---

(١) تواجد في حجرة المريض بعض من نسائه (عائشة، حَفْصَة ومَيْمونة)، وابنته فاطمة مرفوقة بزوجها عليّ، وعمّه العبّاس مصحوبًا بأبنائه (فَضْل وقُثام وعبد الله)، بالإضافة إلى أسامة بن زيد الذي كان يُعَسْكِر في الجُرْف ويذرَع الأرض جيئة وذهابًا بينه وبين المدينة لعيادة الرسول. ولقد كان حضور فاطمة خلال احتضار والدها حضورًا وجيزًا، ليتّسع بعد ذلك دورها إبّان تسوية مسألة الخلافة.

(٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٧٥/٥؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٥٠٥/٤ - ٥٠٦.

بثاني الخلفاء يجيبه قائلاً: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي [...] فأحببت أن يكون لي من رسول الله سبب ونسب»(١). ولما رأى عمر أنّ هذه الحجّة غير كافية وغير مقنعة سارع بعرض مبلغ مالي ضخم قدره أربعون ألف دِرهم كمهر للعروس. غريب أمر عمر؛ ألم يكن يقول للمسلمين: «لاَ تُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ»؟!(٢). ونظرًا لضخامة المبلغ المعروض انتهى الأمر بعليّ إلى القبول بتزويج ابنته الطفلة بأمير المؤمنين العجوز(٣). بل إن بعض سرديّات كتب التراث الإسلامي (الشيعيّة منها والسنّية) تُلمِح إلى أن قِران عمر بأم كلثوم جرى على خلفيّة حادثة اغتصاب دنيئة(٤). ولنذكّر بأن مَنْ كان ليصبح ثاني الخلفاء الراشدين معروف بكراهيته للنساء وباعتياده على «الدخول عليهن عُنوةً»؛ ولقد ذكرت المؤلّفات السّنية التي يحتَجُّ بها، اغتصاب عمر لعاتِكَة بنت زيد(٥).

(١) الطبراني، المعجم الكبير، ٤٤/٣؛ الحاكم النيسابوري، المستَدْرَك، ١٥٣/٣؛ المُتّقي، كنز العمّال، ٤٠٩/١١.

(٢) ابن أبي شَيْبَة، المصنّف، ٤٣٩/٣؛ الدّارمي، السُّنن، ١٩٠/٢؛ ابن ماجة، السُّنن، ١/ ٦٠٧؛ الحاكم النيسابوري، المُسْتَدْرَك، ١٩١/٢؛ المُتقي، كنز العمّال، ٥٣٦/١٦. لم يعطِ عمر نفسه لزوجاته صداقًا ولم يطلب لبناته مهرًا أكثر من أربعمائة وثمانين درهمًا (انظر: ابن حَنْبَل، المسنَد، ٤١٩/١؛ ابن مادة، السُّنن، ٦٠٧/١؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك، ١٩١/٢؛ المتقي، كنز العمّال، ٥٣٤/١٦).

(٣) ابن إسحاق، السّيرة النبويّة، ٢٤٨/١ - ٢٤٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٣٠/٥؛ البيهقي، السُّنن، ٣٨١/٧؛ الذهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٤٣٣/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٦١١/٤.

(٤) الكُلَيْني، الكافي، ٣٤٦/٥؛ ابن الجوزي، المنتَظِم، ١٢٤/٨.

(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٦٥/٨)؛ السُّيوطي، جامع الأحاديث، ٥٠٠/٢٥؛ المُتّقي، كنز العمّال، ٦٣٣/١٣.

هكذا إذن كان أبو القاسم وسط دوّامة حقيقيّة من الأهواء والعواطف، والغَيْرات والمطامع، والمشاحنات الزوجيّة الملحميّة. ولكي ندرك على نحو أفضل كيف أن التنافسات السياسيّة كانت مضغوطةً بالعواطف الشخصيّة والأحقاد العائليّة، نجد أنه من المفيد بلا شكّ التوقف قليلاً عند التاريخ العائلي لمحمّد، حيث «رواية الأصول» الخاصة به محاطة بغموض كثيف.

ترِد في مؤلّفات التراث الإسلامي الأكثر قِدمًا معلومات مهمة في نَسَب محمّد، من شأنها أن تقلِب رأسًا على عقِب الرواية الرسميّة التي فرضت نفسها على مَرّ القرون، والمؤكّدة على أن محمّدًا لم يعرِف أباه عبد الله بن عبد المطلب، الذي مات خارج مكّة قبل ولادة ابنه الوحيد، وعلى أن محمّدًا، لما بلغ سنّه السادسة، فقد أمّه، آمِنة بنت وَهْب. وإذ أصبح الصبيّ الصغير يتيم الأبوَيْن، تولّى جدّه لأبيه، عبد المطلب، وقد كان عضوًا مؤثّرًا في العشيرة الهاشمية من قبيلة قريش، تربيته. غير أن هذه الرواية المصقولة والمنقّاة من الشوائب، تجد لها ما يُخَلْخِلُها في العديد من المؤشّرات الماثلة في كتب التراث الإسلامي والموحِيَة بأن محمدًا ولد بعد وفاة أبيه، خلال حِقبة زمنيّة تراوحت بين سنتَيْن وأربع سنوات. في الواقع، يقول لنا أهل السّنّة إن حمزَة، عمّ محمّد، أكبر سنًّا من ابن أخيه (بفارق تراوح بين سنتين وأربع سنوات)[1]. لكن عبد الله، والد الرسول، اقترن بالزُّهرِيّة آمنة في اليوم نفسه الذي أقدم والده عبد المطلب على الزواج بزُهرِيّة أخرى تدعى هالة بنت وهيب التي وَلَدَت له حمزة. أما عبد الله، والد محمّد، فلقد توفّاه الله في سِنّ الخامسة والعشرين، عقِب بضعة أشهر على زواجه بآمنة، فمات عنها وهي حُبلى

(١) ابن الأثير، أُسْد الغابة، ٥٢٨/١.

بالرسول[1]. حُمِل إذن بكل من حمزةَ ومحمّد في الحِقْبة نفسها نوعًا ما، وهو ما يقتضي أن يكونا في السِّن نفسها تقريبًا؛ غير أن الحال ما كانت هي هذه، إذ وُلد محمّد عَقِب ولادة عمّه حمزة بفارق زمني تراوح بين سنتَيْن وأربع سنوات، أي عقِب وفاة والده بحقبة زمنيّة تراوحت بين سنتَيْن وأربع سنوات.

شرّعت هذه المعضلة لصاحب **السّيرة الحلبيّة** طرح السؤال التالي: كيف أمكن لآمنة أن تحمِل بمحمّد عَقِب وفاة زوجها بحقبة زمنيّة تراوحت بين سنتَيْن وأربع سنوات؟ ويجيب المؤلّف إن «هذا يخالف ما تقدم من أن عبد المطلب تزوج من بني زهرة هالة وأتى منها بحمزة، وأن عبد الله تزوج من بني زهرة آمنة وذلك في مجلس واحد، وأن آمنة حملت برسول الله صلّى الله عليه وسلم عند دخول عبد الله بها، وأنه دخل بها حين أملك عليها فكيف يكون حمزة أسنّ منه صلى الله عليه وسلم بسنتين»[2]؟ من الواضح أن المسألة أربكت مؤلّفي كتب التراث الإسلامي أشدّ الإرباك بقدر ما حيّرت علماء الدين المعاصرين من أمثال عليّ جُمْعَة (مفتي الدّيار المصريّة الثامن عشر، بين عاميّ ٢٠٠٣ و٢٠١٣) الذي يعلمنا، بكثير من الجدّية، إمكانيّة أن يطول حَمْل المرأة الورِعة أربع سنوات[3]، مستندًا في مقاله هذا على التفسير القرآني (المثير للاستغراب أصلًا) الذي وضعه القُرْطبيّ، وفيه أنه يمكن للمرأة التقيّة البقاء حاملًا سنوات عدّة[4].

---

(١) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ١/١٥٦؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١/٩٩.

(٢) **السّيرة الحلبيّة**، ١/٢٥.

(٣) انظر الفتوى رقم ١٨٣٩٥ الصادرة بتاريخ ٢٠٠٢/٦/٢٧؛ وانظر أيضًا لعلي جمعة نفسه كتابه **الدين والحياة** (القاهرة، نهضة مصر، الفتوى رقم ٥١، ص٩٠).

(٤) **تفسير القرطُبي**، ٩/٢٨٧. وثمّة من مَثّل على الأمر متوسّلًا حالة امرأة ابن عَجلان التي كان يطول حملها أربع سنوات والتي أنجبت ثلاثة أولاد على امتداد حِقبة طالت اثني=

كان محمّد هو نفسه شديد القلق حِيال أصوله، وثَمّة حديث يظهره لنا جازمًا بكَرَم أصله ونقاوة منبتِهِ، ومؤكّدًا على أنه «أُخرج من بين أبوَيْه» في إطار زواج «نِظامي، مطابق للأصول» وليس في إطار علاقة خارجة عليه، قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله تبارك وتعالى في خيرهما فأخرجت من بين أبوين فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية وأخرجت من نكاح ولم أخرج من سِفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نفسًا وخيركم أبًا»[1]. وفي حديثه هذا، لا يستخدم الرسول لفظ «زِنا» بل لفظ «سِفاح» والأخير أكثر دِقّة لكونه يميل إلى ممارسة جنسيّة جماعيّة، كانت مقبولة في المجتمع الجاهلي[2]، عمد الإسلام، لما حَلّ، إلى تحظيرها. أفيكون حديث الرسول هذا ردًّا على الاتهامات التي كانت تلمّح إلى أنّه ليس ابنًا شرعيًا[3]؟

=عشر عامًا! ولنلفِت إلى أن مؤلّفين من أمثال ابن الجوزي قالوا إن سِنّ الرسول تراوحت، عندما توفّي والده، بين سبعة وثمانية وعشرين شهرًا (انظره في ابن الجَوزي، صِفَة الصفوة، ١/٢١).

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣/٤٨؛ ٣/٤٠٠ - ٤٠١؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ١/ ١٨٩ - ١٩١؛ السُيوطي، الدُرّ المنثور، ٤/٣٣٠؛ السُيوطي، الخصائص الكبرى، ١/ ٦٦؛ المُتّقي، كنز العمال، ١١/٤٠٢.

(٢) في السّفاح، تدخل المرأة في علاقات حميمة مع عدة شركاء في الحِقبة نفسها؛ وعندما تحمل، تسمّي بنفسها الرجل الذي سيكون أبًا لولدها. ولقد حُمِل بصاحب الرسول، عمرو بن العاص الرفيع الشأن، في إطار سِفاح، إذ كان لأمه علاقات جنسية مع أربعة رجال في الوقت نفسه؛ وبسبب من هذا الحمل القليل المطابقة للأصول، أمسى عمرو بن العاص أضحوكة المسلمين (انظره في السّيرة الحلبية، ١/٦٤).

(٣) تنكر السّنّة الحمل بالرسول في إطار سِفاح، وذلك بغرض التشديد على أن والدَيْ محمد لم يمارساه لأنهما ما كانا من أهل الإيمان بالوثن، بل كانا ذا إيمان توحيدي يمارسانه «سِرًّا». ولا ندري السبب في تفردهما بالإيمان التوحيدي في وقت كان المجتمع المكّي المشرِك يسَلِّم بيُسْر بالمساكنة مع متّحدات يهوديّة - نصرانيّة.

ثمّة معلومات أخرى مثيرة للشكوك ترِد في كتب التراث الإسلامي حول الأصول العائلية لمحمّد. إذ تجزم الرواية الرسميّة بأن الرسول كان الابن الوحيد الذي وُلد لعبد الله وآمنة، في حين أن هذه المعلومة تجد لها بسهولة ما يكذّبها على لسان آمنة التي أقرّت بأنها حملت لعدة مرات؛ قالت: «حَمَلْتُ به فما حَمَلْتُ حَمْلاً قَطُّ أَخَفَّ منه»[1]. وفي سرديّة أخرى، تجزم بوضوح أنها أنجبت العديد من الأولاد؛ قالت: «قد حَمَلْتُ الأولاد فما حَمَلْتُ سَخْلَة(*) أَثْقَل منه»[2] (وتعنى محمّدًا). فهل كان للرسول إذن أخوة وأخوات؟ تجيب كتب التراث الإسلامي عن السؤال بالإلماح: ألم يحمل والد محمّد كنيةَ أبي قُثَم[3]؟ بل إن المؤرّخ هشام جعيط خَلُص إلى أن «قُثَم» كان الاسم الحقيقي لمحمّد[4]. ومن جهتنا، نعتقد أن هذا الاستنتاج قابل للنقاش لأن نظريّة الكنية الغامضة عند العرب، لا تحيل بالضرورة، كما سبق لنا ورأينا، إلى الأبناء الحقيقيين؛ بل إن الأمر يزداد صوابيّة في حالة والد محمّد الذي قُبِض

---

(١) ابن إسحاق، السّيرة النبوية، ١/٥٠؛ وانظر أيضًا: مسند أبي يَعْلَى الموصلي، ١٣/ ٧٤؛ الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، ١/٤٥٦؛ صحيح ابن حبّان، ١٤/٢٤٣؛ البَيْهقي، دلائل النبوّة، ١/١٣٦؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣/٩١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ١/٤٧؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ١/٢٢٨؛ السُّيوطي، الخصائص الكبرى، ١/١٣٢ - ١٣٥.

(*) السَّخْلَة (بفتح أوله وسكون ثانيه) اسمٌ لمولود من وُلْد الضّأن والماعِز ساعة يولد، ذكرًا كان أو أنثى؛ والجمع: سَخْل وسِخال وسُخْلان وسَخَلَة وسَخْلات وسَخَلات. (م.)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/٩٨.

(٣) البلاذُري، أنساب الأشراف، ١/٩١.

(٤) هشام جعَيْط، حياة محمد (Hichem Dgait, *La Vie de Muhammad*, Paris, Fayard, 2007, tome I, pp. 236-240)؛ وانظر أيضًا للمؤلف نفسه: في السّيرة النبويّة، المجلد الثاني: تاريخيّة الدعوة المحمّديّة، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٧، ص١٤٩.

قبل أن يشهد ولادة ابنه، اللهمّ إلاّ إذا كان لمحمّد أخ يكبره سِنًّا واسمه قُثَم...

وبالإضافة إلى ذلك كله، تبرز المسألة الشائكة التي طرحها الاسم البعيد الاحتمال لمفارقته التاريخيّة الذي حمله والد الرسول: إذ كيف لوثنِي أن يسمّى عبد الله في حين أن المفترض، أقلّه نظريًا، أن الله ظهر مع مجيء الإسلام(١)؟ لكننا صرنا نعلم أن معبودًا اسمه الله(٢) قد وجد لدى عبدة الوثن قبل الإسلام بوقت طويل. واللافت أن الاسم الحقيقي للرسول يبقى حتى يومنا هذا غامضًا غير معلوم لأن «محمّد»، الذي يعني حرفيًا «الأكثر حَمْدًا»، ما هو إلا لقب أُطلق عليه غَداة النبوءة. فما كان اسمه إذن قبل التنزيل؟ إن مؤلّفات التراث الإسلامي عاجزة عن الإجابة عن هذا السؤال، ولا نعرف إلا أنه حمل كُنْيات عديدات، منها: أبو القاسم وابن أبي كَبْشَة (أي ابن العبد أبي كَبْشَة)، وهي كنية غريبة أُطلقت عليه في مكّة ولا نعرف عنها أي شيء تقريبًا(٣).

ومن ناحية أخرى، احتفظت كتب التراث الإسلامي بأثر للألم العميق

---

(١) يسعنا الاعتقاد أن السّنّة - أو ربما الرسول نفسه - اتخذت إجراءً قضى بـ «تصحيح» الأسماء المشرِكة وتمّ بموجبه تغيير اسم والد الرسول الذي كان في الأصل ربما عبد اللات (أي عبد الرّبّة الوثنية اللات)، ليصبح عبد الله، فيكتسب رنّة إسلاميّة. وفي شأن هذه العمليّة التصحيحيّة الأعلاميّة، عُد إلى: محمد بن خيرة، «الأعلاميّات والدين: في شأن تصحيح اسم العَلَم خلال القرون الأولى للإسلام» Mohammed H. Benkheira, "Onomastique et religion: à propos d'une réforme du nom propre au cours des premiers siècles de l'Islam", *op. cit.*

(٢) يتعلّق الأمر هنا بتقليص اللفظ العربي، الإله.

(٣) ابن عبد البَرّ، **الاستيعاب**، ١٧٣٨/٤؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٣٠٣/٣٨؛ المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٩/٢٩. خلال وقعة أُحُد، وقف أبو سفيان في رأس تلّة وراح يبحث عن محمد صارخًا: «أين ابن أبي كَبْشَة؟» (انظره في **تفسير الرازي**، ٩/ ٣٨٤).

الذي تسبّبت به لمحمّد مسألةُ أصوله الغامضة. إذ كان يستشيط غيظًا ما أن يُذَكَّر بالاحتقار الذي كان يُبديه القريشِيّون حِياله. لكن أيجد هذا الاحتقار تفسيرًا له في الانشقاق السياسي والديني عن المنظومة الشِّركِيّة المكّية وحدها دون غيرها؟ هذا ما ليس لنا علم مؤكد به. فالقريشيّون في مكّة كانوا على تعاطٍ بالتوحيد: إذ عاش [في أم القرى] مسيحيون (كان أشهرهم ورقة بن نَوْفَل)[1] ولم يتعرّضوا فيها للاضطهاد. لعل أسبابًا نَسَبِيّة هي التي دفعت بالقريشيّين إلى التعامل مع محمّد باحتقار المتفضّل. وثَمّة العديد من الأحاديث التي تصف السَّوْرة العمياء التي كانت تعصِف بالرسول كلما نُمي إليه الكلام الساخر والمهين الذي كان يقوله نبلاء قريش في حقّه، عامدين إلى مقارنته بنَخْله نبتت وحيدة فوق كَثْبَة أو جاعلين منه، في رواية أخرى أكثر قسوة وفظاظة، «كمثل نخلة في كَبْوَة»[2] أي أَكَمَة أقذار. وفي يوم دخل العبّاس على ابن أخيه «مُغْضَبًا»، فقال له: «ما يُغْضِبُك [يا عمّاه]؟» قال: «ما لنا ولقريشٍ، إذا تَلاَقَوْا بينهم تَلاَقَوْا بوجوهٍ مُبشِرَة، وإذا لَقَوْنا لَقَوْنا بغيرِ ذلك!»[3].

وإذ أدرك على ما يبدو أسباب موقفهم هذا، اشتدّ الغضب بالرسول «حتى احمَرّ وجهه وحتى استدَرَّ عِرْقٌ بين عَيْنَيْه». وفي يومٍ آخر، دخلت

---

(١) ورقة بن نوفل القرشي هو ابن عم خديجة، زوجة محمد الأولى، وهو ذائع الصيت في تاريخ الإسلام لأنه، عندما سألته بنت عمّه عن تجلّي الملاك جبريل على زوجها، كان أول من اعترف بنبوّة محمد. لكن، ما يدعو إلى الاستغراب، هو أن وَرَقَة، الذي كان مسيحيًا نسطوريًا ومتبحّرًا في الكتاب المقدّس، لم يعتنق الإسلام يومًا، ولم يُعرف السبب في ذلك.

(٢) التِّرمذي، سُنَن، ٥٨٤/٥؛ وانظر أيضًا: الحاكم النيسابوري، المستَدْرَك، ٢٧٥/٣؛ البيهقي، دلائل النبوّة، ١٦٧/١ - ١٦٨؛ ابن الأثير، جامع الأصول، ٥٣٥/٨؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ١٩٢/١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣١٥/٢.

(٣) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٥٧/٢٩؛ وانظر أيضًا: الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣٧٥/٣.

امرأة عليه ناقلة له ما قاله أبو سفيان في شأنه؛ قال: «مَثَل محمد في بني هاشم مثل الرَّيْحَانة وسط النتن». وإذ وعى الإيحاء إلى أصوله المفتقرة إلى النبالة ورفعة الشأن، انقبض الرسول غضبًا مع أن القول كان امتداحًا لشخصه أكثر منه ذمًّا[١].

في الحقيقة، إن لم يعتبر القريشيّون محمّدًا واحدًا منهم، فإنَّ ذلك لا يعود إلى أنه كان «ابن سِفاح»، بل لأن جدّه عبد المطلب كان بلا شك عبدًا، أي أنه لم يكن هاشميًا «أصيلًا». في الواقع، كانت «رواية بنوّة» عبد المطلب توازي غموضًا «رواية نبوّة» حفيده. هاكم ما تقوله لنا الرواية الرسميّة في هذا الشأن: عبد المطلب هو ابن هاشم بن عبد مَناف (واسمه الحقيقي عَمْرو وليس هاشِمًا)[٢]. خلال رحلة تجارية، مَرّ هاشم بيثرِبَ (المدينة المنوّرة لاحقًا) حيث تزوج بسلمى بنت عمرو، وقد كانت أرملة ذات سطوة لبَني النجّار من قبيلة الخَزْرَج (حلفاء محمّد لاحقًا)، وولدت له ابنًا أسمته شَيْبَة (شَيْبَة الحمد[٣] أو شَيْبَة الرحمة)، وما لبث أن أُطلق عليه اسم عبد المطلب[٤]. كان لقران هاشم بسلمى أن رسَّخ التحالف السياسي الذي يُسْتَشْرَف من خلاله تحالف محمّد مع

---

(١) الطّبراني، المعجم الأوسط، ١٩٩/٦؛ البَيْهَقي، دلائل النبوّة، ١٧١/١؛ أبو الفداء، المختَصَر في تاريخ البشر، ١١١/١؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ١٩٣/١.

(٢) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ١٣٦/١؛ كان «هشام» لقب أطلق على هذا السيد الكبير من قريش، وذلك من باب الإحالة إلى كرمه وجوده: «فما سُمّي هاشمًا إلا بِهَشْمِه الخبز بمكة لقومه». ثم إن الدّور السياسي الذي لعبه هاشم، جدّ جدّ محمّد، بالغ النفوذ في قومه، يستحق دراسة مفردَة له.

(٣) أيكون اسم محمّد مشتقًّا من الاسم الأول الأصلي لجدّه شيبة الحمد؟

(٤) ابن هشام، السّيرة النبوية، ١٣٧/١؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٦٤/١. كان الرضيع ساعة ولادته يعتمر شعرًا أبيضَ ولهذا السبب أطلق عليه اسم «شيبة» وهو لفظ يعني في اللغة العربية، «الشعرة البيضاء».

أنصار المدينة[١]. وتؤكد كتب التراث الإسلامي أيضًا على أن والدة جدّ الرسول كانت ذات منزلة اجتماعيّة رفيعة للغاية، أجازت لها اختيار زوجها بنفسها وخلعه ساعة شاءت (وهذا ملمح يذكّر جدًا بذاك الذي كان لخديجة، زوجة الرسول الأولى)[٢]؛ كما أنها أصرّت على الإبقاء على وليد هذا القران بمعيّتها[٣]. وبالتالي، عندما أتى عمرو بن عبد مَناف (الشهير بهاشم) طالبًا يدها للزواج، أصرّت سلمى على الإفادة من الحقوق نفسها أي: مفارقة الزوج ووصاية الأولاد.

عَقِب زواجه، غادر هاشم يثرِبَ حيث ترك امرأته وابنه شَيْبَة[٤] اللذين لم يراهما مرة أخرى لأنه توفّى بعد سنوات عدة في غزّة إبّان رحلة تجارية[٥]. لكن خلال تلك السنوات، تزوج هاشم بنساء أخريات في مكّة وأنجب منهن أبناء آخرين، ناسيًا بلا شك ابنه المولود له في يثرب، حيث عُني أخواله، أي أشقاء سلمى، بتربيته. وفي أحد الأيام، دخل المطّلب بن عبد مَناف، شقيق هاشم، يثرِبَ، وعبّر عن إرادته باستعادة ابن أخيه شيبة البالغ من العمر وقتذاك ثمانية أعوام ليعود به إلى مكّة[٦].

---

(١) ذاك هو الافتراض الذي أتى به المؤرّخ المصري سَيّد القِمْني، في كتابه **إسلاميات** الصادر عن المركز المصري لبحوث الحضارة، ٢٠٠١، ص٣٨.

(٢) تزخر حياة محمّد بالنساء النافذات الممسكات بزمام أمورهن. وهذا بلا شك أثر ينبئ عن وجود مجتمع عربي قبل الإسلام كان نظام الأمومة غالبًا فيه.

(٣) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ١٣٧/١.

(٤) يقول ابن كثير، إن سلمى، في المرحلة الأولى، رافقت زوجها هاشم إلى مكّة ثم عادت منها إلى عائلتها في يثرِب حيث ولدت شيبة الشهير بعبد المطّلب (ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ١٨٤/١).

(٥) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ١٨٦/١.

(٦) البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٦٤/١؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ١٨٤/١.

رفضت سلمى تسليم الولد لسِلْفها وتشاجرت معه[1]، لكن لا الرفض ولا الجدال نفعا (بل ثَمَّة مَنْ ألمح إلى أن الولد اختطف، إذ أُخذ «خُفْيَة من أمه»)[2]. ولما وصل المطّلب مكّة ورأى الناسُ شَيْبةَ الصغير على الراحلة، قدّمه عمّه لهم بوصفه عبدًا ابتاعه[3]. لماذا لم يقل لهم إنه ابن أخيه؟ لا ندري. لكن في **السّيرة النبوية** لابن هشام، نرى المطّلب يردُّ على أولئك الذين قالوا إن الصغير «عبد المطّلب»، زاجرًا: «وَيْحَكُم! إنما هو ابن أخي هاشم، قَدِمْتُ به من المدينة»[4]. وبالإضافة إلى ذلك، فما من أحد يعلمنا السبب في الإصرار على تسمية الولد بعبد المطّلب، ما يعني حرفيًا «مملوكه»، على الرغم من الإيضاح الذي اضطلع به عمّه. وفي ظِلّ هذه المعطيات، نفهم السبب في احتقار القرشيّين لمحمّد، وقد رَأَوْا فيه بلا شك حفيدَ مملوكٍ...

لم تقتصر عذابات محمّد العائليّة فحسب على المسألة الدقيقة التي طرحتها أصوله. إذ، عندما بلغ سِنّ الرشاد، راح الرجل يكثِر من الزيجات ليصبح ربَّ عائلة عديدة الأفراد أرهقته بهمومها، بل ذهبت، ساعة احتضاره، حدّ مفاقمة آلامه. ومن الملاحظ في هذا الشأن أن مصادر التراث الإسلامي لا تُجْمِع على العدد الدقيق لزوجات الرسول. إذ عُزِيَت إليه ثلاث عشرة أو خمس عشرة زيجة (بل قل أكثر)، عقدها كلها عَقِب وفاة زوجته الأولى خديجة. وعلى الرغم من تباين الروايات، ثَمَّة أمر يبقى ثابتًا لا جدال فيه، يتمظهر في تجاوز حريم الرسول حدّ

(١) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ١/١٣٧ - ١٣٨.
(٢) البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ١/٦٤؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ١/١٨٤.
(٣) البلاذُري، عينه، ١/٦٥؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ١/١٨٤.
(٤) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ١/١٣٨.

الزوجات الأربع الذي أجاز الله به تجاوزًا كبيرًا. ومن ناحيتها، لم تكن عائشة لتوفّر أية مناسبة للتعبير عن استنكارها لأعراس زوجها الكثيرة العدد. ولكي يضمن عدم تكرار تلك الملامات، اتخذ محمّد تدابير احتياطيّة عندما مَنَح نفسه حقّ الحصول على النساء بقدر ما شاء؛ إذ أُنزِلَت آية قرآنيّة تثني أكثر المشكّكين عن المضِيّ في اعتراضهم وشجبهم لأمر ارتضاه الله نفسه(1). وفي المناسبة نفسها، نزلت آية أخرى توبّخ عائشة وتدعوها إلى الانضباط؛ قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾(*).

وثَمَّة معلومة أخرى تجمع عليها كل سِيَر الرسول ومفادها أن محمّدًا - وهو ما أسلفنا الإشارة إليه - لم يعقِد زيجاته العديدة تلك إلا بعد وفاة امرأته الأولى، خديجة بنت خُوَيْلِد، التي شكّل وإياها ثنائيًا مثاليًا. إذ لم يقدِم الرسول على الزواج بأخرى ما دامت خديجة حيّة ترزَق. ولقد انتهت أُحادِيّة الزواج التي فرضتها عليه زوجته الأولى النافذة والملقّبة في مكّة بـ «سيّدة نساء قريش»(2)، إلى إسعاد الرسول. فهي الوحيدة التي أنجبت له أولادًا (باستثناء مارية، خليلته القبطيّة، التي وَلَدَت له إبراهيم). وحتى بعد وفاتها، بقي لخديجة مكان فريد في قلب محمّد، لدرجة

(1) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٥٠].

(*) سورة التحريم، وترتيبها في القرآن ٦٦، الآية: ٥.

(2) السُّهَيْلي، الرَّوْض الأُنُف، ١٥٧/٢.

عبّرت معها عائشة عن غَيْرتها من تلك المرأة التي توفّاها الله منذ زمن طويل[١]. بل إنها ذهبت حدّ نعتِها بـ «عجوز من عجائز قريش حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ»[٢]. وإذ لم يَسْتَسِغ أبو القاسم إطلاقًا نمائم عائشة وبَخها، «فغارت [...] وقالت: لكأنه ليس في الأرض امرأة إلا خديجة!»[٣].

تفسّر المصادر الإسلاميّة زيجات الرسول المتعدّدة بخضوعه لأمر قرآني يوصي المسلمين برعاية أرامل المقاتلين الذين سقطوا في سبيل الله وأولادهم الذين خلّفوهم أيتامًا. ومن المؤكّد أن حريم الرسول ضمّ عددًا لا يستهان به من الأرامل المحزونات. غير أن ترمّلهن لم يكن السبب الوحيد الذي اختارهن محمّد لأجله، ذلك أن الميزة الرئيسيّة التي سوّغت له اختيار معظمهن كمنت في انتمائهن إلى عشائر من ذوات السُّطْوة والمكانة في قريش (وتلك كانت تحديدًا حالة كل من أم حبيبة وأم سلمة وميمونة). لكن المنفعيّة السياسيّة لا تكفي هي الأخرى لتفسير كل هذه الزيجات. فلماذا لم يقترن يومًا بمدينيّة من الأنصار وقد كانوا له بلا منازع من أكثر حلفائه إخلاصًا وثباتًا على موقفهم منه؟[٤] في الواقع،

(١) ابن إسحاق، السّيرة النبويّة، ٢٤٤/١.

(٢) ابن حَنْبَل، مُسند، ٨٩/٤٢؛ صحيح البخاري، ١٣٨٩/٣؛ صحيح مسلم، ١٣٤/٧؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ١١/٢٣؛ الحاكم النيسابوري، المستَدْرَك، ٣١٨/٤.

(٣) ابن إسحاق، السّيرة النبويّة، ٢٤٤/١؛ صحيح البخاري، ١٣٨٩/٣.

(٤) كان من الطبيعي أن يعمل الرسول على توطيد تحالفه السياسي مع عشائر المدينة بالمصاهرة، لكن لم تكن تلك هي الحال. مع ذلك، لا بدّ لنا من الإشارة إلى أن ابن كثير يذكر في السّيرة النبوية (٥٩٥/٤) زواج محمّد بأنصارية تدعى أم شُرَيْق من بني النّجار، قدّمت نفسها للرسول الذي لم يدخل بها. فمحمّد، على ما يبدو، يكره غَيْرَة الأنصاريّات المفرِطة (الذهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٥٠١/٣). غير أن السبب الحقيقي وراء رفضه الاقتران بمدينيّة يكمن في أنّ نساء المدينة كُنّ متحرّرات نوعًا ما وعصيّات على الإخضاع (البَيْهقي، سُنَن، ٥٨/٧) على شاكلة جدة جدته سلمى!

لعل هذه الزيجات كان لها ما يسوّغها في أسباب شخصيّة وعاطفيّة نوعًا ما. فمن جهة، تُلمح بعض الأحاديث إلى أن محمّدًا امتاز برغبات جيّاشة ملحوظة، واكبتها ممارسات جنسيّة خارقة للعادة؛ وبحسب ابن سعد: «قال الواقدي: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف عَلَى نسائه فِي غسل واحد. قَالَ: وروي عَنْهُ أيضًا أَنَّهُ طاف عليهن يغتسل من كل امرأة غسلاً. وأنه قَالَ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أعطيت فِي الجماع قوة أربعين رجلاً»[(١)].

ومن جهة ثانية، لم تفلَحْ أيّ من النساء اللاتي تزوّجهن في إسعاده كما فعلت خديجة. زِد على ذلك غياب الذرّية الذكوريّة. بل يسعنا القول إن الأحاديث الكارهة للنساء والمعزّوة إلى الرسول، أحاديث عادت في جوهرها إلى لحظات من الغضب الشديد ألمَّ بالرجل وحمله في بعض الأحيان على القول على مسمع صحابته، وقد ضاق ذَرْعًا بالشجارات الموصولة لزوجاته: «ما تركتُ بعدي في الناس فتنة أضرّ على الرجال من النساء»[(٢)].

وإذ نُحجم عن الدخول في التفاصيل المضجِرة لهذه الزيجات المتعدّدة، التي بقي بعضها نظريًا فلم يدخل حيّز التطبيق، نكتفي هنا

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٩٢/٨؛ انظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ٢٠٠٠/٥؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ١٠٢/٢؛ النسائي، **سُنَن**، ٢٠٧/٨؛ البَيهقي، **سُنَن**، ٧/ ٨٧. وفي الأحاديث الجريئة بشكل خاص، نرى زوجات محمّد يدعونه لمجامعة جواريهن: فلكي تعالج أزمة كانت لها مع زوجها، قالت له زينب إن واحدة من جواريها باتت طاهرة من حيضها؛ فإذا بالرسول يدخل حجرة زينب ويجامع أَمَتها (النّسائي، **سُنَن**، ٢٦١/٨).

(٢) ابن حَنبَل، **مُسْنَد**، ٧٥/٣٦؛ **صحيح البخاري**، ١٩٥٩/٥؛ **صحيح مسلم**، ٨٩/٨ و٢/ ٦٠؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ١٣٢٥/٢؛ التِرمِذي، **سُنن**، ٤٨٣/٤؛ وانظر أيضًا: **المُتّقي، كنز العمال**، ٢٨٧/١٦، ٢١٠/٣.

بالتذكير بزوجات الرسول وخليلاته التّسع التي عدّها حريمه لحظة وفاته[1]. ففي الشهر الذي تلى موت خديجة (في العام ٦٢٠)، تزوّج محمد سَوْدَة بنت زُمْعَة، وقد كانت أرملة ثلاثينيّة، وقضت مهمتها برعاية أولاد الأرمل. وفي تلك الأيام، طلب الرسول للزواج يدَ عائشة، ابنة صاحبه أبي بكر، وقد كانت آنذاك مسمّاة لجبير بن مطعم[2]. وثَمَّة من ألمح إلى تحفّظ خفيف صَدَرَ عن أبي بكر، إذ قال: «وهل تصلُح له، إنما هي ابنة أخيه!»[3]. بل إن أم رومان، والدة عائشة، وجدت أن ابنتها أَفْتَى من أن تزوّج، فقالت للرسول: «عندنا يا رسول الله مَنْ هي أكبر منها!»[4]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن سِنّ عائشة يوم زواجها، لم يجد له إطلاقًا مَنْ يحدّده بدقّة (سِتٌّ، سَبْعُ، تِسْعُ أو اثنتي عشرة سنة)، لكن الرواية المقبولة أكثر من غيرها هي تلك التي تفيد بأن الرسول تزوّجها «وعائشة يومئذ ابنة ست سنين، وبنى بها رسول الله [...] وهي ابنة تسع سنين»[5]. غير أن جُلَّ ما نعلمه هو أن عائشة كانت فتِيّة لدرجة اضطر معها الرسول، وقد كان آنذاك خَمْسونيًّا، إلى الانتظار ثلاث سنوات قبل الدخول بها دُخْلَة اتُّفِقَ عمومًا على تأريخها في العام ٦٢٣ (غداة الهجرة إلى المدينة). ويقال إن والد العروس، المكنّى آنذاك بابن أبي قُحافة،

(١) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٤٣/٢؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٨٥/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٥٧٩/٤.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢١٢/٢.

(٣) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٥٠١/٤٢؛ ابن الأثير، أُسْد الغابة، ١٨٩/٦؛ الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢١٢/٢.

(٤) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٤٠/٢، مما لا شك فيه أن أم رومان تقصد هنا أسماء الملقّبة بذات النطاقَيْن، الابنة الكبرى المولودة لأبي بكر وقُتَيْلَة. وستكون من نصيب الزُّبَيْر بن العوّام، ابن عمّة الرسول.

(٥) ابن إسحاق، السّيرة النبوية، ٢٥٥/١؛ ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٤٤/٢؛ السُّهَيْلي، الرَّوْض الأُنُف، ٥٦٠/٧؛ ابن الأثير، أُسْد الغابة، ١٨٩/٦.

غدا يحمل، عَقِب هذا الزواج، اسم أبي بكر (أي والد البَكر[١]) لكون عائشة العذراء الوحيدة التي اقترن بها الرسول، لميل أبي القاسم المفضّل للنساء الناضجات، إلى اختيار الأرامل أو المطّلقات أزواجًا. ولم يطل الأمر بعائشة حتى أصبحت مُحْظِيّة الرسول التي أبقت على مكانتها المميّزة هذه حتى وفاة زوجها، على الرغم من الأزمات التي اجتازها هذا الثنائي.

وإذ لم يكترث بقنوط عائشة، أكثر محمّد الزيجات، فاتخذ له زوجة ثالثة واسمها حَفْصَة وقد كانت أرملة سارع والدها عمر بن الخطاب إلى منح يدها للرسول، بحيث لا يخلو المكان بلا شك لأبي بكر. لم تكن حَفْصَة جميلة المُحَيّا، بل ذات بشرة داكنة ورثتها عن أبيها وعن جدته لأمه صَهاك؛ ولأنها كانت دميمة الخُلْقَة لم يرغب أبو بكرِ ولا عثمان الاقتران بها[٢]. وبدوره، لم يُولِ محمّد أيّ اهتمام بحَفْصة، إذ لم تكن ميزتها الأساسية في نظره إلا كونها ابنة واحد من أصدقائه. وفي اللاحق من الأيام، شعرت حَفْصَة على الدوام بأنها غير مرغوبة في حريم أبي القاسم الذي أحجم عن طلاقها خِشْية تكدير صاحبه، الذي أتى ابنته يومًا فقال لها: «ليس لك مثل حظوة عائشة ولا حسن زينب»[٣] و«رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلّقك، فبكت أشدّ البكاء»[٤].

وعندما لوّح الرسول بطلاقها، دخل عمر على ابنته غاضبًا وقال لها:

---

(١) يعني لفظ «بَكر» في اللغة العربية أيضًا الفَتِيّ من الإبل والصغيرة من الإبل التي لم يلقّحها النحل. ومما لا شك فيه أن الفصاحة العربية قد أفادت من تعدّد معاني هذا اللفظ، بحيث يمكن الإحالة إلى عائشة بمعنى «البَتول» وبمعنى «الإبل الصغيرة».

(٢) ابن عبد البَرّ، **الاستيعاب**، ١٨١١/٤.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٨٩/٨؛ وانظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٨٨/٤.

(٤) **صحيح مسلم**، ١٨٨/٤؛ وانظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٥٨/٢.

«والله إن كان طلّقك أخرى لا أكلّمك كلمة أبدًا»[1]. ومع أنها تركت لعائشة الدور الأول، نجحت حَفْصَة المفتقرة إلى حبّ زوجها، لكن المتمتّعة بالدهاء والقوة كوالدها (ألم يقل فيها التّرمذي إنها «ابنة أبيها»؟)[2]، في التأثير في الحريم أبلغ تأثير.

بعد حَفْصَة، تزوّج محمّد زينب بنت خُزَيْمَة، وقد كانت امرأة من بني هلال، قُتِل عنها زوجها يوم بدر. كانت زينب صاحبة نفس محبّة للإحسان لدرجة لقّبَت معها بـ «أم المساكين»[3]. بعد زينب، وغداة وقعة خَيْبَر، اقترن الرسول بأرملة أخرى، أم حبيبة (واسمها رَمْلَة)، وقد كان والدها، أبو سفيان الذائع الصيت، عدوّه اللدود، ولمّا كان قد اعتنق الإسلام دينًا بعد. ثم عمد أبو القاسم إلى توطيد رباطه بالعشائر القوية في قريش من خلال اقترانه بأم سَلَمَة (واسمها هند)، التي انتمت هي الأخرى إلى عشيرة بني أميّة البالغة النفوذ. وكأم حبيبة، كان لأم سلمة صلة قرابة بعدو لدود للرسول، إذ كانت ابنة عَمّ أبي جَهْل، ما يحملنا على الافتراض أن محمّدًا توسّل هاتَيْن الزيجتَيْن علّه يتقرّب من العدوّ القرشي قبل فتح مكّة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت أم سَلَمة أرملة ابن عمّته أبي سلمة.

لم تكن أم سَلَمَة القريبة الوحيدة التي اقترن الرسول بها، فهو تزوّج في سنة خمس من الهجرة (أي في العام ٦٢٦ للميلاد)، زينب بنت جَحْش الشهيرة، وكنيتها أم الحَكَم. ومما لا شك فيه أنها المرأة الوحيدة التي اتخذها له زوجة لأنه أحبّها حبًّا ذاع صيته وخلّدته آيات من القرآن.

---

(١) ابن إسحاق، السّيرة النبوية، ٢٥٧/١؛ المُتقي، كنز العمّال، ٥٣٨/٢.

(٢) التّرمِذي، سُنَن، ١١٢/٣.

(٣) توفّيت زينب بنت خُزَيْمَة قبل سبع سنين على وفاة الرسول، ولم يطُلْ زواجها به إلا بضعة أشهر.

كانت زينب امرأة ابن الرسول بالتبني ومعتوقه زيد بن الحارثة. وفي يوم، قصد محمّد زيدًا في منزله فلم يجده؛ استقبلته زينب وقد تدثرت بثوب رقيق بالكاد حجب جمال قوامها. ومع أنها بنت أُمَيْمة، عمّة الرسول، إلا أن الأخير ما كان التقاها؛ وما أن وقع بصره على زينب الجميلة حتى أضْمَر الحبُّ قلبه، وهو ما نجد له رواية أخرى لا تختلف إلا قليلاً عن تلك الواردة في المصادر الإسلاميّة وفيها أن الرسول ذهب يومًا لعيادة زيد، ابنه بالتبنّي، وقد كان مريضًا، فوجد زوجته زينب جالسة عند رأسه. وعندما وقفت، قال الرسول لزيد: «سبحان الله مقلّب القلوب والأبصار». فقال زيد: «أطلّقها لك يا رسول الله؟» رفض محمد العرض أول الأمر[1]، لأن التبنّي يلزم بالواجبات نفسها التي تمليها البُنُوّة الحقيقية ولأن الاقتران بامرأة الابن يعادِل سِفاح القربى. عند ذاك أنزل الله الآية التي تحرّم التبنّي في الإسلام، ما أجاز لمحمّد الزواج بامرأة ابنه[2]. وعندما علمت بنزول الآية القرآنية التي تمنح تفويضًا مطلقًا يستطيع الرسول بموجبه إتمام هذا القِران، قالت عائشة السّليطة اللسان: «لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية»[3].

أيًا يكن الأمر، أمكن لأبي القاسم المتحرّر من واجبات الأب المتبنّي، الزواج بزينب التي كانت هي نفسها سعيدة به. من جهته، بدا زيد، الذي لم يرَ في الحدث مأساة تعصِف به شخصيًا، كأنه تخلّى بطيبة

---

(١) ابن إسحاق، السّيرة النبوية، ١/٢٦٢.

(٢) ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

(٣) التّرمذي، سُنَن، ٥/٣٥٢. ينسب البخاري هذه الجملة إلى واحد من صحابة الرسول، هو أنس بن مالك (انظره في صحيح البخاري، ٦/٢٦٩٩)؛ أما الطّبراني فيعزوه إلى امرئ يُدعى الحسن (انظره في الطبراني، المعجم الكبير، ٢٤/٤٢).

خاطر عن امرأته لسيّده واستمر، على الرغم من كل شيء، في اعتباره والدًا. بل إن ثمّة مَنْ أوحى بأنه كان سعيدًا بتخلّصه من زينب، التي أنْفَذَت صبره بطباعها البغيضة[1]. وبفضل قصة الحبّ هذه، ذُكر زيد بن الحارثة بالاسم في القرآن (٣٣: ٣٧). وبهذا نال زوج زينب السابق شرفًا عظيمًا لم يحقّ لغيره إطلاقًا، ما عدا، وفي سياق مختلف تمامًا، عمّ الرسول، أبو لَهب «الكافر».

بعد زينب، انضمت إلى حريم الرسول نساء أخريات: سبايا مثل جُوَيْرِيَة بنت الحارث ويهوديّتان هما صفِيَّة بنت حُيَيّ وريحانة بنت زيد، التي رفضت الدخول في الإسلام والزواج بالرسول، مفضّلة أن تبقى له خليلةً فتكون في ملكه، كالقِبْطيّة مارية التي لم يقترن بها مع أنها ولدت له ابنًا. وفي العام ٦٢٩، تزوج الرسول ميمونة بنت الحارث، وقد كانت أرملة فتيّة من قبيلة بني هلال وسِلْفة عمّه العبّاس وخالة خالد بن الوليد[2] - ويقال إن ميمونة هي التي عرضت نفسها على الرسول بينما كان يؤدّي عُمْرَة القضِيّة[3]. ولقد كانت هذه الزيجة، التي سعى الرسول بمقتضاها إلى التقرّب من العشيرة القرشِيّة الماكثة في الكفر، آخر زيجاته.

كان حريم محمّد مصطخبًا بالشغب، إذ كانت المشاحنات الزوجيّة والعائليّة العديدة توقّع حياة الرسول اليوميّة، فتخرجه عن طوره أحيانًا وتدخله في سورات من الغضب الشديد، يلوّح خلالها بطلاق نسائه جميعًا[4]. وفي الحريم جماعتان: واحدة تأتمر بعائشة وتضم حَفْصَة

---

(١) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٦٧/٢.

(٢) الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٢٢٤/٣.

(٣) قيل في ميمونة بنت الحارث «إنها التي وهبت نفسها للنبي [...] وهي على بعيرها، فقالت: البعير وما عليه لله ورسوله» (ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٤٦/٢).

(٤) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٥٨/٢ - ٦٠؛ النسائي، سُنَن، ٢٥٧/٨ و٢٦٠/٨.

وصفيّة وسَوْدَة، وأخرى تستظِلّ بأم سلمة وتجمع النبيلات القرشِيّات[1]. بَيْد أنّ العداوة الكبيرة بين عائشة وزينب بنت جحش هي التي كانت تغذّي النزاعات[2]. فغَيْرة الأولى من الثانية كانت شديدة لا تقاس بغيرها. فعندما كانتا تتشاجران، لم تكن زينب توفِّر أيّة فرصة لتذكير عائشة بأن زواجها بالرسول كان بقرار إلهي[3]. أما محمّد، فكان يتلهّى بمشاحناتهما[4]. وفي هذا السياق، يُحكى أن المرأتان دخلتا يومًا في عراك عنيف، فما كان من الرسول الذي رأى غَلَبَة عائشة إلا أن هَتَف إعجابًا، قائلاً لها: «إنك والله ابنة أبي بكر!». يقول البخاري:

أَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ فَاطِمَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَأْذَنَتْ. فَأَذِنَ لَهَا. فَدَخَلَتْ وَهُوَ عِنْدَ عَائِشَةَ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أزواجك أرسلنني إِلَيْكَ، يَسْأَلْنَكَ السَّوِيَّةَ فِي ابْنَةِ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ. فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّةِ، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَأَحِبِّي هَذِهِ، يَعْنِي عَائِشَةَ. قَالَتْ فَاطِمَةُ: فَجِئْتُ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَدَّثْتُهُنَّ. فَقُلْنَ: مَا أَغْنَيْتِ عَنَّا شَيْئًا. فَأَرْسَلْنَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ أَزْوَاجُكَ، وَهُنَّ يَسْأَلْنَكَ السَّوِيَّةَ فِي ابْنَةِ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَوَقَعَتْ بِزَيْنَبَ، فَسَبَّتْنِي. وَطَفِقْتُ أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَى يَأْذَنُ لِي فِيهَا. فَلَمْ أَزَلْ أَنْظُرُ إِلَيْهِ حَتَّى عَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

---

(١) صحيح البخاري، ٢/٩١١.

(٢) عينه، ٤/١٥١٧؛ النسائي، سُنَن، ٨/١٥١.

(٣) صحيح البخاري، ٦/٢٦٩٩؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/٦٨؛ النسائي، سُنَن، ٨/١٦٣؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ٢٤/٤٢.

(٤) ابن حَجَر، فتح الباري، ٥/٢٠٧؛ السّيرة الحلبيّة، ٢/٢٩٤.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَكْرَهُ أَنْ أَنْتَصِرَ مِنْهَا. قَالَتْ: فَأَوْقَعْتُ بِزَيْنَبَ، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ أَفْحَمْتُهَا. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بكر(١).

كانت عائشة تُرهِب نوعًا ما نساء الحريم الأخريات إلى درجة ذهبت معها مرة حدّ تحطيم طبق من الطعام؛ قالت:

أتيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحريرة طبختها، فقلت لسودة والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيني وبينها: كلي فأبت. فقلت: لتأكلنّ أو لأُلطخنَّ وجهك فأبت، فوضعت يدي فيها فطلبت وجهها، فضحك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوضع فخذه لها وقال لها: الطخي وجهها، فلطخت وجهي، فضحك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها، فمرَّ عمر بن الخطاب فقال: يا عبد الله، يا عبد الله، فظنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سيدخل فقال: قوما فاغسلا وجوهكما(٢).

ولقد انتهى هذا المشهد بتفصيل يستحق منا لفت القارئ إليه، إذ قطع الرسول اللعبة فجأة، وسأل المرأتين غَسْل وجهيهما لمّا سمع وَقْعَ أقدام عمر يقترب من المنزل. فقالت عائشة في هذا الصدد: «فما زلتُ أهاب عمر لهيبة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إيّاه!»(٣).

كما روت عائشة بنفسها كيف قررت يومًا التآمر على زينب بنت

---

(١) صحيح البخاري، ٩١١/٢؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٤٥/٢؛ النسائي، سُنَن، ٨/ ١٦١ - ١٦٢. وهنا نجد البرهان على أن أبا بكر كان أبعد ما يكون عن الرجل الوديع والحسّاس الذي تصفه الأسطورة.

(٢) ابن حَنْبَل، فضائل الصّحابة، ٣٤٩/١؛ وانظر أيضًا: النسائي، سُنَن، ١٦٢/٨؛ ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٤٣/٤؛ المتّقي، كنز العمال، ٥٩٣/١٢.

(٣) المصادر عينها.

جَحْش لأن الرسول كان يطيل احتباسه في منزلها لتذوّق شراب بالعسل[1]. فاتفقت مع شريكتها حَفْصَة على القول للرسول ساعة يعود من عند زينب، إنه كريه النَّفَس. ذلك أنهما، ولكونهما ماكرتَيْن وقادرتَيْن على التحايل على الآخرين، كانتا تدركان جيدًا شغفه بالعطور الأنيقة النفيسة، وكراهته الشديدة لانبعاث أيّة رائحة مزعجة منه. فقالتا له: «ما هذه الريح الكريهة الصادرة عنك! أكلتَ مغافير[2]؟»؛ أجابهما: «لا سقتني زينب شربة عسل ولن أعود له»[3].

في المحصّلة، كانت زوجات الرسول يتسبَّبْن له بالهَمّ بقدر ما كان يقلقه كفرةُ قريش. لكن خلافات محمّد العائليّة ما كانت لتتوقف عند هذا الحدّ؛ فهو لم يكن ليجد نفسه فحسب وسط النزاعات الموصولة المصطخِب بها حريمُه، بل كان عليه أيضًا، وباستمرار، التدخل لحلّ النزاعات التي كان يتداعى بها الثنائي المؤلَّف من ابنته فاطمة وابن عمّه علي المقيمان في المنزل المجاور.

---

(١) النَّسائي، سُنَن، ١٥٧/٨.

(٢) صَمْغٌ نباتي حلو المذاق، تنبعث منه رائحة كريهة ويستخرج من نبات الأُرْفُت (*Acacia œrfota*).

(٣) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٤١/٤٣؛ انظر أيضًا: صحيح البخاري، ١٨٦٥/٤ و٢٥٥٦/٦؛ صحيح مسلم، ١٨٤/٤ - ١٨٥؛ البَيْهَقي، سُنَن، ٥٨٠/٧.

الفصل العاشر
الابنةُ والصهْر

تزوّجت فاطمة عليًا، ابن عَمّ والدها، نحو شهر نيسان/أبريل من العام ٦٢٤. يبدو أن النبي فرض هذه الزيجة نوعًا ما لأن ابنته، الأقل حُسْنًا على الأرجح من أخواتها، لم تكن بحسب العديد من المؤشرات مرغوبة بقدرِهنّ، وإن كانت الابنة الأحَبّ إلى قلب الرسول[١]، الذي كان يبدي حِيالها فيضًا من الحنان قائلاً فيها يومًا: «فإذا أنا اشْتَقْتُ إلى رائحة الجنّة شَمَمْتُ ريحَ فاطمة»[٢].

لم تكن لامبالاة الخُطّاب بفاطمة مفهومة خاصة وأن أبا القاسم قال: «سألت ربي أن لا يدخل النار من صاهرته أو صاهرني»[٣].

غير أن كونها ابنة الرسول لم يُعِن الشابة على إيجاد زوج مناسب، خلافًا لأخواتها اللاتي ظَفَرْنَ بزيجات تليق بمقامهنّ. إذ اقترنت كلّ من زينب وأم كلثوم ورُقَيّة بقريشيّ ثريّ ومشرِك - لكأنّ المال يغني عن قلّة

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ٦٠٩/٤. وفي البداية والنهاية (٣٦٥/٦)، يؤكد ابن كثير على أنه كان لفاطمة أخ توأم، سمّيَ عبد الله ومات صغيرًا.

(٢) الطبراني، المعجم الكبير، ٤٠٠/٢٢؛ الحاكم النيسابوري، المستدرَك، ١٦٩/٣؛ المتقي، كنز العمّال، ١٠٩/١٢.

(٣) السيرة الحلبية، ١٨٤/٣.

الإيمان -، فتزوّجت زينب ابن خالتها أبي العاص بن الربيع (أي ابن خالتها هالة بنت خويلد، أخت أمّها خديجة)[1]، واقترنت رُقَيّة وأم كلثوم بابنيّ عَمّ والدهما، السّيئ الذكر أبو لَهَب[2]، فتزوّج عُتْبَةَ الأولى وتزوّج عُتَيْبَةَ بن أبي لَهَب الثانية. وتقول كتب التراث الإسلامي إن هذه الزيجات عُقدت قبل النبوّة. وإذ اضطر زَوْجاهما إلى طلاقهما بضغط من حَميهما المشتَرك أبي لَهَب، عمّ محمّد اللدود، تزوّجت رُقَيّة وأم كلثوم ثانية بنفس الرجل على التلاحق، أي عثمان بن عَفّان الفائق الثراء[3].

(١) ثمّة أجزاء كاملة من سيرة زينب (وهي في غالب الظن الابنة البكر للرسول) لا تزال غير معلومة كليًا. فهي، عندما دقّت ساعة الهجرة، لم تَبْرَح مكّة في رَكْب أبيها، مفضّلة البقاء فيها بالقرب من زوجها أبي العاص الفاحش الثراء، والذي رفض اعتناق الإسلام. أما ابنة زينب واسمها أُمامة، فكانت أحبّ أحفاد الرسول إلى قلبه.

(٢) ثَبّت أبو لهب، وهو عَمّ محمّد المعروف بتصلّبه وبمعارضته الحادة لابن أخيه، حتى النهاية. ولقد أتى القرآن، في سورة المَسَد (وترتيبها ١١١)، على ذكر أبي لهب بالاسم كما ذكر زوجته لإلقاء الضوء، وبطريقة يُضْرَب بها المثل، على العقاب الإلهي. غير أن العلاقة بين محمّد وهذا العمّ الشرس كانت أكثر تعقيدًا مما قيل فيها. إذ كان الرسول يحبّ عمّه أبا لهب ويبدو لنا أنه عاش قطيعته معه كمأساة شخصيّة ولّدت في نفسه ألمًا جمًا.

(٣) عقِب طلاقها من عُتْبَة بن أبي لَهَب، تزوّجت رُقيّة بعثمان بن عفّان وولدت له غلامًا «سمّاه عبد الله [...] فبلغ عبد الله ستّ سنين فنقره ديك على عينه فمرض فمات»، بناء على ما أورده في شأنه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥٤/٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٨/٣٩)، وابن كثير في السيرة النبوية (٦١٠/٤). ومن ناحية أخرى، تجدر الإشارة إلى أن رُقيّة وأم كلثوم تفتقران إلى سيرة موثّقة معروفة، ولولا اقترانهما على التلاحق بعثمان لما كانتا نالتا شهرةً في الإسلام. زِدْ على ذلك أن الغامضة أم كلثوم، لم تُعرف إلا بكنيتها. وإذ نلحظ تشابهًا مثيرًا للغرابة بين وجودها ووجود رُقيّة، يسعنا التساؤل ما إذا كان الأمر يتعلق في النهاية بامرأة واحدة أي ما إذا كانتا في نهاية الأمر تمثّلان امرأة واحدة. فعلى سبيل المثال، لا يأتي الذهبي على ذكر أم كلثوم بتاتًا في المسرد الذي يورده ببنات محمّد، حيث لا يَذكر إلا رُقيّة وزينب وفاطمة. (انظر: الذّهبي، تاريخ، ٤٣/٣).

ومذاك حمل الأخير لقب «ذي النورَيْن»[١]، وهي تسمية يدين بها لكونه تزوّج على التعاقب بابنتَيْن من بنات الرسول. وبوسعنا أن نرى في تثمين هذه المصاهرة المزدوجة بمحمّد محاولةً هدفت إلى إبراز مكانة عثمان وإلى شرح السبب في مبايعته خليفة ثالثًا، قبل عليّ: إذ، إن كان الأخير صهر الرسول مرة، كان له عثمان صهرًا مرتين![٢].

يشكّل الزواج المتأخّر لفاطمة تفصيلاً مُحرجًا للغاية سعت المصادر الإسلامية إلى إخفائه، غير مبالية بأبسط متطلّبات المنطق والمراعاة للتسلسل الزمني البديهي للأحداث. بداية، لا بدَّ من الأخذ في الحِسبان السّن المتقدمة لأمها خديجة (التي كانت تقارب بلا شك الخمسين)؛ وفي الوقت نفسه، محاولة هذه المصادر عدم إظهار فاطمة بمظهر مَنْ بلغت سنًا متقدّمة عندما تزوّجت عليًّا. إذاك، عُمِد تارة إلى تقديم تاريخ ولادة فاطمة، وتارة إلى تأخيره، بحيث بقي هذا التاريخ مفتقرًا للدقّة، غيرَ مؤكّد، بهامش خطأ يناهز عشر سنوات[٣].

ولقد أكّدت المصادر عينها أنَّ محمّدًا نفسه هو مَنْ اختار عليًّا زوجًا

---

(١) ابن الأثير، **أُسْد الغابة**، ٤٨١/٣. نستطيع أن نعجَب لغياب هذا اللقب عن الترجمة الأقدم والأطوال التي خصّ بها ابن سعد ثالثَ الخلفاء الراشدين في **الطبقات الكبرى** (٥٣/٣ - ٦٠)؛ كما أن حسّان بن ثابت لا يأتي، في مرثّياته، على ذِكر لقب «ذي النورَيْن»، عندما يتغنّى بمآثر عثمان ممتدِحًا خصاله.

(٢) بل ثمّة مَنْ ذكر إن الرسول قال: «لو كان عندي ثالثةٌ زَوّجتُها عثمانَ». (ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٥٦/٣)؛ وانظر الخبر أيضًا في: ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٦١١/٤.

(٣) في كتاب قاس ومدهش مع ذلك لاحتوائه على معلومات متبحّرة، يضع هنري لامنيز (Henri Lammens) مسردًا وافيًا مستفيضًا في كل التناقضات والتهافتات التي تدمُغ سيرة فاطمة وبنات الرسول الأخريات. انظرها في هنري لامينز، **فاطمة وبنات الرسول. ملاحظات نقدية في دراسة السيرة** (Henri Lammens, *Fâtima et les filles de Mahomet. Notes critiques pour l'étude de la Sîra,* Institut biblique pontifical, Rome, Bretschneider, 1912).

لابنته فاطمة، بعد أن رفض بديبلوماسيّة طلب كل من أبي بكر وعمر الزواج منها، متعلِّلاً بصغر سنّها: «خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَاطِمَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا صَغِيرَةٌ» فَخَطَبَ عَلِيٌّ فَزَوَّجَهَ مِنْهُ»(١).

في بداية الأمر، رفض عليّ بكياسة عرض ابن عمّه أبي القاسم متذرّعًا بفَقْره وبانعدام قدرته على تقديم أدنى صداق(٢). فإذا بالرسول يذكّر عليًا بامتلاكه الدِّرع الْحُطَمِيَّةُ التي التقطها في ساحة المعركة يوم غَزْوة بدر، لافِتَه إلى قدرته على بيعها(٣).

لم يكن عليًا متحمّسًا للاقتران بفاطمة وبخاصة أن بعض الأحاديث تُلمِح إلى أن خطيبته أَسَنّ منه: «قال دخل العباس على علي بن أبي طالب وفاطمة وهي تقول أنا أسن منك»(٤).

---

(١) النّسائي، سُنَن، ٧/٤٤٨.

(٢) ابن إسحاق، السّيرة النبوية، ١/٢٧٣ - ٢٧٤.

(٣) ابن إسحاق، ١/٢٧٤؛ ابن الأثير، أُسْدُ الغابة، ٦/٢٢١؛ الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٢/٥٤٣ - ٥٤٤؛ المتقي، كَنْز العمّال، ١٣/٦٨٣؛ بلغت قيمة صداق فاطمة أربعمائة درهم (ابن كثير، البداية والنهاية، ٦/٣٦٥؛ [وفي ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/ ٢٠: «أخبرنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا جرير بن حازم، أخبرنا أيّوب عن عكرمة أن عليًا خطب فاطمة فقال له النبيّ، صلّى الله عليه وسلم: ما تصدقها؟ قال: ما عندي ما أصدقها. قال: فأين درعك الحطميّة التي كنتُ منحتك؟ قال: عندي. قال: اصدقها إيّاها. قال فأصدقها وتزوّجها. قال عكرمة: كان ثمنها أربعة دراهم. أخبرنا معن بن عيسى، حدثنا جرير بن حازم عن أيّوب عن عكرمة قال: أمهر عليّ فاطمة بدنًا قيمته أربعة دراهم».]
[وفي الطبقات أيضًا، ٢/٢١ - ٢٢: «أخبرنا وكيع بن الجرّاح عن المنذر بن ثعلبة عن علباء بن أحمر اليشكري أن عليًا تزوّج فاطمة فباع بعيرًا له بثمانين وأربع مائة درهم، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: اجعلوا ثُلُثَين في الطيب وثلثا في الثياب»].

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/٢٦.

وإذ كان ذا طبيعة مستسلمة، أذعن عليّ للأمر وقبل أخيرًا الزواج بفاطمة، التي عندما علمت بخبر خطوبتها بابن عَمّ أبيها، «أُزعِدَت» وانفجرت باكية:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ شَرِيكٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ: عَنْ حُبْشِيِّ بْنِ جُنَادَةَ قَالَ: لَمَّا زَوَّجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة أُزعِدَتْ فَقَالَ: اسْكُتِي فَقَدْ زَوَّجْتُكِ سَيِّدًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ... فلما بلغ ذلك فاطمة بكت، قال: فدخل عليها رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما لك تبكين يا فاطمة! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا، وأفضلهم حلمًا، وأولهم سلمًا[1].

وفي اهتياج ثورتها قالت لأبيها: عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: قَالَتْ فَاطِمَةُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ زَوَّجْتَنِي ضَخْمَ الْبَطْنِ أعمش العين؟»[2].

حاول الرسول إقناع ابنته بوَجاهة اختياره عليًّا زوجًا لها معدّدًا خِصاله؛ وبما أنها لم تكن كثيرة، شدّد قائلًا: «أَوَما تَرْضِينَ أَنْ زَوَّجْتُكِ أَوَّلَ أُمَّتِي إِسْلامًا، وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا وَأَعْظَمُهُمْ حِلْمًا»[3]. يا لها من ترضية هزيلة!

لم يكن عليّ ليعجبَ فاطمة والسبب في ذلك مفهوم؛ فهو لم يكن فقيرًا فحسب، بل دميمًا أيضًا: إذ كان «حَمِش الساقَيْن»، عظيم البدانة (على عكس إخوته وأبناء عمومته الهاشميّين الذين كانوا ممشوقي

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٦٢/٢؛ ابن الأثير، أُسْدُ الغابة، ٢٢١/٦.
(٢) البلاذري، عينه، ٣٥٤/٢.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٥٤/٢؛ وانظر أيضًا: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٢/ ١٣٢؛ ابن الأثير، أُسْدُ الغابة، ٢٢١/٦.

القوام)، ذا عينَيْن رَمْصاوَيْن وأنف أفطس[١]، وهو ما ميّزه كذلك عن أولاد عبد المطلّب الذين كانوا طوال الأنوف لكأنْ «تَرِد أنوفُهم الماءَ قبل شفاهِهم»[٢]؛ وبالإضافة إلى ذلك، كان عليّ أصلعَ، ما دفع بعمر بن الخطاب إلى تلقيبه باستهزاء بـ «الأُصَيْلَع» (أو «الأُجَيْلِح»)[٣]. ومن هنا، كان لبنية عليّ الغريبة أن جعلت منه أضحوكة المسلمين، لدرجة ذهبت معها امرأة رأته مارًا في الطريق، حَدّ العجب من دمامة جسمه وتشوّهه، قائلة: «كأنما كُسِر ثم جُبِر!»[٤].

من جهته، لم يكن عليّ يجد في فكرة مصاهرته الرسول ما يستهويه حقًا؛ وفاطمة لم تكن هي الأخرى حسناء، على عكس شقيقتها رقيّة الفائقة الجمال (وقد قيل إن عثمان الثريّ والجذّاب لم يعتنق الإسلام دينًا إلا ليطلب يدها للزواج). وفاطمة نفسها فقيرة (جهازها تقريبًا فارغ[٥])، وزوّجها والدها بأقل كلفة ممكنة، أي بلا شيء تقريبًا؛ وروى ابن

(١) ابن حَنْبَل، مُسْند، ١٧٩/٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٦/٣ - ٢٧؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٣٧/٢؛ الحاكم النيسابوري، المُسْتَدْرَك، ١٤٣/٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٨٠/٦؛ يستشهد ابن قتيبة بابن إسحاق الذي يصف خِلْقة عليّ الدميمة (ابن قتيبة، المعارف، ٤٧/١).

(٢) الجاحظ، البُهمان والعُرجان والحولان، ٤٦٥/١.

(٣) الحاكم النيسابوري، المُسْتَدْرَك، ١٠١/٣؛ الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٢٥/٤٢؛ المتقي، كنز العمّال، ٧٣٤/٥.

(٤) ابن قُتيبَة، المعارف، ٤٥/١؛ وانظر أيضًا: البلاذُري، أنساب الأشراف، ٤٩/٣؛ ابن الأثير، أُسْدُ الغابة، ٦٢٠/٣؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٥/٤٢؛ مما لا شك فيه أن هذا الوصف الذي يجعل من عليّ أضحوكة، هو نظريّة مضاربَة وضعها السّنّة بهدف التقليل من قيمة الوجه الرمزي الذي يُجِلّه معارضوهم الشيعة ويعتدّون به.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٦٦/٦.

حنبل: «جَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةُ فِي خَمِيلٍ وَقِرْبَةٍ وَوِسَادَةِ أُدْمٍ حَشْوُهَا إِذْخِرٌ»[1].

وفي هذا الشأن، ثمّة تفصيل لا تقوى المصادر الإسلاميّة على تفسيره ومفاده أنه كان ينبغي على فاطمة (أقلّه نظريًا) أن ترث ثروة أمها خديجة، التي كانت لتضعها، هي وأخواتها، في مأمن من العوز، لكننا لا نعرف مآل هذا الميراث. ثم إن هذا الزواج كان بقرار من الله، كما قال الرسول: «ثم إن الله جَلّ وعلا أمرني أن أزوّج فاطمة من عليّ»[2]. ولنلحظ أن تلك لم تكن المرة الأولى التي يتدخّل فيها الله في زيجات آل البيت.

استسلمت فاطمة في نهاية الأمر وقبلت على مضض بالزواج من عليّ. ولكي تخفي الطابع الإكراهي لهذا القران وقلّة حماسة الزوجَيْن حِياله، عمدت المصادر الإسلاميّة، السنيّة منها والشيعيّة، إلى وصف العرس كما لو أنه كان نوعًا من التأليه الروحاني، إذ أُشْهِدَ على تزويجهما «أربعين ألف مَلاكًا»، وأحاطت حُوْر العين بفاطمة، ونثرت «شجرة طوبى» على الزوجين «الدرّ والياقوت»:

عن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، إذ قال صلى الله عليه وسلم لعلي: «هذا جبريل يخبرني أن الله عزَّ وجل زوّجك فاطمة، وأشهد على تزويجك أربعين ألف ملك، وأوحى إلى شجرة طوبى أن انثري عليهم الدر والياقوت، فنثرت عليهم الدر والياقوت، فابتدرت

(١) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ١٢١/٢؛ وانظر أيضًا: النسائي، سُنَن، ٢٤٣/٥؛ الحاكم النيسابوري، المُسْتَدْرَك، ٢٠٢/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٥٤٥/٢.

(٢) الطَّبراني، المعجم الكبير، ٤٠٧/٢٢؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٤٥/٥٢؛ المتّقي، كَنْز العمّال، ٦٠٦/١١.

إليه الحور العين يلتقطن من أطباق الدر والياقوت، فهم يتهادونه بينهم إلى يوم القيامة»[١].

غير أن هذا الزواج في واقع الأمر لم يعرف طريقه إلى السعادة يومًا.

أما الامتياز الوحيد الذي حظِيت به فاطمة حقًا، فكَمَن في الشرط الملزم الذي فرضه الرسول على عليّ، محظّرًا عليه تعدّد الزوجات[٢] إذ لم يكن محمد ليقبلَ بأن تُلحق ابنته بضرائِرَ يزاحِمْنَها على زوجها[٣] فيوم علم بنيّة صهره عليّ بالاقتران بامرأة أخرى، أبدى محمّد رفضًا قاطعًا[٤]. ومن جهته، برهن عليّ في هذه المسألة عن قصور صارخ في التبصّر، لأن المرأة التي كان ينوي الزواج بها، والملقّبة بـ «العوراء»، لم تكن - وهذا سبب إضافي ضاعف غضب الرسول - إلا ابنة أبي جَهْل، العدو اللدود للرسول - الذي ناله كدر مزدوج: فمن جهة، رأى محمّد في قرار عليّ ما يشبه الانتقاص من قَدْرِ ابنته (وبالتالي من قَدْرِه)؛ ومن جهة أخرى، كانت خطيبة عليّ ابنة كافر ذائع الصيت[٥].

---

(١) مُحِبّ الدين الطّبري، **الرّياض النَّضِرة**، ١٤٦/٣؛ انظر أيضًا: المَجْلسي، **بحار الأنوار**، ١٠٩/٤٣؛ العصامي، **سَمَط النجوم العوالي**، ٤٣/٣.

(٢) لعل هذا الشرط الملزِم والصُّلْب الذي وضعه الرسول هو الذي حمل الخُطّاب على عدم التدافع أمام باب فاطمة، طالبين يدها.

(٣) في عادات ذلك الزمن وتقاليده، كانت الزيجات الأحادية نادرة؛ وحدهن النساء النافذات مثل خديجة، زوجة محمّد الأولى، كنّ قادرات على فرض هذا الشرط.

(٤) يبدو أن لا أحد من الذين يدافعون اليوم عن تعدّد الزوجات، يرتضي احتذاء المثل الذي أعطاه الرسول. ومن ناجية ثانية، قال بعض المؤلّفين الراغبين في وضع حد للنقاش الذي تستثيره هذه المسألة، إن الزواج الأحادي شكّل جزءًا من «الخصائص» الممنوحة لابنة السول، وهي لم تكن قابلة للتطبيق على النساء الأخريات.

(٥) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٢٢٩/٣١؛ **صحيح البخاري**، ١٣٦٤/٣؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ١/ ٦٤٤؛ الطّبراني، **المعجم الكبير**، ١٨/٢٠؛ الذّهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٤١٥/٣؛ المُتّقي، **كَنْز العمّال**، ١٠٦/١٢.

وبالنظر إلى هذه المعطيات، كان يفترض بعليّ توقّع رفض حَمِيْه الباتّ[1]!

وفي يوم، عقب الصلاة مباشرة، انبرى محمّد في المسجد معبّرًا على الملأ عن وجومه جراء زواج عليّ الجديد وعن رفضه له، قال: «إن بني هاشم بن المغيرة[2] استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب. فلا آذن ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلّق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما هي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما أذاها»[3]. وفي قوله هذا إنما يفيد محمّد المستنكر تصرّف صهره أشدّ الاستنكار، بأن حتى ألدّ أعداءه، الكافر أبي جهل (المشار إليه هنا باسم والده، هاشم بن المغيرة)، كان لديه ما يلزم من الكياسة ليستأذنه المضِيّ في هذا الزواج خلافًا لعليّ! أمام هذه الكلمات، وقف عليّ وفارق جمع المصلّين[4]. وإذ ألمّ الغيظ به، لفته محمّد إلى وجوب أن يعقِد العزم

(١) صحيح مسلم، ١٤٢/٦؛ ابن ماجة، سُنن، ١١٨٩/٢؛ المُتّقي، كنز العمّال، ١٥/ ٣٢١.

(٢) إن الاسم الحقيقي لأبي جهل هو عمرو بن هاشم بن المُغيرة. أما أبو جهل، الذي يعني حرفيّته، فهو لقب مشين خلعه الرسول على عدوّه. غير أننا نلاحظ في القول المذكور أعلاه أن محمّدًا يجتنب استخدام هذه الكنية المحقّرة، محيلاً باحترام إلى رجل حرِص في هذه المناسبة على اعتماد الاحترام في تعاطيه معه.

(٣) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٢٤٠/٣١؛ انظر أيضًا: صحيح البخاري، ٢٠٠٤/٥؛ أبو داود، سُنَن، ١٨٥/٢؛ صحيح مسلم، ١٤٠/٧؛ ابن ماجة، سُنَن، ٦٤٣/١؛ التِّرمذي، سُنَن، ٦٩٨/٥؛ النسائي، سُنَن، ٤٥٧/٧؛ صحيح ابن حِبّان، ٤٠٥/١٥؛ البيهقي، سُنَن، ٥٠٢/٧؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٥٩/٥٨؛ ابن الجوزي، صِفة الصَّفْوَة، ٣١٠/١؛ السُّهَيْلي، روض الأُنُف، ٢٣٦/٧؛ ابن الأثير، أُسْدُ الغابة، ٢٢٢/٦؛ الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٤٣٠/٥.

(٤) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٢٢٩/٣١؛ البخاري، صحيح، ١٣٦٤/٣؛ ابن ماجة، سُنَن، ١/ ٦٤٤؛ الطبراني، المعجم الكبير، ١٨/٢٠.

على الطلاق من فاطمة قبل الإقدام على عقد قرانه الجديد(١).

لم يكن رأي الرسول في عليّ ليفصح عن الكثير من التقدير لشخصه، بل إنه بدا كأنه يفضّل عليه وبأشواط أخوَيْه: جعفر المِقدام وعقيل المُفَوَّه. فنحن نراه في مشهد نقله الطّبري، يأخذ بلحيته ويحرّكه برجله ليوقظه من غفوته(٢).

ولم يكن المسلمون يجهلون قلّة الاعتبار التي يكنّها محمّد لعليّ، بل إنهم كانوا يفيضون ثرثرةً في الموضوع (تمامًا كما فعلوا إبّان غَزْوة تَبوك المذكورة آنفًا(٣)). كان الرسول يرى في عليّ رجلاً كسولاً خَوّارًا، إذ كان الأخير في الواقع يقضي معظم وقته نائمًا، ويتحدّث بنفسه عن خموله قائلاً: «كنت رجلاً نئومًا(*)، وكنت إذا صليتُ المغرب وعليّ ثيابي نِمْتُ»(٤). بل إن عليًّا استئذن الرسول أن يعفيه من أداء صلاة العشاء لأنه يغفو عقب غياب الشمس: «عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُنْتُ رَجُلاً نَئُومًا وَكُنْتُ إِذَا صَلَّيْتُ الْمَغْرِبَ وَعَلَيَّ ثِيَابِي نِمْتُ ثُمَّ قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ فَأَنَامُ قَبْلَ الْعِشَاءِ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَرَخَّصَ لي»(٥). يسعنا والحالة كانت

---

(١) صحيح البخاري، ٢٠٠٤/٥؛ النسائي، سُنَن، ٤٥٧/٧ - ٤٥٨؛ أما التّرمذي، فلا يتحدّث عن الطلاق (انظره في سُنَن، ٦٩٨/٥).

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٤/٢.

(٣) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

(*) أو نؤومًا. (م.)

(٤) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٢٢٩/٢؛ وانظر أيضًا: الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣١٤/١؛ المُتّقي، كنز العمّال، ٥٢٤/١٥. ويقال إن عليًا كان في غالب الأحيان «يتوسّد القبور، ويضطجع عليها» (مالك، الموطأ، ٢٣٣/١).

(٥) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٢٢٩/٢؛ انظر أيضًا: الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣١٤/١؛ المُتّقي، كنز العمّال، ٥٢٤/١٥.

هذه، أن نتخيّل تحفّظات محمّد على ائتمان رجل بهذا الخمول، على مقاليد السلطة[1].

غالبًا ما عُزَت إلى عليّ صفات المحارب، لكن مآثره القتاليّة تبقى غير مؤكّدة بالنظر إلى الخمول الذي كان يميّزه. بل إن انكساراته وإخفاقاته يوم أضحى خليفة تشكّل تكذيبًا قطعيًّا لهذه السردية في سيرة ابن عمّ محمّد، التي أخضعت للكثير من التصحيح والتشذيب والصقل. وعلى العموم، فإن الخاتمة الكارثيّة لمسيرته دليل على عدم نجاعته السياسية والعسكريّة[2].

في المقابل، نُسبت لعليّ صفات خَطابيّة كبيرة وموهبة بلاغيّة عظيمة[3]. مع ذلك، عندما شنّ الشعراء من أهل الشِّرْك على الرسول حملةً لا هوادة فيها، ناظمين فيه أبياتًا افترائيّة فظيعة، واقْتُرح على أبي القاسم تكليف عليّ بمهمّة الرّدّ على هذه الهجمات البغيضة، أتى رفض محمّد القطعيّ الذي يخبرنا به الأصفهاني في **كتاب الأغاني**:

كان يهجو رسول الله ثلاثة رهط من قريش عبد الله بن الزبعري وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاصي فقال قائل لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أهج

---

(١) كان للرسول محظيّون آخرون هم كلًا من: زيد وابنه أسامة، وخصوصًا حفيدَيْه الحسن والحسين. وفي سرديّة محيّرة أوردها في الطبقات الكبرى (٤٦/٣)، يعلمنا ابن سعد أن الرسول كان يفكّر في استخلاف زيدًا: عن «عائشة قالت: «ما بعث رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، زيدَ بن حارث في جيش قطّ إلا أمَّرَهُ عليهم ولو بقي بعده استخلفه».

(٢) لم يكن عليّ رجلًا ذا موهبة سياسية؛ وهو ما يثبته المآل الكارثي لمسيرته الخلافيّة. في الواقع، وخلافًا لسابقيه الذين عرفوا قَدْرَ الإمكان الحفاظ على تماسك الأمة، جرّ عليّ المسلمين إلى أهوال حرب أهليّة فظيعة مروّعة.

(٣) بالحرى، إن عَقيلًا، أخ عليّ الأكبر، هو الذي اشتهر بعلمه بالأنساب وبمواهبه البلاغيّة.

عنا القوم الذين قد هجونا فقال علي رضي الله عنه إن أذن لي رسول الله فعلت فقال رجل يا رسول الله ائذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا قال ليس عنده ذلك[١].

كان الزوجان، فاطمة وعليّ، يتسبّبان دائمًا بالهمّ والمتاعب للرسول الذي وجب عليه دائمًا تحكيم خلافاتهما الزوجيّة العديدة. إذ كان عليّ يعامل زوجته بجلافة وخشونة. ولقد أخرج ابن سعد في **الطبقات الكبرى** عن عمرو ابن سعيد، قال: «كان في علي شدة على فاطمة، فقالت: والله لأشكونك إلى رسول الله، فانطلقت وانطلق عليّ بأثرها، فقام حيث يسمع كلامها، فشكت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم غلظ عليّ وشدته عليها»[٢].

ولقد كان لمشاجراتهما الملحميّة أن تسبّبت في تلقيب عليّ بأبي تراب. إذ، وعقِب مشاحنة راعدة كانت له مع فاطمة، غادر البيت وأمضى ليلته خارجه، مفترشًا الأرض؛ في هذه الأثناء، وصل الرسول منزل ابنته وسألها: «أين ابن عمّك؟ فقالت: هو ذاك مضطجع في المسجد»[*]. وعندما ذهب الرسول باحثًا عنه وجده نائمًا و«قد سقط رداؤه عن ظهره، وخلَص التراب إلى ظهره»[**]. فجعل محمّد يحرّكه برجله لإيقاظه، ومنَحه هذا اللقب الساخر، عندما قال له بتهكّم: «اجلس أبا تراب»[٣]. ويقال إن اللقب يجد له تفسيرًا آخر في كسل عليّ

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ١٤٤/٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٦/٨؛ انظر أيضًا: ابن حَجَر، الإصابَة في تمييز الصحابة، ٥٩/٨.

(*) الطَّبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٥/٢.

(**) الطَّبري، عينه.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٥/٢؛ انظر أيضًا: النسائي، سُنَن، ٤٦٤/٧؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٣٦٣/٢.

الذي كانت ملابسه، ولصَرْفِه معظم وقته مستغرقًا في النوم على الأرض، معفّرة بالتراب[1]. ومع أن المسلمين الراغبين بالاستهزاء منه كانوا، في غالب الأحيان، يسمّونه «أبا تراب»، إلا أنّ عليًا بدا فخورًا بهذا اللقب واجدًا فيه دُعابة تَنُمُّ عن وِدٍّ ومحبّة من الرسول حِياله. وقال البلاذري: «ما كان لعلي اسم أحب إليه منه، إن كان ليفرح إذا دعي به»[2].

كثيرًا ما شكت فاطمة لوالدها البؤس المعنوي والمالي الذي تعاني منه وزوجها. فعليّ شديد الفَقر كجملة فرع أبي طالب. إذ كان والده قد تعرّض لنوع من الاحتيال على يد أخيه عبّاس، الذي أثقل كاهله بديون عجز عن الإيفاء بها. وفي هذا الصدد، يكتب هنري لامنيز (Henri Lammens) قائلاً بسخريته الشهيرة: «كان سلب أسرة عليّ ونهبها، لدى بني العبّاس، تقليدًا عائليًا»[3]. ولكي يحصّل رزقه، كان عليّ يعمل سقّاء لدى يهوديّ من بني قُرَيْظَةَ، متقاضيًا مقابل كل دَلْو يستقيه أجرًا زهيدًا تمثّل في تَمْرة واحدة[4].

---

(١) صحيح البخاري، ٥/٢٢٩١؛ وانظر أيضًا: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/١٤ - ١٥. ويقول ابن هشام في السّيرة النبويّة (١/٥٩٩ - ٦٠٠) إن الرسول خلع على عليّ هذه الكنية إبّان غزوة ذات العشيرة؛ بل إن ابن هشام خصّص لها حاشية قصيرة.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/٣٤٥؛ وانظر أيضًا: الذّهبي، سِير أعلام النبلاء، ٢/ ٤٩٥. وفي شأن هذه الكنية الملصَقَة بعليّ، انظر مقالة إيتان كولبرغ، وعنوانها «أبو تراب» Etan Kohlberg, "Abû Turab", *The Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, no. 41, 1978, pp. 347-352.

(٣) انظر هنري لامينز، فاطمة وبنات محمّد، م. س.، ص٣٧.
(Henri Lammens, *Fâtima et les filles de Mahomet*, *op. cit.*, p. 37).

(٤) «عن محمد بن كعب القرظي أن أهل العراق أصابتهم أزمة فقام بينهم علي بن أبي طالب فقال: أيها الناس! أبشروا، فوالله إني لأرجو أن لا يمر عليكم إلا يسير حتى تروا ما يسركم من الرفاء واليسر، قد رأيتني مكثت ثلاثة أيام من الدهر ما أجد شيئا آكله حتى خشيت أن يقتلني الجوع، فأرسلت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه=

كانت فاطمة في غالب الأحيان إذن تشكو لوالدها شظف العيش والفاقة وما ينالها منهما من تعب[1]؛ ولكي يواسيها، كان الرسول يذكّرها بأنها متزوجة برجل من خيرة القوم؛ ثم قالت فاطمة لأبيها: «والله لقد اشتد حزني، واشتدت فاقَتِي، وطال سَقمي». قال: «أما والله لما عند الله خير مما ترغبين إليه، يا فاطمة أما ترضين أني زوَّجتك أقدمهم سِلْمًا، وأكثرهم عِلمًا، وأفضلهم حِلمًا؟ والله إن ابنيك لمن شباب أهل الجنة»[2].

في يوم، وإذ أضناها الطحن بالرحى، سألت فاطمة أباها خادمًا يعينها. غير أن أبا القاسم لم يَسْتجِب لطلبها بل نصحها تلاوة بضعة صلوات قبل أن تأوي إلى فراشها؛ ولقد روى ابن كثير:

قال عَلِيٌّ لِفَاطِمَةَ ذَاتَ يَوْم: وَاللَّهِ لَقَدْ سَنَوْتُ حَتَّى لَقَدِ اشْتَكَيْتُ صَدْرِي، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ أَبَاكِ بِسَبْيٍ فَاذْهَبِي فَاسْتَخْدِمِيهِ، فَقَالَتْ: وَأَنَا وَاللَّهِ لقد طحنت حتى محلت يَدَايَ، فَأَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكِ أَيْ بُنَيَّةِ؟ قَالَتْ جِئْتُ لأسلِّم عَلَيْكَ - وَاسْتَحْيَتْ أَنْ تَسْأَلَهُ - وَرَجَعَتْ، فَقَالَ: مَا فَعَلْتِ؟ قَالَتِ: اسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ، فَأَتَيَاهُ جَمِيعًا فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا

=وسلم تستطعمه لي، فقال: يا بنية! والله ما في البيت طعام يأكله ذو كبد إلا ما ترين - لشيء قليل بين يديه - ولكن ارجعي فسيرزقكم الله، فلما جاءتني فأخبرتني وانفلت وذهبت حتى آتى بني قريظة فإذا يهودي على شفة بئر فقال: يا عربي! هل لك أن تسقي لي نخلي وأطعمك! قلت: نعم. فبايعته على أن أنزع كل دلو بتمرة، فجعلت أنزع، فكلما نزعت دلوا أعطاني تمرة» (عن ابن إسحاق، السّيرة النبوية، ١/١٩٤؛ انظر أيضًا: ابن ماجة، سُنَن، ٢/٨١٨؛ التِّرمذي، سُنَن، ٤/٦٤٥؛ المتّقي، كنز العمّال، ١٥/١٩٨).

(١) هنري لامينز، فاطمة وبنات محمّد، م. س.، ص٣٧.

(٢) الطُّبراني، المعجم الكبير، ٢٠/٢٢٩؛ وانظر أيضًا: ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٣/٤٢٢.

رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ لَقَدْ سَنَوْتُ حَتَّى اشْتَكَيْتُ صَدْرِي، وَقَالَتْ فاطمة: لقد طحنت حتى محلت يَدَايَ، وَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِسَبْيٍ وَسَعَةٍ فَأَخْدِمْنَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أُعْطِيكُمَا وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تُطْوَى بُطُونُهُمْ لاَ أَجِدُ مَا أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ، فَرَجَعَا فَأَتَاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ دَخَلاَ فِي قَطِيفَتِهِمَا إِذَا غطّت رؤوسهما تكشّفت أقدامهما وإذا غطّت أقدامهما تكشّفت رؤوسهما، فَثَارَا، فَقَالَ: مَكَانَكُمَا، ثمّ قَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكُمَا بِخَيْرٍ ممَّا سَأَلْتُمَانِي؟ قَالاَ: بَلَى، قَالَ، كَلِمَاتٌ علمنيهنّ جِبْرِيلُ تُسَبِّحَانِ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ عَشْرًا، وَتَحْمَدَانِ عَشْرًا، وتكبّران عَشْرًا، وَإِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا فسبّحا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ وكبّرا أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ[1].

وفي مصادر أخرى أضاف الرسول قائلاً: «فهو خير لكما من خادم»[2].

في الواقع، كان فَقْر فاطمة يوازي فَقْر زوجها. لكن، وغداة غزوة خَيْبر تحديدًا، تحسّن وضع محمّد المالي تحسّنًا ملموسًا، غير أن ابنته بقيت تكابد بؤسها ووالدها لا يأتي بأيّ فعل يخفّف به عنها قلّة مواردها. مع ذلك، تقول بعض المصادر الإسلاميّة إن أبا القاسم منح فاطمة وعليًّا «خمسة وثمانين وَسْقًا»[3] من القمح.

وإلى هذه المشاكل الزوجيّة والماليّة تضاف مشاكل الجوار. إذ كانت

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٦٦/٦.

(2) صحيح البخاري، ١٣٥٨/٣ - ١٣٥٩؛ ٢٣٢٩/٥؛ وانظر أيضًا: أبو داود، سُنَن، ٤/ ٤٧٤؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٣٨٥/٢.

(3) الواقدي، كتاب المغازي، ٦٩٣/٢ - ٦٩٤؛ وانظر أيضًا: ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٣٥٢/٢ - ٣٥٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٧/٨.

عائلة فاطمة الصغيرة تعيش على مقربة مباشرة من محمّد، وكانت علاقة الجيرة هذه أبعد ما يكون عن المثاليّة، لأن عائشة على خلاف قاتل مع عليّ وزوجته - وسنرى في اللاحق من صفحات هذا الكتاب مصدر هذه البغضاء العميقة. ففي كل مرّة كان محمّد يتقرّب فيها من والد حفيدَيْه، كانت عائشة تعترض بحدّة. وفي يوم، صرخت في وجه زوجها قائلة بطريقة تجيز للجيران المعنيّين سَماعها: «والله لقد عرفت أن عليًّا وفاطمة أحبّ إليك مني ومن أبي مرتين أو ثلاثًا»[١][*].

وعلى الرغم من العاطفة التي كان والدها يبديها حِيالها، إلا أن فاطمة ما كانت لتوازي عائشة البالغة الحيويّة والحضور. ونحن نعلم على سبيل المثال أن زينب، وليس فاطمة، هي مَنْ قال فيها الرسول جملته الشهيرة التالية: «هي أفضل بناتي»[٢]. ولم تكن فاطمة نفسها لتفوّت أيّة فرصة لتقول لأبيها فيها إنه جائر بحقّها. فيوم علمت أن عليًّا ينوي الزواج بامرأة ثانية، قالت له فاطمة: «إن قومك يتحدثون أنك لا تغضَب لبناتك»[٣]. كان من الصعب إذن على فاطمة، التي لا تتمتع بذكاء أبيها، أن تجد لنفسها مكانًا [في أهل البيت][**]. ذلك أن شخصيّتها الميّالة إلى

---

(١) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٧٢/٣٠ - ٣٧٣؛ النسائي، سُنَن، ٤٤٨/٧؛ ٢٥٦/٨.

(*) ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلد ٣، ص١٤٨. (م.)

(٢) الحاكم النيسابوري، المُستَدْرك، ٢١٩/٢؛ انظر أيضًا: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣/ ١٤٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ١٢٢/٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٠٠/٤. بطبيعة الحال، كان من السهل على علماء الحديث النبويّ، عزْو هذه الصفة إلى زينب؛ فبما أنّها لم تنجب ذريّة كان بإمكانها إرخاء تأثير ثقيل والمطالبة بالسلطة، انتفى العائق دون تبجيلها لخلُوّ إحياء ذكراها من أيّ رهان سياسي.

(٣) ابن حَنبَل، مُسْنَد، ٢٢٧/٣١؛ انظر أيضًا: صحيح البخاري، ١٣٦٤/٣؛ صحيح مسلم، ١٤١/٧؛ ابن ماجة، سُنَن، ٦٤٤/١؛ الطبراني، المعجم الكبير، ١٨/٢٠.

(**) إضافة من المترجمة ضنًا بوضوح المعنى.

الاحتجاب تتمظهر في رعونتها وحيائها: ففي يوم زفافها، «أقبلت تعثر في ثوبها»[1]. وفي كل مرة تدخّلت في شؤون أبي القاسم الخاصة، اصطدمت بحنكة أبيها الدبلوماسيّة.

على سبيل المثال، عندما أتتها نساء الحريم تسألْن فاطمة التدخل لدى الرسول لكي يكفّ عن المغالاة المهينة لهنّ في إبراز تفضيله لعائشة عليهن، لا يصعب علينا تخيّل إقبالها على تأدية هذه الخِدمة لهن بطيبة خاطر، لأنها لم تكن تحبّ ابنة أبي بكر على الإطلاق. غير أن وساطتها يومها خُيّبت بالفشل الذريع:

عَنِ الزُّهْرِيّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَام، أَنَّ عَائِشَةَ - زَوْجَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَتْ: أَرْسَلْنَ أَزْوَاجُ النَّبِيّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ إِلَى النَّبِيّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فَاسْتَأْذَنَتْ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ مَعِي في مِرْطِي، فَأَذِنَ لَهَا وأَنَا سَاكِتَةٌ، فَقَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ أَرْسَلْنَنِي يَسْأَلْنَكَ الْعَدْلَ فِي بِنْتِ أَبِي قُحَافَةَ»، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا بُنَيَّةُ أَلَسْتِ تُحبِّينِي؟»، قَالَتْ: «نَعَمْ»، فَقَالَ: «أَحِبِّيهَا»[2].

مما لا شك فيه أن أزواج الرسول لم يخترن أفضل المحامين لهذه المهمّة![3].

على الرغم من المشاكل المتواصلة، كان زواج فاطمة وعليّ مدعاة

---

(1) النسائي، سُنَن، ٤٥٣/٧.

(2) الطُبراني، المعجم الكبير، ٤١/٢٣؛ انظر أيضًا: صحيح مسلم، ١٣٥/٧؛ صحيح البخاري، ٩١١/٢؛ النّسائي، سُنَن، ١٥١/٨ - ١٥٢؛ البَيْهقي، سُنَن، ٤٨٨/٧.

(3) صحيح مسلم، ١٣٥/٧؛ صحيح البخاري، ٩١١/٢؛ النسائي، سُنَن، ١٥١/٨ - ١٥٢؛ الطبراني، المعجم الكبير، ٤١/٢٣؛ البيهقي، سُنَن، ٤٨٨/٧.

لرضى كبير شعر به محمّد، تمثّل في ولادة الحسن والحسين، حفيدَيْه المعبودَيْن (علمًا أن ثمّة مصادر تذكر وجود حفيد ثالث اسمه محسن، غير أننا لا نعلم عنه الكثير)[1]. كان محمّد يكنّ للصبيَّيْن حبًّا لا حدود له؛ فهو كان في غالب الأحيان يقول: «اللهم إني أحبهما فأحبهما»[2]، ويصفهما قائلاً: «هما رَيْحانتاي من الدنيا»[3]. ومن الملاحظ استفاضة مصادر التراث الإسلامي في الحديث عن العاطفة التي كان أبو القاسم يحيط بها حفيدَيْه؛ فهو كان يجيز لهما بالقفز على بطنه. ونجد في سنن النسائي الرواية التالية: «أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ: حَدَّثَنَا خَالِدٌ قَالَ: حَدَّثَنَا أَشْعَثُ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَعْنِي أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: «دَخَلْنَا، وَرُبَّمَا قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَتَقَلَّبَانِ عَلَى بَطْنِهِ» قَالَ: «رَيْحَانَتَيَّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ»[4].

وخلال الصلاة، كان يدعهما يثِبان على ظهره ويطيل سجدته لئلا يَضْطر الصبيَّيْن الصغيرَيْن إلى قطع لَهْوهما. ويقول النسائي عن البهي مولى الزبير قال:

تذاكرنا من أشبه النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته؟ فدخل علينا عبد الله بن الزبير فقال: أنا أحدثكم بأشبه أهله به وأحبهم إليه. الحسن بن علي. رأيته يجيء وهو ساجد فيركب

(١) ابن إسحاق، السّيرة النبوية، ٢٤٧/١؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٥٨٢/٤.
(٢) الترمذي، سُنَن، ٦٥٦/٥.
(٣) صحيح البخاري، ١٣٧١/٣؛ انظر أيضًا: الترمذي، سُنَن، ٦٥٧/٥؛ النسائي، سُنَن، ٤٥٩/٧؛ النّسائي، فضائل الصحابة، ٢٠/١؛ الطبراني، المعجم الكبير، ١٢٧/٣؛ المتقي، كنز العمّال، ١١٣/١٢.
(٤) النسائي، سُنَن، ٤٦١/٧.

رقبته. أو قال: ظهره. فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل. ولقد رأيته يجيء وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر[1].

كُثُر كانوا مَنْ لفتوا إلى الشبه بين محمّد وحفيدَيْه[2]. وبغرض استباق تباينات أخرى ممكنة في الآراء، قامت كتب التراث الإسلامي، بشَقّ الحسيَنْين[3] نوعًا ما إلى نصفَيْن؛ إذ قال والدهما: «مَنْ سَرَّه أن ينظُرَ إلى أشبه الناس برسول الله [...] ما بين عنقه وثغره فلينظر إلى الحسن، ومَنْ سَرَّه أن ينظر إلى أشبه الناس برسول الله [...] ما بين عنقه إلى كعبه خَلْقًا ولونًا فلينظر إلى الحسين بن عليّ»[4]. وقد قيل إن الحسن على وجه الخصوص يشبه جدّه لأمه بطريقة تستوقف النظر[5]؛ إذ ثمّة مشهد نقله البخاري يبدو فيه أبو بكر مداعبًا عليًا بقوله إن للحسن ملامح جدّه، وليس قسمات أبيه: «أخبرنَا مُحَمَّد بن عبد الله بن الْمُبَارك قَالَ أنا أَبُو دَاوُود عَن سُفْيَان عَن عَمْرو بن سعيد عَن ابْن أبي مليكَة عَن عقبَة بن الْحَارِث قَالَ إِنِّي مَعَ أبي بكر حِين مر على الْحسن فَوَضعه على عُنُقه ثمَّ قَالَ بِأبي شَبيه النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم لاَ شبه عَليّ وَعلي مَعَه فَجعل يضْحك»[6].

وعندما بلغ سِنّ الرشاد، أضحى الحسن رجلاً جذّابًا، له كجدّه، شغف بالنساء. ويقول الذهبي عن الحسن بن علي في كتابه **سير أعلام**

---

(١) النسائي، فضائل الصحابة، ١/٢٠.
(٢) عينه، ١/١٩؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣/٣٠٤.
(٣) لقب يستعمل في غالب الأحيان للإحالة إلى الحسن والحسين.
(٤) ابن حَنْبَل، مُسْند، ٢/١٦٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٨/٣٨.
(٥) الطبراني، المعجم الكبير، ٣/٩٥.
(٦) صحيح البخاري، ٣/١٣٠٢.

النبلاء: «وَقَدْ كَانَ هَذَا الإِمَامُ سَيِّدًا وَسِيمًا جَمِيْلاً، عَاقِلاً رَزِينًا، جَوَادًا مُمَدَّحًا، خَيِّرًا دَيِّنًا، وَرِعًا مُحتشِمًا، كَبِيرَ الشَّأْنِ، وَكَانَ مِنْكَاحًا مِطْلاَقًا، تزوَّج نَحْوًا مِنْ سَبْعِيْنَ امْرَأَةً، وقلَّما كَانَ يُفَارِقُهُ أَرْبَعُ ضَرَائِرَ»[1]. كما كان الحسن معبود النساء: «وكان لا يفارق امرأة إلا وهي تحبه»[2].

بالنسبة إلى صحابة محمّد، لم تحظَ فاطمة بأيّ اعتبار خاص[3]، فهي لم تَلْقَ عقِب وفاة والدها الاحترام والإكرام اللذين توجبهما منزلتها بوصفها ابنةً للرسول. ولقد أعلمتنا المصادر الإسلاميّة، السّنيّة منها والشيعيّة، أن عمرَ هاجم منزل فاطمة لإكراه زوجها عليّ وبعض من الصّحابة لاذوا بها، على الحضور [إلى سقيفة بني ساعدة] لمبايعة أبي بكر خليفةً[4].وإذ أشهر شُعْلَة ملتهبة، هدّد عمر بإضرام النار في المنزل: «عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ مُحَارِبٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ التيمى، وعى ابْنِ عَوْنٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ يُرِيدُ الْبَيْعَةَ، فَلَمْ يُبَايِعْ. فَجَاءَ عُمَرُ، ومعه فتيلة فتلقته فاطمة على الباب»[5]. ارتفعت إذاك أصوات تذكر ابن الْخَطَّابِ بأنَّ ابنة الرسول داخله، فردّ عليها ببرودة قائلاً: «وإن»[6]؟ «ودخلوا الدار فخرجت فاطمة فقالت: والله لتخرجن أو لأكشفن شعري»[7] - وفي نزع

---

(١) الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٣٣٢/٤.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٤٣/٨.

(٣) متأخّر هو ارتقاء فاطمة الذي غالت فيه الأدبيّات الشيعية. أما المؤلفات السنيّة الأولى، فتقدمها كشخصية شاحبة (لأسباب سياسيّة بديهيّة)، ثم لا تلبث ابنة محمّد أن ترتقي تدريجًا إلى مرتبة القدسيّة في المؤلفات اللاحقة، التي وضعها المؤلفون السُّنّة.

(٤) الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢٣٣/٢؛ ابن عبد الربيع، العقد الفريد، ١٣/٥؛ ابن أبي الحديد، شرح النهج، ٥٦/٢ - ٥٧؛ أبو الفِداء، المختصر، ٨/١؛ المتّقي، كَنْز العمّال، ٦٥١/٥.

(٥) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٦٨/٢؛ انظر أيضًا: تاريخ اليعقوبي، ١٥٥/١.

(٦) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ١٩/١.

(٧) تاريخ اليعقوبي، ١٥٥/١.

غطاء الرأس، لدى نساء العرب، تعبير عن كَرْب عظيم.: «فقالت فاطمة: يا ابن الْخَطَّابِ، أَتُرَاكَ مُحَرِّقًا عَلَيَّ بَابِي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ أَقْوَى فِيمَا جَاءَ بِهِ أَبُوكِ»[1]. ثم أضاف: «أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة»[2].

جَرت هذه الحادثة في جوّ مشحون بالعنف المنقطع النظير، يجد لها القارئ وصفًا ليس في كتب الشيعة فحسب[3]؛ بل إن كتب السنّة وصفت هي الأخرى عدوانيّة عمر، الذي قيل إنه حطّم سَيْفَيّ عليّ والزبير[4]، فيما ذكرت بعض النصوص إنه ضرب فاطمة بالسوط: «عن جعفر بن محمد وغيره أن عمر ضرب فاطمة بالسوط وضرب الزبير بالسيف وأن عمر قصد منزلها وفيه علي والزبير والمقداد وجماعة ممن تخلف عن أبي بكر وهم مجتمعون هناك»[5].

من جهتها، أكّدت السرديّات الشيعيّة على أن ابنة الرسول، الحامل بابنها الثالث محسِن، أسقطت جنينها نتيجة ضربة سدّدها لها عمر في ضلعها، فماتت جراء نزيف كان هذا الإسقاط سببًا فيه[6]. وأيًا يكن

(١) البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٦٨/٢؛ وانظر أيضًا: **تاريخ اليعقوبي**، ١٥٥/١.

(٢) ابن عبد الربيع، **العقد الفريد**، ١٣/٥؛ انظر أيضًا: أبو الفداء، **المختصر**، ٨/١.

(٣) **كتاب سُلَيم**، ٣٨٦/١ - ٣٨٧.

(٤) **تاريخ اليعقوبي**، ١٥٥/١؛ انظر أيضًا: الطَّبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٣٣/٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٩٦/٤.

(٥) ابن أبي الحديد، **شرح النهج**، ٢٧١/١٦.

(٦) تستذكر المصادر السنيّة محسِن، الابن الثالث لعليّ وفاطمة بشيء من الإبهام. (ابن إسحاق، **السّيرة النبوية**، ٢٤٧/١؛ البَيْهقي، **سُنَن**، ١٠٠/٧؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٥٨٢/٤). يقول الشيعة إن فاطمة أسقطت بسبب الصدمة التي نالت منها جراء وفاة الرسول (المجلسي، **بحار الأنوار**، ٩٠/٤٢؛ الشيخ المفيد، **الإرشاد في معرفة حُجَج الله على العباد**، ٣٥٥/١).

السبب في موتها، فلقد أجمع السنّة والشيعة على التأكيد أن فاطمة لم تمكث إلا بضعة أسابيع بعد والدها (من ثلاثة إلى ثمانية أشهر)[1]، وفارقت الحياة في ختام احتضار أنهك قواها وأذاب جسدها، بحسب ما يؤكّد الذهبي عليه: «مكثت فاطمة بَعْدَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَهِيَ تَذُوْبُ»[2]. أما عليّ، فلم يذعن للخليفة الجديد أبي بكر ولم يبايعه إلا بعد وفاة زوجته.

وما لبثت فاطمة، التي أهانها عمر بمهاجمتها في عقر دارها، أن تكبّدت إهانة أخرى، أتتها هذه المرة من أبي بكر، إذ عمد صديق والدها الذي أضحى خليفةً، إلى حرمانها من ميراثها؛ يقول البلاذري:

حَدَّثَنَا لَيْثٌ عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْسَلَتْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم. مما أفاء عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ وَفَدَكٍ. وَمَا بَقِيَ مِنْ خُمْسِ خَيْبَرَ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ. إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْمَالِ»[3].

---

(١) الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٣٧١/٢، ٣٨٨/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٦١١/٤، ٥٦٧/٤.

(٢) يريد الذّهبي في سِيَر أعلام النبلاء (٣٨٨/٢) أنها قضت حزنًا.

(٣) البلاذُري، فتوح البلدان، ٤١/١؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢٣٩/٤. في غضون ذلك، كان الخليفة الجديد أبو بكر قد جرّدها من ميراثها؛ ولقد سوّغت كتب التراث الإسلامي موقف أبي بكر بأن الأملاك الموضوعة في تصرّف الرسول ليست بالضرورة أملاكه، أي أنّ حقّه فيها كان حقّ انتفاع لا حقّ امتلاك.

وإذ آلمها ما سمعت[١]، صاحت فيه فاطمة قائلة: «ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله!»[٢].

إن فاطمة التي نُهِبَتْ ميراثُها والتي تعرّضت للتعنيف، أضمرت حقدًا لخليفة أبيها، لدرجة قرّرت معها الامتناع عن الحديث معه. «فَهَجَرَتْهُ فَاطِمَةُ فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتَّى مَاتَتْ»[٣]. وفي سعي منهما لإيجاد ترتيب يخرجهما من الأزمة، قام الشيخان بزيارتها يومًا، لكنها رفضت استقبالهما. كان عليّ هو مَنْ فتح لهما الباب في حين أدارت زوجته وجهها نحو الحائط، بحيث لا يقع بصرها على «أفضل أصدقاء» والدها! «فقال عمر لأبي بكر، رضي الله عنهما: انطلق بنا إلى فاطمة، فإنا قد أغضبناها، فانطلقا جميعًا، فاستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا عليًا فكلماه، فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها، حولت وجهها إلى الحائط، فسلما عليها، فلم ترد عليهما السلام»[٤].

وإذ كانت تحتضر، بلّغت فاطمة عليًا رفضها القاطع لحضور خليفة أبيها جنازتها؛ وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ، بحسب ابن كثير: «هَذَا الْحَدِيث فِي كِتَابِ الْمَغَازِي مِنْ صَحِيحِهِ عَن ابْن بُكَيْر، عَنِ اللَّيْثِ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ كَمَا تَقَدَّمَ، وَزَادَ: فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ دَفَنَهَا عَلِيٌّ لَيْلاً وَلَمْ يُؤْذِنْ أَبَا بَكْرٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا»[٥].

---

(١) يقول ابن كثير في السّيرة النبوية (٣/٣٨٥، ٤/٤٩٥) إن فاطمة «كانت متوهمةً من أنها تستحق ميراث رسول الله».

(٢) ابن أبي الحديد، شرح النهج، ٢/٥٧.

(٣) صحيح البخاري، ٤/١٥٤٩ - ١٥٥٠؛ صحيح مسلم، ٥/١٥٣؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤/٥٦٧.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ١/٢٠؛ انظر أيضًا: المجلسي، بحار الأنوار، ٢٨/٣٥٧.

(٥) ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤/٥٦٨؛ انظر أيضًا: كتاب سُلَيم، ١/٣٩٢.

وبغرض التخفيف من وطأة الطابع الصادم للمعاملة التي خُصَّت بها فاطمة وآلمتها أشد إيلام، قالت المصادر السنيّة إن أبا بكر عبّر، وهو على فراشه يحتضر، عن تحسّره المرير على تصرّفه حِيال ابنة صديقه: «أما إني لا آسي على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن، وددت أني تركتهن. إلى قوله: فأما الثلاث التي فعلتهن: فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء وإن كانوا قد أغلقوه على الحرب...»[1].

غير أن المآل المخزي الذي آلت إليه حال فاطمة غداة وفاة والدها يثبت بوضوح عجزها عن لعب أقل دور سياسي. فهي بأنينها ورعونتها ما كانت لِتَزِن أمام عائشة ذات الشخصيّة القويّة والفعّالة. ففي أيام والدها الأخيرة، كانت فاطمة شبه غائبة، فيما كانت عائشة تفعل كل ما قدرت عليه لِتُعَبِّدَ لوالدها أبي بكر الطريق...

(١) تاريخ اليعقوبي، ١٣٧/٢؛ انظر أيضًا: الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣٥٣/٢؛ ابن عبد الربيع، العِقد الفريد، ٢١/٥؛ المسعودي، مروج الذهب، ١١٧/٣ - ١١٨؛ الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٣٦٤/٢؛ المتّقي، كَنز العمّال، ٦٣١/٥ - ٦٣٢.

الفصل الحادي عشر
عائِشَة، الحُمَيْراء اللّعوب المتوهّجة

لا رَيْب في أن أبا بكر كان مدينًا بالكثير لابنته عائشة في وصوله إلى الخلافة. إذ كانت زوجة محمّد الفَتِيّة امرأةً مِقْدامَة لبيبَة؛ وكانت تتمتع بنشاط المحارب وحزمه، وهَيْبَة ودهاء الفقيه ونفوذه[١]، «فإنّه لم يكن في الأمم مثل عائشة في حفظها وعلمها وفصاحتها وعقلها»[٢]. كانت عائشة إذن تتبوّء منزلة مهمّة جدًا حملت يومًا محمّدًا على القول في شأنها: «خذوا شَطْرَ دينكم عن الحُمَيْراء»[٣]. وبالإضافة إلى هذا اللقب الودود، كان الرسول يغدِق عليها من العطايا والجمائل ما أثار احتجاجات مستمرة من أزواجه الأخريات.

---

(١) كانت عائشة مقصد المستَفْتين في كل المسائل، لا يتخلّفون عن فتواها ولا يشجبون حكمها. وفي هذا الشأن، كتب ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣٧٥/٢): «ما رأيتُ أحدًا أعلَمَ بسُنَنِ رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ولا أفقهَ في رأي إن احتيجَ إلى رأيه ولا أعلم بآية فيما نزلَت ولا فريضة من عائشة». وانظر أيضًا: البلاذُري، أنساب الأشراف، ٤٦/٢؛ ٤٧/٢؛ ٤٩/٢.

(٢) ابن كثير، السّيرة النبوية، ١٣٧/٢.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠٠/٨؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ١٣٧/٢. هذا حديث اختُلِف فيه: فقد قال فيه القاري في مِرقاة المفاتيح شرح مِشكاة المصابيح ٣٩٩٥/٩: «إنه من الأحاديث الواهية التي لا يعرف لها إسناد ولا رواية».

ففي يوم، عبّرت إحداهن، وهي أُمُّ سَلَمة، لمحمّد عن استيائها وشعورها بالمهانة جرّاء مغالاته في المعاملة الطيّبة التي كان يخصّ بها عائشة دون سواها، لم تَنَل منه إلا هذا الرد الصريح، إذ قال: «لا تؤذيني في عائشة؛ فإنّه والله ما نَزَل عَلَيَّ الوَحْيُ وأنا في لِحاف امرأةٍ منكنَّ غيرها»[1]. ومن شأن هذا النوع من الحديث أن يولّد إرباكًا، لأنه يوحي بأن محمّدًا كان يَلْبَس ثياب عائشة، علمًا أن الأحاديث التي نرى فيها الرسول يستقبل أصدقاءه وأهل بيته مرتديًا مِرْطَ امرأته الشّابة، ليست نادرة. فعلى سبيل المثال، عندما طلبت نساؤه من فاطمة التدخّل لدى أبيها، ليكُفّ عن استعراض إيثاره لعائشة، نرى أبا القاسم مستقبلاً ابنته وهو «مضطجع [مع عائشة] في مِرْطِها»[2]. وبحسب ابن قُتَيْبَةَ، كان الرسول يستخدم هذا المِرْط لواءً في غَزْواته[3].

وبوصفها ملكة البيت النبويّ، كانت عائشة تلعب دور الأميرة القرينة. ففي العام ٦٢٨، شهدت، وقد تستّرت برداء زوجها، مقارعةً كان

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، ٩١١/٢؛ ١٣٧٦/٣. وانظره أيضًا في: ابن أبي شيبة، مُصَنّف، ٣٨٩/٦؛ ابن حنبل، مُسْنَد، ١٢٩/٤٤؛ الحاكم النيسابوري، المُستَدْرَك، ٤/ ١٠؛ ابن الأثير، جامع الأول، ١٣٦/٩؛ الذهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٤٣١/٣؛ المُتّقي، كَنزُ العمّال، ١٣٤/١٢. وفي روايات أخرى، لا يذكر المسنِدون ثياب عائشة، بل لِحافها؛ انظر: صحيح البخاري، ١٣٧٦/٣؛ التِرمِذيّ، سُنَن، ٧٠٣/٥؛ النسائي، سُنَن، ١٥٣/٨ - ١٥٤؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ٤٠٦/٢٣؛ ابن الأثير، جامع الأول، ١٤١/٩؛ المُتّقي، كَنز العمّال، ١٣٤/١٢ - ١٣٦. أما ابن حنبل، فيذكر بيت عائشة ليس إلا.

(٢) صحيح مسلم النيسابوري، ١٣٥/٧؛ وانظر أيضًا: ابن حنبل، مُسنَد، ١٢٣/٤١؛ صحيح مسلم، ١٣٥/٧؛ النسائي، سُنَن، ١٥١/٨ - ١٥٢؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ٤١/٤٣؛ البَيْهقي، سُنَن، ٤٨٨/٧.

(٣) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ١٥٣/١: «لواء رسول الله أبيض ورايتهُ سوداء من مِرْط لعائشة».

الحَبَشَةُ يلعبون فيها بالحراب أمام مسجد المدينة[1]. وفي أثناء مرضه الأخير، كان الرسول التوّاق، وقد نفذ صبره إلى الاستقرار، متلهفًا إلى الانتقال إلى حُجْرَة عائشة، يسأل بإلحاح: «أين أنا غدًا؟»[2]. ولكونها حازت حظوة حقيقيّة عند أبي القاسم، كانت تتباهى بذلك قائلة لنسائه الأخريات: «فأيّ نساء رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، كان أحظى عنده مني؟»[3] ومع أنه ألحق بها العديد من الضرائر، إلا أن عائشة احتفظت بمكانة لا ينازعها عليها أحد. وفي كل مرة كان الرسول يأتي بزوجة جديدة، كانت عائشة تسأله، سعيًا منها إلى التأكد من ثباته على مشاعره حِيالها: «عَنْ هِشَام بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ: كَيْفَ حُبُّكَ لِي؟ قَالَ: «كَعُقْدَةِ الْحَبْلِ» فَكُنْتُ أَقُولُ: كَيْفَ الْعُقْدَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: «هِيَ عَلَى حَالِهَا»»[4].

عندما تزوّجت محمّدًا، كان جهاز عائشة، المرأة الطفلة، عددًا من العرائس[5]؛ بل إنها هي نفسها تروي كيف أن أمّها أَزْقَمَتْها التّمر بغية تسمينها بسرعة قبل حلول ليلة الزفاف. في ذلك اليوم، وبينما كانت تلهو بالأُرْجوحَة، سُلِخت عن صواحبها[6]. وكما لو أنه استعاد زمن طفولته

(١) الطّبراني، المعجم الكبير، ١٧٩/٢٣؛ وانظره أيضًا في: ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٢٠٣/٤٢؛ صحيح البخاري، ١٧٣/١؛ النّسائي، سُنَن، ١٨١/٨؛ التّبريزي، مِشكاة المصابيح، ٢٣٧/٢.

(٢) صحيح البخاري، ٤٦٨/١؛ صحيح مسلم، ١٣٧/٧؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/ ٤٤؛ البيهقي، سُنَن، ٤٨٧/٧.

(٣) الطّبراني، المعجم الكبير، ٢٨/٢٣. وانظره أيضًا في: ابن حنبل، مُسْنَد، ٤٧١/٤٢؛ ابن ماجة، سُنَن، ٦٤١/١؛ الدارمي، سُنَن، ١٩٥/٢.

(٤) الإصفهاني، حِلْيَة الأولياء، ٤٤/٢.

(٥) أبو داود، سُنَن، ٤٣٨/٤.

(٦) ابن إسحاق، السّيرة النبويّة، ٢٥٥/١.

معها، أصبح أبو القاسم رفيقًا لزوجته الفتيّة في اللعب؛ إذ كان يلهو معها بالدمى والتماثيل الصغيرة، ومنها خصوصًا ذلك الحصان المجنّح الذي كان يبهج النبي كثيرًا[١]. وهو كان يهوى مراكضتها، مُغْرِبًا في الضحك كلما فعل[٢]. وفي يوم كانا يتسابقان، قال لزوجته الفتيّة ضاحكًا: «هذه بتلك السبقة التي كنتِ سبقتيني»[٣]. وبهذا كانت عائشة المرحة اللّعوب شعاع شمس في حياة محمّد؛ بل إنها هي مَنْ وصفت نفسها بأنها كانت «الْجَارِيَة الْحَدِيثَة السِّنّ الْحَرِيصَة عَلَى اللهْوِ»[٤]، التي كانت تضفي على البيت النبوي بهجةً، لم يكن محمّد الآخِذ في الكِبر، عديم التأثّر بها. ولقد قيل إن الرسول كان هو نفسه «ضحّاكًا بسّامًا»[٥]، وإنه حتى خلال مرضته الأخيرة، كان يمازح مَحظيّته ويناكدها - على سبيل المغايظة -؛ وفي هذا الشأن روت عائشة:

رجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من البقيع، فوجدني وأنا أجد صُداعًا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، فقال: بل أنا والله يا عائشة وارأساه؛ [...] ثم قال: وما ضَرّكِ لو متّ قبلي، وقمتُ عليك وكفّنْتُك، وصلّيْت عليك ودفنتك؟ [...] قلت: والله لكأني بك، لو قد فعلتَ ذلك، لقد رجعتَ إلى بيتي، فاعرست فيه ببعض نسائك.

فما كان من أبي القاسم إلا أن تبسّم لسرعة بديهة زوجته الفتيّة[٦].

---

(١) أبو داود، سُنَن، ٤٣٨/٤؛ صحيح مسلم، ١٣٥/٧؛ النسائي، سُنَن، ١٧٩/٨ - ١٨٠.
(٢) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ١٤٤/٤٠؛ ابن ماجة، سُنَن، ٦٣٦/١.
(٣) الواقدي، كتاب المغازي، ٤٢٧/٢؛ وانظره أيضًا في: النسائي، سُنَن، ١٧٧/٨ - ١٧٨.
(٤) صحيح البخاري، ١٧٣/١؛ النسائي، سُنَن، ١٨١/٨ - ١٨٢.
(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣٦٥/١؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٦/٤.
(٦) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٤٣/٢؛ وانظره أيضًا في: ابن سعد، الطبقات الكبرى، =

يبدو هذا الحوار كنذير معكوس لأن عائشة هي التي أصبحت فيما بعد «الأرملة المرحة»، ما يذكرنا بمسرحية وليم شكسبير! فالحُمَيْراء الصغيرة، التي ترمَّلت في سِنّ الثامنة عشر[١]، اعترفت وهي على فراش الموت، بأنها لا تريد أن تدفَن في جوار محمّد لأنها «أحدثت بَعده»[٢]، أي عرفت بعده رجالاً آخرين، على الرغم من النهي الصريح الذي يحظّر على أرامل الرسول، الزواج من بعده؛ وليس إلحاق اسم كل منهن بلقب «أُمّ المؤمنين» إلا صَرْفًا عنهن للراغبين بقربهن.

كانت عائشة شهوانية بطبيعتها، وكانت معروفةً بجرأتها الجنسيّة، وهو ما تظهره الأحاديث الجريئة والحميمية العديدة التي نقلت عنها. في الواقع، كان أبناء أبي بكر الورع والتقيّ جميعهم موصوفين بالمجون وبالعشق وبحبّ الملذات. ولو لم يكن البكريّون مولعين بالمتعة واللهو، لأسّسوا السلالة الحاكمة الأولى في تاريخ الإسلام! ولقد كان أشهرهم عبد الرحمن، شقيق عائشة الأكبر، المعروف بحسّه الفكاهي[٣] وبشعره الإباحي. فقصّته الغراميّة مع ليلى بنت الجودي ألهمته أبياتًا ملتهبة خالدة[٤]. أما ابنة أخ عائشة، التي تحمل اسم عمّتها، فوُهِبَتْ فطنةً نادرة

= ٢٠٥/٢؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٠٩/٢؛ النسائي، كتاب الوفاة، ٢٤/١ - ٢٥؛ الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢٢٦/٢.

(١) ماتت عائشة في السبعين من عمرها، في ظِلّ خلافة معاوية (في سنة ثمان وخمسين من الهجرة).

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧٤/٨؛ وانظره أيضًا في: ابن أبي شيبة، مصنّف، ٣/ ٣٤؛ ٥٣٦/٧؛ ابن قتيبة، كتاب المعارف، ١٣٤/١؛ الحاكم النيسابوري، المُسْتَدْرَك، ٧/٤؛ الذهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٤٦٢/٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٩٥/٨.

(٤) أبو الفرج الإصفهاني، كتاب الأغاني، ٣٥٦/١٧ - ٣٦٠؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٥٦/٧٠ - ٦٠.

وجمالاً أخّاذًا. وإذ كانت مِغناجًا متأنّقة، كانت عائشة بنت طَلْحَة تبحث دائمًا عن مدح شعراء الغزل، أمثال عمر بن أبي ربيعة المعروف بميوله الإغوائية. ومن جهته، دفع والي مكّة، المَخْزومي حارث بن خالد، ثمن شغفه بعائشة بنت طَلْحَة التي كان يعشقها. ففي يوم من أيام موسِم الحجّ، ذهب حدَّ تأخير صلاة العصر كُرمى لعينيها، إذ انتظر حتى فرغت من طوافها ليأمر المؤذّن بالدعوة إلى الصلاة؛ وفي هذا الشأن قال: «واللّه لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخّرت الصلاة إلى الليل». ولقد تمَّ ذلك أمام أنظار الحجّاج المذهولين المستنكرين، فما كان من الخليفة عبد الملك إلا أن سارع بعزل والي مكّة العاشق الولهان[١].

بعد أسابيع قليلة على زواجه بعائشة لم يعد الرسول يستطيع الاستغناء عنها. فهو ما كان يحتمل أن تُمَسّ شعرة من رأسها، ويسارع إلى مؤاساتها كلما كان والدها أبي بكر يضربها[٢]. بل إن العلاقة الانصهاريّة كانت تؤالف بين محمّد وعائشة حتى في العبادات: فللوضوء، كانا يغرِفان من الإناء نفسه[٣]. وعندما يسجد للصلاة، كان أبو القاسم يتّخذ من سرير زوجته الفتيّة قِبْلَةً[٤]. وفي بعض المشاهد الجريئة نوعًا ما، نرى محمّدًا يؤدي الصلاة على سريره وهو يلاعبها[٥]. بل، وفي خِضَمّ صوم رمضان، لم يكن الرسول، بحسب ما يقوله أهل الحديث، يتمالك نفسه عن تقبيلها[٦].

---

(١) أبو الفرج الإصفهاني، كتاب الأغاني، ٣/٣١٥.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٢٣٩/١١؛ العصامي، سَمْط النجوم، ٤٤٥/١.

(٣) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ١٠٧/٤٠؛ صحيح مسلم، ١٧٥/١؛ الترمِذي، سُنَن، ٩١/١.

(٤) صحيح البخاري، ١٩٢/١؛ صحيح مسلم، ٦٠/٢.

(٥) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٢٤١/٤١؛ المتّقي، كنز العمّال، ٢١٢/٨.

(٦) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ١٥٦/٤٠؛ صحيح مسلم، ١٣٥/٣؛ صحيح البخاري، ٦٨٠/٢؛=

مع ذلك، كان بوسعه أحيانًا أن ينزل بعائشة عقابًا جسديًا[1]، خاصة عندما كان يَضْبِطُها متلبّسة بجرم التجسّس عليه. عديدة هي السرديّات التي تصف هذا الهوس لدى عائشة، التي لم تكن تتردّد في الخروج ليلاً لتعقّب زوجها، ولا في إيكال خادمتها بَرِيْرَة مَهَمّة اقتفاء أثره[2]. ومما لا شك فيه أن كتب التراث الإسلامي عزت هذه العادة الممجوجة إلى غيرة عائشة[3]، لكن من الممكن الاعتقاد أن الحُمَيْراء كانت مكلّفة بتزويد والدها وصديقه عمر، بتقاريرَ منتظمة ومفصّلة بأفعال الرسول وتحرّكاته، علمًا أنه لم يكن في غفلة عنها. فخلال مرضته الأخيرة، وعندما خرج ليلاً ليصلّي في مقبَرة البقيع وأدرك أن عائشة تتبعه، استبدّ به الغضب و«لَهَدها في صدرها»[4].

ومن ناحية أخرى، تقع عائشةُ في قلب إحدى أشهر القصص في تاريخ الإسلام، وهي «حادثة الإفْك» الذائعة الصيت. ومع أنّ هذا الموضوع لا يقع في صميم المؤلَّف الذي صنّفه في بعثات الرسول، إلا أن الواقديّ خصَّص له فصلاً كاملاً من كتاب **المغازي**[5]، وهو ما يدل

= أبو داود، سُنَن، ٢٨٤/٢؛ النسائي، سُنَن، ٢٩٩/٣. يعتقد الشيعة أن أصل هذا النوع من الحديث أموي، وأنه يهدف إلى تلطيخ ذكرى الرسول (ولنذكّر بأنّ الأمويين بالنسبة إلى الشيعة منافقون لم يعتقدوا يومًا بمحمّد صادقين).

(١) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٤٣/٤٣؛ **صحيح مسلم**، ٦٤/٣؛ النسائي، **سُنَن**، ١٦٠/٨؛ المتقي، **كَنْز العمّال**، ٢٦٤/١٢.

(٢) الإمام مالك، **الموَطَّأ**، ٢٤٢/١.

(٣) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٩٦/٤٢؛ ٤٣/٤٣؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٠٣/٢؛ **صحيح مسلم**، ٥١/٢؛ ٦٤/٣؛ النسائي، **سُنَن**، ١٥٨/٨ - ١٦١؛ ١٥٨/٨.

(٤) **صحيح مسلم**، ٦٤/٣؛ وانظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٤٣/٤٣؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٠٣/٢؛ **صحيح مسلم**، ٦٤/٣؛ النسائي، **سُنَن**، ١٥٩/٨ - ١٦١؛ المُتقي، **كَنْز العمّال**، ٢٦٤/١٢.

(٥) الواقدي، **كتاب المغازي**، ٤٢٦/٢ - ٤٤٠.

على مدى تأثير هذا الحدث على الأذهان. إنّ عائشة هي التي تروي تفاصيل الخبر على مسمع حفيد أختها الذي سألها ذلك قائلاً: «حدّثينا يا أمّه حديثك في غزوة المُرَيْسِيع»؛ قالت:

يا ابن أختي، إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان إذا خرج في سفرٍ أقْرَع بين نسائه، فأَيّتهنَّ خرج سهمها خرج بها، وكان يحِبّ ألاّ أُفارقه في سفر ولا حضَر. فلمّا أراد غزوة المُرَيْسِيع أقرع بيننا فخرج سهمي وسهم أُمّ سَلَمَة، فخرجنا معه، فغنّمه الله أموالهم وأنفسهم، ثم انصرفنا راجعين. [...] فلما دنونا من المدينة [...] ذهبت لحاجتي فمشيت حتى جاوزت العسكر وفي عُنُقي عِقْد لي [...] فلما قضيت حاجتي انسَلّ من عُنُقي فلا أدري به [...] فرجعت في التماسه فوجدته في المكان الذي ظننت أنه فيه، فحبسني ابتغاؤه، وأتى الرجلان خلافي، فرحلوا البعير وحملوا الهودج وهم يظنّون أني فيه [...] - وكنت قَبْلُ لا أتكلّم إذ أكون عليه فلم ينكروا شيئًا - وبعثوا البعير فقادوا بالزمام وانطلقوا، فرجعتُ إلى العسكر وليس فيه داعٍ ولا مُجيب، ولا أسمع صوتًا ولا زَجرًا[1].

كانت عائشة في الواقع رقيقة الجسم صغيرة الحجم لدرجة أن أحدًا لم ينتبه إلى أن هَوْدجها فارغ. وبالصدفة، مَرّ في المكان أعرابي من قبيلة سُلَيْم، واسمه صَفوان بن معطّل، وقد كان شابًا وسيمًا، فوجد عائشة نائمة، فحملها على جواده وعاد بها إلى المدينة. لم يستغرق الأمر وقتًا

---

(1) الواقدي، كتاب المغازي، ٢/٤٢٦، ٤٢٨؛ انظر أيضًا: السّيرة النبوية (٢/٢٩٧-٣٠٩) حيث يتحدّث ابن هشام عن «خبر الإفك في غَزْوَة بني المُصْطَلِق».

طويلاً حتى انتشر القيل والقال، في أرجاء المدينة حيث انطلقت ألسن النميمة، متّهمة عائشةَ بالزِّنى.

أصاب الخبر الرسول بالألم وفكّر جديًا في طلاق عائشة، طالبًا في الأمر مشورة عليّ وأسامة. ولنذكّر بأن الأخير ما كان، في تلك الحِقبة، ليتجاوز الثانية عشرة من عمره وبأنه كان مواليًا لعائشة، فأعطاها حقّ الإفادة من الشكّ وبرّأها. بل حتى زينب بنت جَحْش دافعت عن ضرّتها، ربّما من باب التضامن النّسوي. في المقابل، اعتمد عليّ موقفًا عدائيًا صريحًا وذهب حدّ ضرب بريرة، مولاة عائشة، لكي ينتزع منها اعترافات، غير أنها دافعت عن سيّدتها، مؤكّدة أنها نوّامة كبيرة، ينال النّعس منها وهي تَعْرُك العجين للخبيز، «فتأتي الشاة فتأكله» من دون أن تشعر[1]. وإذ يئس من إمكان الحصول على اعترافات الخادمة، قال عليّ للرسول: «يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف»[2]. لم تسامح عائشة عليًا على هذا الموقف أبدًا، وعرفت فيما بعد كيف تنتقم من صِهْر زوجها.

أمام خطورة شائعة الزّنا وسعة انتشارها، دخل محمّد في حال من الاضطراب والحيرة وسادت البرودة العلاقة بين الزوجين لمدة شهر، إذ لم يكن للرسول حجّة دامغة تدفعه إلى الطلاق من عائشة التي يحِبّها. لكن هيبته ومنزلته هما اللتان كانتا على المِحَكّ إن استمرت الشبهات تُحوّم حول زوجته. وحده الله كان قادرًا على إخراجه من هذا المأزِق. فإذا بالحكم الإلهي ينزل عليه في آية قرآنيّة (٢٤: ١١) تولّت تبرئة

---

(١) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٣٠١/٢؛ وانظره أيضًا في: صحيح البخاري، ٩٤٢/٢ وفي الطّبراني، المعجم الكبير، ٦١/٢٣، ١٢٤/٢٣.

(٢) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٣٠١/٢؛ صحيح البخاري، ٩٤٤/٢؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ٩٧/٢٣، ١٢٤/٢٣.

عائشة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

تظهر الشهرة الواسعة التي نالتها حادثة الإفك إلى أيّ مدى كان الزّنى يشكل مسألة بالغة الحساسيّة في مجتمع ذلك العصر. لكن العقاب بالرّجم حتى الموت المنزَل بالزّنى كان على وجه الخصوص تهديدًا نادرًا ما وضعه أبو القاسم حيّز التنفيذ. ذلك أن حالات الانحراف في السّلوكيّات الأخلاقيّة كانت أكثر من أن تُعدّ وتُحصى لكي يفكّر جديًا في معاقبتها كلها. فهو لم يكن يسعى إلا إلى إشاعة الخوف في نفوس يهود المدينة الذين كانوا - كما قيل - يستغلّون خروج المسلمين في هذه أو تلك من الغَزْوات، لإغواء نساء جند الله الفاضلات العفيفات. وكان محمّد يقول في «القاعدين» المتخلّفين عن القتال إنهم «أقوام إذا غزونا يتخلّف أحدهم عنا له نبيب(*) كنبيب التَّيْس، يمنح أحدهم(**) الكثبة»[1]. وإذ عدل عن عقاب الفاجرين، وقد كانت أعدادهم لا حصر لها، اختار محمّد عِوض ذلك أسلوبًا وقائيًا عمد فيه إلى نَهْي المجاهدين عن العودة إلى منازلهم ليلاً لئلا يكتشفوا مفاجآت مُهينة، قائلاً: «لا تطرقوا النساء ليلاً»[2]...

(*) صوت التّيس عند السّفاد.

(**) وفي بعض النسخ «إحداهن» والمُراد إحدى النساء المغيبات أي اللاتي غاب عنهن أزواجهن.

(١) الواقدي، كتاب المغازي، ٤٤٠/٢؛ الدارمي، سُنَن، ١٢٩/١١؛ النّسائي، سُنَن، ٨/ ٢٥٢؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ٢٤٥/١١؛ الحاكم النيسابوري، المُسْتَدرك، ٤/ ٣٢٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٩/٢.

(٢) صحيح مسلم، ١١٨/٥؛ أبو داود، سُنَن، ٢٥٣/٤؛ المتّقي، كَنْز العمّال، ٤٣٦/٥.

وفي هذا السياق، حُذِفَت آية عقاب الزّنى بالرجم من القرآن، التي بقي عمر، وحتى أواخر أيامه، مصرًّا على أنه قرأها[١]، وحاول عبثًا العثور على الآية المفقودة فسأل في شأنها عائشة التي قالت: «لقد نزلت آيَة الرَّجْم ورضاعة الْكَبِير عشرا وَلَقَد كَانَت فِي صحيفَة تَحت سَرِيري فَلَمَّا مَاتَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وتشاغلنا بِمَوْتِهِ دخل دَاجِن فَأَكلهَا»[٢]! غير أنّ عمر لم يكلّف نفسه عناء التعليق على هذه القصة الغريبة واستمر يزعم بصوتٍ عالٍ إن آية الرجم كانت بالفعل في كتاب الله. لكن، حتى أُبَيّ بن كعب، صحابيّ الرسول وواحد من كَتَبَة الوحي، حاول ثَنْيَ عمر يوم أصبح خليفةً، عن إعادة العمل بآية الرجم؛ ولم يذكر أُبي صراحة الآية المفقودة، بل اكتفى بلفت عمر بواقعيّة قاسية، إلى أنه من المستحيل تنفيذ عقاب من هذا النوع في الوقت الذي كان الناس «يَتَسَافَدُونَ تَسَافُدَ الْحُمُرِ»[٣].

أما حَفْصَة، ابنة عمر بن الخطاب النبيهة، فلم تتدعي يومًا الحلول في مكان عائشة. وعلى أية حال، فلقد نهاها والدها عن مخالفة المَحْظِيّة أو إغضابها قائلًا لها بكل واقعيّة: «إنه ليس لكِ مثل حَظْوة عائشة ولا حسن زينب»[٤]. وعلى الرغم من تنافسهما، كان التواطؤ بين عائشة

(١) يُعدّ العقاب المعتمد في القرآن مائة جَلْدَة لمرتكب الزّنى، أكان رجلًا أم امرأة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]

(٢) ابن ماجة، سُنَن، ١/٣٢٨؛ ١/٦٢٥؛ وانظر أيضًا: الطّبراني، **المعجم الأوسط**، ٨/١٢؛ ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ٢/١٧٧؛ السّيوطي، **الدرّ المنثور**، ٢/٤٧٢؛ أتكون هذه هي نفسها المعزاة الشرهة التي التهمت العجين فيما كانت عائشة تغطّ في النوم؟

(٣) ابن حَجَر، **فتح الباري**، ١٢/١٤٣؛ السّيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ٢/٥٩٢.

(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٨/١٨٩؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/٦٠.

وحَفْصَة يتوازى في تناسق تام وتواطؤ والديهما. وفي معرض كلامها على ضرّتها حَفْصَة، قالت عائشة: «إننا كنّا يدًا واحدة»[1].

كانت ابنتا أبي بكر وعمر تشكّلان الحلقة الضيّقة الأولى للرسول، وكانتا شديدتا التيقّظ في مراقبة زوجهما وإعلام والدَيْهما بكل ما يأتي به من أقوال وأفعال. كلتاهما تمتّعتا بالنفوذ والدهاء، وبنفس شخصيّة أبويهما القوية. ففي الساعات الحاسمة التي سبقت وفاة الرسول، عرف كل من أبي بكر وعمر كيفية الإفادة القصوى من ملازمة بنتَيْهما للرجل المريض. وإدراكًا منهما لمطامح أبويهما، مهّدت عائشة وحَفْصَة الطريق لخيلفتي المستقبل، علمًا أن الرسول كان مدركًا لمناوراتهما؛ فنحن نراه، في لحظات اليقظة النادرة التي تخللت احتضاره، موبّخًا المرأتَيْن بشدة، بل وزاجرًا والدَيْهما.

يرى الشيعة في عائشة أداة لمكائد الخليفتَيْن الأولَيْن. ولا يبدو أن هذا الرأي مجرّد من الصحة تمامًا. فبوجود ظهير ثمين كعائشة، كان يصعب على أبي بكر ألا ينال الخلافة. وبالإضافة إلى ذلك، كان لعائشة دوافع شخصيّة أخرى تتعدّى مساندتها لأبيها؛ فهي أرادت الانتقام من عليّ بإقصائه من الخلافة. ذلك أنها لم تنسَ أن ابن عمّ زوجها شكّك في عفّتها يوم بروز قضية الإفك. ومُذْ استقر في بيت عائشة، ما عاد الرسول المريض يرى غيرها تقريبًا. وهكذا، في لحظات محمّد الأخيرة، كانت عائشة المصدر شبه الوحيد لجميع الروايات[2]، في وقت كان محمّد طريح الفراش، منقطعًا عن العالم الخارجي، وعُرضةً لكل المناورات الصادرة عن المحيطين به؛ وقد ظهر ذلك جليًا خلال حلقتَيْن حاسمتَيْن

(١) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٦٥/٢.

(٢) تضيف كتب التراث الإسلامي اسم شاهد آخر مميّز، هو عبد الله بن عبّاس، ابن عمّ الرسول، ولكنه كان فتيًا جدًا عند وفاة محمّد، إذ ناهزت سنُّه الثانية عشرة.

تمثّلت الأولى في الوصيّة التي مُنِعَ من إملائها، والثانية في الجدل حول من يتولّى إمامة الصلاة بدلاً عن الرسول.

الفصل الثاني عشر
«رَزِيّة الخميس»: الوصيّة التي لم تُكتب

خلال احتضاره الطويل، الذي دام نحو الأسبوعين، طلب الرسول في لحظة من صفاء الذهن أن يدوِّن وصاياه الأخيرة. ولئن كانت الشكوك في مآل الأمة بعد موته تؤرّقه، أراد حتمًا استباق النزاعات العبثيّة بين المؤمنين. يتعلّق الأمر هنا بواحدة من أكثر اللحظات أهميّة ودلاليّة في أيام الرسول الأخيرة، وهي مذكورة في مؤلّفات التراث الإسلامي الرئيسيّة، الشيعيّة منها والسنيّة على السواء[1].

يوم الخميس السابق لوفاته (وقد وافقه الرابع من حزيران/يونيو من العام ٦٣٢)، كان محمّد مضطجعًا في سريره، تحيط به نساؤه، وعمّه العبّاس وابنه عبد الله، وعمر (في حين كان غياب أبي بكر عن هذا

---

(١) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٤٠٩/٣، ١٣٥/٥، ٣٥١/٥، ٦٨/٢٣. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٢/٢؛ **صحيح البخاري**، ٥٤/١، ١١١١/٣، ١١٥٥/٣، ٤/ ١٦١٢، ٢١٤٦/٥، ٢٦٨٠/٦؛ **صحيح مسلم**، ٧٥/٥؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٣٦/٢؛ الطَّبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٢٨/٢ - ٢٢٩؛ الطَّبراني، **المعجم الأوسط**، ٢٨٧/٥؛ الطَّبراني، **المعجم الكبير**، ٤٤٥/١١؛ البيهقي، **دلائل النبوّة**، ٧/ ١٨١؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤٥١/٤؛ الهيثمي، **مجمع الزوائد**، ٢١٤/٤ - ٢١٥، ٣٤/٩. من الملاحظ أن الإحالة إلى الوصيّة غائبة عن **السّيرة النبويّة** لابن هشام؛ أفيكون ذلك ناتجًا عن حذف متعمّد أملته عليه رقابة شخصيّة؟

الفصل المهم غيابًا ملحوظًا). انقضّت عليه أوجاع حادة فطلب من ذويه أن يُؤتَى «قطيفًا ودواةً»؛ قال: «ائتوني أكتب كتابًا لا تضلّوا بعدي أبدًا»[1].

وإن كنا نعلم بدقّة اللحظة التي حصل فيها هذا الأمر، فبفضل عبد الله بن عبّاس، ابن عمّ محمّد، الذي تحدّث عن «رَزِيّة الخميس»، وهي عبارة نجدها لدى السنّة كما لدى الشيعة[2]؛ غير أننا نتساءل مع ذلك عن السبب الذي حداه إلى نَعْت هذا الفصل بلفظة «الرَّزِيَّة»، في حين كان القصد من هذه الوصيّة «اجتناب ضلال المسلمين»؟ وفي معرِض إجابته عن سؤال طرحه عليه سعيد بن جُبَيْر في هذا الشأن، استذكر ابن عبّاس ذاك اليوم المُخزي، باكيًا: «يومُ الخميس وما يوم الخميس!»[3]؛ وراحت «دموعه تسيل على خَدَّيْه كأنها نظام اللؤلؤ»[4]، مبلِّلة الحصى[5]. قال: «الرَّزيّة كلّ الرَّزيّة[6] ما حال بين رسول الله،

---

(١) ابن حَنْبل، **مُسْنَد**، ٣٥١/٥. وانظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ١١٥٥/٣؛ **صحيح مسلم**، ٧٥/٥؛ الطّبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٢٨/٢ - ٢٢٩.

(٢) حدّدت بعض الروايات زَمَن كتابة الوصيّة في الساعات الأخيرة من حياة الرسول الذي توفّاه الله إثر الاختلاف عليها مباشرة، فكتب ابن سعد في **الطبقات الكبرى** (٢٤٤/٢): «فلمّا قاموا قُبِضَ النبيّ صلّى الله عليه وسلم مكانه». ومن جهته، قال سُلَيْم أيضًا إن حادثة الوصيّة وقعت يوم الاثنين، وقد كان يوم وفاة محمّد (كتاب سليم، ٣٢٤/١).

(٣) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٥١/٥، ٤٠٩/٣. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/ ٢٤٢؛ **صحيح البُخاري**، ١١١١/٣، ١١٥٥/٣؛ **صحيح مسلم**، ٧٥/٥؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢٣٦/٢؛ النّسائي، **سُنَن**، ٣٦٧/٥؛ الطّبري، **تاريخ...**، ٢٢٨/٢ - ٢٢٩؛ الطّبراني، **المعجم الكبير**، ٤٤٥/١١؛ البيهقي، **دلائل النبوّة**، ١٨٤/٧.

(٤) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٥١/٥، وانظر أيضًا: **صحيح مسلم**، ٧٥/٥؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢٣٦/٢؛ الطّبري، **تاريخ...**، ٢٢٨/٢ - ٢٢٩.

(٥) **صحيح البخاري**، ١١١١/٣.

(٦) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٣٥/٥. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٤/٢؛=

صلّى الله عليه وسلّم، وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطِهم»[1].

وعلى الرغم من الاختلافات في التفاصيل، أجمعت كل الروايات على التأكيد على أن الرسول اصطدم، لحظة تهيُّئه لإملاء وصيّة - أو لكتابتها بنفسه - برفض ذويه. ذلك أن حاشية أبي القاسم كانت مصِرّة على أن يموت الرجل بلا وصية[2]، لكن محمّدًا ألحّ[3] على ضرورة أن يترك كل إنسان وصية، كما يقتضيه الأمر الإلهي: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [٢ : ١٨٠].

تقول بعض الروايات إن محمّدًا، عندما طلب ما يكْتب به، بدا محيطه مستعجبًا، فتساءل بعضه: «ما شأنه، أهَجَر؟[4] ثم راحوا يتبادلون نظرات الحيرة، قائلين: «استفهموه!»[5]. ويتّفق العديد من المصادر، ومنها **صحيح البخاري**، على أن عمرًا فعل كل شيء لمنع النبي من إملاء وصيّته الأخيرة. وفي مصادر أخرى أكثر تلطيفًا في سرد الخبر، اكتفى

=**صحيح البخاري**، ٥٤/١، ١٦١٢/٤، ٢١٤٦/٥، ٢٦٨٠/٩؛ النّسائي، **سُنَن**، ٧/ ٤٨؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٥١/٤.

(١) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٣٥/٥. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٤/٢؛ **صحيح البخاري**، ٥٤/١، ٢٦٨٠/٦، النّسائي، **سُنَن**، ٣٦٦/٥.

(٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٧١/٥.

(٣) مالك، **الموطأ**، ٧٦١/١. وانظر أيضًا: ابن ماجة، **سُنَن**، ٩٠٢/٢.

(٤) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٥١/٥. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٢/٢؛ **صحيح البخاري**، ١١٥٥/٣؛ **صحيح مسلم**، ٧٥/٥؛ النّسائي، **سُنَن**، ٣٦٧/٥؛ الطّبري، **تاريخ...**، ٢٢٨/٢ - ٢٢٩.

(٥) ابن حَنْبل، **مُسْنَد**، ٤٠٩/٣. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٢/٢؛ **صحيح البخاري**، ١١١١/٣، ١١٥٥/٣؛ **صحيح مسلم**، ٧٥/٥؛ النسائي، **سُنَن**، ٥/ ٦٣٧؛ الطّبري، **تاريخ...**، ٢٢٨/٢ - ٢٢٩.

عمر بالقول «إن رسول الله قد غلبه الوجع»[١] أي، بكلام آخر، إنّه لا يفقه ما يقول. غير أن ابن حَنْبَل يؤكّد في مُسْنَدِه على ردّ الفعل العدائي الشديد هذا، فيقول: «فخالف عليها عمر بن الخطّاب حتى رفضها»[٢]. وثمّة مصادر مهمّة أخرى تذكر شهادة عمر هو نفسه، الذي قال في شأن وصيّة الرسول: «فكرهنا ذلك أشدّ كراهة»[٣]. مع ذلك، يعجب القارئ من اعتماد هذا الصحابي، وقد كان من أكثر الصحابة وفاء، موقفًا بهذه الوقاحة حِيال الرسول الذي أعْجَزَه المرض. بل إن ابن سعد قال إنّ عثمانَ، الذي سخط على موقف عمر، امتنع عن مخاطبته لوقت طويل[٤]. ولتسويغ رفضه تلبية طلب محمّد، تابع عمر قائلاً: «وعندكم القرآن، حَسْبُنا كتابُ الله»[*]. من شأن هذه الصيغة التي استخدمها ابن الخطّاب أن تشغل البال وتثير الفضول. فهو بعد أن ذكر القرآن، أضاف: «كتاب الله». وهذا يستدعي سؤالاً يفرض نفسه: أكان القرآن موجودًا على شكل كتاب في حياة الرسول؟ وإن كان الجواب إيجابًا، فأين اختفى الكتاب الأصلي؟ وما هو المبرّر لكل تجميعات القرآن التي أمر بها الخلفاء المتعاقبون؟

---

(١) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٣٥/٥. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٤/٢؛ **صحيح البُخاري**، ٥٤/١، ١٦١٢/٤، ٢١٤٦/٥، ٢٦٨٠/٦؛ النَّسائي، **سُنَن**، ٥/ ٦٣٦. ثَمّة مؤلفون، من مصاف ابن كثير، يتحفّظون على ذكر اسم عمر، وهو ما يفصح بوضوح عن الطابع المثير للشّبهات الذي دفع بهؤلاء المؤلّفين إلى حجبه وراء جملة مُبْهَمة: «فقال بعضهم: إن رسول الله قد غلبه الوجع» (ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٥١/٤؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٤٧/٥).

(٢) الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣٤/٩، نقلاً عن أحمد بن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٦٨/٢٣.

(٣) الهيثمي، عينه، ٣٤/٩.

(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٣١٢/٢ - ٣١٣.

(*) عينه، ٢٤٤/٢.

وفي رواية أخرى مثيرة للاهتمام، فسّر عمر رفضه لكتابة الرسول وصيّته بطريقة مختلفة عن تلك التي أبرزناها حتى الآن. فبعد أن قال محمّد: «ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابًا لن تَضلُّوا بعده أبدًا!» [قال] عمر بن الخطّاب: «مَنْ لفلانة وفلانة مَدائن الرّوم؟ إن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ليس بميتٍ حتى نَفْتَحها ولو مات لانتظرناه كما انتَظَرت بنو إسرائيل موسى!»[1] ونلاحظ هنا أن رفض عمر مرتبط بردّ فعله الإنكاري الذي بدر عنه في اللحظات التي تَلَتْ مباشرة الإعلان عن وفاة الرسول.

وبحسب الرواية الصادرة عن عمر نفسه، قالت أزواج محمّد من وراء الحجاب[2]: «ألا تسمعون النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، يعهد إليكم؟». وقد قيل إن عمرًا في ذلك اليوم، وكعادته[3]، زجر نساء محمّد، قائلًا: «إنكن صواحبات يوسف إذا مرض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عصرتن أعينكن وإذا صح ركبتن رقبته، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دَعْهُنَّ، فَهُنَّ خير منكم»[4].

وفي رواية معبّرة بشكل خاص عن الجدال الذي اندلع عند سرير الرسول المحتضِر، صرخت إحدى النساء الحاضرات (التي لم يذكر المصدر المحال إليه اسمها بدقّة) قائلة: «ويحكم عهد رسول الله صلّى

---

(١) عينه، ٢/٢٤٤.

(٢) المقصود بهذا الحجاب إما ذاك الذي تستعمله النساء لستر شعرهن، إما ذاك الذي يفصل بين الجنسَيْن داخل المنزل.

(٣) لم تكن تلك المرة الأولى التي أجاز فيها عمر لنفسه بهذا القدر من حرية التصرّف مع أزواج محمّد اللواتي كُنَّ يَخْشَوْنه لأنه لم يكن ليتردّد في زَجْرِهن. ومن ناحيته، كان محمّد يجيز لصديقه التدخّل في شؤونه العائليّة، وهو ما لم يكن ليجد لدى أزواجه الاستحسان، لاعتبارهن أنهن لسن ملزمات بتقديم حساب عن أقوالهن وأفعالهن إلا لزوجهن.

(٤) الطّبراني، المعجم الكبير، ٣٦/١١. وانظر أيضًا: الهيثمي، مَجْمَع الزوائد، ٢١٥/٤.

الله عليه وسلّم إليكم!» فردّ عليها أحدهم زاجرًا: «اسكتي فإنه لا عقل لك!» (إن طبيعة التعليق الكاره للنساء الذي يرشح هذا القول به، يشير إلى أن عمرًا هو مَنْ تحدّث بهذه الطريقة). فإذا بالرسول يرُدّ على المتكلّم قائلًا: «أنتم لا أحلام لكم!»[1] فمَن هم إذن الأشخاص الذين استهدفهم محمّد بملاحظته؟ وإن كان - بناء على ما يظهره ضمير المخاطَب بصيغة الجمع - الصحابة الحاضرون في غرفته في تلك اللحظة المهمة، كثُرًا، فلماذا لم يصدر عنهم ردّ فعل؟ وما السبب الكامن وراء امتناع المصادر الإسلاميّة عن قول كلمة واحدة في موقف كل منهم؟ وإن كنا نطرح كل هذه الأسئلة، فلأن جميع الروايات التي ذكرت خبر الوصيّة، أكّدت على أنّ طلب الرسول أثار نقاشًا صاخبًا ولَغَطًا[2]، وعلى أنّ الأصوات ساعتها ارتفعت[3].

من شأن هذا المشهد أن يكشِف عن التنافس الواضح بين سلطة الرسول وبين نفوذ عمر. في الواقع، وفي العديد من الروايات، نرى الحاضرين منقسمين بين مُوال ومعارض، «فمنهم من يقول قرِّبوا يَكْتُبْ لكم رسولُ الله، صلّى الله عليه وسلّم، ومنهم من يقول ما قال عمر»[4].

---

(١) الطّبراني، **المعجم الأوسط**، ٢٨٧/٥. وانظر أيضًا: الهيثمي، **مَجْمَع الزوائد**، ٣٤/٩؛ المُتقي، **كنْز العمّال**، ٦٤٤/٥. (انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات**، ٢٤٤/٢).

(٢) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٣٥/٥. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٣/٢-٢٤٤؛ **صحيح البخاري**، ١٦١٢/٤، ٢١٤٦/٥، ٢٦٨٠/٦؛ النّسائي، **سُنَن**، ٣٦١/٥؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٥١/٤؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٤٨/٥. وفي روايات أخرى، يستخدم المؤلّفون فعل «تخاصموا» أو فعل «اختصموا»، انظرهما في: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٣٥/٥؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٤/٢؛ **صحيح البخاري**، ٤/ ١٦١٢، ٢١٤٦/٥، ٢٦٨٠/٦؛ البيهقي، **دلائل النبوّة**، ١٨٤/٧؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٥١/٤.

(٣) **صحيح البخاري**، ٢٦٦٢/٦.

(٤) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٢٤/١. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٤/٢؛ **صحيح البخاري**، ٢١٤٦/٥، ٢٦٨٠/٦؛ **صحيح مسلم**، ٧٦/٥.

وبالتالي، يبدو مستغْرَبًا أن تكون إرادة عمر قد عارضت صراحة إرادة محمّد، علمًا أن بعض الأحاديث تظهر أن عمَرًا المُهاب والشرس كان، وقبل مَرْضَة الرسول بوقت طويل، يجسّد سلطة أثارت خِشية الصّحابة ونساء محمّد (وبخاصة منهن عائشة)، بل وخشية الرسول هو نفسه. ألم يَقُل عمرو بن العاص يومًا لعمر: «نحن نهابُك وما نقدر أن نردّك عن خُلُق من أخلاقك»[١]؟ بل إنَّ محمّدًا نفسه قال عمّن كان سيصبح ثاني الخلفاء الراشدين: «إنِّي لأَنْظُرُ إلى شياطين الإنْسِ والجِنّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ!»[٢].

أخيرًا، من المثير للاهتمام أن عائشة في معرض حديثها عن خوفها من عمر قالت: «فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه»[٣].

هذه الخِشية، التي كان عمر يثيرها في نفوس مَنْ حوله، هي تحديدًا تلك التي أجازت له التدخّل بانتظام في شؤون أبي القاسم الخاصة: فنحن نعلم على سبيل المثال أنه هو مَن كان وراء فرض الحجاب على أزواج الرسول[٤]. وإذ نصّب نفسه طواعية حارسًا لحريم محمّد، سمح عمر لنفسه بالتجسّس على أزواج صديقه[٥]، ما استثار لديهن ضيقًا لم

---

(١) **الطّبري، تاريخ الأمم والملوك**، ٥٦٤/٢. وانظر أيضًا: ابن الأثير، **الكامل**، ٤٣٢/٢.

(٢) الترمذي، **سُنَن**، ٦٢١/٥. وانظر أيضًا: النّسائي، **سُنَن**، ١٨٢/٨؛ التّبريزي، **مِشكاة المصابيح**، ٢٨٥/٣؛ المُتقي، **كَنْز العمّال**، ٥٧٤/١١.

(٣) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٩٠/٤٤. وانظر أيضًا: المتّقي، **كنز العمال**، ٥٩٣/١٢؛ القاري، **مرقاة المفاتيح**، ٣٩٠٣/٩.

(٤) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٧٢/٧. وانظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ١٨٦٦/٤؛ **صحيح مسلم**، ١٩٠/٤؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ١٠٢/٢؛ النّسائي، **سُنَن**، ٢٢٤/١٠؛ **تفسير الطّبري**، ٣١٢/٢٠؛ الطّبراني، **المعجم الأوسط**، ٢١٢/٣؛ الطّبراني، **المعجم الكبير**، ١٦٧/٩.

(٥) كان عمر يتجسّس على أزواج محمّد ويترصّد تحركاتهن إن دَخَلْن بيوتهن أو خَرَجْنَ منها. (**صحيح البخاري**، ٦٧/١).

يتردَّدن لحظة في إعلامه به بوضوح؛ بل حتى عائشة التي كانت تهاب عمرًا جدًا، سألته صراحة الاهتمام بشؤونه، قائلة: «ما لي وما لك يا ابن الخطّاب عليك بعَيْبَتك»[1]!

وفي يوم، احتجّت أم سَلَمة بشدّة على سلوكيّات عمر تلك، فقالت: «عجبًا لك يا ابن الخطّاب قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأزواجه!»[2] ونهجت زينب بنت جَحْش نهجها لما قالت له، وقد ضاقت ذَرْعًا باستطلاعه أخبارهن وأمره إيّاهن أن يَحْتَجبن: «وإنك علينا يا ابن الخطّاب والوحي ينزل في بيوتنا»[3]. وثمّة امرأة أخرى من أزواج محمّد قالت له ساخطة: «يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ تَعِظُهُنَّ؟»[4].

عمدت المصادر الإسلاميّة، في غالب الأحيان إذن، إلى وصف ابن الخطّاب كَمَنْ كان «ملكيًا أكثر من الملك»، تمامًا كما فعل يوم صُلْح الحُدَيْبِيَّة الشهير[5]، علمًا أن تلك لم تكن المرة الأولى التي افتقر فيها تعامل ابن الخطّاب مع محمّد إلى الكياسَة: فعند توقيع صُلْح الحُدَيْبِيَّة مع قريش (في السنة السادسة من الهجرة أي في العام ٦٢٨ للميلاد)، صرّح عمر أنه شَكّ في ذلك اليوم في سلامة طوِيّة الرسول، لكونه رأى

(١) صحيح البخاري، ١٨٦٦/٤. وانظر أيضًا: صحيح مسلم، ١٨٨/٤.
(٢) صحيح البخاري، ١٨٦٦/٤. وانظر أيضًا: صحيح مسلم، ١٩٠/٤.
(٣) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٧٢/٧. في معرض نقلهما لكلام زينب، قال الطّبري والطّبراني أنها ذهبت حدّ اتهام عمر بالغيرة: «فقالت زينب: «إنك لتغار منا والوحي ينزل في بيوتنا» (الطّبراني، المعجم الكبير، ١٦٧/٩)؛ «يا ابن الخطّاب، إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا» (تفسير الطّبري، ٣١٢/٢٠).
(٤) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٦٣/١؛ انظر أيضًا: صحيح البخاري، ١٦٢٩/٤.
(٥) ابن حَجَر، فتح الباري، ٣٤٦/٥.

مع مَنْ كان من المسلمين معه، أن ظاهر هذا الصُلْح فيه غضاضة وضيم عليهم: فقال: «ما شَكَّكْتُ منذ أَسْلَمْتُ إلا يومئذ»[1]. قال عمر على الملأ، مشكّكًا في خلوص نيّة الرسول: «لقد دخلني يومئذ من الشك، وراجعت النبيّ صلّى الله عليه وسلم يومئذ مراجعة ما رجعته مثلها قط».

في الواقع، بينما كان محمّد وصحابته مجتمعين وخصومهم من قريش لصياغة ميثاق الهُدنة والرسول منصرف إلى إملاء الافتتاحيّة المعتادة على عليّ الذي أوكل إليه الكتابة، قائلاً: «أُكتب باسم الله الرحمن الرحيم»، قاطعه مندوب القريشيّين، سُهَيْل بن عمرو، ليذكّره بأن الرحمن إله لا يعرفه وبأن الجملة الافتتاحيّة ينبغي أن تتطابَق والممارسة المعهودة في مكّة، أي «باسمك اللهمّ». وعلى الرغم من احتجاجات المسلمين الحاضرين على ما سمعوا، خضع محمّد للأمر وواصل الإملاء قائلاً: «هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سُهَيل بن عمرو»؛ فإذا بالأخير يقاطعه مجددًا فيذكّره بأن القريشيّين لا يعترفون به رسولاً لله، قائلاً: «لو اعترفنا بك رسولاً لله، لما منعنا عليك الدخول إلى البيت». خضع محمّد مجددًا ووافق على حذف ذِكْر «رسول الله». غير أن عليًا، الذي كان يكتب بإملاء منه، رفض العمل بهذا التعديل؛ فما كان من محمّد إلا أن أخذ الصحيفة ومحا بنفسه العبارة موضع الاعتراض، كاتبًا مكانها: «هذا ما قاضى عليه محمّد ابن عبد الله لا يدخل مكّة إلا السيفُ في القراب»[2].

---

(١) الواقدي، كتاب المغازي، ٦٠٧/٢؛ انظر أيضًا: تفسير الطَّبري، ٢٤٦/٢٢؛ الطَّبراني، المعجم الكبير، ٩/٢٠؛ ابن حبّان، صحيح، ٢١٦/١١؛ البَيْهقي، دلائل النبوّة، ٤/ ١٠٦؛ الذهبي، تاريخ دمشق، ٣٧١/٢.

(٢) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٤٢/٣؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٢٤٩/٣١؛ الدارمي، سُنَن، ٣١٠/٢؛ صحيح البُخاري، ٩٦٠/٢، ١٥٥١/٤، ١١٦٢/٣؛ النَّسائي، سُنَن، ٤٨٢/٧ - ٤٨٣؛ الطَّبري، تاريخ الأمم والملوك، ١٢٣/٢.

وفي ضوء ما تقدّم، يمكن اعتبار صُلْح الحُدَيْبِيَّة كأول وثيقة علمانيّة في تاريخ الإسلام. ذلك أن محمّدًا، الذي تخلّى عن صفة «رسول الله»، وقّع الاتفاق ليس بوصفه زعيمًا روحيًا، بل بوصفه رجل دولة، محقّقًا بالتالي فصلًا فعليًّا بين الدين والسياسة. أسفر حِسّ محمّد الدقيق بمفهوم التسوية، وهو خبير استراتيجي بارع، عن فعاليّة محيّرة مربِكَة لدرجة انتهى معها عمر، وعلى الرغم من معارضته هذا الإجراء أول الأمر، إلى الإقرار بأن صُلْح الحُدَيْبِيَّة أكسب الإسلام عددًا من مُعْتَنِقِي الدين الحنيف فاق بكثير عدد الذين أسلموا عَقِب أيّ انتصار عسكري آخر حقّقه الإسلام. أكّد الواقديّ على أنّه «ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحُدَيْبِيَّة»[1]. وفي هذه المناسبة، نزلت «سورة الفتح» وترتيبها في القرآن ٤٨[2].

وعلى الرغم من كل ذلك، لم يُحسِن أيّ من صحابة الرسول، يوم توقيع الهدنة، تقدير هذه «التسوية التاريخيّة» حقّ قدرها. بل على العكس، أدخَل التنازل الذي قدمه محمّد منكرًا بموجبه صفته النبويّة زمن مفاوضة سياسيّة، صحابتَه في حَيْرة عميقة[3]. إذ شعروا بالخيبة وثارت ثائرتهم أمام فعل رأَوْا فيه خضوعًا وخنوعًا. حتى عمر، الذي لا ينقصه مع ذلك الدهاء السياسي، لم يدرك على الفور نباهة المناورة التي قادها صديقه أبي القاسم. فاستشاط غيظًا وتوجّه إلى الرسول صارخًا: «أوَلَسْنا بالمسلمين! أوَلَيْسوا بالمشركين! فعلام نعطي الدّنِيَّة في ديننا!» عبثًا حاول

(١) الواقدي، كتاب المغازي، ٢/٦٠٩ - ٦١٠.

(٢) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [٤٨ : سورة الفتح، الآيات: ١ - ٣]. وانظر من بين مراجع أخرى: تفسير الطّبري، ١٩٥/٢٢ - ١٩٨؛ تفسير ابن كثير، ٣٢٥/٧ - ٣٢٦.

(٣) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٣١٨/٢.

محمّد أن يهدّأ من خاطره وأن يشرح له قصده. ثم التفت عمر إلى أبي بكر والصحابة الآخرين ليرى ما إذا كانوا يجدون مثله الصلح إهانة لا تحتمل[1]. لاحقًا اعترف ابن الخطّاب ذاكرًا «القضية» فقال: «لقد دخلني أمر عظيم وراجعت النبي [...] مُراجَعَةً ما راجعته مثلها قطّ»[2]. بل إن مَنْ كان ليصبح ثاني الخلفاء الراشدين، قال في نفسه يومها: «لو كان مائة رجل على مثل رأيي ما دخلنا فيه أبدًا»[3].

وإذ وقف عند رأس صديقه المحتضِر، عاود عمر ما ندِم عليه في السابق، مشكّكًا مرة أخرى بقدرة الرسول على الاستبصار لاعتباره أنه بات عاجزًا عن إملاء هذا النص (أي الوصيّة) الذي أراد له أن يكون، بحسب الكلمات الصادرة عن محمّد هو نفسه، «كتابًا لا يَضَلّ المسلمون ولا يُضَلّوا من بعده أبدًا». ظنّ عمر أنّ الرسول يهذي وأنّ القرآنَ يكفي: «وعندكم القرآن، حَسْبنا كتابُ الله». لكن ألم يكن ابن الخطّاب يعلم أنّ القرآن بذاته يقول إن كل «ما ينطِق» به محمّد «وَحْيٌ يُوحَى» من الله[4]؟ يبدو واضحًا إذن أن عمرًا، في تلك اللحظة الحرجة من التاريخ، برز كقوّة صاعدة ساهمت مساهمة كبيرة، بما اعتمدته من منهجيّات غلب فيها العَضَل على العقل، وطغى عليها طبع عاصف نزِق، في مبايعة أبي بكر خليفةً.

---

(1) الواقدي، كتاب المغازي، ٦٠٨/٢. وانظر أيضًا: ابن هشام، السّيرة النبوية، ٣١٦/٢ - ٣١٧؛ ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٤٩/٢٥؛ صحيح البخاري، ٩٧٤/٢، ١٨٣٢/٤؛ صحيح مسلم، ١٧٥/٥؛ النّسائي، سُنَن، ٢٦٢/١٠؛ الطّبراني، المعجم الكبير، ٩/٢٠؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٣٣٤/٣؛ المُتّقي، كَنْز العمّال، ٤٩٤/١٠.

(2) ابن حَجَر، فتح الباري، ٣٤٦/٥. ونستنتج مما كتبه أنّ عمرًا كان معتادًا على معارضة الرسول!

(3) الواقدي، كتاب المغازي، ٦٠٦/٢ - ٦٠٧.

(4) ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [٥٣ - سورة النّجم، الآيتان: ٣ - ٤].

إن الوصف المقتضَب للنزاع الذي نشب في جوار الرسول المحتضِر، والذي لم يفصح أيّ من المخبرين عن موضوعه بدقّة، يلفِتنا إلى طابعه المثير للشُّبُهات. فابن حَنْبَل وابن سعد استخدما فعلاً معبِّرًا عن المدى الذي بلغه هذا النزاع في تكدير محمّد، فكتبا كلّ في مصنّفه: «غَمّوا رسول الله»[(١)]. فما كان موضوع «اللغط والاختلاف»[(*)]؟ مما لا شك فيه أن بعضهم أراد أن يكتبَ الرسول لهم، فيما لم يكن لآخرين مصلحة في أن يُطْلِع محمّد إخوانه في الدين على رغباته الأخيرة. وهذا أمر، التزمت كتب التراث الإسلامي في شأنه، بصمت مدوّ.

مع ذلك، احتدم الجدال حول سرير المحتضِر واستمرت الأصوات بالارتفاع لدرجة اضطر معها محمّد، المستيقِظ توًّا من غشيَته، إلى تذكير الجميع بأنّه «لا ينبغي عند نبيّ أن ينازَع»[(٢)]. لكن ألم يكن الصحابة يعلمون أن القرآن يَنْهى عن رفع الصوت في حضرة الرسول[(٣)]؟ وإذ ألمّ به غضب شديد، ضاق محمّد ذَرْعًا بالواقفين فوق رأسه، فطردهم جميعًا قائلاً: «قوموا عني»[(٤)].

---

(١) ابن حَنْبل، مُسْنَد، ١٣٥/٥؛ انظر أيضًا: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٤٤/٢.

(*) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٤٤/٢.

(٢) الطَّبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢٢٨/٢ - ٢٢٩؛ انظر أيضًا: صحيح البخاري، ١/ ٥٤. ثَمّة روايات أخرى تستعيد هذه الجملة ضمنًا ولا تعزوها إلى الرسول مباشرة (انظرها في كل من: ابن حَنْبل، مُسْنَد، ٤٠٩/٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/ ٢٤٢؛ صحيح البخاري، ١١١١/٣؛ النَّسائي، سُنَن، ٣٦٧/٥). وفي هذا السياق، نجدنا أمام «تصرّفات» بالنصّ أجازها لأنفسهم محرّرو السنّة الذين يصعب على القارئ التمييز فيما دوّنوه، بين حديث الرسول وبين رواية المسنِد، وتعليق المؤلِّف.

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ولاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ [٤٩ - سورة الحُجُرات، الآية: ٢].

(٤) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ١٣٥/٥؛ انظر أيضًا: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٤٤/٢؛ =

أما البُخاري، فنقل رواية تنبئ بوضوح عن سخط الرسول أمام لَغْوِ صحابته واختلافهم، فقال لهم قبل أن يطردَ جمعَهم: «دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه»[1]! وثَمّة روايات وصفت خاتمة مختلفة بعض الشيء عما سبقنا إليه لحادثة الوصيّة: فبعد تفجّر النزاع، سأل أحدهم الرسول: «ألا نأتيك بما طلبت؟ قال [وقد اعتصر اليأس قلبه]: أَو بعد ماذا؟»[2].

في الرواية الشيعِيّة لرَزِيّة الخميس، زعْمٌ أن الرسول قال لصحابته بينما كانوا يهُمّون بالخروج من حجرته: «إني أراكم تخالفوني وأنا حيّ، فكيف بعد موتي[3]؟ وأضاف: «لكني أوصيكم بأهل بيتي خيرًا»؛ ثم أدار وجهه عنهم ممتنعًا عن توجيه الكلام إلى أيّ كان. ذهب الجميع ولم يَبْقَ في جوار الرسول إلا المقرّبون: عمّه العبّاس وابنا عمومته، عليّ والفضل، فقال له العباس: «يا رسول الله، إن يكن هذا الأمر فينا مستَقِرًا بعدك فبَشِّرنا، وإن كنت تعلم أنا نُغْلَب عليه فأَوْصِ بنا». أجابه محمّد: «أنتم المستضعفون من بعدي»[4]. وثَمّة رواية مماثلة موجودة في المصنّفات السنيّة، وفيها: بينما كانت أمّ الفضل جالسة تبكي في جواره،

= صحيح البخاري، ١/٥٤، ٤/١٦١٢، ٥/٢١٤٦، ٦/٢٦٨٠؛ النّسائي، سُنَن، ٥/٣٦٦؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤/٤٥١.

(١) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣/٤٠٩، ٥/١٣٥؛ انظر أيضًا: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/٢٤٢، ٢/٢٤٤؛ صحيح البخاري، ١/٥٤، ٣/١١١١، ٤/١٦١٢، ٥/٢١٤٦، ٦/٢٦٨٠؛ النّسائي، سُنَن، ٥/٣٦٦ - ٣٦٧؛ الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٢٨ - ٢٢٩؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤/٤٥١.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/٢٤٢.

(٣) كتاب سليم، ١/٣٢٤.

(٤) الشيخ المفيد، الإرشاد، ١/١٨٤ - ١٨٥؛ انظر أيضًا: المجلسي، بحار الأنوار، ٢٢/٣٦٨.

سألها الرسول المريض «فقال: «ما يبكيك؟ قلت: «أخشى عليك ولا أدري ما نلقى من الناس بعدك؟» فقال: «أنتم المستضعفون»»[1].

ومن ناحية أخرى، ثَمّة أحاديث نادرة تعود سلسلةُ مُسْنِديها إلى عائشة، التي لم تكن تعتمد حيادًا كليًا، تؤكد أن الرسول، في أثناء مرضه الأخير، طلب من محظيّته أن تستدعيَ أباها أبا بكر وأخاها عبد الرحمن، قائلًا لها: «ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا فإني أخاف أن يتمنّى مُتَمَنٍّ ويقول قائل أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[2]. فقرّر محمّد إذن أن يُملي هذه الوصية خدمة لصالح أبي بكر، ولكنه ما لبث أن عدل عمّا طلب، قائلًا إن الأمر غير ذي جدوى إذ «أبى الله والمؤمنون أن يُخْتَلَفَ على أبي بكر»[3]. ومع ذلك، لم يكن الأمر على هذا الشكل، وفرض أبو بكر سلطته كخليفة في حمّام من الدمّ.

ثَمّة مصادر سنيّة أعطت عن فصل الوصيّة رواية مثيرة للعجب، يلعب فيها عليّ الدور الرئيس[4]، وقد روى قائلًا:

إنّ رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، لما ثَقِل قال: يا عليّ ائتني بطَبَقٍ[5] أكتب فيه ما لا تَضلّ أمّتي بعدي، قال: فخشيتُ أن تسبقني نفسه فقلت إنّي أحفظ ذراعًا من الصحيفة» [...]

(١) البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٢٤/٢.

(٢) **صحيح مسلم**، ١١٠/٧؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٨٠/٣؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٥٠/٤٢؛ النَّسائي، **سُنَن**، ٣٨٢/٦؛ النَّسائي، **كتاب الوفاة**، ٢٦؛ المُتّقي، **كَنز العمّال**، ٥٤٦/١١.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٨٠/٣؛ انظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/ ٢٠٩ - ٢١٠؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٤٨/٥.

(٤) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤٧٣/٤.

(٥) تفيد هذه اللفظة بعظمة غُضروفيّة مسطّحة كانت تستخدم مَسْنَدًا للكتابة.

فكان رأسه بين ذراعي وعَضُدي فجعل يوصي بالصّلاة والزّكاة وما ملكَتْ أيمانكم [...] حتى فاضت نفسه[١].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرواية كثيرة الشبه ببعض الروايات الشيعيّة[٢].

وفي السياق نفسه، تتوقف المصادر الإسلاميّة، السنيّة منها كما الشيعيّة، عند وثيقة غامضة احتفظ بها عليّ وكان الرسول قد عَهَد له بها؛ أفتكون الوصيّة التي أراد إملاءها؟ كانت في حوزة عليٍّ صحيفة يعلّقها بسيفه: «خَطَبَنَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللّه عَنْه عَلَى مِنْبَرٍ مِنْ آجُرٍّ وَعَلَيْهِ سَيْفٌ فِيهِ صَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ فَقَالَ: وَاللّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ يُقْرَأُ إلا كِتَابُ اللّهِ وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ». وفي يوم سُئل عليّ:

هَلْ عِنْدَكُمْ [وَالمقصود هنا بلا شك آل البيت] مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْءٌ بَعْدَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: لاَ وَالَّذِي فَلَقَ

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٣/٢.

(٢) في **كتاب سليم** (٣٩٨/١) استذكار للوصية وللغضب الذي ألمّ بالرسول حِيال «هذا الرجل» (المقصود به عمر) الذي يعارضه ويناوئه، فيمنعه من إملاء رغباته الأخيرة. ويقول سليم إن محمدًا، عقب هذه الحادثة، استدعى عليًا وفاطمة وولديهما الحسن والحُسين (والشهادة المذكورة شهادة سلمان الفارسي)؛ قال الرسول متوجّهًا إلى عليّ: «أتاني جبرئيل قبل فأخبرني أنه سامري هذه الأمة وأن صاحبه عجلها، وأن الله قد قضى الفرقة والاختلاف على أُمتي من بعدي، فأمرني أن أكتب ذلك الكتاب الذي أردت أن أكتبه في الكتف لك وأشهد هؤلاء الثلاثة عليه، ادع لي بصحيفة». أما الشهود فهم: سلمان الفارسي وأبو ذر والمقداد الحاضرون الموقف بطلب من الرسول؛ عند ذاك أملى محمّد أسماء الأئمة الاثني عشر، ثم قال: «إني أشهدكم أن أخي ووزيري ووارثي وخليفتي في أمتي عليّ بن أبي طالب، ثم الحسن ثم الحسين ثم من بعدهم تسعة من ولد الحسين». وكان عليّ يكتب الكلام بإملاء من الرسول.

الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِلا فَهْمٌ يُؤْتِيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَجُلاً فِي الْقُرْآنِ، أَوْ مَا فِي الصَّحِيفَةِ(١).

وكان عليّ يحتفظ بهذه الوثيقة بحرص شديد قائلاً فيها إنّ مَنْ يضيف إليها كلمة واحدة، تُنْزَل به لعنة أبديّة: «مَن أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعليه لَعْنَةُ اللَّهِ والمَلاَئِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٢). فما الذي تحتويه هذه الصحيفة يا تُرى؟ الروايات في شأنها كثيرة: قيل إنها تنطوي على الفرائض والصّدقة(٣) وعلى كل أنواع الوصايا المتعلّقة بالقصاص وبأماكن الإسلام المقدّسة(٤).

بالنسبة إلى الشيعة، كانت الوثيقة في قراب سيف الرسول أولاً(٥)، ثم عَثَرَ عليها عليّ عند وفاته واحتفظ بها(٦). وبحسب عائشة، عُثِرَ على صحيفتَيْن أُخريَيْن مخبّأتَيْن في غمد سيف زوجها حيث قالت: «وُجِدَ فِي قَائِمِ سَيْفِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابَانِ»(٧)، فورثهما عليّ بلا شك يوم استلم ذي الفقار، السيف الشهير الذي أورثه إيّاه محمّد(٨).

---

(١) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٦/٢؛ انظر أيضًا: صحيح البُخاري، ١١٦٠/٣، ٥٣/١؛ أبو داود، سُنَن، ١٦٦/٢؛ ابن ماجة، سُنَن، ٨٨٧/٢؛ النّسائي، سُنَن، ٣٩٢/٨؛ البَيْهقي، سُنَن، ٤١٩/٩.

(٢) ابن أبي شَيْبَة، مصنّف، ٢٩٥/٧؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٥١/٢؛ صحيح مسلم، ١١٥/٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧٢/٥.

(٣) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٢٦٩/٢.

(٤) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٢٦٥/٢، ٢٦٧/٢، ٤٣٢/٢ - ٤٣٣؛ انظر أيضًا: صحيح مسلم، ٣٩٢/٨؛ ابن حِبّان، صحيح، ٥٧٠/١٤؛ الدارقطني، سُنَن، ١٣١/٣؛ الحاكم النيسابوري، مُسْتَدْرَك، ١٥٣/٢؛ البيهقي، سُنَن، ٤١٩/٩؛ المُتقي، كَنز العمّال، ١/ ٩٢.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ١٣٠/٧٤.

(٦) عينه، ٦٤/٢٧.

(٧) البيهقي، سُنَن، ٤٩/٨.

(٨) المجلسي، بحار الأنوار، ٣٧٣/١٠١.

نرى مرة أخرى أن السنّة والشيعة يتفقون في تقديم عليٍّ بوصفه المؤتَمن على آخر رغبات الرسول. ومما يثير العجب، أن بعض المصادر السنيّة تقول، نقلاً عن ابن عبّاس، إنّ «النبي صلى الله عليه وسلم عهد إلى علي سبعين عهدًا لم يعهدها إلى غيره»[1].

إن تقارب الروايات الصادرة عن الفريقَيْن المتخاصمَيْن يعزّز فرضيّة أن هذه الصحيفة الغامضة يمكن اعتبارها وصية للنبيّ أو كنظير للوح الشرائع المدوّنة عليه وصايا الرسول. وتجدر الإشارة إلى وجود تقاطع آخر بين السنّة والشيعة، بخصوص الأحكام الواردة في هذه الصحيفة. ومن الواضح أنه ليس لدينا اليوم أي أثر لهذه الوثيقة على الإطلاق، ولا يوجد أي مصدر من المصادر الإسلاميّة يذكر ما حدث لهذا النصّ الثمين أو يسرد للظروف التي أحاطت باختفائه.

وكما لو أنها كانت تسعى إلى مَلْء الفراغ غير المحدود الذي تركته وصية محمّد غير المكتوبة وتلك الوثيقة الصغيرة المحيّرة التي دسَّها في غمد سيفه، تنسب مؤلّفات التراث الإسلامي إلى الرسول، وصايا شفويّة من كل شكل ولون، علمًا أن الموضوعات التي تتردّد كثيرًا، هي على التوالي: المثابرة على الصلاة، والعناية الواجبة بآل بيته، وحسن معاملة النساء والأنصار والعبيد - وقد أعتق بالفعل عددًا كبيرًا منهم قبل وفاته[2] -؛ كما دعا إلى منح الوفود الحقوق نفسها التي منحها إيّاها في حياته[3]. ولقد شدّد الرسول بشكل خاص على الالتزام بالصلاة والمواظبة على

---

(1) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٣٩١/٤٢.

(2) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٦٥٠/٢. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٥٠/٢ - ٢٥٣.

(3) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٤٠٩/٣. وانظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ١١١١/٣؛ أبو داود، **سُنَن**، ١٢٨/٣.

إقامتها(*)، وعلى وجوب الإحسان إلى الرقيق من النساء، قائلاً: «الصلاةَ الصلاةَ وما ملكت أيْمانكم! أَلبِسوا ظهورهم وأشبِعوا بطونهم وألينوا لهم القول»(**)، وتلك وصيّة «جعل [...] يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه»[١]، أي أنه كان يردّدها كما لو أنها دعاء. وتنسب إلى الرسول ثلاث وصايا إضافية نطق بها قبل وفاته مباشرة، وهي: توزيع غنائم خَيْبَر على ثلاثة قبائل، وإنفاذ بَعْث أُسامَةَ، والحرص على ألا «يُترك بجزيرة العرب دينان»[٢]. بل إن الرسول ذهب حدّ الأمر بمقاتلة اليهود والنّصارى وطردهم من «أرض العرب»، قائلاً: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يَبْقَيَّن دينان بأرض العرب»[٣].

يبدو واضحًا أن محمّدًا لم يكن مهتمًّا بتوسّع الدّين الإسلامي إلى بقية العالم[٤]، ذلك أنه، وحتى خلال احتضار رسوله، فرض الإسلام نفسه كدين عِرقي لدرجة يبدو معها كلٌّ من العروبة والإسلام اليوم كأنهما انصهرا في وحدة لا تنفصم عُراها.

(*) إضافة من المترجمة ضَنًّا بوضوح المعنى.

(**) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٥٤.

(١) ابن ماجة، **سُنَن**، ١/٥١٩؛ ٢/٩٠٠ - ٩٠١؛ انظر أيضًا: النّسائي، **كتاب الوفاة**، ١/٤٥؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤/٤٧٢ - ٤٧٣.

(٢) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٢/٦٦٥. وانظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٤٣/٢٧١؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٥٤؛ السُّهَيلي، **الرَّوْض الأُنُف**، ٧/٦٠٠؛ الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٢/٣٤٦؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٥٨؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤/٤٧١.

(٣) المُتّقي، **كَنْز العمّال**، ٤/٣٨٢.

(٤) إنّ القرآن نفسه يشدّد جدًا (تحديدًا ثماني مرات) على عروبة النص المقدّس. وفي هذا السياق، كل شيء يدعو إلى الاعتقاد أن الأمر لا يتعلّق فحسب بالعروبة اللغوية بل وبالعروبة الإقليميّة.

كما أن الوصايا الأخيرة المتفرّقة المنسوبة إلى النبيّ مليئة بالشتائم ضدّ اليهود الذين كان يرى فيهم ألدّ أعدائه: وقد لعنهم على وجه الخصوص مع المسيحيّين في بعض الروايات[١]، لأنهم حوّلوا قبور أنبيائهم إلى أماكن للصلاة[٢]. وعلى الرغم من ذلك، ويا للعجب، لم يمنع كلام الرسول المسلمين من تحويل قبر رسولهم إلى مسجد!

ثَمَّة رواية توردها المصادر الإسلاميّة، جديرة بالتأمل، وفيها يقول ابن عمّ محمّد، ابن عبّاس، إن الرسول أعطى شفاهة ثلاث وصايا؛ غير أنّه لم يحدّد إلا اثنتَيْن منهما فيما نسي الثالثة (أو لعله تظاهر بنسيانها) وهي، «أخْرِجوا المُشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوَفْد بنَحْوِ ممّا كنت أجيزهم، وسكت [يقول ابن عبّاس] عن الثالثة فلا أدري قالها فنسيتُها أو سكت عنها عَمْدًا»[٣]. وفي روايات أكثر لُبْسًا، لا ندري ما إذا كان ابن عبّاس هو الذي نسي الوصيّة الثالثة، أو إذا كان ناقل الرواية - وهو في هذه الحالة سعيد بن جبير - أراد أن يتكتّم على الخبر[٤]. ومع

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٤٠، ٢/٢٥٤؛ انظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ١/ ١٦٨؛ **صحيح مسلم**، ٢/٦٧؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٥٦؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤/٤٧١؛ المُتقي، **كَنْز العمّال**، ٨/١٩٥، ٧/١٤٧.

(٢) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٢/٦٦٥؛ انظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ١/١٦٥؛ **صحيح مسلم**، ٢/٦٧؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/٢٢٣؛ النّسائي، **سُنَن**، ٦/٣٨٥؛ الطُّبراني، **المعجم الكبير**، ١/١٦٤. إن هذه اللعنة أكثر عموميّة في بعض الروايات؛ انظرها في كلّ من: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣/٢٢١؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٤٠ - ٢٤١؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/٢٢٣؛ المُتقي، **كَنْز العمّال**، ٤/٣٨٢.

(٣) توجد هذه الرواية في العديد من المصادر الإسلاميّة ومنها: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣/ ٤٠٩؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٤٢؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٣/١١١١، ٣/١١٥٥؛ الطَّبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/٢٢٨ - ٢٢٩؛ البيهقي، **دلائل النبوّة**، ٧/١٨٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٤٧.

(٤) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣/٤٠٩. وانظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ٣/١١٥٥، ٤/١٦١٢؛ أبو داود، **سُنَن**، ٣/١٢٨؛ البيهقي، **دلائل النبوّة**، ٧/١٨٢.

إبقائهم على شيء من الغموض في الصياغة، ثمّة مؤلّفون آخرون يشكّكون في صدق نيّة ابن عبّاس، ملمّحين إلى أن نسيانه كان مفتعلاً[1].

وإن اكتفينا هنا بالوصيَّتَيْن اللتَيْن نقلهما ابن عبّاس، يبدو واضحًا أن الوصايا التي كلّف بها الرسول، كانت ذات طبيعة سياسيّة؛ وبهذا فإن كل شيء يدعو إلى الاعتقاد أنّ الوصيّة المنسيّة هي من الطبيعة نفسها. وبالنظر إلى أنّ ابن عبّاس هو، إلى جانب عائشة، المصدر الرئيسي الذي يُستشهد به في تفاصيل وفاة محمد، فإن هذا النسيان (أكان حقيقيًا أم مصطنعًا)، يلقي بظلاله على صحّة أقواله التي تصبح بالضرورة ضعيفة ومشوّشة، بسبب نسيانه المتقطّع. إن سَهْو ابن عبّاس عن خبر بهذه الأهميّة الجوهريّة، هو ضرب من ضروب «الفعل الناقص» (العبارة مستوحاة من علم النفس)، يحاكي فشل الرسول في إملاء وصيّته الأخيرة يوم رزيّة الخميس.

تثير حادثة الوصيّة المصادَرة الكثير من التساؤلات. إذ يسعنا الاعتقاد أنّه إن فكّر الرسول في كتابة رغباته الأخيرة، فلأنه لم يكن يثق بمَن حوله؛ فما من شيء كان يضمن له بأن آل بيته وصحابته سيَمْتَثلون لإرشاداته الشفويّة. فما الذي كانت ستتضمّنه هذه الوصيّة يا ترى؟ أكان الرسول ينوي تعيين خليفة له؟ في أية حال، يبدو من الواضح أن ما كان ينوي إملاءه، لا يلائم على الإطلاق نوايا صحابته، ولا سيما منهم عمر؛ إذ لا رغبة لديهم في أن يروا الرسول يملي وصيّة من شأنها أن تعطّل خططًا ومشاريع رُسمت بإتقان. ومن ناحية أخرى، هل كانوا يخشَوْن أن يعيّن الرسول عليًا خليفةً، مع أنه كان يبعده دائمًا عن شؤون

(١) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٤٠٩/٣. وانظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٤٢/٢؛ الطّبري، **تاريخ...**، ٢٢٨/٢ - ٢٢٩.

الأمّة؟ هل كتم الصحابة البيّنة المُفْصِحَة عن رغبات الرسول الأخيرة، غداة موته؟

يظهر التحقيق في حادثة الوصيّة أن ضعف محمّد بلغ حدًّا أضحى معه ضحيّة لنوع من الحَجْر الرمزي: إذ ما من أحد أراد تلبيةَ رغبة المحتضِر؛ هذا مع العلم أنّه «أجيز» للخليفة الأول أبي بكر، بعد سنتَيْن على وفاة الرسول، بإملاء وصيّته لحظة احتضاره (وكان عمر هو من دوّنها)؛ وبطبيعة الحال، لم يستطع عمر رفض الأمر قائلاً إن الخليفة الأول «يهجر»، لعلمه بأن أبا بكر كان على وشك أن يعيّنه خليفة له! وفي اللاحق من السنين، أتيح لعمر المحتضِر ما يكفي من وقت لإملاء رغباته الأخيرة، ولإعطاء تعليمات دقيقة بشأن خلافته، وللأمر بتشكيل مجلس شورى مكوّن من ستة رجال مكلّفين بانتخاب الخليفة الذي سيحلّ محلّه[1]. يتّضح لنا إذن أن الرسول لم يكن محظوظًا مثل خلفائه، بما أنه حُرم من تَرْك وصية!

وفي موقف يقارب السخرية والصفاقة، قال أبو بكر وعمر، عَقِب وفاة الرسول، أنه كان بودّهما لو أنه سمَّى خليفته بوضوح. بل إن أبا بكر أكّد هو نفسه على أنه، لو وُجدت وثيقة مكتوبة، لكان اتّبع الشخص الذي عيّنه محمّد اتباعًا أعمى، وخضع كالجمل المقيد و«خَزَمَ أنفه بخزامة»[2]. ومن جهته، قال عمر الشيء نفسه تقريبًا لحظة المبايعة العامة للخليفة الأول أبي بكر في المسجد: «قد كنت أرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدبّر أمرنا»[3]. كيف له أن يتلفّظ بهذه الجملة في حين كان هو مَن مَنَع الرسول من إملاء وصيّة «تدبير الأمور».

---

(1) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٣/٦١؛ انظر أيضًا: الطَّبري، **تاريخ...**، ٢/٥٨١.

(2) ابن سعد، عينه، ٢/٢٦٠؛ انظر أيضًا: ابن ماجة، **سُنَن**، ٢/٩٠٠؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٧٢.

(3) **صحيح البخاري**، ٦/٢٦٣٩؛ انظر أيضًا: ابن حِبّان، **صحيح**، ١٤/٥٨٧؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤/٤٩٢؛ المُتّقي، **كَنز العمّال**، ٧/٢٤٥.

ومع أنهم نقلوا هذه الفصول المحرجة، إلا أن مؤلّفي كتب التراث الإسلامي حاولوا أن يضيفوا إليها بعض الفوارق الدقيقة؛ فنحن نرى، على سبيل المثال، أبا بكر المحتضر يستحضر حادثة الوصيّة غير المكتوبة، ويعرب عن ندمه حِيال ما جرى، معترفًا بندمه على أنه لم يسأل الرسول مباشرة عن اسم الرجل الذي كان يرغب في تسميته خليفةً[1]؛ قال:

> وأما الثلاث التي وددْتُ أنّي سألت رسول الله صلّى الله عليه وسلم عنهن فوددتُ أني سألته فيمن هذا الأمر فلا ينازعه أهله، ووددتُ أني كنت سألته هل للأنصار في هذا الأمر سبب، ووددت أني سألته عن العمّة وبنت الأخ فإن في نفسي منهما حاجة[2].

أخيرًا، فإن حادثة وصيّة الرسول غير المكتوبة تدفع حتمًا إلى التفكير في الوضع الذي كانت عليه الكتابة إبّان فجر الإسلام. وهنا، لا بدّ من التعليق على أميَّة محمّد المزعومة. ذلك أن إقدام الرسول على طلب أدوات الكتابة أي «قطيفًا ودواة»، يثبت أنه كان معتادًا على تدوين كل شيء كتابة، علمًا أن لديه لهذه الغاية، كَتَبة من الصحابة. فما الذي منعه في تلك اللحظة من استدعاء أحدهم؟ إذ كما سبق لنا ورأينا في معاهدة الحُدَيبيّة، شوهد الرسول وهو يكتب بيده. ويكفي أن نتصفح أخبار الطّبري لندرك أن محمّدًا داوم على تحرير مراسلات دبلوماسيّة، وعلى تزويد القادة العسكريين الذين كان يؤمّرهم الحملات، بتوصيات كتابيّة.

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٧٠.

(٢) الهَيْثَمي، **مَجْمَع الزوائد**، ٥/٢٠٢ - ٢٠٣؛ وانظره أيضًا في: المسعودي، **مروج الذهب**، ١/٢٩٠؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٣٠/٤٢٢ - ٤٢٣؛ ابن أبي الحديد، **شرح النهج**، ٢/٤٧؛ الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٢/٣٦٤.

وفي بعض الأحاديث، نرى الرسول يشرح للمسلمين مسألة الأَجَل والأمل الفلسفيّة من خلال رسم شكل هندسي، مكوّن من مربّع وعدة خطوط، وهو نوع من الرمز التجريدي للوضع البشري:

خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ فِي وَسَطِ الخَطِّ خَطًّا وخَطَّ خَارِجًا مِنَ الخَطِّ خَطًّا وَحَوْلَ الَّذِي فِي الوَسَطِ خُطُوطًا فقال: «هَذَا ابْنُ آدَمَ وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ الإِنْسَانُ، وَهَذِهِ الخُطُوطُ عُرُوضُهُ إِنْ نَجَا مِنْ هَذَا يَنْهَشُهُ هَذَا، وَالخَطُّ الخارِجُ الأَمَلُ»[1].

فمن الغريب إذن ألاّ تصلنا وثيقة واحدة صادرة عن رجل كان يؤمن بوضوح بأهميّة الأثر المكتوب!

يمكن القول إنّ فكرة الوصيّة غير المكتوبة . المكبوتة إن أمكن لنا القول - وفكرة اختفاء الصحيفة التي كانت مخبّأة في غِمد سيف الرسول والتي آلت إلى عليّ، المترافقَيْن بفقدان بالإضافة إلى نسيان ابن عبّاس، كلها أعراض تكشِف العلاقة الجدليّة التي تربط الإسلام بالكتابة والذاكرة. وبما أنه لم تصلنا أيّة وثيقة تعود في تاريخها إلى بدايات الديانة الناشئة، فإن فكرة النص المفقود كما مسألة النسيان خلال الأيام الأخيرة للرسول، يعكِسان بجلاء حالة التأريخ الإسلامي هو نفسه الذي تشكّل حول الثقب الأسود الذي تركه النصّ الغائب. فبدلاً من إخفاء الفجوة، لا يفعل الصرح الضخم والمتأخر، الذي شيّدته المصادر الإسلاميّة، إلا إبراز تقاطيع هذا الفراغ «النَّجْميّ»، الذي تركته نصوص لا يمكن العثور عليها، وخلّفته غفلات الذاكرة. وإذ تعلّقت بسلاسل الإسناد المتلاشيّة كحبال الدّخان - لكنها مع ذلك مقاومة وصلبة -، تبدو المصادر

(1) التّرمذي، سُنَن، ٦٣٥/٤؛ وانظره أيضًا في: الدارمي، سُنَن، ٣٩٣/٢.

الإسلاميّة كما لو أنها بلا وزن متحديّة قانون الجاذبيّة، معلّقة في الفراغ، مثل «تابوت محمّد الطّافي»(١). ومن هذا «التوازن غير المستقر»، نراها تستمدّ قوّتها وكذلك «خفّتها التي لا تُحْتَمَل»(٢)...

---

(١) على مدى قرون، كانت الصورة الرمزيّة لـ «التابوت الطّافي»، تغذّي التمثّلات الغربيّة لقبر محمّد؛ حتى إن هناك مثلاً مَجَريًا يقول: «يَطْفو بين أرض وسماء كتابوت محمّد». وبناء على ما يذكّرنا به إيتان كولبرغ (Etan Kohlberg)، نجد قصّة تابوت محمّد الطّافي في أول عمل أدبي بالفرنسيّة خُصّص لمحمّد وعنوانه: رواية محمّد (Roman de Mehomet)، لصاحبه ألِكساندر دو بون (Alexandre du Pont)، والذي صدر في العام ١٢٥٨. وفي هذا الكتاب، يتحدّث المؤلّف عن تابوت النبي الفولاذي الذي يقال إنه ظل معلّقًا في الهواء بفضل أحجار مغناطيسيّة مصفوفة بطريقة بارعة. (انظر: إيتان كولبرغ، روايات غربيّة حول موت النبي محمّد:
Etan Kohlberg, "Western Accounts of the Death of the Prophet, Muhammad", in Mohammad-Ali Amir-Moezzi et John Scheid (dir.), *L'Orient dans l'histoire religieuse de l'Europe. L'invention des origines*, Turnhout-Paris, Bibliothèque de l'École des hautes études, Sciences religieuses, 110, 2000, pp. 165-195).
ويُقال إن المسلمين أرادوا تمرير هذه الحيلة الماهرة على أنها معجزة فيما اعتبره الغربيّون نتاج السحر الأسود، لاعتقادهم أن هناك شيئًا شيطانيًا في انعدام الجاذبيّة. انظر: ألكساندر إيكهارت، «تابوت محمّد الطّافي» Alexandre Eckhardt, "Le cercueil flottant de Mahomet", in *Mélanges de philologie romane et de littérature médiévale offerts à Ernest Hoepffner*, Publications de la faculté des lettres de l'université de Strasbourg 113, Paris, Les Belles Lettres, 1949).

(٢) إن هذه العبارة مستوحاة من عنوان أعطاه الكاتب والفيلسوف الفرنسي، ميلان كونديرا (١٩٢٩ - ٢٠٢٣) لروايته كائن لا تُحْتمل خِفّته، ترجمة ماري طوق، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١:
Milan Kundera, *L'insoutenable légèreté de l'être*, traduit par François Kérel, Paris, Gallimard, 1984.

الفصل الثالث عشر

مَنْ ذا الذي ناب عن الرسول في المسجد؟

في غياب وثيقة كتبها الرسول أو أملاها، وبغرض تقديم الخليفة الأول بوصفه شخصيّة توافقيّة، بات من الشائع اليوم أن يكون محمّد قد سمّى أبا بكر خليفةً بطريقة غير مباشرة، عندما عهد إليه بإمامة الصلاة نيابة عنه. غير أن قراءة الرّوايات المختلفة المتعلّقة بهذا التوكيل، تظهر أن الأمور كانت أقل بساطة مما نعتقد. إذ ثمّة روايات متباينة في صُلْب الكتب السّنيّة الموالية مع ذلك للخليفة الأول، أدخلت تشويشًا على هذا التمثّل الملطّف والسلس للأشياء. في الواقع، لا وجود لأي إجماع لدى رواة السُّنة بخصوص تكليف الرسول أبا بكر بإمامة الصلاة نيابة عنه.

من المؤكّد أن الرسول درج على إناطة مهامه بغيره؛ إذ كان يسمّي على الدوام «ممثّلين بدلاً عنه» من بين عمّاله، ومعاونيه، وقادته العسكريّين، موكِلاً إليهم أحيانًا مَهامًا في غاية الأهميّة[1]. وعندما يغيب في غزوة ما، كان معتادًا على تفويض أمرائه بانتظام الحلول محله[2]؛

---

(١) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٢/٦٠٠؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/١٨٩ - ١٩٣.

(٢) في رواية كل غزوة من غزوات الرسول، يزوّدنا المؤلّفون العرب على سبيل المثال، باسم الرجل الذي سمّاه للنيابة عنه في المدينة أثناء غيابه عنها. ومن الأسماء الواردة في غالب الأحيان، اسم كل من: سِباع بن عُرْفُطَة الغِفاري، وأبي دُجانة السّعديّ، وسعد=

نذكر في هذا الصدد خصوصًا ابن أُمّ مكتوم الذي استعمله الرسول على المدينة اثنتي عشرة مرة أقلّه؛ مع ذلك، فإن النسيان طوى تدريجًا اسم هذا الصّحابيّ الضرير[1] الذي كان يحظى بثقة الرسول الكبيرة... ولقد احتجب اسم ابن أُمّ مكتوم وراء أسماء الصحابة الذين أصبحوا خلفاء فيما بعد. وتجدر الإشارة إلى أن الرسول لم يستعمل أحدًا منهم على المدينة، حين كان يغيب، ولا حتى ليوم واحد.

فعلى سبيل المثال، لم يكلّف محمّد أبا بكر يومًا بنيابته عندما كان يغادر المدينة. صحيح أنه أوكل إليه في بعض الأحيان مهامًا دقيقة، مثل ترأس حَجَّة العام التاسع من الهجرة، ولكنه أرسل في أعقابه عليًا عاهدًا إليه بقراءة آيات من براءة[2]؛ ولقد هدف هذا القرار بلا شك إلى مراقبة أبي بكر وإلى التخفيف من السلطة التي أمكن لهذه البعثة مدّه بها. وقبل مَرْضَة الرسول بزمن، أَمَّ أبو بكر الصلاة نيابة عنه:

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ فَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَجَاءَ بِلاَلٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ الصَّلاَةَ قَدْ حَانَتْ، وَحُبِسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَؤُمُّ النَّاسَ؟ قَالَ: إِنْ شِئْتَ، فَأَقَامَ بِلاَلٌ الصَّلاَةَ، فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَ النَّاسُ فِي

=بن مُعاد، وأبي سَلَمَة بن عبد الأسد، وأبي لبادَة بن عبد المنذر، ونُمَيْلَة بن عبد الله اللَّيثي، بل والضرير ابن أُمّ مكتوم أيضًا.

(١) إنّ ابن أُمّ مكتوم ابن خالة خديجة، زوجة محمّد الأولى. ولقد ألمح القرآن إلى أنّ الرسول لم يحسِن في يوم من الأيام وفادة هذا الرجل، لانشغاله بالنقاش مع قريشيّ مَيْسور، فأنزل الله سورة لام فيها محمّدًا على تصرّفه المحقّر حِيال الضرير: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ (سورة عَبَس، وترتيبها في القرآن ٨٠، الآيتَيْن ١ و٢). ومُذ كشِفَت هاتان الآيتان، أصبح ابن أم مكتوم مقرّبًا جدًا من محمّد.

(٢) انظر الفصل الرابع من كتابنا هذا.

التَّصْفِيح، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لاَ يَلْتَفِتُ فِي صَلاَتِهِ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ الْتَفَتَ، فَإِذَا بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّفِّ، فَأَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ رَجَعَ أَبُو بَكْرٍ الْقَهْقَرَى وَرَاءَهُ حَتَّى رَجَعَ فِي الصَّفِّ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ[١].

ويوم غَزوة تبوك، صلّى أبو بكر بالمسلمين، لكن عبد الرحمن بن عَوْف اضطلع بالمهمَّة نفسها أيام هذه الحملة العسكريّة التي كان - وهو ما نذكّر القارئ به - قد أجزل في تمويلها[٢]. وتقول لنا مصادر التراث الإسلامي:

كَانَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ يَقُول: كُنّا بَيْنَ الْحِجْرِ وَتَبُوكَ فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ، وَكَانَ إِذَا ذَهَبَ أَبْعَدَ، وَتَبِعْته بِمَاءٍ بَعْدَ الْفَجْرِ، فَأَسْفَرَ النَاسُ بِصَلاَتِهِمْ - وَهِيَ صَلاَةُ الصّبْحِ - حَتّى خافوا الشمس، فقدّموا عَبْدَ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَصَلّى بِهِمْ. فَحَمَلْت مَعَ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِدَاوَةً فِيهَا مَاءٌ، فَلَمّا فَرَغَ صَبَبْت عَلَيْهِ فَغَسَلَ وَجْهَهُ. ثم أراد أن يَغسِل ذِراعَيْه فضاق كُمُ الجُبّة - وعليه جُبّة روميّة - فأخرج يدَيْه من تحت الجُبّة فغسلهما ومَسَح خفَّيْه. وَانْتَهَيْنَا إِلَى عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَقَدْ رَكَعَ بِالنّاسِ، فَسَبّحَ النّاسُ بِعَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ حِينَ رَأَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كَادُوا أَنْ يَفْتَتِنُوا، فَجَعَلَ عَبْدُ الرّحْمَنِ يُرِيدُ أَنْ يَنْكُصَ وَرَاءَهُ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ اُثْبُتْ، فَصَلّى رَسُولُ اللهِ صَلّى

---

(١) الطبراني، المعجم الكبير، ١٧٤/٦؛ انظر أيضًا: صحيح البخاري، ٤٠٢/١.
(٢) انظر الفصل الأول من كتابنا هذا.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَكْعَةً، فَلَمَّا سَلَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ تَوَاثَبَ النَّاسُ، وَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْضِي الرَّكْعَةَ الْبَاقِيَةَ، ثُمَّ سَلَّمَ بَعْدَ فَرَاغِهِ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتُمْ! إِنَّهُ لَمْ يُتَوَفَّ نَبِيٌّ حَتَّى يَؤُمَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنْ أُمَّتِهِ[1].

ومن المثير للعجب حقًا أن يقول الرسول هذه الكلمات في ابن عَوْف لا في أبي بكر، خليفة المستقبل!

إن التفويضات المختلفة التي كان الرسول يوكلها لغيره من المسلمين لم تمثّل إذن رهانًا معتَبرًا في نظر صحابته ما دام في صحّة جيّدة، وبخاصة أن محمّدًا كان ينتدب في كل مرّة شخصًا مختلفًا لإنجاز هذه المهمّة أو تلك نيابةً عنه. لكن، عندما أقعده المرض، بات اختياره لمن ينوبه قرارًا مصيريًا. ومع أنه وظّف آخر ما تبقّى له من قوى ليتِمَّ الصلاة بنفسه، إلا أن محمدًا عجز عن ذلك في الأيام الثلاثة الأخيرة السابقة لوفاته[2]. إذ ذاك، لم يعد يُنْظَر إلى إمامة الصلاة نيابة عن الرسول في لحظة احتضاره الحرجة بوصفها إبدالاً روتينيًا، بل بوصفها طريقًا معبّدة مؤدّية إلى الخلافة السياسيّة.

كان المسجد في زمن الرسول مركزًا تُمارس فيه السلطة بطريقة مُمَسرحَة تتميّز بسينوغرافيا خاصّة: فعندما كان الرسول يؤم المصلّين، كان بلال، الحامل بيده عَنَزَة(*)، يقف في جواره[3]. أما مَنْ كان يتولّى

---

(١) الواقدي، كتاب المغازي، ٣/١٠١١ - ١٠١٢.

(٢) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤/٥٠٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/٢٧٦. وفي السّيرة، يشرح ابن كثير كيف عجز الرسول عن الذهاب إلى المسجد طوال «ثلاثة أيام كوامل»، ويضيف أنّه قصد المسجد يوم الخميس، ساعة صلاة الظهر، وإن تلك كانت المرة الأخيرة التي خرج فيها للمؤمنين (ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤/٤٦٦).

(*) العَنَزَة أطول من العصا وأقصر من الرّمْح، في أسفلها زُجٌّ كزُجِّ الرّمح يَتَوكأ عليها الشيخ الكبير في السّن. (م.)

(٣) صحيح البُخاري، ١/٢٢٧؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/١٧٨.

وظيفة الإمامة (والإمام لفظ يعني حرفيًا «مَنْ يُقْتَدى به») فيحظى باعتراف ضمني بأن الخلافة ستكون من نصيبه[1]. هذا ما انتهى الجميع إلى إدراكه، الصحابة كما مؤلّفو كتب التراث الإسلامي. أما العلاقة بين إمامة الصلاة والأحقّيّة في الخلافة، فإنها كانت كذلك حُجّة استقوى بها عمر عندما حاول، في سقيفة بني ساعدة، إقناع الأنصار بشرعيّة أبي بكر[2]. وثمّة فِقرة من سنن ابن ماجَة تظهر أن لحظة انتداب أبي بكر لإمامة الصلاة كانت لحظة شديدة الأهميّة حملت الصحابة جميعهم على المشاركة فيها. وفي الفِقرة المحال إليها توًّا، روى ابن عبّاس، قال:

> لمّا مَرِضَ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَضَهُ الَّذِي ماتَ فِيهِ، كَانَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ»، فَقَالَ: «ادْعُوا لِي عَلِيًّا» قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللّهِ نَدْعُو لَكَ أَبَا بَكْرٍ؟ قال: «ادْعُوهُ» قَالَتْ حَفْصَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَدْعُو لَكَ عُمَرَ؟ قال: «ادْعُوهُ»، قَالَتْ أُمُّ الفَضْلِ: يَا رَسُولَ اللهِ نَدْعُو لَكَ العَبَّاسَ؟ قالَ: «نَعَمْ»، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا رَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ، فَنَظَرَ فَسَكَتَ، فَقَالَ عُمَرُ: قُومُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].

عندما نتفحّص مصادر التراث الإسلامي، نلاحظ أن الروايات المختلفة في شأن إمامة أبي بكر الصلاة مشوبَة باللُّبْس والتناقض، وعاكسة للشّجارات التي كان من الممكن لها أن تنشأ غداة وفاة الرسول.

---

(1) يقول البيهقي بوضوح إن الرسول لم يسمّ خليفة، بل أعطى مؤشرًا على خِياره عندما زوّد المؤمنين بإرشاداته في إمامة الصلاة (البيهقي، ودلائل النبوّة، ٢٢١/٧)؛ انظر أيضًا: البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٣١/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٩٦/٤ - ٤٩٧.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٧٩/٣.

(3) ابن ماجَة، سُنَن، ٣٩١/١.

وبما أنّه من الصعوبة بمكان إعداد مَسْرَد شامل وافٍ بكل هذه الروايات، فإننا سنذكُر هنا أكثرها تداولاً، متوقّفين تحديدًا عند واحدة منها فرضت نفسها في الأدبيّات السُّنيَّة على مَمَرّ القرون، ومفادها أن الرسول سمّى بوضوح أبا بكر لينوب عنه في إمامة الصلاة، علمًا أن هذا التكليف يسوّغ تلقائيًا ارتقاءه إلى منصب الخليفة. ولقد نقل العديد من المصنّفين أن الأخير «صلّى بهم [أي «بالناس»(*)] سبع عشرة صلاة»[1] «ثلاثة أيام»(**). وقد قيل أيضًا إن الرسول، ومذ دخل باب المسجد، أظهر رضى كبيرًا «وتبسّم فرحًا لمّا رأى من هيئتهم في صلاتهم»(***) بخشوع خَلْف أبي بكر.

وفيما يلي الرواية التي نقلها العديد من المصادر[2]، ومفادها أن الرسول أوكل، صبيحة رزيّة الخميس، أي يوم الجمعة، وقد كان يوم الصلاة الجامعة الأسبوعيّة، أبا بكر إمامة الصلاة نيابة عنه:

ثم إن النبي، صلى الله عليه وسلم، وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس وقال لهما: أجلساني إلى

(*) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٣١. (م.)

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/٢٢٣؛ انظر أيضًا: البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٢٢٨ - ٢٢٩؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٣١؛ البيهقي، دلائل، ٧/١٩٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤/٢٥٦. بل إن ابن كثير يقول في السيرة النبوية (٤/٤٦٦) «أن أبا بكر صلّى بهم [...] عشرين صلاة». ولقد ذهب مؤلّفون آخرون، كابن عساكر والبلاذُري، حدّ التأكيد على أن أبا بكر أَمَّ المصلّين طوال ثمانية أو تسعة أيام (انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/٢٢٨؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٠/٢٩٨).

(**) الطبري، تاريخ...، ٢/٢٣١. (م.)

(***) الطبري، عينه. (م.)

(٢) ابن حنبل، مسند، ٤٣/٦٠؛ ابن سعد، الطبقات...، ٢/٢١٨؛ ٣/١٨٠؛ صحيح البخاري، ١/٢٥١؛ ابن ماجة، سنن، ١/٣٩١؛ الطبري، تاريخ...، ٢/٢٣١.

جنبه، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فَلَمَّا دَنَا مِنْ أَبِي بَكْرٍ، تَأَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَنْ قُمْ فِي مَقَامِكَ، فَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَصَلَّى إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ جَالِسًا قَالَتْ: فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِصَلاةِ النَّبِيِّ، وَكَانَ النَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاةِ أَبِي بَكْرٍ[1].

إن هذا المشهدِ غنيّ بالمعاني: إذ، وعَقِب تسمية أبي بكر، ذهب الرسول بشخصه ليثبِّت إمامة صاحبه. ومن شأن الطريقة التي تموضعت فيها الشخصيّات - أي أبو بكر خلف الرسول والمسلمون خلف أبي بكر - أن تمدّنا بصورة الخلافة هي نفسها، الممثّلة في نوع من التداخل، يبدو فيه أبو بكر كوسيط بين محمّدٍ والأمّة. مع ذلك، يكفي أن نستعرض المؤلّفات السُّنيَّة الرئيسيّة لنتبيّن أن هذه الصورة المثالية أبعد ما تكون عن الإجماع. ذلك أنّها لا تلقى معارضة الشيعة فحسب، بل إننا نجد في صلب روايات السُّنة، تباينات أساسيّة. إذ يمكن للمؤلّف نفسه أن يذكر على التوالي روايتَيْن متناقضتَيْن تمامًا لهذا الفصل الحاسم في تاريخ الأمّة. وبحسب الروايات، نرى الرسول يسأل أبا بكر إمامة الصلاة نيابة عنه؛ وفي بعض الأحيان، يأخذ أبو بكر وحده المبادرة إلى الأمر؛ وفي روايات أخرى، يقوم الرسول بتنحية ابن أبي قُحافَة عن المصلّى في المسجد؛ وفي غيرها كذلك، يدعو محمّد أبا بكر لمواصلة الصلاة، بل إنه يصلّي خلفه؛ أخيرًا، ثمّة رواية أخرى محيّرة، تظهر الرسول لا يُعير الأمر أي اهتمام، بل ويمتنع عن إعطاء توصيات في هذا الصدد. ومن شأن التفحّص المتيقّظ والدقيق للروايات المتنوعة لهذا الفصل أن يتكشّف

---

(1) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢١٨؛ انظر أيضًا: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/ ٢٣٠.

عن وجود شخص أُبقي طَيّ الكتمان، ونعني به عمر الذي يسجل ظهوره إشكالاً حقيقيًا.

تنبع الروايات الأساسيّة المتعلّقة بهذا الفصل من مصدرَيْن مختلفَيْن، أحدهما ابن عباس، وثانيهما عائشة. أما الشخصيّات الرئيسيّة في هذه المشهد فهم أزواج الرسول، وعمّه العبّاس وأبناء عمومته (عليّ وعبد الله والفضل)، كما عمر وأبو بكر. وسنحاول في ما يلي من فصلنا هذا، أن نعرض الروايات الأساسيّة التي نقع عليها في المؤلّفات السّنيَّة واستبيان اللُبْس المحيط بهذا الحدث الرئيسي في احتضار محمّد، الذي لا تزال عواقبه تُرْجِع صداها حتى يومنا هذا.

في إحدى الروايات المثيرة للتساؤل نوعًا ما والعائدة إلى الطَّبري، طلب محمد من أبي بكر إمامة الصلاة ثم قصد المسجد و«جذب [...] ثوبه». وردت هذه الرواية على لسان عبد الله بن العبّاس الذي أخبر الأَرْقَم بن شُرَحبيل بما حدث؛ فسأل الأخير ابن عَمّ محمّد: «أوصى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ قال: لا»؛ ثم سأله الأَرْقَم: «فكيف كان ذلك؟ قال: قال رسول الله: ابعثوا إلى عليّ فادعوه، فقالت عائشة: لو بعَثت إلى أبي بكر! وقالت حفصة: لو بَعثت إلى عمر! فاجتمعوا عنده جميعًا، فقال رسول الله: انصرفوا، فإن تَكُ ليَ حاجة أبعث إليكم؛ فانصرفوا». عند ذاك، سأل رسول الله إن «آن الصلاة» وعندما أتاه الجواب إيجابًا قال: «فأمروا أبا بكر ليصلّي بالناس. فقالت عائشة: إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ، فَمُرْ عُمَرَ، فَقَالَ: مُرُوا عُمَرَ». غير أن ابن الخطّاب ردّ محتجًا: «ما كنت لأتقدّم وأبو بكر شاهد». إذ ذاك، تقدّم ابن أبي قُحافة باتجاه المِحراب. وفي غضون ذلك، «وجد الرسول خِفَّة» ليقصد المسجد، حيث تنبَّه أبو بكر إلى وصول صديقه فتراجع إلى الوراء، «فجذب رسول الله ثوبه، فأقامه مكانه، وقعد رسول الله، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر».

هذه الرواية شديدة الإرباك، وفيها استدعى الرسول الجميع ثم ما لبث أن تراجع، لنراه أخيرًا يذعن لاقتراح عائشة التي، وبطريقة مثيرة للعجب، لم تدعم ترشيح والدها مفضّلةً عمرَ عليه. وبعد أن أسدى أمره، قصد الرسول المجلس ليعطّل الصلاة التي كان أبو بكر يؤمّها. واللافت هو أن جَذْبَ محمّد لصاحبه من ثوبه، وحلوله في مكانه، يظهر أنه غيّر رأيه. إذ ذاك تطرح ملاحظة أخرى، تتمحور حول دور زوجتَيّ الرسول، عائشة وحفصة، في هذا الحدث: فعندما طلب محمّد استدعاء أبي بكر، سارعت المرأتان إلى الاقتراح عليه بالإرسال في طلب عمر. من الطبيعي أن يصدر الاقتراح عن حفصة بنت عمر، ولكن ما يثير عجبنا نوعًا ما هو ارتضاء عائشة له، التي على ما يبدو لم تنتصر لترشيح والدها، وذلك لأسباب سنتوقّف عندها في اللاحق من صفحات هذا الكتاب.

في الطبقات الكبرى، ينقل ابن سعد رواية مماثلة يبدو فيها أن أبا بكر هو الذي يفضّل رؤية عمر يَؤم الصلاة: يومذاك، كان المسلمون «عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، لصلاة العشاء الآخرة»، لكن الأخير كان منهك القِوى وعاجزًا عن الوقوف. «فأرسل [...] إلى أبي بكر بأن يصلّي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إنَّ رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يأمرك بأن تصلّي بالناس». يقول ابن سعد، وهو ما يثير الغرابة، إن الأخير «كان رجلًا رقيقًا»، فطلب من عمر تولّي الأمر بعنايته، ولكن عمر قال: «أنت أحقّ بذلك»[1].

---

(1) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢١٨. ليس موقف عمر إلا استنساخًا لموقف مشابه برز بعد أيام قليلة في سافقة بني ساعدة، حيث عمد أبو بكر إلى اقتراح ترشيح عمر للخلافة، فإذا بالأخير يسارع إلى التنازل له عنها وإلى مبايعته خليفة للمسلمين.

وفي روايات أخرى أكثر لَبْسًا عن الحدث نفسه، رفض الرسول اضطلاع عمر بإمامة الصلاة، مفضّلاً عليه صراحة أبا بكر. وفي مجريات الحدث أن محمّدًا طلب من عبد الله بن زَمعة بن الأسود[1] الدعوة إلى الصلاة، قائلاً له: «مروا مَنْ يصلي بالناس»، من دون أن يحدّد شخصًا معيّنًا بالاسم. عندما خرج ابن زَمعة، التقى عمرَ - «وكان أبو بكر غائبًا»، بحسب ما يشير إليه ابن هشام -، فقال له: «قُمْ يا عمر فصلِّ بالناس». وافق عمر، «فلما كبَّر»، تعرّف الرسول فورًا على صوته إذ كان «رجلاً مجْهَرًا»، لا يخفى صوته على أحد. فسأل المحيطين به: «أهذا عمر؟»، ثم أضاف: «لا! لا! لا! لِيصَلّ بهم ابن أبي قُحافة!». وفي رواية أخرى للحدث نفسه، قال الرسول: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون!» والمقصود أن الله يأبى أن يُصلّيَ عمر بالناس. عند ذاك، أُرسِل في طلب أبي بكر الذي أتى ليضطلع بإمامة الصلاة التالية. ومن جهته، قصد عمر عبد الله بن زَمعة لائمًا، قال: «ويحك، ماذا صنعت بي يا بن زمعة، والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت بالناس». وإذ ابتغى أن يشرح له ما حصل، أجابه بن زَمعة، قال: «والله ما أمرني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذلك، ولكني حين لم أرَ أبا بكر رأيتك أحقّ مَنْ حضر بالصلاة بالناس»[2].

نقل مصنّفو كتب التراث الإسلامي أيضًا عن الرسول أنه لمّا سمع صوت عمر، «أخرج رأسه حتى أطلعه للناس من حجرته [المجاورة

---

(١) إن عبد الله بن زمعة بن الأسود ابن أخت أم سَلَمَة، زوج الرسول.

(٢) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٥٢/٢ - ٦٥٣؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات**، ٢/ ٢٢٠؛ أبو داود، **سُنَن**، ٣٤٨/٤؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢٢٧/٢ - ٢٢٨؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٥٩/٤ - ٤٦٠؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٥٠/٥.

للمسجد]. فقال: «لا! لا! لا! لِيصَلّ بهم ابن أبي قُحافة!»[1]. ومن جهته، نقل البلاذري أن الرسول، وقد ألَمّ به الغضب لسماعه عمرَ يؤم الصلاة، كرّر ثلاث مرات: «لا، لا، لا، أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن أبي قحافة؟»[2]. وثمّة روايات أخرى وصفت ردّ الفعل الغاضب نفسه الذي صدر عن محمّد لمّا سمع صوت عمر في المسجد؛ فقال: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون!»[3]. ويلفِت الراوي في المناسبة نفسها إلى الاختلاف بين صوت عمر الجَهْوَري وصوت أبي بكر الخافت، كما لو أنه أراد التوكيد على تناقض طبعَيْهما: طبع أبي بكر الهادئ والرقيق، وطبع عمر القاسي والعنيف: «وكان أبو بكر رجلاً رقيقًا، وكان عمر رجلاً شديدًا»[4]. وفي النهاية، يؤكّد ابن سعد على أنه، وأمام معارضة الرسول لوجود عمر، توقفت الصلاة ولم تُسْتَكْمَل، إلا أنه عندما ظهر ابن أبي قحافة من جديد: قال [الرسول]: «مُروا أبا بكر يصلّي بالنّاس، فخرج من عنده يومًا لأمرٍ يأمر الناس يصلّون وابن أبي قُحافة غائب، فصلّى عمر بن الخطاب بالنّاس. فلما كبَّر قال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: لا لا! أين ابن أبي قحافة؟ قال فانتفضت الصّفوفُ وانصرف عمر، قال: فما برِحْنا حتّى طلع ابن أبي قُحافة، وكان بالسُّنْح، فتقدّم فصلّى بالنّاس»[5].

من جهة أخرى، نلاحظ أن الرسول لم يَخْتَر الرجل الذي أَمَّ

---

(1) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٥٢/٢؛ انظر أيضًا: ابن سعد، الطبقات...، ٢٢٠/٢؛ أبو داود، سُنَن، ٣٤٨/٤.

(2) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢٢٧/٢؛ انظر أيضًا: ابن سعد، عينه، ٢٢٢/٢.

(3) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٥٢/٦؛ انظر أيضًا: ابن سعد، عينه، ٢٢٠/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤٥٩/٤.

(4) ابن سعد، الطبقات...، ٤٣٦/١.

(5) ابن سعد، عينه، ٢٢٢/٢ - ٢٢٣.

المصلّين، بل إن اختياره أتى بمبادرة من ابن زَمْعَة الذي التقى عمرَ «صدفة»، لغياب أبي بكر على ما يبدو عن المدينة، وهو ما يشرح السبب الذي دعا الرسول إلى السؤال عن مكان تواجده. ويتوافق غياب ابن أبي قحافة وغيابه عن المدينة يوم وفاة محمّد لوجوده في مقرّ إقامته في السُنح[1]. لا تقول لنا هذه الرواية إذن إنَّ أبا بكر أَمَّ الصلاة، ولكنها تؤكّد، وهو أمر لا يُسْتَهان به، إن الرسول قاطع عمر ورفض كليًّا إمامته بالناس. وبطبيعة الحال، كان لرفض أبي القاسم ما يسوّغه في حادثة الوصيّة التي وقعت مساء اليوم السابق، والتي بلا شك أثارت حفيظة محمّد واستجرّت غضبه على عمر.

تكشِف هذه الرواية الواردة في العديد من مصادر السُنة عن عنصرَيْن لافتَيْن: فهي من جهة تؤكّد على غضب الرسول، وهو شعور أبداه مرّة تلو المرة خلال احتضاره، وتظهر من جهة أخرى أن لمحمّد موقف عدائي صريح ضدّ عمر. ففي **الطبقات الكبرى** لابن سعد، نقرأ أنه عندما أمر الرسول بسَدّ الأبواب المنفِذَة إلى المسجد باستثناء باب أبي بكر، قال له عمر: «يا رسول الله دَعْني أَفْتَح كُوَّةً أنظر إليك حين تخرج إلى الصلاة!» فردّ الرسول بنبرة جافة حاسمة: «لا!»[2].

وفي المؤلَّف المشار إليه توًّا، يروي ابن سعد نقلاً عن ابن عبّاس أن النبيّ قال لمّا «حضرت الصلاة»: «مُرُوا أبا بكر يصلّي بالناس». غير أن الأخير، ولحظة هَمّ بالوقوف في المصلّى مكان النبيّ، انهار باكيًا، فراح المصلّون من خلفه يبكون بدورهم لعجزهم عن تحمّل غياب رسولهم؛ عن ابن عبّاس: «اشتدّ بكاؤه وافتنّ واشتدّ بكاءُ مَن خلفه لِفقد نبيّهم».

(١) ابن عساكِر، تاريخ دمشق، ٢٦٨/٥.
(٢) ابن سعد، الطبقات...، ٢٢٨/٢. هذا مع العلم أن الرسول درج على القول: «إن الحقّ على لسان عُمَرَ وقَلْبِه» (عينه، ٣٣٥/٢). يبدو أنه غيّر رأيه فيه أواخر حياته.

فلما حَلّ موعد الصلاة التالية، حضر المؤذن إلى منزل الرسول، وقال: «قولوا للنبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، يأمر رجلاً يصلّي بالناس فإنّ أبا بكر قد افتنّ من البكاء والناس خلفه». فإذا بحفصة تقول: «مُروا عمر يصلّي بالناس»؛ ولنلاحظ هنا أنها هي من اتّخذت القرار بالنيابة عن الرسول. لكن عندما تناهى إلى مَسْمَع محمّد صوت عمر، سأل: «مَنْ هذا الذي أسمعُ تكبيره؟ فقال له أزواجه: عمر بن الخطّاب! وذكروا له أنّ المؤذّن جاء»؛ فقال لهن الرسول: «إنكن لَصواحِبَ يوسُفَ! قولوا لأبي بكر فليصلّ بالناس»؛ وينتهي ابن عبّاس مستنتجًا: «فلو لم يَسْتَخْلِفْهُ ما أطاع الناسُ»[1].

من شأن هذه الرواية تعلمنا بأن الرسول قد سمّى فعلاً أبا بكر؛ لكن الأخير، ولكونه رجلاً رقيقًا سريع التأثّر - وهو ما أقرّت به ابنته عائشة -، كان غير قادر على الاضطلاع بالمهمّة[2]: «عن حمزة بن عبد الله بن عمر قال: لما اشتدّ برسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وجعه قال: لِيصلّ بالناس أبو بكر؛ فقالت له عائشة: يا رسول الله إنّ أبا بكر رجل رقيق كثير البكاء حين يقرأ القرآن فمُرْ عمرَ فليصلّ بالنّاس»[*].

في الواقع، ثمّة العديد من الروايات جزم بأن عائشة هي التي طلبت من الرسول الإرسال بطلب عمر، عندما سمعته يقترح أبا بكر لإمامة الصلاة، مقصيّة بذلك أبيها بحجّة أن صوته بالكاد يُسْمَع، وبأنه ميّال إلى الإكثار من البكاء أثناء الصلاة بحيث يستحيل على الناس سماع أي شيء: «فقالت عائشة: فقلتُ لحَفْصَة قولي له إنّ أبا بكرٍ إذا قام مقامَك

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٢١/٢.

(٢) ابن سعد، عينه، ٢١٧/٢؛ ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٥٢/٢؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٢٢٩/٢ - ٢٣٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢٣٠/٢ - ٢٣١.

(*) إن الاقتباس من الطبقات...، ٢١٧/٢. (م.)

لم يسمع الناس من البكاء، فأْمُرْ عمر فليصلّ بالناس»[١]. وتذكّر عائشة الرسول بأنّ العبرات تخنُق أبا بكر في كل مرّة يقرأ القرآن فيها[٢]، بل ذهبت حدّ الطلب من حَفْصَة إقناع الرسول بإيكال المهمّة إلى عمر عوض أبي بكر[٣]. وإذ أذعنت حَفْصَة لطلب عائشة، اغتاظ الرسول من مناورات زوجاته التدليسيّة، فأنّبهُنّ ونعتَهُنّ قائلًا: «إنكنّ صواحِب يوسف». ولشعورها ربما بأن الفَخّ قد أطبق عليها، استدارت حفصة نحو عائشة قائلة لها: «ما كنت لأصيب منكِ خيرًا»[٤]، وهو ما يوحي بأن المرأتَيْن حاكتا خطّة أخفقت توًّا.

من شأن هذه الرواية أن تبيّن الدور الرئيسي لزوجَيّ الرسول، عائشة وحَفْصَة، إبّان هذه اللحظة الحاسمة. إذ نرى فيها مرّة حَفْصَة تتدخل وتسمّي أباها حتى بلا سؤال الرسول رأيه في الأمر، ومرّة عائشة توصي باعتماد ترشيح أبيها أو تحتجّ بحساسيّته المفرِطة فتدعم ترشيح عمر[٥].

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٨٠/٣؛ انظر أيضًا: ابن حنبل، **مسند**، ٦٠/٤٣؛ **صحيح البخاري**، ٢٥١/٢.

(٢) قالت عائشة: «قلت: يا نبيّ الله، إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت، كثير البكاء إذا قرأ القرآن». انظر هذا القول في: ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٦٥٢/٢.

(٣) ابن حَنْبَل، **مسند**، ٣٠٤/٣.

(٤) ابن سعد، **الطبقات...**، ١٨٠/٣؛ انظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ٢٦٦٣/٦.

(٥) **صحيح البخاري**، ٢٥١/١؛ **صحيح مسلم**، ٢٢/٢. وثمّة مقطع مربك في **الطبقات الكبرى** لابن سعد (٢٢٤/٢ - ٢٢٥)، تظهر فيه عائشة محتجّةً بحساسيّة أبيها المفرطة لا في شأن إمامة الصلاة، ولكن في معرِض استذكار الوصيّة التي كان الرسول يتحضر لإملائها: «عن ابن أبي مُليكة قال: قال النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، في مرضه الذي مات فيه: ادعو لي أبا بكر، فقالت عائشة: إن أبا بكر يَغلبه البكاءُ ولكن إن شئتَ دعونا لك ابن الخطاب، قال: ادعو أبا بكر، قالت: إنّ أبا بكر رجل يرقّ ولكن إن شئتَ دعونا لك ابن الخطّاب، فقال: إنكن صواحب يوسف! ادعو لي أبا بكر وابنه فليكتُبْ إن يَطمع في أمر أبي بكر طامعٌ أو يتمنّ متمنٍّ، ثم قال: يأبى الله ذلك=

ولقد كان لدور الزوجتَيْن في هذا الفصل أن جَرّ عليهما شَجْب محمّد (وهذا أمر أجمعت عليه كل الروايات) إذ قال الرسول: «إنكن صواحِب يوسُفَ»[1]، قاصدًا بذلك أن اقتراحاتهن تدخل في باب المناورات الخدّاعة الغدّارة التي اعتمدتها أولئك النساء اللواتي انحَرَفْن بيوسف عن السبيل المستقيم[2].

وإذ جلست حَذْوَ الرسول، حاولت عائشة السيطرة على الوضع في غياب أبيها (الموجود في السُّنْح أو في معسكر أسامة في الجُرْف)؛ ولعلها استفادت من لحظات إغماء زوجها لتعطي بنفسها التعليمات، وهو ما فعلته حَفْصَة في إحدى الروايتَيْن اللتَيْن توقفنا عندهما، حيث أخذت المبادرة بانتداب أبيها حتى بلا الرجوع إلى الرسول. غير أن موقف حفصة يبدو أقلّ لُبْسًا من موقف عائشة، ذلك أن الأولى تدافع على الدوام عن ترشيح والدها، في حين ليست تلك حال الثانية[3]. وإذ عجب الرسول لموقفها، أتى جواب عائشة محمّلاً، بالإضافة إلى حُجَّة حساسيّة أبيها وسرعة تأثّره، بحجّة ثانية؛ قالت: «فوالله ما أقول ذلك إلا أني كنتُ أحبّ أن يُصْرَف ذلك عن أبي بكر، وعرفتُ أن الناس لا

=والمؤمنون، يأبى الله ذلك والمؤمنون! قالت عائشة: فأبى الله ذلك والمؤمنون، فأبى الله ذلك والمؤمنون».

(1) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٥٢/٢؛ انظر أيضًا: ابن أبي شَيْبَة، مصنّف، ١١٨/٢؛ ابن حنبل، مسنَد، ٦٧/٤٠؛ ابن سعد، الطبقات...، ٢١٧/٢؛ الدارمي، سُنَن، ٥٢/١؛ صحيح البخاري، ٢٣٦/١، ٢٤١/١، ٢٥١/١ - ٢٥٢، ٢٦٦٣/٢، ١٢٣٨/٣؛ صحيح مسلم، ٢٢/٢؛ ابن ماجة، سُنَن، ٣٩٠/١؛ النسائي، سُنَن، ٣٠٣/٨؛ الطبري، تاريخ...، ٢٣١/٢؛ البيهقي، سُنَن، ٣٥٦/٢؛ المتقي، كنز العمّال، ٥/ ٦٣٤.

(2) هذا إلماح إلى قصّة النبيّ يوسف الذي تلاعبت به النساء، وهي مذكورة في القرآن في سورة «يوسف» (وترتيبها ١٢)؛ انظر الآيتَيْن: ٥٠ - ٥١.

(3) ابن ماجة، سُنَن، ٣٩١/١؛ الطبري، تاريخ...، ٢٣٠/٢ - ٢٣١.

يحبّون رجلاً قام مقامه أبدًا، وأن الناس سيتشاءمون في كل حدث كان، فكنتُ أحبّ أن يُصْرَفَ ذلك عن أبي بكر»[1]. ومن هنا، يتّضح لنا أن رفض عائشة لتولّي أبيها إمامة الصلاة، يجد له ما يسوّغه في رغبتها بحمايته من النظرات العدائيّة وخشية أن ينتهي المسلمون إلى التطيّر منه. وإذ سعت إلى صونه، فضّلت تعريض عمر لبغضاء الجماعة. ولعلّ عائشة خشيت في الواقع طبيعة أبيها المفرطة في الرِّقّة، وارتأت أن طبيعة عمر الحازمة والصارمة ستكون أكثر فاعليّة ونجاعة لو أمسك بزمام الأمور.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن العلاقة بين عمر وعائشة علاقة يَشوبها اللُّبْس المرفوق بالازدواجيّة: فهي كانت تهابه في الوقت نفسه الذي كانت معجَبة به. بل إنه يسعنا الافتراض أن بينهما ثمّة جاذبيّة، وهو ما توحي لنا به هذه الطرفة تحديدًا: في يوم، كان كل من عائشة وأبو القاسم يتناولان الطعام من الطبق نفسه مع عمر؛ وعندما لمست يَدُ المحظيّة يدَ ابن الخطاب، أحسَّ الأخير كما لو أن تيّارًا كهربائيًّا صعقه، فصرخ: «حس أوه أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين»[2]. على ما يبدو كانت الغواية كبيرة لدرجة أنزل الله معها السورة الفارضة على نساء الرسول ارتداء الحجاب[3]!

---

(١) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٥٢/٢؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢١٧/٢، ٢/ ٢١٩؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢٣٢/٢ - ٢٣٣.

(٢) النسائي، **سُنَن**، ٤٣٥/٦؛ انظر أيضًا: الطبراني، **المعجَم الأوسط**، ٢١٢/٣. وإذ نقل الطرفة عينها، لم يؤكد البلاذري ما إذا تعلّق الأمر بعائشة أم بغيرها (البلاذري، **أنساب الأشراف**، ١٠٢/٢).

(٣) بالنظر إلى الطبع المتوثّب والشهواني الذي تتّصِف به كل من الشخصيّتَيْن، فإن الغواية محتملة. ولقد كان لعائشة علاقة ملتبسة بعمر؛ فهي كانت تخشاه حتى في مماته. وبما أن الرسول وأباها كانا مواريّيْن الثرى في حجرتها، وهما زوجها وأبوها، فإن عائشة ما كانت تجد حرجًا في خلع ثيابها فيها. لكن، عندما دفن عمر هو الآخر في حجرتها، =

إنَّ الجدال حول إمامة الصلاة، شأنه في ذلك شأن الجدل في فصل الوصيّة التي لم يتمكن الرسول من كتابتها، يؤكّد مرة جديدة على أن المحيطين به ما كانوا يمتثلون لأوامره. ولقد أقرّت عائشة بأنها راجعته مرّتَيْن أو ثلاث عندما أمر بأن يتولّى أبو بكر الصلاة بالمسلمين؛ قالت: «لقد راجعتُ رسول الله»[1]. ومن هنا، أتى تأكيد المصادر الإسلاميّة على غضب الرسول من أزواجه، وعلى اعتراضه الشديد والحانق على وجود عمر ساعة الصلاة، ما حداه إلى جذب أبي بكر من ثوبه. وبهذا المعنى، فإنه من الممكن إلحاق هذا الفصل بذَيْنِكَ المذكورَيْن آنفًا (أي حملة أسامة والوصيّة غير المكتوبة)، لكون الفصول الثلاثة تظهر جميعها الرسول مغتاظًا باستمرار جرّاء عِصيان أهل بيته وصحابته الأكثر قربًا منه لأوامره أو مخالفتها. وبالتالي، فإنَّ موقف المصادر الشيعيّة الشديدة الارتياب بالخليفتَيْن الأوّلَيْن وبِبِنْتَيْهما، عائشة وحَفْصَة، هو أبعد ما يكون عن التجنّي والاعتباطيّة؛ بل إن المصادر الإسلاميّة السّنيَّة أكّدت هي الأخرى على عدم احترام أزواج محمّد وصحابته لأوامره ورغابته خلال مرضه الأخير.

أما في ما يتعلّق بإمامة الصلاة، فلقد توصّل الشيعة إلى حلّ المسألة نوعًا ما. ذلك أن المهمَّتَيْن مختلفتان بالنسبة إليهما، بمعنى أن إمامة

= صارت تمتنع عن الأمر احترامًا له. وفي **الطبقات الكبرى**، ينقل ابن سعد عن موسى بن داود، ما سمعه من مالك ابن أنس: «قُسم بيت عائشة باثْنَيْن: قِسْم كان فيه القبرُ، وقسم كان تكون فيه عائشة، وبينهما حائطٌ، فكانت عائشة رُبّما دخلت حيثُ القبر فُضُلًا، فلما دُفن عمر لم تَدخله إلا وهي جامعة عليها ثيابها». وعن سعيد بن سليمان: «كانت عائشة تكشف قِناعها حيث دُفن أبوها مع رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فلما دُفن عمر تقنّعت فلم تطرح القناع» (ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٩٤).

(1) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢١٧؛ انظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ١/٢٣٦، ٣/١٢٣٨؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤/٤٦٠ - ٤٦١.

الصلاة لا تعطي الحقّ بالخلافة[1]. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الإمام الوحيد في نظرهم هو عليّ بن أبي طالب، وهذا أمر مفروغ منه. ومع أنهم لم يزعموا أن عليًا قد أمَّ الصلاة خلال مرض الرسول الأخير، إلا أن الشيعة جزموا بأنّه إن لم يكلّفه بها، فلأنه كان في جانبه، يسهر على راحته.

لكن عائشة استفادت من الأمر، «فأمرت [...] صُهيبًا أن يمضي إلى أبيها فيعلمه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد ثقل في مرضه، وليس يطيق النهوض إلى المسجد، وعليُّ بن أبي طالب عليه السلام قد شغل به وبمشاهدته عن الصّلاة بالناس، فاخرج أنت إلى المسجد فصلِّ بالناس حالة تهنئك وحجّة لك بعد اليوم»[*]. فدخل أبو بكر المسجد وقال: «إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد ثقل، وقد أمرني أن أُصلّي بالناس»[**]. فإذا بأحد صحابة محمّد (لم يفصِح المجلسي عن اسمه) ينتهره قائلاً: «وأنّى لك ذلك وأنت في جيش أسامة، ولا والله لا أعلم أحدًا بعث إليك ولا أمرك بالصّلاة». ولكي يقطع دابِر النقاش، سارع بلال لإعلام الرسول بالأمر، «حتى أتى الباب فدقّه دقًا شديدًا [...] فخرج الفضل بن العبّاس ففتح الباب فإذا بلال، فقال: ما وراءك يا بلال؟ فقال: إنَّ أبا بكر قد دخل المسجد وقد تقدّم حتى وقف مقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وزعم أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمره بذلك، فقال [الفضل]: أوَليس أبو بكر مع جيش أُسامة؟»

---

(١) انـــظـــر: Mohammed-Ali Amir-Moezzi & Christian Jaber, *Qu'est-ce que le shi'isme?* Paris, Fayard, 2004.

(*) المجلسي، بحار الأنوار، بيروت، دار الاتحاد الثقافي العربي، ط. أولى، ٢٠١٢، المجلد ٢٨، ص٦٨ - ٦٩.

(**) المجلسي، عينه، ص٦٩.

وعندما علم الرسول بخبر وجود أبي بكر في المسجد صرخ قائلاً: «أقيموني أقيموني اخرجوا بي إلى المسجد، والذي نفسي بيده، قد نزلت بالإسلام نازلة وفتنة عظيمة من الفِتن»! وإذ خرج من منزله معصوب الرأس، متكّئًا على كل من عليّ والفضل، دخل الرسول المسجد ورأى أبا بَكر يصلّي وقد أحاط به كل من عمر وأبي عبيدة، وبضعة صحابة آخرين. غير أن غالبية المسلمين الحاضرين كانوا ممسكين عن الصلاة ومنتظرين عودة بلال الذي قصد الرسول لاستبيانه الأمر. فإذ بمحمد يُنَحّي عن المِحراب أبا بكر الذي تراجع إلى الخلف (وهذا مشهد موجود في الروايات السّنيَّة كما سبق لنا ورأينا)، ليتولّى الرسول بنفسه إمامة المصلّين. ولما قضى صلاته، التفت محمّد فلم يَرَ أبا بكر (الذي كان بلا شك قد توارى عن الأنظار)، فقال: «أيّها الناس ألا تعجبون من ابن أبي قحافة وأصحابه الذين أنفذتهم وجعلتهم تحت يدي أُسامة، وأمرتهم بالمسير إلى الوجه الذي وجّهوا إليه فخالفوا ذلك ورجعوا إلى المدينة ابتغاء الفتنة؟»[1].

يتّضح لنا إذن أنّ أبا بكر وعمر استفادا من العجز الذي أوهن الرسول ليضعا المسلمين أمام الأمر الواقع، وليفرِضا نفسَيْهما قبل وفاة محمّد بوصفهما بديلَيْن عنه في المجال الرمزي الذي تشكّله الصلاة. ولم يغِب عن بال الشّيعة التوكيد على التناقضات الصارخة التي تنطوي الرواية السّنيّة عليها ومفادها أن الرسول لم يأمر أبا بكر أبدًا بإمامة المصلّين لأنه كان من المفترض به أن يكون غائبًا عن المدينة (أي في معسكر الجُرْف مع جيش أُسامة الذي كان يتحضّر لشدّ الرّحال باتجاه بلاد الشام)؛ وبالإضافة إلى ذلك، فلقد أجمعت المصادر السُّنيَّة على أنه يوم وفاة

(1) المجلسي، بحار الأنوار، ١٠٩/٢٨ - ١١٠؛ انظر أيضًا: كتاب سُلَيم، ٤٢٠/١.

الرسول، لم يكن أبو بكر موجودًا بالمدينة بل بضاحيتها بالسنح، فكيف كان إذن يصلّي بالناس؟

وفي الواقع، جزمت الأدبيّات الشيعيّة بأن المرض هَدَّ حَيْل الرسول لدرجة لم يُبْدِ معها أيّة رغبة في تسمية إمام؛ قال: «يصلّي بالناس بعضهم فإنّي مشغول بنفسي»(١). ولم تغفل المصادر السّنيّة ذكر موقفه اللامبالي هذا، عندما أشارت إلى أن الرسول كان غير مهتمّ بالمرّة بصلاة الآخرين. إذ نكتشف في المصادر الموثوقة، رواية مثيرة للاستغراب وفيها نرى بلالاً يقصد الرسول ويسأله: «يا رسول الله فمن يصلي بالناس؟» فإذا بجواب الرسول يأتيه جازمًا؛ قال: «يا بلال قد بلّغت فمن شاء فليصلّ ومن شاء فليدع»(٢). وإن اكتسَت هذه الرواية بالصدقيّة فلأنها تنسجم مع فكرة عبّر محمّد عنها في خطبة الوداع يوم قال إنه «بلّغ» الرسالة: «فإنّي قد بلّغت»(٣)؛ فليكن بالتالي ما يكون.

ولنشِر أخيرًا إلى أن بعضًا من الروايات الواردة في المؤلّفات السّنيّة الرئيسيّة تفيد صراحة بأن الرسول ليس من سمّى أبا بكر لإمامة الصلاة، بل إن الأمر أتى من مصدر غير محدّد الهُويّة ولا الماهيّة - من عائشة أو/ وعمر على الأرجح. بل إن بعض الرواة ذهب حدّ تصريف فعل «أمر» في صيغة الجمع [...] فقالوا: «فأمروا أبا بكر ليصلّ بالناس»؛ هذا ما نقرأه في نصوص حبّرها مصنّفون مثل الطّبري والبيهقي وابن سعد وابن حنبل، وغيرهم كثر(٤). فإنه من المرجّح بالتالي ألا يكون محمّد قد سمّى أحدًا

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ٤٦٧/٢٢.
(٢) المتّقي، كنز العمّال، ٢٦٢/٧؛ انظر أيضًا: ابن أبي شيبة، مصنّف، ١١١٧/٢؛ ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٦٩/٢٠.
(٣) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.
(٤) الطبري، تاريخ...، ٢٣٠/٢؛ انظر أيضًا: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٧٨/٣ =

لإمامة الصلاة بالنيابة عنه، وهو ما وجد له توكيدًا في واقع أن المسلمين، وخلال مراسم تشييع الرسول، صلّوا عليه «لا يؤمّهم أحد»، علمًا أن هذا ما نقرأه في **الطبقات الكبرى** لابن سعد، قال: «لما تُوفّي رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وضع على سريره فكان النّاس يدخلون عليه زُمرًا زُمرًا يصلّون عليه ويخرجون ولم يؤمّهم أحدُ»[1]. فإن كان محمّد قد سمّاه، فلِمَ لَمْ يؤم أبو بكر المصلّين خلال تشييع مَنْ كان سيحُلّ مكانه في سُدّة الحكم؟ ولأسباب غامضة، كان أبو بكر - وهو ما سنراه لاحقًا - غائبًا بكل بساطة عن جنازة «أفضل أصدقائه»! وفي أيّة حال، يبدو بديهيًا أن إمامة الصلاة لا تقود تلقائيًا إلى الخلافة السياسيّة. فعندما كان عمر، ثاني الخلفاء الراشدين، يحتضر، أوكل إمامة الصلاة، طوال ثلاثة أيام، إلى صُهَيْب بن سِنان الذي لم يبايَع مع ذلك خليفة له[2]، بل إن عثمان هو الذي حَلّ مكانه.

يكشف هذا الفصل عن الإرباك الكبير الذي يخيّم على الروايات المتعلّقة باللحظات الأخيرة من حياة الرسول. إذ تبدو لنا الروايات التي تزعم بأن الرسول كلّف أبا بكر بإمامة الصلاة عوضًا عنه كأنها إضافات متأخّرة أريد منها محاولة إضفاء الشرعيّة على ارتقائه إلى منصب الخليفة. أما الروايات المتناقضة، فهي ثمرة مراجعات تاريخيّة لا انسجام فيها، بحيث إن اللُّبْس الذي تنضح به الروايات المتنوّعة المتعلّقة بهذا الفصل تتناسب وأهميّته الاستراتيجيّة، بوصفه أداة الشرعنة السياسيّة التي لا بدّ

=١٨١؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٦٦/٤٣؛ النسائي، **سُنَن**، ٤٣٨/١؛ البيهقي، **سُنَن**، ٣/ ١١٦.

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٨٩/٢؛ انظر أيضًا: مالك، **الموطأ**، ٢٣١/١؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٥٢٨/٤.

(٢) ابن سعد، عينه، ٦١/٣؛ الطبري، **تاريخ...**، ٥٨١/٢.

منها: فالمسجد هو موطن من مواطن السلطة، حيث تختلط الوظيفة الشعائريّة أو الطَّقسِيَّة بالوظيفة السياسيّة؛ وبالتالي، فإن الدّمج بين مسألة الإمامة والخلافة تجعل من الإمام هو الخليفة، علمًا أن عواقب هذا الخلط الأصليّ بين السياسي والديني لا يزال ملموسًا في العالم الإسلامي حتى يومنا هذا.

ومن ناحية أخرى، يبدو لنا موقف محمّد في تلك اللحظة التي يسمّي - أو لا يسمّي - فيها أحد صحابته للنيابة عنه في المسجد، موقفًا موجبًا العِبْرَة على أكثر من مستوى. إذ وبمعزِل عن الرّهانات السياسيّة والدينيّة لتسميّة البديل أو لا، فإن هذا الفصل ذو مغزى في السياق العام لرواية آخر أيام الرسول؛ ومن المرجّح جدًا أن يكون قد وقع خلال هذه الأيام، وبالتحديد يوم الجمعة، أي قبل ثلاثة أيام على وفاته[1]. في الواقع، وإذ استشعرت وشوك اللحظة المشؤومة، ولاحظت تدهور حاله الصحيّة، أرادت حاشية أبي القاسم الاستفادة من اللحظة الرمزيّة التي تمثّلها صلاة الجمعة لتفرِض، وبطريقة غير مباشرة، على الأمّة برمّتها، زعيمًا سيخلف الرسول. ولنذكّر القارئ بأن هذه الحاشية قامت هي نفسها في اليوم السابق، أي يوم الخميس، بمنع الرسول من كتابة وصيّة لم تكن بطبيعة الحال لتلائم خُطَط بعضهم. إذ ذاك، لجأ هذا الجمع إلى استراتيجيّة الأمر الواقع، فاستفاد بعض صحابة محمد وأزواجه من عزلته، لينتهوا إلى فرض أبي بكر خليفةً للرسول.

---

(١) يطرح الطبري في تاريخ الأمم والملوك (٢٣١/٢) رواية أخرى في شأن إمامة الصلاة التي اضطُلع بها يوم الاثنين، أي يوم وفاة محمّد، ولنا عَوْد إليها في اللاحقات من صفحات هذا الكتاب.

الفصل الرابع عشر

أصل الدّاء: السّمّ أم ذات الجَنب؟

لم نتطرَّق بعد إلى ذكر مرض محمّد إلا بطريقة مبطّنة، فوصفنا أعراضه الأكثر تواترًا، وبخاصة منها أوجاع الرأس والحمّى. لكن ما هو المرض الذي أودى، في نهاية أسابيع قليلة، بحياة الرسول الذي كان حتى ذلك الحين يتمتّع بصحة ممتازة حَدَت بواضعي كتب التراث الإسلامي إلى وصفه كرجل صُلْب العود، «ضخم الهامة» و«كَثِر اللحم»[1]. وفي يوم، عَجِبَت امرأة رأَتْه، لضخامة بطنه، فقالت: «ما رأيت بطن رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) إلا ذكرتُ القَراطِيْسَ يُثْني بعضُها على بعض»[2]. كان محمّد شهوانيًا يحب الطيّبات، أي الملذّات التي يشيد بها القرآن: النساء والعطور والطعام: «عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان يعجب نبيّ الله، صلّى الله عليه وسلّم، من الدنْيا ثلاثة أشياء: الطيب والنساء والطعام»[3]، وبخاصة أن الرسول كان نَهِمًا،

---

(1) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١/٤١٠؛ انظر أيضًا: ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٣/ ٣٠٦.

(2) ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٣/٣١١.

(3) ابن سعد، **الطبقات...**، ١/٣٩٨: نعلم أن الرسول، في الرواية الرائجة لهذا الحديث، لا يتحدّث عن الطعام، بل بالحرى عن الصلاة؛ قال: «حُبِّبَ إليّ مِنَ الدّنْيَا النساءُ=

شديد الرغبة في الضّأن والعَسَل والحلويّات[1]. ولقد وصف مؤلّفو كتب التراث الإسلامي شهيّة الرسول في مشاهد طريفة، كتلك التي نراه فيها ملتهمًا لوحده نصف شاة[2]. ومن شأن هذه المقاطع أن تتناقض وتلك التي تذكر زهده الطوعي.

عندما أعطى محمّد تعليماته لعليّ في شأن غَسْلِهِ بعد وفاته، سأله الأخير: «فإن لم أقوَ على غسلك وحدي فأستعين بغيري يكون معي؟»[3]. في الواقع، وإبّان الاضطلاع بهذا الغَسْل، رفع أحد المنهمكين فيه، وهو الفضل بن العبّاس، جثمان ابن عمّه محمّد في حين جعل عليّ يسكب الماء ويغسله؛ وعَقِب بضع لحظات صاح الفضل الذي ما عاد يتحمّل أكثر وزن الجثمان الثقيل، قائلاً لعليّ: «اعْجِل يا

=والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرّةُ عيني في الصّلاة». تبدو لنا رواية ابن سعد - المتمتّع بامتياز الأَسْبَقِيّة - لحديث محمّد هذا أكثر مَقْبوليّة، لأن طابعه الأبيقوري أكثر إيحاءً بالطعام من إيحائه بالصّلاة.

(1) ابن سعد، **الطبقات...**، ٣٩١/١؛ **صحيح مسلم**؛ ١٨٥/٤. كان الثّريد هو الطبق المفضّل لدى الرسول؛ والثريد طعام من خبز مفتّت مبلول بالمَرَق («كان أحبّ الطعام إلى رسول الله، [...]، الثّريد من الخبز»، ابن سعد، **الطبقات...**، ٣٩٣/٢). وفي معظم الأحيان، كان محمّد يقارن زوجته عائشة بطبقه المفضّل (انظر: **صحيح البخاري**، ١٢٥٢/٣؛ الدّارمي، **سُنَن**، ١٤٤/٢؛ **صحيح مسلم**، ١٨٨٦/٤؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ١٠٩٢/٢؛ التِّرمِذي، **سُنَن**، ٢٧٥/٤؛ الحاكم النيسابوري، **المستَدْرَك**، ١٢٩/٤؛ المتقي، **كَنْز العمّال**، ٣٣/٢).

(2) ابن سعد، **الطبقات...**، ٣٩٣/١؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٧٢/٤٥.

(3) المجلسي، **بحار الأنوار**، ٥٤٦/٢٢؛ الطَّبْرَسي، **مستدرك الوسائل**، ١٦٦/٢. ويقول ابن كثير في **السّيرة النبويّة** (٥٢٠/٤) عن عليّ، قال: «فكان العباس وأُسامة يناولاني الماء من وراء السِّتر. قال عليّ: فما تناولت عضوًا إلا كأنه يَقْلبه معي ثلاثون رجلاً، حتى فرغت من غسله». فهل ينبغي علينا الاستنتاج أن رَفْعَ الرسول اقتضى ثلاثين رجلاً؟

عليّ انقطعَ ظهري»[1]. إذن، لم يكن لمحمّد ما يشكو منه صحيًا ويقدر للوهلة الأولى على تفسير مرضه المفاجئ.

لكن، على الرغم من صلابة بنيته الجسديّة، كان الرسول يعاني من آلام الشّقيقة المتواترة التي كانت تحول دون خروجه من منزله لأيام عديدة[2]؛ ومن ناحية أخرى، كان يشعر بدوارات تتسبّب له في بعض الأحيان بالإغماءات، كذاكَ الغَشَيان الذي أَلَمَّ به خلال وقعة بَدْر وذكره القرآن[3]. كما كان الرسول ذو حساسيّة عصبيّة مفرِطة تجعله يصاب

---

(1) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٨٠ - ٢٨١؛ وثمّة رواية أخرى أوردها ابن سعد في ص٢٨٠ من كتابه: «عن أبي جعفر محمد بن عليّ، قال: غُسِل النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، ثلاثَ غَسَلات بماء وسِدْر وغُسِل في قميص، وغسل من بِئر يقال لها الغَرْس لِسَعْد بن خَيْثَمة بقُبَاء، وكان يُشْرَب منها، ووَلِيَ عليّ غَسلتَه والعبّاسُ يصبّ الماءَ والفضل محتضنُه يقول: أرِحْني قَطَعْتَ وَتِيني! إنّي أجِد شيئًا يتنزّل عليّ، مرّتين». انظر أيضًا: المتّقي، **كنز العمّال**، ٧/٢٥٦. وثمّة مشهديّة مماثلة تؤكد على وزن جسد الرسول خلال غسله، نجدها لدى ابن كثير في **البداية والنهاية** (٥/٢٨٢)، حيث نرى الفضل يشكو وزن محمّد؛ وإذ خشي بلا شك انقطاع الأَبْدَم، راح يرجو عليًا إراحته؛ قال: «أرِحْني قطعتَ وَتيني، إني لأجد شيئًا يترطّل عَلَيّ» (انظر: ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤/٥٢٠).

(2) خلال غزوة خَيْبر، أُصيب الرسول بآلام الشّقيقة التي أقعدته في منزله يومَيْن (انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/٣٠٠).

(3) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ (٨: سورة الأنفال، الآية: ١١). وثمّة استذكار آخر للحادثة عينها في الآية ١٥٤ من سورة آل عمران (وترتيبها ٣): ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

بالرهاب حِيال بعض الظواهر الطبيعيّة؛ إذ كان الرعد والريح يزعجانه بشكل خاص، فيرتجف ما إن يسمع زمجرة الرعد، وهو ما حدا بعائشة إلى القول له: «يا رسول الله أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرفتُ في وجهك الكراهية»[(١)]. وبالإضافة إلى ذلك، كان صفير الريح يغيظ الرسول لدرجة أرسى معها «دعاء الريح»[(٢)]؛ ثم إن رهابه حِيال بعض الأصوات كان يحمله على الابتعاد سادًا أذنَيْه، عندما يتناهى إلى مَسْمَعَه من بعيد صفير ناي أحد الرُّعْيان[(٣)]. ولقد ارتبطت هذه الاضطرابات، بحسب المصادر الإسلاميّة، باللحظات التي كان يستقبل فيها الوحي؛ بل إن بعض مدوّني الحديث شبّهوه آنذاك برجل مشمول: «كان إذا أوحي إلى رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وقُذ لذلك ساعة كهيئة السكران»[(٤)]. ومعلومَةٌ الدرجة التي بلغتها الإفادة من هذا الوصف لدعم فرضيّة الصرع الذي قيل إنه كان يصيب الرسول[(٥)].

---

(١) صحيح مسلم، ٢٦/٣.
(٢) صحيح البخاري، ٣٥٠/١؛ صحيح مسلم، ٢٦/٣؛ البيهقي، سُنَن، ٥٠٢/٣.
(٣) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ١٣٢/٨؛ ابن سعد، الطبقات...، ١٦٣/٤.
(٤) ابن سعد، عينه، ١٩٧/١.
(٥) سبق للمؤرّخ الإخباري البيزنطي ثيوفان المعترف (Théophane) (٧٥٠ - ٨١٧) أن تحدّث عن صَرَع الرسول. فكتب إن زوجة محمّد «وقد كانت من الأشراف، ندمت أشدّ الندم لزواجها من هذا الرجل الذي لم يكن فقيرًا وحسب، وإنما كان مصابًا بالصَّرع أيضًا». بل إن بايل (Bayle) في القاموس الفلسفي والتاريخي (Dictionnaire *philosophique et historique*) الذي وضعه، يذكر هذا المرض، قائلًا: «بما أن محمّدًا كان مصابًا بذاك المرض العتيق (أي الصرع)، وأراد أن يخفي عن زوجته هذه العاهة، فلقد حملها على الاعتقاد بأنّه لم يكن يعاني هذه التشنّجات إلا لعجزه عن النظر إلى الملاك جبريل، الذي كان يأتيه ليعلمه، من قبل الله، بأشياء كثيرة تخصّ الدين»، وهذا اقتباس أوردته آن - ماري دِلكامبر (Anne-Marie Delcambre) في =

من شأن الطابع الفجائي لمرضة محمّد الأخيرة أن يحيط الأسباب التي أدّت إلى وفاته بالغموض المستمر، وبخاصة أن للقارئ إمكان الوقوع في الجامع الواحد نفسه، من جوامع الحديث، كذاك الذي وضعته حجّة من مصاف البخاري، على روايتَين متناقضتَيْن، تقول إحداهما إنه مات مسمومًا، وتؤكد ثانيتهما على أنه توفّي جرّاء إصابته بذات الجَنْب. غير أن ما يدعو إلى الاستغراب بحق هو أن عائشة هي مصدر هاتَيْن الروايتَيْن. وسواء طَرَحَتْ فرضيةَ الجريمةِ أو فرضيّةَ المرض، فإن جوامع الحديث، على ما يبدو، تتمسّك بالإفادة بأنّ محمّدًا قضى شهيدًا. وقد قال في هذا الصدد ابن مسعود، وهو واحد من صحابة الرسول: «لأن أحلف تسعًا أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قُتل قَتْلاً أحبُّ إليّ من أن أحلف واحدة أنه لم يُقتل! وذلك بأن الله جعله نبيًا واتخذه شهيدًا»[1]؛ بل إن القرآن يكتنف آيةً تفيدُ بإمكان أن يكون الرسول مات مقتولاً: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٤٤). ومن حيث المبدأ، تحيل هذه الآية إلى وقعة أُحُد التي ظنّ خلالها

= مقالتها ذات العنوان:

"Des miroirs déformants", in *Confluences*, hiver 1995-1996, pp. 42-43.

ولقد استمر الارتياب بهذا الصرع حتى الحِقْبة المعاصرة؛ انظر في هذا الشأن:

David Samuel Margoliouth, *Mohammed and the Rise of Islam*, New York, Putnam, 1905, p. 46.

(١) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٤١٨/٦؛ انظر أيضًا: الطبراني، المعجم الكبير، ١٠٩/١٠، الحاكم النيسابوري، المستَدْرَك، ٦٠/٣؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٥/٨. وثمّة من قال إنّ أبا بكر مات هو الآخر مسمومًا. يقول ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٠٠/٢): «كانوا يقولون إنّ اليهود سمّت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وسمّت أبا بكر».

المسلمون بأن الرسول قد قُتِل، ولكنها تثبت أيضًا أن التهديد بالموت كان يحوّم على حياته.

نقع على فرضيّة إقدام يهوديّةٍ من خَيْبَر على تسميم الرسول في أكثر السِّير النبويّة قدمًا[١]، علمًا أن هذه الرواية مهمّشة في أيامنا. فهي تُحْرِج أشدّ الإحراج لعلماء المسلمين المعاصرين الذين يَرَوْن فيها محاولة لذمّ الرسول والمَساس بهَيْبَته. ومن هنا، اعتماد جهابذة الأزهر الأكثر بروزًا موقفًا ملتبسًا عندما يستحضرون هذا الأمر: ففي مرحلة أولى، يرفضون نظريّة التسميم بحجّة أن الرسول كان يتمتّع بالحماية الإلهيّة. لكنهم لا يلبثوا في مرحلة ثانية أن يؤكدوا على أنّ محمّدًا مات في النهاية مسمومًا، وعلى انه من الممكن اعتبار بقائه على قَيْد الحياة ثلاثة أعوام، مقاومًا هذا السّمّ الذي كان من المفترض به أن يودِيَ به على الفور، بوصفه معجزة[٢]. ولا بدّ من الإقرار بأن هذا الالتباس ليس إلا نتيجة تناقضات وردت في القرآن الذي، وفي الوقت نفسه الذي يجزم بأن الرسول يتمتّع بحماية الله ﴿... وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ (٥: ٦٧)، يُبْقي على أثرٍ لإمكان أن يكون محمّد قد قُتِل (سورة آل عمران، الآية: ١٤٤).

لا يبدو أن علماء الإسلاميّات الغربيّين المعاصرين قد اعترفوا لهذه الفرضيّة بالأهميّة التي اكتسبَتْها طوال قرون[٣]. ومن هنا، يَلْزَم مؤلّف

---

(١) تخصّص المصادر العربيّة على العموم لتسميم الرسول فصلاً بعنوان «الشاة المسمومة»، مثل في السّيرة النبويّة لابن كثير (٣/٣٩٤ - ٤٠٠)، والسّيرة النبويّة لابن هشام (٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨). أما البُخاري، فإنه يخصّص هو أيضًا، في الصحيح، فصلاً لسَمّ الرسول (٥/٢١٧٨).

(٢) انظر: محمود حمدي زقزوق وآخرون، حقائق الإسلام في مواجهة شُبُهاتِ المشكّكين، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، ٢٠٠٢، ص٣٥١ - ٣٥٢.

(٣) وبناء على ما لفت إليه إيتان كولبرغ (Etan Kohlberg)، فإن فرضيّة التسميم قد =

ويلفِرْد ماديلونغ (Wilferd Madelung)[1] ومؤلّف ستِفن ج. شومايكر (Stephen J. Shœmaker)[2] الصمت تمامًا في شأن تسميم الرسول المحتمل على يد يهوديّة من خَيْبَر[3]. وعلى الرغم من أن مصادر التراث الإسلامي قد أجمعت بشكل كلّي على أن الرسول قضى مسمومًا، إلا أنَّ علماء المسلمين المعاصرين، شأنهم في ذلك شأن أصحاب الكتابات النقديّة الغربيّة الحاليّة، قد أهملوا هذه المعلومة إهمالاً واسع النطاق. ومن المؤكد أن ثمّة ضرورة في إخضاع هذه الفرضيّة للتفحّص النقدي (وهو ما سنحاول القيام به)، غير أن ذلك ليس سببًا لإقصائها كُليًّا، لأن إمكانية التسميم، وأيًّا تكن موثوقيّتها أو صدقيّتها، تبقى ذات معنى مبين.

جزم أكثر مصنّفي السّير النبويّة قدمًا كابن هشام الذي استعاد رواية ابن إسحاق[4]، تمامًا كما فعل البخاري في فصل كرّسه لهذا الموضوع،

= لقيت شهرة واسعة حتى في السّير النبويّة الأولى التي وضعها الغربيّون، من القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر؛ انظره في:

Etan Kohlberg, "Western Accounts of the Death of the Prophet Muhammad", *op. cit.*

(١) انظر: Wilferd Madelung, *The Succession to Muhammad. A Study of the Early Caliphate*, Cambridge - New York, Cambridge University Press, 1997.

(٢) انظر: Stephen J. Shœmaker, *The Death of a Prophet. The End of Muhammad' Life and the Beginning of Islam, op. cit.*

(٣) تجدر الإشارة إلى أن إيتان كولبرغ يستفيض في فرضِيّة تسميم الرسول في النصوص الشيعيّة؛ انظر:

Etan Kohlberg, "Shīʿī Views of the Death of the Prophet Muhammad", in *Medieval Arabic Thought. Essays in Honour of Fritz Zimmermann*, Warburg Studies and Texts, 4, 2012, pp. 77-86.

(٤) انظر: «فصل الشّاة المسمومة» (أي «بقيّة أمر خيبر») في ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨.

بأنَّ موت الرسول مردّه إلى طبق من الطعام مسموم قدّم له في خَيْبَر. وفي مستهل مَرْضَته، أدرك أبو القاسم سريعًا مصدر العِلّة التي يعاني منها، فقال لعائشة: «يا عائشة... ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، وهذا أوان انقطاع أَبْهَري من ذلك السمّ»(١). ومما لا شك فيه أنَّ جملة محمّد هذه ترجع صدى مقطع في القرآن، يهدد فيه الله بقطع أَبْهَر نبيّه إن عزا له الأخير كلمات لم يتلفّظ بها (سورة الحاقة، الآيات: ٤٤ - ٤٧): ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾.

لنذكّر بالوقائع: في العام السابع من الهجرة، أي قبل أكثر من ثلاث سنوات على موته، دعيَ الرسول إلى تناول الطعام من قبل يهوديّة اسمها

(١) **صحيح البخاري**، ١١٦١١/٤؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٤٦/٥. ويبدو أن الرسول قد أَسَرّ بالخشية عينها لأم بشر بن البراء بن معرور (الذي أكل السمّ معه بخيبر)، لما جاءت تعوده؛ قالت: «دخلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في وجعه الذي قُبض فيه، فقلت بأبي أنت يا رسول الله ما تتهم بنفسك، فإني لا أتهم بابني إلا الطعام الذي أكله معك بخيبر [...]، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: وأنا لا أتهم غيرها، هذا أوان انقطاع أبهري». انظر أيضًا: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢٢١/٢؛ وفي **الطبقات الكبرى** لابن سعد (٢٣٦/٢): «دخلَتْ أمّ بِشر بن البراء على النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، في مرضه فقالت: يا رسول الله ما وجدتُ مثل هذه الحُمّى التي عليك على أحدٍ فقال النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، لها: يضاعَفُ لنا البلاءُ كما يضاعَفُ لنا الأجرُ! ما يقول الناس؟ قالت: قلتُ يقولون به ذاتُ الجنب، فقال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: ما كان اللهُ ليسلّطها على رسوله، إنها همزةٌ من الشيطان ولكنها من الأكلة التي أكلتها أنا وابنُكِ، هذا أَوَانُ قَطَعَتْ أَبْهَري». وفي **تاريخ الأمم والملوك**، كتب الطبري (١٣٨/٢): «وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال في مرضه الذي تُوفّيَ فيه - ودخلت عليه أمّ بشر بن البراء تعوده: يا أمّ بِشْرٍ؛ إن هذا الأوانَ وجدت انقطاع أَبْهَري من الأكْلة التي أكلتُ مع ابنك بخيبر».

زيب بنت الحارث[1]، كان كل من أبيها وزوجها وعمّها قد قتلوا خلال الهجوم على حصون خيبر. فقررت الثأر لموت أفراد عشيرتها من خلال تقديم طبق من ضأن شاة مسموم. في ذلك اليوم، كان أبو القاسم مصحوبًا ببِشْر بن البراء بن معرور - ربّما كان ذوّاق الرسول[2] - الذي، وبعد أن أكل قطعة من اللحم، مات على الفور[3]. أما محمّد، فلقد مضغ قطعة وما لبث أن لفظها. وتقول الأسطورة إن ذراع الشاة حدثته لتحذّره من السمّ الموجود فيها[4]. وبحسب الروايات، فإننا نرى النبيّ تارة يلفظ قطعة الضأن، وتارة يُبْطَل أثر السّم كمثل السّحر؛ وقد قيل إن زينب افتُتِنَت بما رأت لدرجة أسْلَمت معها على الفور[5].

استدعى محمّد زينب وسألها: «ما حملَكِ على ما صنعتِ؟». أجابت: «قتلت أبي وعمّي وزوجي، ونِلْتَ مِن قومي ما نِلْتَ، فقلتُ: إن كان نبيًّا فستُخبر الشاةُ ما صنعتُ، وإن كان مَلِكًا استرحنا منه»[6]. قيل

---

(١) إن زينب أخت رجل اسمه مَرْحَب وزوجة سلّام بن مِشْكَم، شيخ يهود بني النّضير الذي قتل على يد محمّد يوم وقعة خيبر.

(٢) نلفت إلى أن الشّاة المسمومة مذكورة في المسرد الذي أعدّه الواقدي في **المغازي** (٢/ ٧٠٠) لشهداء خَيْبَر، وهو ما يقول الكثير عن الضيق الذي اعترى أصحاب كتب التراث الإسلامي حِيال هذه القضيّة.

(٣) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٠٠؛ الطبري، **تاريخ...**، ١٣٨/٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٣٩٧/٣؛ **تفسير البَغوي**، ٣١١/٧؛ ابن خلدون، **تاريخ**، ٤٥٤/٢. ويؤكد السُّهيلي في **الرّوْض الأُنُف** (٥٧١/٦)، إن بِشْرَ لم يَمُتْ على الفور عَقِب الغداء، بل عَقِب عام على تناوله قطعة من الشّاة المسمومة.

(٤) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ٣١٠/١.

(٥) تنقل بعض الروايات الأخرى أن صحابة آخرين، من بينهم أبو بكر، شاركوا في المأدبة.

(٦) الواقدي، **المغازي**، ٦٧٨/٢؛ انظر أيضًا: ابن أبي شَيْبَة، **المصنّف**، ٤١/٥؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٥١٣/١٥؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٠٠؛ البخاري، **صحيح**، =

إن كلام زينب الموزون أنقذ حياتها، ولكنَّ ما من أحد قال صراحة ما حَلَّ بها[1]، علمًا أن مصيرها قسم كثيرًا في الواقع مصنّفي جوامع الحديث، وهو ما أقَرَّ به الواقدي[2]، فقال بعضهم إنها سلّمت لعائلة بِشْر التي اقتصّت منها فقتلتها[3]. وثمّة روايات أخرى أفادت بأن الرسول أعدمها[4] صلبًا، كما أكّد الواقدي[5]، في حين قال آخرون إنه عفا عنها[6]، وهو ما يبدو قليل الاحتمال، ذلك أنّه من الصعوبة بمكان تخيّل محمّدٍ يتساهل وامرأة حاولت قتله، وهو الذي كان لا يتردّد في قتل الشعراء، مثل كعب بن الأشرَف، إن نظموا فيه بضعة أبيات هجائيّة[7].

كان الرسول الذي لم يشعر بأي ألم مباشرة إثر تناوله الطعام الذي قدّمته له زينب، يتوعّك كل عام، بسبب هذا السُّمّ[8]. إذ ذاك، وامتثالاً لنصائح الملاك جبريل، طلب من عبده أبي هند، حَجْمَه أوسط الرأس[9].

= ٢١٧٨/٥؛ الدارمي، سُنَن، ٤٧/١؛ البيهقي، دلائل النبوّة، ٢٦١/٤؛ البَغَوي، شرح السّنة، ٢٣/١٤؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٣٩٥/٣.

(١) السُّهَيْلي، الرّوض الأُنُف، ١١١/٧.

(٢) يستذكر الواقدي في المغازي (٦٧٨/٢) الجدال الذي استثاره مصير زينب بين مصنّفي السّيرة النبويّة، قال: «فاختُلِف علينا فيها، فقال قائلٌ رواية: أمر بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقُتلت ثم صُلبت. وقال قائلٌ رواية: عفا عنها».

(٣) ابن سعد، الطبقات...، ٢٨/٢.

(٤) ابن سعد، عينه، ٢٠٠/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٣٩٧/٣. يقول الذهبي في تاريخ الإسلام (٤٣٧/٢)، إن الرسول لم يعدِم زينبَ إلا عندما مات بِشْرٌ.

(٥) الواقدي، المغازي، ٦٧٨/٢.

(٦) أبو داود، سُنَن، ٢٩٤/٤.

(٧) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٥١/٢ - ٥٧؛ صحيح البخاري، ١٤٨٢/٤.

(٨) ابن ماجة، سُنَن، ١١٧٤/٢.

(٩) الواقدي، المغازي، ٦٧٨/٢؛ ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٦/٥؛ ابن سعد، الطبقات...، =

في الواقع، يصعب علينا تخيّل سُمٍّ يستمرّ مفعوله في الجسم على امتداد ثلاثة أعوام. لذا، ألمح بعض كتب التراث الإسلامي إلى أن يهوديّة خَيْبَر لم تضع في طعام الرسول سُمًّا بل سِحرًا مؤذيًا ظهر تأثيره فيه عَقِب ثلاث سنوات. ومن هنا، أورد ابن سعد في **الطبقات الكبرى** الفصل في «ذِكر مَنْ قال: إن اليهود سحرت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم» مباشرة قبل الفصل في «ذكر ما سُمَّ به رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم»(1). ومن جهته أيضًا، يستحضر ابن ماجة في **السُّنَن**، قصة الشاة المسمومة في الباب المخصّص للسّحر(2). ولنذكر بأن الرسول كان دائم الخِشية من سحر اليهود، وتحديدًا من ذاك الذي كان يحضّره لبيد بن الأعصم السّاعي باستمرار إلى «طبّه»(*)؛ وإذ أخطره الملاك جبريل، تمكّن محمّد من إبطال تأثيرات السحر الذي كان يُرمى به بهدف استجلاب الأذى عليه(3).

خلال مَرَضَته الأخيرة، بدا الرسول مقتنعًا بوضوح بأنّه كان هذه المرة أيضًا ضحيّة سِحْر اليهود، فانصرف إلى القيام بطقوس تعويذيّة: إذ كان يقرأ السورتَيْن الأخيرتَيْن من القرآن، أي المُعْوِذتَيْن(4)، ويمارس النَّفْث

= ١/٤٤٧؛ ٢/٢٠٠)؛ الدارمي، **سُنَن**، ١/٤٦؛ أبو داود، **سُنَن**، ٤/٢٩٤؛ النسائي، **سُنَن** ٧/٩٥؛ البيهقي، **سُنَن**، ٨/٨٣. كان محمّد يوصى في غالب الأحيان اعتماد علاج التحجيم بوصفه أفضل علاج لكل العلل؛ قال الرسول: «الحِجامَةُ مِنْ أفضَلِ دَوائِكُمْ» (ابن سعد، **الطبقات...**، ١/٤٤٤).

(1) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/١٩٦ - ١٩٩.

(2) ابن ماجة، **سُنَن**، ٢/١١٧٤.

(*) من طبقات ابن سعد، ٢/١٩٦. (م.)

(3) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢١٣؛ ٢/١٩٦ - ١٩٧.

(4) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢/٢٢١؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٤٦. إن «المعوِذَتَين» اسم يشير إلى السورتَين الأخيرتَين في القرآن، وهما سورة الفجر وسورة الناس، المستهلّتان بجملة «أعوذُ بربّ النّاس».

(أي أنه كان يَنْفِثُ على يده ثم يمسح بها جسده)[1]؛ وعندما تفاقم وجعه، عمدت عائشة إلى الاضطلاع بهذا الطقس: «عن عائشة: أن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوِّذات ويَنْفِثُ، قالت: فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاءَ بَرَكَتِها»[2]. ومن شأن هذه الرواية - التي نرى فيها اليهود وقد اتّهموا بمزاولة السّحر ضدّ الرسول -، أن تعزّز الشكوك بفرضيّة التسميم البعيدة الاحتمال في أية حال، إذ كيف لقضمة من الضّأن تُلاك في الفمَ ثم تُطْرَح، أن تكون قتّالة؟

في الواقع، إن كانت المصادر الإسلاميّة قد توسّعت في نشر رواية التسميم على يد اليهوديّة، وذلك على الرغم من قلّة احتماليّتها، فلأن هذه الفرضيّة تقدّم الكثير من الفوائد. فهي تجيز بفرض صورة الرسول الشهيد[3] وبالانحناء على اليهود بالملائم، من خلال إبرازهم كمحترفين معتادين على قتل الأنبياء (علمًا أن هذا الاتّهام مكرّر في القرآن[4]؛ زِد

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢١١؛ ٢/٢١٣؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/ ٢٤٦. لقد أتى القرآن على ذكر ممارسة النَّفْث في الآية الرابعة من سورة الفَلَق وترتيبها ١١٣، حيث الكلام على السحر الأسود والمشعوذات: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢١٠ - ٢١١؛ انظر أيضًا: النسائي، **كتاب الوفاة**، ٣١؛ النسائي، **سُنَن**، ٧/٦٩؛ ابن كثير، **البداية...**، ٥/٢٤٦. ويقول ابن سعد في **الطبقات...** (٢/٢١٣) إن الملاك جبريل عوّذه بالرُّقْيَة الطاردة لشرّ عَيْن الحاسدين: «قال: اشتكى رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فرقاه، يعني جبريل عليه السلام، فقال: بسم الله أرقيك، من كلّ شيء يؤذيك، من كلّ حاسدٍ وعينٍ والله يشفيك!».

(٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/١٣٨.

(٤) في القرآن ثماني آيات تشير إلى اليهود بوصفهم قتلة الرُّسل، وهي الآتية:
سورة ٢، آية ٦١: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى =

على ذلك أن اتهام امرأة بالجريمة يجيز بربط البغضاء ضدّ اليهود بكراهة النساء (وهذا تأليف يجد له لدى البعض استحسانًا!)[1]؛ ومن ناحية أخرى، يجيز تجريم اليهود بلا شك بإخفاء الأسباب الحقيقيّة الكامنة وراء موت محمّد وبإقصاء كل ريبة يمكن لها أن توجّه أصابع الاتّهام إلى المقرّبين من الرسول.

=بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

سورة ٢، آية ٨٧: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

سورة ٢، آية ٩١: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

سورة ٣، آية ١٨١: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

سورة ٣، آية ١٨٣: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

سورة ٤، آية ١٥٥: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

سورة ٥، آية ٧٠: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

وفي هذا الشأن، انظر مقالة غابريل سعيد رينولدز:

Gabriel Saîd Reynolds, "On the Quran and the Jews as "Killers of the prophets", in *al-Bayān Journal*, département du Coran et du hadith de l'Académie des études islamiques de l'université de Malaisie, 2012.

(١) ابن سعد، الطبقات...، ٢٤١/٢. يقول الرسول: «لَعَن الله اليهود! يحرّمون الشحوم ويأكلون أثمانها» (وفي هذا الحديث إلماح إلى ما ورد في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام (وترتيبها ٦): ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ=

يتبنّى الشيعة فرضيّة التسميم لأن أنموذَج الشّهادة يَسْتَهْويهم[١]. فهم يذكّرون بأن محمّدًا نفسه قال إنّ الأنبياء وخلفاءهم يموتون دومًا شهداء: «وما من نبيّ وَصيّ إلا شهيدًا»[٢]. ومع أن التقليد الشّيعيّ يُقِرّ بوجود الذراع المشويّة الذي قدّمته اليهوديّة له ولأصحابه، إلا أنه ينكر أن يكون الرسول قد أكل منها، لأن اللّحم كلّمه فأخطره: «قال الذراع: يا رسول الله إني مسموم فتركه»[*]؛ وفي مجريات الحدث كما رواه المجلسي في بحار الأنوار:

إن اليهود أتت امرأة منهم يقال لها: عبدة، فقالوا: يا عبدة قد علمت أنّ محمّدًا قد هدَّ رُكْن بني إسرائيل، وهدم اليهوديّة، وقد غالى الملا من بني إسرائيل بهذا السّم له، وهم جاعلون لك جعلاً على أن تسميه في هذه الشاة، فعمدت عبدة إلى الشاة فشَوَتْها ثم جمعت الرؤساء في بيتها وأتت رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله فقالت: يا محمّد قد علمت ما توجّب لي من حقّ الجوار، وقد حضرني رؤساء اليهود فزيني بأصحابك، فقام رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله ومعه علي عليه السلام وأبو دجانة وأبو أيوب وسَهْل بن حنيف وجماعة من المهاجرين، فلما دخلوا وأخرجت الشّاة سَدّت اليهود آنافها

=﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾. ولقد شكّلت الشحوم جزءًا من الأضاحي التي كانت تطرح في معبد أورشليم.

(١) الشيخ مُفِيْد، المُقْنِعَة، ٤٥٦/١. وفي المقالة التي كرّسها لكيفيّة تمثُّل الشيعة لموت الرسول، يظهر إيتان كولبرغ الأهميّة التي اكتستها نظريّة التسميم لديهم (انظره في: Etan Kohlberg, "Shīʿī Views of the Death of the Prophet Muhammad", op. cit.).

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ٥١٦/٢٢.

(*) المجلسي، عينه.

بالصوف، وقاموا على أرجلهم، وتوكأوا على عِصِيّهم، فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله: اقعدوا، فقالوا: إنا إذا زارنا نبيّ لم يقعد منا أحد، وكرهنا أن يصل إليه من أنفاسنا ما يتأذى به، وكذبت اليهود عليها لعنة الله، إنما فعلت ذلك مخافة سورة السّم ودخانه، فلما وضعت الشّاة بين يدَيْه، تكلّم كتفها فقال: مه يا محمّد لا تأكلني فإنني مسمومة، فدعا رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله، عبدة فقال لها: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: قلت: إن كان نبيًا لم يضرّه، وإن كان كاذبًا أو ساحرًا، أرحتُ قومي منه، فهبط جبريل عليه السلام فقال: السلّام يقرئك السلام ويقول: قل: بسم الله الذي يسميه به كل مؤمن، وبه عَزَّ كل مؤمن، وبنوره الذي أضاءت به السماوات والأرض، وبقدرته التي خضع لها كل جبّار، وانتكس كل شيطان مريد، من شرّ السّم والسحر واللحم، بسم العليّ، الملك الفَرْد الذي لا إله إلا هو[1].

وثمّة من المصنّفين الشّيعة مثل المجلسي، مَنْ يتّهمون عائشة وحَفْصَة بأنهما سمَّتا زوجهما بالتآمر مع والديهما، أبو بكر وعمر، وذلك بغية الاستيلاء على السلطة («فاجتمعوا أربعة على أن يسمّوا رسول الله»)، ولكن الملاك جبريل أنذره بما يُحاك ضدّه فأفشل مخطّطهم[2]. مع ذلك، تبقى رواية المجلسي ملتبسة، لكونه أكّد في

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ٣٩١/١٧ - ٣٩٦.

(٢) المجلسي، عينه، ٢٣٩/٢٢ - ٢٤٠. وتجدر الإشارة إلى أن المؤلّفين الشّيعة كالمجلسي يربطون ربطًا مباشرًا بين القرار بتسميم الرسول وحادثة اكتشاف حَفْصَة للعلاقة التي كانت لمحمّد مع خليلته القبطيّة مارية. ولنذكّر بأن الرسول غضب ساعتها لأن حَفْصَة لم تكتُم السّر كما طلب منها (انظر في هذا الشأن الفصل الثاني من كتابنا هذا)؛ وهكذا، اجتمع الأربعة (أي أبو بكر وعمر وابنتاهما عائشة وحَفْصَة) وقرّروا =

الوقت نفسه على إمكان أن تكون يهوديّة خيبر قد سمّت محمّدًا: «فقال النبيّ عند موته: اليوم قطعت مطاياي الأكلةُ التي أكلتُ بخيبر»[1]. وبالتالي، فإنه من المرجّح أن يكون الرسول قضى نتيجة التأثير المزدوج الذي أرخاه عليه تجرّعه السُّمَّيْن. أما الالتباس الذي يشوب موقف الشيعة فمردّه إلى شعورهم بالضيق حِيال فرضيّة التسميم الذي اضطلعت به اليهوديّة؛ فالإقرار بأن الرسول مات جرّاء تجرّعه السُّمّ، يعني أن زينب كانت على حقّ: ألم تقل إنه لو كان نبيًا لأُنْقِذ؟

وفي كتاب سُلَيْم نقرأ الحوار التالي الذي دار بين عليّ والرسول: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله أتُقْتَل؟ قال: نعم أَهْلُكُ شهيدًا بالسُّمّ وتُقْتَلُ

= تسميم الرسول. وفي الواقع، كان محمّد قد أسرّ لحفصة بأن أبا بكر وعمر سيخلفانه: وإذ تاقا إلى الاستيلاء على الحكم ونَبَضَ مَعين اصطبارهما، قررا قتل محمّد: «وأنا أفضي إليك سرًا، فإن أنتِ أخبرتِ به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلي الخلافة بعدي ثم بعده أبوك، فقالت: مَنْ أخبرك بهذا؟ قال: الله أخبرني، فأخبرت حفصة عائشة في يومها بذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتني عن حفصة بشيء ولا أثق بقولها، فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال لها: ما هذا الذي أخبرت عنك عائشة، فأنكرت ذلك، وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئًا، فقال عمر: إن كان هذا حقًا فأخبرينا حتى نتقدم فيه فقالت: نعم قد قال رسول الله (صلّى الله عليه وعلى آله) ذلك، فاجتمعوا أربعة على أن يسمّوا رسول الله (صلّى الله عليه وعلى آله) فنزل جبريل على رسول الله (صلّى الله عليه وعلى آله) بهذه السورة: يا أيها النبيّ لِمَ تحرم ما أحلّ الله لك [...] وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثًا فلما نبّأت به «أي أخبرت به» وأظهره الله عليه «يعني أظهر الله نبيّه على ما أخبرت به وما همّوا به من قتله» عرف بعضه، قال: لم يخبرها بما يعلم مما همّوا به من قتله» (المجلسي، بحار الأنوار، ٢٣٩/٢٢ - ٢٤٠). ومن جهته، يفصّل إيتان كولبرغ الروايات الشيعيّة المختلفة لفرضيّة تسميم الرسول على يد زوجتيه وخليفتَيْه، في: "Shī'ī Views of the Death of the Prophet Muhammad", *op. cit.*

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ٥١٦/٢٢.

أنت بالسّيف وتُخَضَّب لحيتُك من دم رأسِك ويقتل ابني الحَسَن بالسّم ويقتل ابني الحسين بالسّيف يقتله طاغ ابن طاغ دَعِيّ ابن دعيّ»[1].
ويُحكى في الأدبيّات الشّيعيّة أن الحسن قال أثناء احتضاره إنه ماضٍ إلى الرفيق الأعلى لأنه سُمَّ كما سُمَّ جدّه: «الحسن عليه السلام قال لأهل بيته: إني أموت بالسّم كما مات رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله»[2].

ولانطواء فرضيّة التسميم على إشكاليّة تعدّدت مستوياتها، وجب على مؤلّفي المصادر الإسلاميّة التراثيّة البحث عن سبب آخر يفسّر المرض الفتّاك الذي أُصيب به الرسول. وهنا، تبرز الفكرة القائلة إنّه توفّي جرّاء إصابته بذات الجنب. ولكي تُثْبت صِحّة هذه الفرضيّة، ربطت بعض الأحاديث النبويّة هذا الداء بالموت استشهادًا[3]؛ وعلى العكس، ثمّة أحاديث أخرى أبطلت هذا السبب لمّا حدّت ذات الجَنْب بوصفها «هَمْزَة من الشيطان» لا يسلّطها الله على الأنبياء[4]. وفي كتابه **الطبقات الكبرى**، يروي ابن سعد، أن أُمّ بِشْر بن البراء، وهو صحابي من صحابة محمّد، قالت له، يوم عادته: يا رسول الله، ما وجدتُ مثل هذه الحُمّى

(1) كتاب سُلَيم، ٣٦٣/١؛ انظر أيضًا: المجلسي، بحار الأنوار، ٢٦٧/٣٣.

(2) المجلسي، عينه، ١٥٣/٤٤. والمعني الضمني الذي ينضح به هذا القول هو أن زوج الحسن، جَعْدَة بن الأشعث بن قيس، هي التي دسّت له السُّم، فشابه في ذلك الرسول الذي سمّته امرأته، والمقصود بها هنا عائشة بلا شك.

(3) كان الرسول يقول عن الشهادة إنها سبعة أنواع: «مَنْ قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومَنْ غرق في سبيل الله فهو شهيد، ومن قتله البطن فهو شهيد، والمرأة يقتلها نفاسها شهيدة؛ الغريق شهيد؛ المحموم شهيد؛ الميت من ذات الجنب شهيد؛ المطعون شهيد». ورد هذا الحديث في: المتقي، كَنْز العُمّال، ٤٢٤/٤.
انظر أيضًا: النسائي، سُنَن، ٦٩/٧؛ الحاكم النيسابوري، المستَدْرَك، ٥٠٣/١. أما الطبراني والبُخاري، فلا يذكران إلا خمسة أنواع من الشهادة، ويُقْصِيان عنها ذات الجَنْب؛ انظر: **صحيح البخاري**، ٢٣٣/١؛ الطّبراني، **المعجم الكبير**، ٣٢٦/١٧.

(4) الحاكم النيسابوري، **المستَدْرَك**، ٤٤٩/٤.

التي عليك على أحد! فقال النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، لها: يضاعَفُ لنا البلاءُ كما يضاعَفُ لنا الأجرُ. قالت: قلتُ: يقولون به ذاتُ الجنب، فقال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم؛ ما كان الله ليسلّطها على رسوله، إنها همزةٌ من الشيطان ولكنّها من الأكلة التي اكلتُها أنا وابنُكِ، هذا أوَانَ قَطَعَتْ أبْهَري»[1].

في الواقع، وعوض أن تَطْمِسَ فرضيّة التسميم، تفاقم فرضيّةُ إصابة الرسول بذاتِ الجنب الالتباس، مؤكّدة على الطابع الغامض لوفاته. وتجدرُ الإشارة إلى أنها، وفي بعض من جوانبها، تلتحق بالفرضيّة الأولى: إذ ثمّة مشهد نقلته لنا المصادر الإسلاميّة وفيه أن بطانة الرسول، ولاقتناعها بإصابته بذات الجَنب، أعطته يوم الأحد، أي عشيّة وفاته، ورغمًا عنه، علاجًا يُشْتَبَه في كونه سمًّا في ذاته، سرّع نهايته: «فلما كان يوم الأحد اشتدّ برسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وجعه [...] وهو اليوم الذي لدّوه فيه»[2].

وفيما يلي توليفة لهذا الفصل المثير للاستغراب[3]، حيث أبو القاسم محاط بأزواجه، وأسماء بنت عُمَيْس، زوجة جعفر بن أبي طالب، وعمّه

---

(1) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٣٦/٢؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٢١/٢.

(2) الواقدي، **المغازي**، ١١١٩/٣؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ١٩٠/٢؛ **صحيح البخاري**، ٢١٥٩/٥ - ٢١٦٠؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٥٦/٢؛ المتّقي، **كنز العمّال**، ٥٧٣/١٠.

(3) قليلة هي الروايات التي وصلتنا عن هذا الحدث، الذي تُجْمِع المصادر على مجرياته، وهي: ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٦٥١/٢؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٠٨/٤٠؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٣٥/٢؛ **صحيح البخاري**، ١٦١٨/٤، ٢١٥٩/٥؛ النسائي، **سُنَن**، ٦/ ٣٨٤؛ ٩٠/٧؛ النسائي، **وفاة**، ٢٩ - ٣٠؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢٢٩/٢ - ٢٣٠؛ ابن حِبّان، **صحيح**، ٥٥٤/١٤؛ البيهقي، **دلائل النبوّة**، ١٦٩/٧؛ السّهَيْلي، **الرّوْض الأُنُف**، ٥٧١/٧ - ٥٧٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤٤٩/٤.

العبّاس. رفض محمّد العلاج: «عن عائشة، قالت: لَدَدْنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مرضه، فقال: لا تلُدُّوني! فقلنا كراهيَةُ المريض الدواء»(*). ثم دخل محمّد في إغماءة قصيرة، فاغتنموا الفرصة ليضعوا له العلاج في مِقْرَن شفتَيْه(١). ولمّا أفاق من غَيْبَته، تنبّه محمّد للأمر، فسأل: «ما صنعتم بي؟ قالوا: لدناك! قال: بماذا؟ قلنا بالعُود الهِنْديّ وشيء من وَرْس وقطرات زيت»(٢)، فقال: مَنْ أمركم بهذا؟ قالوا أسماءُ بنت عُمَيْس، قال: هذا طِبّ أصابته بأرض الحَبشة(٣) [...] ثم قال: ما الذي كنتم تخافون عليّ؟ قالوا: ذاتَ الجنب، قال: ما كان الله ليسلّطها عليّ»(٤). كان الرسول في غاية الغضب من قيام بطانته بإعطائه الدواء كُرْهًا عنه لدرجة، ومن باب عقابها، أمر معها كل فرد من أفرادها، تناول الدواء نفسه «أمام ناظريه، باستثناء عمّه العباس(٥)»: «لا يبقى في البيت أحَدٌ إلا التدّ إلا عمّي العبّاس»(**)؛ فانصاع الجميع لأمره(٦)، حتى

(*) الطبري، تاريخ...، ٢/٢٢٩.

(١) يؤكد ابن سعد في واحدة من رواياته التي ينقلها عن الحدث أنّ أم سَلَمة وأسماء بنت عُمَيْس هما اللتان أعطيا الرسول العلاج، غَضْبًا عنه: «كانت أمّ سَلَمة وأسماءُ بنت عميس هما لدّتاه» (الطبقات...، ٢/٢٣٦).

(٢) إن ابن سعد أكثر المصنّفين دقّة في وصف الدواء الذي أُعطي للرسول، فيقول إنه مكوّن من العود الهندي، ومن نبات ملوّن يشبه السّمسِم واسمه الوَرْس، ومن بضع قطرات من الزيت (الطبقات...، ٢/٢٣٥). ولقد أعطى البلاذُري التفاصيل نفسها في أنساب الأشراف، ٢/٢١٧.

(٣) أقامت أسماء بنت عُمَيْس في الحبشة لزمن طويل.

(٤) ابن سعد، الطبقات...، ٢/٢٣٥؛ ابن هشام، السّيرة النبوية، ٢/٦٥١؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤/٤٤٦.

(٥) البيهقي، دلائل النبوّة، ٧/١٦٩.

(**) ابن سعد، الطبقات...، ٢/٢٣٦.

(٦) ابن سعد، عينه، ٢/٢٣٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/٢١٦ - ٢١٧.

زوجته ميمونة التي كانت في ذلك اليوم صائمة لم تفلِت من العقاب: «فالتدّت يومئذٍ ميمونة وهي صائمة لِقَسَمِ النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، قال: كأنّه منه عقوبة لهم»[1]. وثمّة روايات أخرى تؤكد أن النساء وحدهن هنّ اللاتي خضعن للعقاب[2]، أي بضعة من أزواج الرسول، ذاكرة أسماء كل من عائشة وأم سَلَمَة وميمونة لا غير؛ لكن غيرهن على الأرجح امتَثَلْنَ للأمر نفسه، بالإضافة إلى أسماء بنت عُمَيْس، زوج ابن عمّه جعفر. وثمّة مؤلفون آخرون استخدموا لنقل الخبر صيغة المذكّر الجمع، بحيث ألمحوا إلى أن كل الأشخاص الحاضرين، رجالاً ونساءً - باستثناء العبّاس - نزل بهم العقاب[3].

غير أن العديد من المؤلّفين يؤكّدون أن العبّاس هو مَنْ حرّض على هذا الفعل، طالبًا أن يعطى الرسول الدواء في غفلة منه، ولقد أدانت النساء الحاضرات الموقف مبادرته هذه؛ عن ابن هشام:

فاجتمع إليه نساء من نسائه: أمّ سَلَمَة، وميمونة، ونساء من نساء المسلمين، منهن أسماء بنت عُمَيْس، وعنده العبَّاس عمُّه، فأجمعوا أن يلُدُّوه، وقال العبّاس: لأَلُدَّنَّه: قال: فلدُّوه، فلما أفاق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: مَنْ صَنع بي هذا؟ قالوا: يا رسول الله، عمُّك؛ قال: هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض، وأشار نحو أرض الحبشة؛ قال: ولِمَ فعلتم ذلك؟ فقال عمُّه العبَّاس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنْب، فقال: إن ذلك لداء ما كان الله عزَّ

(1) ابن سعد، الطبقات... ٢/٢٣٦؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/٦٥١؛ البيهقي، دلائل...، ٧/١٦٩.
(2) ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٤٠/٣٠٨.
(3) صحيح البُخاري، ٥/٢١٥٩؛ صحيح مسلم، ٧/٢٤؛ النسائي، سُنَن، ٧/٩٠.

وجلّ ليقذفني به، لا يَبْقَ في البيت أحدٌ إلاّ لُدَّ إلا عمّي [...] عقوبة لهم بما صنعوا به[١].

استُبْعِدَ إذن عَمّ محمّد عن القِصاص الجماعي، ولعل هذه محاذرة أراد محرّرو المصادر الإسلاميّة الاحتياط بها؛ إذ، ولكونهم كانوا يصنّفون مؤلّفاتهم في ظلّ حكم العباسيّين، فلقد أرادوا على الأرجح صيانة ذكرى سلفهم من خلال امتناعهم عن إقحامه في هذه العقوبة المذلّة.

وفي معرِض حديثه عن الدواء الذي أعطيَ له في غفلة منه، ونعني به العود الهِنْديّ (*Aquilaria malaccensis*)، قال الرسول إنه علاج حملته معها النساء الآتيات من تلك المنطقة، مشيرًا بيده إلى ناحية الحبشة؛ إن محمّدًا يعرف هذا الدواء - الذي أُعْطِيَه في غفلة منه - حقّ المعرفة؛ بل إنه امتدح فوائده في واحد من أحاديثه قال فيه إن العود الهندي يشفي من سبعة أمراض: «عليكم بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفِيَة يُسْتَعَطُ به من العذرة ويُلَدّ به من ذات الجنب»[٢]. وبالتالي لم تفعل بطانته سوى الامتثال إلى إرشاداته يوم أعطته هذا الدواء. لكن لماذا رفض أن يتّبع علاجًا كان هو من أثنى على فوائده؟ لأنه لم يقِر بإصابته بذات الجنب، لكون هذا المرض مرض شيطاني يحول وضعه كنبيّ دون إصابته به. غير أن محمّدًا لا يكتفي بالاعتراض على أولئك (أكانوا رجالاً أو نساءً) الذين أعطوه الدواء رغمًا عنه، بل يأمر بأن يأخذ كل الأشخاص الموجودين في الغرفة الدواء نفسه. هل كان الرسول ليطلب مثل هذا الأمر لو لم يكن

---

(١) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٥١/٢؛ انظر أيضًا: الطبري، تاريخ...، ٢٣٠/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٤٦/٤.

(٢) صحيح البخاري، ٢١٥٥/٥؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٥٤٨/٤٤؛ ابن سعد، الطبقات...، ٤٤٧/١؛ ابن ماجة، سُنَن، ١١٤٦/٢؛ النسائي، سُنَن، ٨٨/٧.

يساوره الشك في شأن طبيعة هذه الجرعة التي لَدُّوه بها؟ أتراه اعتقد أن الدواء سُمٌّ أراد اختبار مفعوله على أفراد عائلته؟ إن القرار الذي اتّخذه الرسول بإنزال العقوبة ببطانته يفصح بإسهاب عن الشكوك التي كانت تساوره! وفي هذا الشأن، لا بدّ من الإقرار بأن محاولات الاغتيال العديدة التي كان عُرضة لها، قد دفعت به إلى اعتماد موقف كثير التوجّس حتى من أقرب المقرّبين إليه، وبخاصة أنه كان يخشى السّمّ تحديدًا. فعلى سبيل المثال، عندما قدّم له الأعراب مأكولاً، ألزم محمّد صاحِبَه بتذوّقه قبله. وإذ يستشهد بعمر، كتب البكري: «وقال قائل: «أنا أحدّثكم، كنت معه بالقاحة، فأهدى أعرابي إليه أرنبًا، وكان لا يأكل هديّة بعد الشّاة المسمومة حتى يأكل صاحبها منها، فقال للأعرابي: كُلْ»[1].

وبالإضافة إلى ذلك، فإن فصل التطبيب الإكراهي هذا - كمِثْل الوصيّة التي مُنِع من كتابتها أو إملائها -، يثبت أن بطانة الرسول تعاملت معه في آخر أيّامه بأسلوب فجّ: فهي تعصي أوامره وتتصرّف معه كأنّه شخص قاصر. ومن شأن هذا النوع من الروايات أيضًا أن يظهر مزاج محمّد الغضوب في أثناء مَرَضَته الأخيرة، وهذه عدائيّة ألهمت ربما شيعة عليّ لمّا انكبّوا على وضع سرديّاتهم. ذلك أن الشّيعة قالوا بالفعل إن أبا القاسم قد سُمَّ جرّاء الدواء الذي أعطيه، في غفلة منه، يوم الأحد؛ وطاب لهم الاستشهاد بالمؤلّفات السنيّة حيث وقعوا على مؤشّرات تفيد بأن الرسول حُمل على تجرّع هذا «السُّم» مرتَيْن. ولقد ذهب ابن أبي الحديد حَدّ التأكيد على أن الدواء أعطي للرسول يوم الأحد، وأنه «قذف

(1) البكري، مُعْجَم ما استعجم، ٩٥٥/٣. يؤكّد البكري أن الرسول اتبع هذا الإجراء الاحتياطي بعد حادثة «الشّاة المسمومة» - وهو بلا شك يتحدّث هنا عن محاولة السّمّ التي تعرّض لها في خَيْبَر.

دمًا يسيرًا وقت موته» أي يوم الاثنين، وقد كان اليوم الذي فارق فيه محمّد هذا العالم[١]... لكن إن كان الدواء الذي أعطيه الرسول رغمًا عنه، كما زعم الشّيعة والمعتزليّ ابن أبي الحديد، سُمًّا، فكيف السبيل إلى تفسير الواقع القائل بأن أفراد عائلته الذين أكرهوا على تناوله، لم يَلْقَوا حَتْفهم هم أيضًا؟ أكانت المسألة مسألة معايرة الجُرعة؟ أتعرّض الرسول لتسميم تدريجي بحيث لم تقم المادة المسمومة التي أُعْطيها عشيّة وفاته إلا بتسريع عملية تسميم بدأت قبل بضعة أيام؟ وفي هذا ما قد يفسّر السبب الذي لأجله لم يشعر الأشخاص الملازمون له بأي شيء لكونهم لم يتناولوا هذا الدواء إلا مرة واحدة. وفي أيّة حال، يبدو واضحًا أن الرسول ارتاب جدّيًا بالمحيطين به، وهو ما توحي به المصادر السُنيّة كما الشيعيّة.

مما لا شك فيه أن الالتباس الذي تنطوي عليه مصادر التراث الإسلامي في شأن سبب موت محمّد، مؤشّر على أنها تسعى، بطريقة خرقاء، إلى طمس معالم الجريمة. ثم إن كان الرسول قد مات جرّاء المرض، فكيف السبيل إلى تفسير واقع أنه لم يُعْرَض على أي طبيب ليشخّص حالته؟ نعرف أن المدينة لم ينقصها الأطباء في تلك الحِقْبة[٢]، ذلك أنّنا رأيناهم يسألون الرسول عن الطابع المجاز شرعًا لاستخدام هذه المادة أو تلك[٣]. وفي محيط محمّد، درجت العادة على استشارة

---

(١) ابن أبي الحديد، **شرح النهج**، ٢٦٦/١٠. وينقل ابن عبد الحديد أن الرسول فَقَدَ دمًا كثيرًا قبل وفاته: «ومَن قال بهذا القول زعم أن مرضه كان ذات الجنب، وأن القرحة التي كانت في الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت في تلك الحال، وكانت فيها نفسه صلّى الله عليه وعلى آله».

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٤٢٧/١؛ البيهقي، **معرفة السُنَن والآثار**، ١٢٠/١٤؛ ابن حجر، **الإصابة**، ١٤٩/٤.

(٣) البيهقي، **معرفة السُنن والآثار**، ٨٥/١٤؛ الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ١٢٨/١٠.

الأطباء: فالخليفة الأول أبو بكر، الذي وافته المنيّة بعد سنتين لا غير على رحيل الرسول، عُرِض في أثناء احتضاره، على اثنَيْن منهم[1]؛ وعمر، ثاني الخلفاء الراشدين الذي أُصيب بجرح بليغ ومميت، عولج على أيدي ثلاثة أطباء:

قال عمر أرسلوا إليّ طبيبًا ينظر إلى جرحي هذا. قال فأرسلوا إلى طبيب من العرب فسقى عمر نبيذًا فشبَهَ النبيذ بالدم حين خرج من الطعنة التي تحت السرّة، قال فدعوت طبيبًا آخر من الأنصار ثم من بني معاوية فسقاه لَبَنًا فخرج اللبن من الطعنة يَصْلِد أبيض[2].

وبناء عليه، يحقّ لنا التساؤل عن السبب الذي حال دون استدعاء آل بيت محمّد لطبيب، لما رأوا حاله الصحيّة تتفاقم. ما الذي يخفيه موقفهم هذا؟ من خلال البحث عن السبب الحقيقي الكامن وراء موت الرسول، نصطدم بالعديد من التناقضات وبعدد لا يُستهان به من الأسئلة التي تعزّز شكوكًا من العسير تجاوزها...

ومن ناحية ثانية، فإن مرض النبيّ المفاجئ وموته السريع نوعًا ما يدفعان بنا إلى التساؤل عن سِنّه ساعة وافته المنيّة. فكتب التراث الإسلامي تتوافق على تحديد سنّه بثلاثة وستين عامًا (وثمّة مَنْ قال، بحسب بعض الروايات، إنه كان في الخامسة والستين من عمره عندما قُبِض[3])، وهذه سِنّ متقدّمة نوعًا ما بالنسبة إلى الحِقْبة التي عاش فيها.

---

(١) ابن أبي شيبة، **المصنف**، ٩٣/٧؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٤١٠/٣٠؛ ابن الأثير، **أُسْدُ الغابة**، ٢٢٢/٣؛ المتقي، **كنز العمّال**، ٥٣٢/١٢؛ العصامي، **سَمْط النجوم**، ٢/ ٤٦٦.

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٣٤٦/٣. وانظره أيضًا في المجلد عينه، ص٤٣١.

(٣) ابن سعد، عينه، ٣٠٩/٢ - ٣١٠.

لكن، ثمّة مؤشّرات تُدخل الارتياب. فإذ سُئل عن سِنّ الرسول «يَوْمَ تُوُفِّيَ»، أجاب أَبو حَمْزَةَ أحد صحابته قائلًا: «تَمَّتْ له ستّون سنة يومَ قبضَه الله كأَشَبِّ الرجال وأحسنِه وأجملِه وأَلْحَمِه»[1]. وفي بعض المصادر، نقرأ شهادة الصحابي عبد الله بن بشر، لمّا سئل: «أكان النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، شيخًا؟ قال: كان أشبّ من ذلك، ولكن كان في لحيته، وربما قال في عَنْفَقَتِه، شعرات بيض»[2]. في الواقع، كثيرة هي الشهادات المؤكّدة على أنه لم يكن للرسول ساعة موته إلا نحو عشرين شعرة بيضاء في لحيته[3]. أما الشعر الأبيض في رأسه فكان نادرًا: «سُئِل أنس عن خضاب النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فقال: إن النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، لم يرَ الشيْب ما يُخْضَب، قال سليمان في حديثه: إنما كانت شمطات في لحيته ولو شئت عددتهن، وقال عارم في حديثه: لو شئت لعددت شيبه»[4]. وبالتالي، فإن محمّدًا، الذي كان يوصي باستخدام الخضاب بالحنّة، لم يَحْتَج يومًا إلى اللجوء إليه (لأنه لم يكن مسِنًّا بما يكفي ليفعل ذلك)[5]، على عكس أبي بكر وعمر اللذين كانا

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٣٠٨؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٢٠/٨؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٣/٦٢١.

(٢) ابن سعد، عينه، ١/٤٣٢، ١/٤٣٤؛ **صحيح البخاري**، ٣/١٣٠٢.

(٣) ابن سعد، عينه، ١/٤٣١، ٢/٣٠٨؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٣/٢٧٣. بل إن الشاعر الفرنسي فيكتور هوغو يلمح إلى ذلك في قصيدته «السنة التاسعة من الهجرة»، عندما يقول: «كانوا يَرَوْنَه يشيخ كلّ يوم مع أنه/ بالكاد خطّت لحيَتَه السوداء عشرون شعرة بيضاء».

(٤) البيهقي، **دلائل النبوّة**، ١/٢٢٩ - ٢٣٩.

(٥) ابن سعد، **الطبقات...**، ١/٤٣٢ - ٤٣٣. مع ذلك، ثمّة مقاطع من المؤلَّف عينه تفيد بأن الرسول كان يخضب شعره بالحنّاء والكَتَم، أو بماء السِّدْر [الذي يعمل على تقوية جذور الشعر وبصيلاته الضعيفة، ويجعله أكثر صحّة وحيويّة (م.)] و«يصفّر لحيته بالخَلُوق» (**الطبقات...**، ١/٤٣٣، ١/٤٣٧ - ٤٣٨)؛ ويعود السبب في ذلك، كما =

يخضبان باستمرار لإخفاء الشعر الأبيض[1]. وتجدر الإشارة إلى أن الرسول عندما هاجر إلى المدينة، كان مرفوقًا بأبي بكر أسَنُّ صحابته، وهو «ذو شَيْبَة المسلمين»[2]، وكان فارق السّن واضحًا بين الرّجلين: «عن أنس بن مالك، قال: أقبل النبيّ صلّى الله عليه وسلم إلى المدينة مردفًا أبا بكر شيخًا يُعرف، ونبيّ الله - صلّى الله عليه وسلم - شابٌ لا يُعرف»[3]. وفي بدايات دعوة محمّد في مكّة، كان الناس في القبائل العربيّة الأخرى التي كان يتوجّه إليها، ينعتونه بـ «الفتى»، علمًا أنه من المفترض أنه كان في تلك الحِقْبة أربعينيًا: «فلما صَدَر الناس، رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم؛ قد كانت أدركتْه السنّ؛ حتى لا يقدر على أن يوافيَ معهم الموسم، فكانوا إذا رجعوا إليه، حدّثوه بما يكون في ذلك الموسم؛ فلمّا قدموا عليه ذلك العام، سألهم عمّا كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتىً من قريش»[4].

= يقول ابن سعد، إلى أن الرسول كان لديه الكثير من الشيب بالنسبة إلى رجل في سنه (ما يحملنا على الافتراض أنه لم يكن شيخًا)؛ ومن صحابته مَنْ قال له يومًا: «قيل للنبيّ، صلّى الله عليه وسلم: شبت وعَجِل عليك الشيبُ! فقال: شَيّبَتْني هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا أو ذَوَاتُهَا»؛ و«يا رسول الله ما شَيّبَك؟ قال: هُودٌ وَالوَاقِعَةُ وَالمُرْسَلاتُ وَعَمّ يَتَساءَلُون وَإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» (ابن سعد، الطبقات...، ١/٤٣٥ - ٤٣٦).

(١) صحيح مسلم، ١/٨٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤/١٦١ - ١٦٢؛ الطبراني، المعجم الأوسط، ٧/١٣٥.

(٢) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤/٤٨٠. ويشير الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٦٠) إلى أن أبا بكر هو أسَنّ صحابة الرسول؛ ولهذا لقب بـ «ذي شيبة المسلمين» (أي عميدهم أو أقدمهم). (وانظر أيضًا: ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٢٧/١١٤؛ الطبراني، المعجم الكبير، ٥/ ٥٨؛ الحاكم النيسابوري، المستَدْرَك، ٢/١٨٨). غير أنه يمكن لهذا اللقب أن يجد له تفسيرًا في أنه كان أول المسلمين (ابن سعد، الطبقات...، ٢/٢٦٧).

(٣) ابن قُتَيْبَة، معارف، ١/١٧٢.

(٤) الطبري، تاريخ...، ١/٥٥٦؛ انظر أيضًا: ابن هشام، السّيرة النبويّة، ١/٤٤٠؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٢/١٥٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/١٧١.

ثمّة العديد من المؤشّرات إذن تدعونا إلى الاعتقاد أن الرسول ما كان ستّونيًّا لحظة وفاته، بل لعله كان في الخمسين من عمره (بل وفي الأربعين!). وثمّة حديث مثير للاستغراب يقول فيه محمّد لابنته فاطمة: «إنّه لم يُبْعَث نبيّ إلا عُمّرَ الذي بعدَه نِصْفَ عُمر، وإنّ عيسى بن مَرْيَم بُعث لأربعين وإني بُعثتُ لعشرين»[(١)].

في الواقع، إن وجد المؤرّخون صعوبات في تحديد سِنّ محمّد لحظة وفاته، فلأن تاريخ ولادته لم يحدّد بدقّة؛ إذ أُرّخَت ولادته، في غالب الأحيان، نحو سنة ٥٧٠م اعتمادًا على «عام الفيل» الشهير، وهذا حدث لا نعرف عنه الكثير؛ بل إن معاصري محمّد أنفسهم لا يعرفون تاريخ ولادة رسولهم، لدرجة اضطُرّ معها الخليفة عمر بن الخطاب، إلى اختيار نقطة استدلال أقل غموضًا، يوم أراد إرساء تقويم زمنيّ جديد، فاعتمد الهجرة إلى المدينة تاريخًا حدّ به بَدء الإسلام، وقد كان للجميع عنها ذكرى أكثر دقّة[(٢)].

ومما لا شك فيه أن كتابة سيرة الرسول قد خضعت إلى اعتبارات رمزيّة لا تاريخيّة، شوّشت كل المعالم والمعايير الزمنيّة. فإن اختار مؤلّفو السيرة سن الأربعين كعمر بدأ فيه نزول الوحي على محمد، فلأنّ هذه السّن تعكس رمزيًّا بلوغ النضج وهذا ما نجده في جلّ الأدبيّات الشرقيّة.

---

(١) ابن سعد، الطبقات...، ٢/٣٠٨ - ٣٠٩.

(٢) يعتقد هنري لامنز أنه «من خلال تصغير سِنّ محمّد بعشر سنوات، نقارب في التحليل الأخير السنةَ التي اعتمدها بار هَبَريوس (Bar Habraeus) [أسقف وفيلسوف وشاعر ونحوي سرياني (١٢٢٦ - ١٢٨٦)، لقّب بأبي الفرح أو بابن العبري (م.)] لتأريخ ولادة محمّد: أي سنة ٨٩٢ في رزنامة السلوقيّين، الموازية للعام ٥٨٠ بعد الميلاد». انظر:

Henri Lammens, "L'âge de Mahomet et la chronologie de la *Sîra*", in *Journal asiatique,* dixième série, t. XVII, 1911, pp. 209-250 et p. 239.

وفي غياب التدقيق الزمني، كُتبت السيرة النبويّة اعتمادًا على مقاييس و«حِيَل» أدبيّة ارتكزت هي نفسها على الجِناس والتناظر. هذا ما يفسّر تحديدًا المَوْضَعَة الزمنيّة للأحداث الكبرى في حياة الرسول في يوم الاثنين من ربيع الأول: أي ولادته، وهجرته من مكّة إلى المدينة، ووفاته[1]. وبناءً على ما تقدّم، يتضح لنا أن الهَمّ الذي استولى على مؤلفي السِّيَر كان ابتداع سيرة مقدّسة مرتكزة على اعتبارات رمزيّة أكثر مما توخّى الدقة الزمنيّة. ولعل هذا الهَمّ هو الذي دفعهم إلى «إماتة»، من باب التكييف الشكلي، أبي بكر وعمر وعليّ، وقد كان كل منهم في السِّن نفسها التي توفّي فيها محمد[2].

ومن ناحية أخرى، إن اعتُمد العام ٦٣٢ لتحديد وفاة محمّد، فلأنه يقيم توازنًا مع العام ٦٢٢، ذلك أن العقد يرمز إلى الاكتمال، وهو ما يقِرّ به الطّبري، الذي يؤكّد هنا، وبطريقة صريحة واضحة، «الحيلة» الأدبيّة المُعتمدة:

> عن عائشة، قالت: وتوفّي رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، في اليوم الذي قدم فيه المدينة مهاجرًا فاستكمل في هجرته عشر سنين كوامل[3].

ولا بدّ من الإشارة إلى أن العام ٦٣٢ الذي اعتمد كتاريخ لوفاة الرسول، يطرح إشكالاً عويصًا: فكما سنرى لاحقًا، ثمّة مصادر غير إسلاميّة عديدة ومعاصرة للحدث، تجزم بأن محمّدًا كان لا يزال في

(١) ابن عساكِر، **تاريخ دمشق**، ٥٦/٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٧٥/٥؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٥٠٥/٤.

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٣٨/٣، ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٧٨/٥.

(٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٤٠/٢.

العام ٦٣٤ على قيد الحياة وموجودًا في غَزَّة[1]. أفلا يكون الشكلُ المرتبُ ظاهريًا، الذي أُضفي على سيرة الرسول، طريقةً مصطنعةً لإخفاء فوضى الروايات المتناقضة والمتضاربة؟

(١) انظر الفصل الأخير من كتابنا هذا وهو بعنوان: وبعد...

الفصل الخامس عشر

الرسول يموت

على الرغم من التباينات في تشخيص مرضه، ما من أحد، لا أبو القاسم ولا المحيطون به، ساورتهم الشكوك في شأن اقتراب النهاية المحتومة للرسول، وهو ما تنبّه له أبو بكر وعمر، أثناء إصغائهما لكلمات صديقهما المنذِرة بوشوك موته: إذ انهار والد عائشة باكيًا عَقِب فراغ محمّد من خطبة الاستغفار في المسجد(١):

عن أيوب بن بشير، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم خرجَ عاصبًا رأسه؛ حتى جلس على المنبر؛ ثم كان أوّل ما تكلّم به أن صَلَّ على أصحاب أُحُد، واستغفر لهم؛ وأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: إن عبدًا من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله. قال: ففهمها أبو بكر، وعلم أن نفسه يريد، فبكى(*).

أما عمر الذي سينكر لاحقًا موت الرسول جملة وتفصيلًا، فكان أول مَنْ أدرك - وهذه مفارقة - قبل بضعة أسابيع تَلَت خطبة الوداع، وشوك وفاة محمّد:

---

(١) انظر الفصل السابع من كتابنا هذا.

(*) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٢٧.

عن ابن كثير: أن عمر بن الخطاب حين نزلت هذه الآية [﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا...﴾] بكي، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان، كأنه استشعرَ وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم[1].

وقد قيل إن محمّدًا نفسه أعلن رحيله عن هذه الدنيا قبل شهر؛ فإذ نظر إلى آل بيته والدموع تملأ مقلتَيْه، قال: «وقد دنا الفراق»[2]؛ بل ذهب حدّ تزويدهم بإرشادات دقيقة في شأن جنازته، مؤكدًا على أن وحدهم المقرّبون إليه، هم الذين يشاركون في غسله وتكفينه[3].

كانت فاطمة الأولى التي علمت سِرًا بوشوك موت أبيها؛ وكانت عائشة مَنْ نقلت النقاش بين محمّد وابنته:

---

(١) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤٢٧/٢؛ انظر أيضًا: ابن أبي شَيْبَةَ، **المصنّف**، ٨٨/٧؛ **تفسير البَغَوي**، ١٣/٣؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٣٣/٥ - ٢٣٤؛ **تفسير ابن كثير**، ٢٦/٣.

(٢) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٥٠٢/٤.

(٣) سأل المقرّبون منه محمّدًا: «يا رسول الله مَنْ يَغْسلك؟ فقال: رجال من أهلي الأدنى فالأدنى. قُلنا: يا رسول الله ففيمَ نكفّنك؟ فقال: في ثيابي هذه إن شئتم أو ثياب مِصْرَ أو في حُلّة يمانية. [...] إذا أنتم غسلتموني وكفّنتموني فضَعُوني على سريري هذا على شَفَةِ قَبري في بيتي هذا، ثمّ اخرجوا عنّي ساعةً فإنّ أوّل من يصلّي عليّ حبيبي وخليلي جبريل ثمّ ميكائيل ثمّ إسرافيل ثمّ مَلَكُ الموت معه جنودُهُ من الملائكة بأجمعهم، ثمّ ادخلوا فَوْجًا فَوْجًا فصلّوا عليّ وسلّموا تسليمًا ولا تُؤذوني بتزكية ولا برَنّة، وليبتدئ بالصّلاة عليّ رجالُ أهلي ثم نساؤهم ثمّ أنتم بعدُ واقرَأُوا السّلامَ على من غاب من أصحابي واقرأُوا السّلام على من تَبِعني على ديني من قومي هذا إلى يوم القيامة! قلنا: يا رسول الله فمَن يُدخلك قبرك؟ قال: أهلي مع ملائكةٍ كثيرين يَرَوْنكم من حيث لا ترونهم». ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢٥٦/٢ - ٢٥٧ (تحديدًا ص٢٥٧)؛ انظر أيضًا: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٢٨/٢؛ الطّبراني، **المعجَم الأوسط**، ٤/ ٢٠٩؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٥٠٢/٤ - ٥٠٣؛ المتّقي، **كَنز العمّال**، ٤٦٨/١١.

كنت جالسة عند رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فجاءت فاطمة تمشي كأنّ مِشْيَتَها مشيَةُ رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فقال: مرحبًا بابنتي! فأجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم أسرّ إليها شيئًا فبكت ثم أسرّ إليها فضحكت[1].

وإذ أثار المشهد فضولها وشغل بالها، سألت عائشة ابنة زوجها عما أسرّ إليها الرسول. قالت فاطمة: «ما كنتُ لأفشي سرّه! [...] قال إنّ جبريل كان يأتيني كلّ عام فيعارضني بالقرآن مرّةً وإنّه أتاني العام فعارضني مرّتَين. ولا أظنّ إلاّ أجَلي قد حضر ونِعْمَ السَّلَفُ أنَا لَكِ! قالت: وقال: أنتِ أوّلُ أهلي بيتي لحاقًا بي. [...] فضحكتُ».

وفي الواقع، توفّيت فاطمة إثر رحيل والدها بقليل[2].

قبل بضعة أشهر على وفاته، انقطع تقريبًا نزول الوحي على محمّد، إذ أصبحت زيارات جبريل أقل فأقل، علمًا أنه أتاه مرّتَيْن خلال شهر رمضان من السنة العاشرة [من الهجرة] لكي يراجع وإيّاه القرآن «مراجعة عامة»:

كان جبريل يعرُض القرآن كلّ سنةٍ مرّة على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلمّا كان العام الذي قُبض فيه عَرضه

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٤٧ - ٢٤٨؛ انظر أيضًا: عينه، ٢/١٩٣؛ **صحيح البخاري**، ٥/٢٣١٧؛ **صحيح مسلم**، ٧/١٤٢؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢/٢٢٤ - ٢٢٥؛ الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٢/٣٢١ - ٣٢٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/ ٢٤٦. وثمّة رواية أخرى تقول إن الرسول أعلن لفاطمة أنها ستكون واحدة من مَلِكات الفردوس بعد مريم، أم يسوع: «ثم أخبرني أنّي سيّدة نساء أهل الجنّة بعد مَرْيَم بنت عمران» (ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٤٨؛ **صحيح البخاري**، ٥/٢٣١٧؛ **صحيح مسلم**، ٧/١٤٢؛ النسائي، **سُنَن**، ٧/٤٥٤ - ٤٥٥).

(٢) نذكّر بأن فاطمة لم تعِش بعد وفاة والدها إلا بضعة أسابيع؛ انظر: الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٢/٣٧١، ٢/٣٨٨؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤/٥٦٧.

عليه مرّتَيْن، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعتكف في رمضان العشرَ الأواخر، فلمّا كانت السنة التي قُبض فيها اعتكف عشرين يومًا. [...] كان جبريل يعرُض القرآن على النبيّ، صلّى الله عليه وسلم، كلّ عام مرّة في رمضان، فلمّا كان العام الذي توفّي فيه عرضه عليه مرّتين، قال محمّد: فأنا أرجو أن تكون قراءتنا العرْضَةَ الأخيرة[1].

مع ذلك، تبقى هذه المعلومة مُختَلَفٌ عليها؛ فمن خلال استعراضنا لتفاسير القرآن المختلفة، يتّضح لنا أن الآية الأخيرة أُنزلت على محمّد قبل أيام، بل قبل ساعات من وفاته[2]: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الآية٢٨١ من سورة البقرة). وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لم يكن في وسع جبريل استعراض القرآن في شهر رمضان من السنة العاشرة [من الهجرة]، وذلك، بحسب المفسّرين، لأن سُوَرًا أخرى أُنزلت بعد بضعة أسابيع، ومنها سورة العنكبوت (٢٩) وسورة النصر (١١٠).

أيًّا يكن الأمر، غرق محمّد، قبيل وفاته، في قلق عميق؛ والسبب في ذلك هو أنّ الأحداث الأخيرة في حياته لم تكن إلا سلسلة من الويلات ونذائر الشؤم، كما لو أن شيئًا مأساويًّا كان يُحوِّم على نهاية

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ١٩٤/٢ - ١٩٥؛ انظر أيضًا: ابن أبي شيبة، **المصنّف**، ١٥٤/٦؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٢٩٦/٤؛ ونلفت إلى أن محمّدًا اعتكف خلال شهر رمضان هذا، وقد كان بالنسبة إليه الأخير، عشرين يومًا، في حين كان يعتكف في العادة عشرة أيام لا غير؛ عن ابن كثير في **السّيرة النبوية**، ٤٤٣/٤: «كان رسول الله يعتكف في كل شهر رمضان عشرة أيام، فلما كان من العام الذي توفي فيه اعتكف عشرين يومًا».

(٢) يؤكّد القرطُبي على أنّ هذه الآية أُنزلت قبل تسعة أيام على وفاة الرسول؛ وهو يحيل إلى رواية أخرى أفادت بأن هذه الآية أُنزلت قبل ثلاثة أيام أو قبل ثلاث ساعات على وفاته (انظر: **تفسير القُرْطبي**، ٣٧٥/٣).

رسول الإسلام. فاهتياج بطانته من حوله كان يفاقم حزنه ومرارته: فكم مرّة خلال مرضته الأخيرة، خالفه آل بيته وصحابته وعَصَوْا أوامره! وإذ كان مكلومًا، بدا الرسول كما لو أنه تُرِك وحيدًا، بل إنه شعر بارتياح لإمكانه مغادرة هذا العالم قريبًا.

لكن محمّد رحل والشعور بأنه أتمّ الرسالة يرافقه هو الآخر؛ وهذا شعور يمكن قراءته ضِمْنًا في الكلام الذي نطق به في اللحظات الأخيرة من حياته. إذ راح يكرّر أنه بلّغ الرسالة («ألا أني بَلَّغْتُ»)، تمامًا كما فعل في خطبة الوداع. وفي اللاحق من الأيام، وهو ما رأيناه سابقًا، أجاب محمّد بلالاً لمّا سأله عمَّنْ ينبغي له الحلول محلّه في إمامة الصلاة، قائلاً: «يا بلال قد بلَّغْتُ فمن شاء فليصلّ ومن شاء فليدع»[1]. حتى في لحظات احتضاره الأكثر شِدّة، نراه يسأل الله ثلاثًا: «اللهم هل بلّغت؟»[2]. وعلى ما يبدو كان محمّد منشغلاً أيّما انشغال بنجاحه في تبليغ الدعوة: فإن بدا راضيًا على الدور الذي أدّاه إلا أنه كان مرتابًا - وهذا أقل ما يقال - بما سيفعله المسلمون بالرسالة الإلهيّة. ذلك أن مسألة الانشقاقات والفتن متواترة في كلام الرسول خلال اللحظات الأخيرة من حياته[3]. هذا ما تعلمنا به المشهديّة المُمَسْرَحة بامتياز لزيارته الليليّة إلى مقبرة، حيث وقف يسُرّ باضطرابه وحَيْرته للأموات[4].

وفي الروايات المختلفة المتعلّقة بآخر أيام الرسول، بل وفي أخرى سبقتها، عُزِيَت إليه أحاديث عدة أعلن فيها شِقاق أمّته؛ قال: «وإني والله

---

(١) المتقي، كَنْز العمّال، ٢٦٢/٧؛ انظر أيضًا: ابن أبي شيبة، المصنّف، ١١٧/٢؛ ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٦٩/٢٠. وانظر كذلك الفصل الثاني عشر من كتابنا هذا.

(٢) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٢٣/٢.

(٣) صحيح مسلم، ٦٧/٧؛ انظر أيضًا: الطبراني، المعجم الكبير، ٢٧٩/١٧.

(٤) انظر الفصل السابع من كتابنا هذا.

ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن آخاف عليكم أن تتنافسوا فيها»[1]. بل إن الرسول تنبّأ بانقسام أمّته إلى ثلاثة وسبعين فرقة، لن تنجوا منها إلا واحدة من نار جهنّم[2]. كما أنه طلب من صحابته ألا يتنازعوا عَقِب موته، فتشابه حالتهم حال أصحاب يسوع؛ قال: «إن الله قد بعثني رحمة وكافّة، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم»[3]. وبالإضافة إلى ذلك، يبرز هذا الهَمّ الذي كان يعتري الرسول في شأن وحدة الأمّة، في نصّ قرآني يدعو فيه الله المسلمين إلى مكافحة كل نزعة انشقاقيّة: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[4].

ومن شأن هذا الحضور القويّ لموضوع الفتن والانشقاقات أن يظهر الدرجة التي لا يزال معها هاجس العنف الداخلي، الذي لا بدّ من ضبطه على الدوام، يسيطر على اللاوعي التاريخي للمسلمين.

لم يكن تشاؤم محمّد حِيال مستقبل أمّته إلا لمضاعفة ألمه الجسدي.

---

(١) صحيح البخاري، ٤٥١/١؛ انظر أيضًا: ابن حَنبَل، مُسْنَد، ٥٧٨/٢٨.

(٢) المتّقي، كَنز العمّال، ٣٧٧/١؛ انظر أيضًا: ابن حَنبَل، مُسْنَد، ١٢٤/١٤؛ أبو داود، سُنَن، ٣٢٣/٤؛ ابن ماجة، سُنَن، ١٣٢٢/٢؛ الطبراني، المعجم الكبير، ٢٧٣/٨؛ البيهقي، سُنَن، ٣٥١/١٠.

(٣) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٠٦/٢. ومن شأن هذا التحذير أن يرجع صدى آية في القرآن: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٥٣).

(٤) سورة الحُجُرات، الآية ٩.

وفي هذا الصّدد، قالت عائشة: «ما رأيتُ أحدًا كان أشدّ عليه الوجع من رسول الله صلّى الله عليه وسلم»[1]. ولقد خصّت مصادر التراث الإسلامي وصف وجع الرسول خلال احتضاره، بكمّ معتبر من الصفحات، مستولية على أنموذج أدبي يذكّرنا بلا شك بآلام المسيح، علمًا أن أبا القاسم كان هو نفسه مَنْ أشار إلى هذا التشابه عندما قارن قساوة احتضاره بالشدّة التي كابدها الأنبياء من قبله؛ إذ قال صلّى الله عليه وسلم: «ليس أحدٌ أشدّ بلاءً من الأنبياء، كما يشتدّ علينا البلاء كذلك يضاعَف لنا الأجر»[2].

غير أنَّ الرسول أكّد أيضًا على أنَّ مَبْلَغ ألمه يفوق مَنْ سبقوه، أي بالتناسب مع أهميّته في هرميّة الأنبياء وهو «خاتَمهم». بل إنه ينبغي على شهادته أن تكون علامة فارقة متكشّفَة عن محبة الله له؛ فهو سيجازى بقدر الآلام الجسدية التي يتكبّدها وبخاصة أنها ليست في نظره إلا تخفّفًا من ذنوبه.

دخل عبد الله بن مسعود على النبيّ، صلّى الله عليه وسلم، فوضع يده عليه ثمّ قال: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكًا شديدًا! قال: أجلْ إنّي لأوعك كما يوعك رجلان منكم، قال: قلت يا رسول الله ذلك بأن لك أجرَيْن! فقال: أجلْ أما

---

(1) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٠٧/٢؛ انظر أيضًا: ابن حَنبَل، **مُسْنَد**، ٢٤٦/٤٢؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ٥١٨/١؛ الترْمِذي، **سُنَن**، ٦٠١/٤؛ النّسائي، **سُنَن**، ٤٨/٧؛ النّسائي، **وفاة**، ٣٢؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٢٢/٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٧١/٤.

(2) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٠٨/٢؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٧٠/٤؛ الواقدي، **كتاب المغازي**، ٦٧٩/٢؛ ابن حَنبَل، **مُسْنَد**، ٣٩١/١٨؛ المتّقي، **كَنْز العمّال**، ٣٣٧/٣.

إنّه ليس من عبدٍ مسلم يصيبه أذىً فما سواه إلاّ حطّ الله به عنه خطاياه كما تحطّ هذه الشجرة ورقَها[1].

كان الرسول ممدّدًا في سريره عاجزًا عن مغادرته لشدّة الألم الذي يقطّع أوصاله، ومترنّحًا بين الوعي واللاوعي، لا يستيقظ من إغماءته إلا ليعود فيغرق فيها من جديد. كانت الحمّى تلتهم جسده كالنار، وفي قربه وعاء مليء بالماء يغطّس فيه يدَيْه ليشعر بشيء من الانتعاش[2]؛ وكان يتلوّى من الألم راجيًا الله إنقاذه من أوجاعه: «عن عائشة، قالت: رأيتُ رسولَ الله، صلّى الله عليه وسلّم، وهو يموت وعنده قدح فيه ماء وهو يُدخِل يدَه في القدح ثمّ يمسح وجهه بالماء ثمّ يقول: «اللّهمّ أعِنّي على سَكَرات الموت!»[3]. ووسط أنينه المستمر، كانت عائشة تسمعه يَتَلَجْلَج في بعض الأحيان قائلاً: «اذنُ منّي يا جبريل، اذنُ منّي يا جبريل، ثلاثًا»[4].

وعلى الرغم من كل ذلك، استيقظ الرسول يوم الاثنين الموافق فيه الثالث عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة (أي الثامن من حزيران/يونيو من العام ٦٣٢)، في الصباح الباكر وهو بصحّة أفضل. كان المسلمون في الخارج قد اجتمعوا في المسجد لأداء صلاة

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٠٧ - ٢٠٨؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤/ ٤٧٠؛ النّسائي، **سُنَن**، ٧/٤٧.

(٢) **صحيح البخاري**، ٤/١٦١٦ - ١٦١٧؛ النّسائي، **سُنَن**، ٧/٩٨.

(٣) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٥٨؛ انظر أيضًا: ابن حَنبَل، **مُسْنَد**، ٤٠/٤١٥؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ١/٥١٩؛ التّرمذي، **سُنَن**، ٣/٣٠٨؛ النّسائي، **سُنَن**، ٦/٣٨٩؛ النّسائي، **كتاب الوفاة**، ١/٤٧؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/٢٣١؛ ٢/٢٣١؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/٢٢٤؛ الطبراني، **المعجم الكبير**، ٢٣/٣٤؛ الحاكم النيسابوري، **مُسْتَدْرك**، ٢/٥٠٥؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤/٤٧٣.

(٤) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٥٨.

الفجر. وإذ سمع الدعوة إلى الصلاة، وجد محمّد في نفسه ما يكفي من القوة لينهض من سريره فيقترب من الباب الفاصل بين منزل عائشة والمسجد[1]. «رفع الستار» فرأى المسلمين يصلّون، فافترّ ثغره عن ابتسامة عريضة، أضاءت وجهه الشاحب «كأنه ورقة مصحف». وما لبثت الابتسامة أن تحوّلت إلى ضحكة. وإذ تنبّه المسلمون إلى أنه ينظر إليهم، راحت دموع التأثّر تَكُرُّ على وجوههم، وقطعوا صلاتهم ظنًّا منهم أن الرسول موافيهم، لكنه أشار إليهم أن يواصلوها:

عن أنس، قال: آخر نظرة نظرتُها إلى رسول الله يوم الاثنين، كشف الستارة والناس خلف الستارة والناس خلف أبي بكر فنظرت إلى وجهه كأنه ورقة مُصْحَف، فأراد الناس أن ينحرفوا فأشار إليهم أن امكثوا[2].

كان الرسول ينظر إلى المسلمين ويسمع أصواتهم تهرمِس بآيات القرآن؛ ثم ما لبث أن أرخى الستارة وعاد إلى مضجعه ليتمدّد بين ذراعي عائشة. وبما أنه لم يبقَ له إلا بضع ساعات يعيشها، كان هذا ظهوره العلني الأخير[3]. إن هذا المشهد معبِّر للغاية: فبوقوفه عند العتبة، كان

---

(١) مضى على الرسول ثلاثة أيام لم يقصد فيها المسجد، بحسب ابن كثير، في البداية والنهاية، ٢٥٦/٥.

(٢) ابن كثير، السّيرة النبوية، ٥٠٦/٤؛ انظر أيضًا: ابن ماجة، سُنَن، ٥١٩/١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧٥/٥.

(٣) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٥٣/٢ - ٦٥٤؛ ابن سعد، الطبقات...، ٢١٦/٢؛ صحيح البخاري، ٢٤٠/١ - ٢٤١؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٣٥/٢؛ الطبري، تاريخ...، ٢٣١/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤٨٤/٤. وثمّة رواية عن هذا الحدث مشبوهة نجدها في بعض المؤلّفات مثل البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٥/٥)، وسُنَن ابن ماجة (٥١٩/١)، وفيها أن محمّدًا ابتهج لرؤية المسلمين يصلّون خلف أبي بكر؛ ولكن هذه الفكرة لا تجد لها قبولاً لدى مصنّفين حجّة جزموا بأن أبا بكر كان في ذلك اليوم متواجدًا في السُّنْح.

محمّد يضع نفسه رمزيًا عند الحدّ الفاصل بين عالم الأحياء وعالم الأموات. ومن شأن ضحكته الفاصلة بين كشفِه السّتارة وإرخائها - كما لو أنه يحيّي جمهوره قبل انصرافه الأخير - أن تُضفِيَ على هذا الحدث، طابَعًا مسرحيًا فريدًا للغاية، وبخاصة أن الأدب العربي ما كان يعرف الفن المسرحي في تلك الحِقْبة.

في صبيحة ذاك الاثنين، استقبل محمّد أسامة بن زيد الذي أتاه سائلاً عن أحواله، قبل أن يشدّ الرّحال إلى بلاد الشام. وإذ سُعِد برؤيته «مفيقًا مريحًا»، استأذن أسامَة الرسول الانصراف، وعاد إلى معسكر الجُرْف، وقد كان غير بعيد عن المدينة. أما أزواجه اللواتي أشاع تحسّن صحته الاطمئنان في نفوسهن، فَرُحْن «يتماشطن سرورًا براحته»[1]. وسرعان ما حلّ أبو بكر عائدًا الرسول هو الآخر، قال: «يا رسول الله، أصبحتَ مُفيقًا بحمد الله، واليوم يوم ابنة خارجة[*]، فائذن لي! فأذن له فذهب إلى السُّنْح»[2].

لكن، ما كاد يصل معسكر الجُرْف، حتى أتى أسامةَ مبعوثٌ من والدته، أم أيمن، يعلمه «إن الرسول يموت! فاقبلَ وأقبلَ معه عمر وأبو عُبَيْدة»[3]. في الواقع، وعَقِب الارتياح الذي شعر به في مستهل صبيحة ذلك اليوم، تدهورت حال محمّد الصحيّة فجأة، إذ سرعان ما عادت أوجاع الرأس والحمّى متفاقمةً أكثر من ذي قبل، لتقِضّ مَضْجَعَه. روت عائشة أن زوجها كان ممدّدًا، ملفوفًا بإزار غليظ[4]، وطارحًا رأسه على

---

(١) الواقدي، كتاب المغازي، ٣/١١٢٠؛ انظر أيضًا: المتقي، كَنْز العمّال، ١٠/٥٧٤.
(*) إحدى أزواج أبي بكر واسمها حبيبة.
(٢) الواقدي، كتاب المغازي، ٣/١١٢٠؛ انظر أيضًا: ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٢/ ٦٥٤؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٣١؛ المتقي، كَنْز العمّال، ١٠/٥٧٤.
(٣) ابن سعد، الطبقات...، ٢/١٩١.
(٤) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤/٤٧٨.

ركبتَيْها[1]، عندما دخل رجل من عائلة أبي بكر، أي عبد الرحمن تحديدًا، شقيق عائشة[2]، «وفي يده سواك رَطْب وكان رسول الله [...] يُشخص بصره إليه»[*]. أدركت عائشة أن زوجها يريده، فتناولته ومَضَغَتْهُ فلَيَّنَتْهُ «ثم أدخلته في فِي رسول الله»[**]؛ قالت: «فاستنّ به كأشدّ ما رأيته يستنّ بسواك قط»[3]، «فجُمع بين ريقي وريقه»[***]، وهو ما رأت فيه عائشة فعلاً شهوانيًا أخيرًا أتته مع زوجها، كما لو أن امتزاج الريقَيْن قبل الفراق الأخير مباشرة، كان قبلة؛ قالت: «فجمع اللهُ ريقي وريقَه في آخر ساعةٍ من الدُّنْيا وأوّل يوْمٍ من الآخرة»[4]. ثم طرح محمّد السواك جانبًا[5]. إذ ذاك أحسّت عائشة أن رأس الرسول الراقدة في حجرها

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ٦٥٥/٢.

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٣٤/٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٤٥/٥.

(*) ابن سعد، عينه.

(**) ابن سعد، عينه.

(٣) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٥٤/٢؛ انظر أيضًا: الطبري، **تاريخ...**، ٢٣١/٢ - ٢٣٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٧٣/٤. كان الرسول حريصًا جدًا، كما رأينا، على صحته ومعتادًا على الاسْتِنان بالسّواك قبل الخلود إلى النوم (ابن سعد، **الطبقات...**، ٤٨٣/١).

(***) ابن سعد، عينه، ٢٣٤/٢.

(٤) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦١/٢؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٢٦١/٤٠؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٣٤/٢؛ **صحيح البخاري**، ١٦١٧/٤؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٤٦/٢؛ الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٤٦٠/٣؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٦٠/٥. إنها عادة متداولة بين هذين الزوجَيْن، حيث درجت عائشة على مَضْغ السواك لتليّنه قبل أن تعطيه لزوجها.

(٥) ثمّة روايات أخرى في احتضار الرسول تقول مستندة دائمًا على عائشة، إن الرسول، وقبل بضع دقائق على وفاته، «دعا بالطّسْت ليبول فيها» (ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/ ٢٦٠ - ٢٦١؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ٥١٩/١؛ النّسائي، **سُنَن**، ١٥١/٦؛ البيهقي، **دلائل النبوّة**، ٢٢٦/٧؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٧١/٥ - ٢٧٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٩٩/٤).

ثَقُلَت؛ ذلك أنه دخل في غيبوبة ما لبث أن استفاق منها، ليُشْخِص بصره إلى سقف البيت، قبل أن يجول بناظرَيْه في أرجائه، ببطء، كما لو أنه خرج توًا من منام[1]. تأملت عائشة وجهه، «فَإِذَا بَصَرُهُ قَدْ شَخَصَ»[2]. فراحت تمسّد يده الملتهبة. فإذا بمحمّد يبعد يد زوجته، هامسًا: «ارفعي عنّي فإنّها إنّما كانت تنفعني في المَرَّة»[3]. ثم راح جسده المنهك ينتفض، ومَضَت حَشْرَجَتُه تخفت، واختلاجاته تتضاءل شيئًا فشيئًا؛ فشعر بأن نَبْضَه يتسارع وفي الوقت نفسه يخبو. إذ ذاك بدأ الرسول بالرحيل عن هذه الدنيا. تجلّى جبريل في عتمة الغرفة؛ قال: «يا أحمد! هذا ملك الموت يستأذن عليك» [...] قال: ائذنْ له»[4].

---

(١) صحيح البُخاري، ٢٣٣٧/٥؛ صحيح مسلم، ١٧٣/٧؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤/ ٤٧٦.

(٢) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٥٥/٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات...، ٢١١/٢؛ انظر أيضًا: ابن ماجة، سُنَن، ٥١٧/١؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٢٢/٢.

(٤) ابن سعد، الطبقات...، ٢٥٨/٢؛ انظر أيضًا: المعجم الكبير (٥٨/٣) حيث يروي الطبراني: [...] وَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ أَنِ اهْبِطْ إِلَى حَبِيبِي وَصَفِيِّي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، وارْفُقْ بِهِ فِي قَبْضِ رُوحِهِ، فَهَبَطَ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَوَقَفَ بِالْبَابِ شِبْهَ أَعْرَابِيٍّ، ثُمَّ قَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَعْدِنَ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفَ الْمَلائِكَةِ، أَدْخُلُ؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لِفَاطِمَةَ: أَجِيبِي الرَّجُلَ. فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: آجَرَكَ اللهُ فِي مَمْشَاكَ يَا عَبْدَ اللهِ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ. فَدَعَا الثَّانِيَةَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا فَاطِمَةُ أَجِيبِي الرَّجُلَ. فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: آجَرَكَ اللهُ فِي مَمْشَاكَ يَا عَبْدَ اللهِ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ. ثُمَّ دَعَا الثَّالِثَةَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بيت النُّبُوَّةِ، وَمَعْدِنَ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفَ الْمَلائِكَةِ، أَأَدْخُلُ؟ فَلا بُدَّ مِنَ الدُّخُولِ. فَسَمِعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَ مَلَكِ الْمَوْتِ، فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ مَنْ بِالْبَابِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ رَجُلاً بِالْبَابِ يَسْتَأْذِنُ فِي الدُّخُولِ، فَأَجَبْنَاهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، فَنَادَى فِي الثَّالِثَةِ صَوْتًا اقْشَعَرَّ مِنْهُ جِلْدِي، وارْتَعَدَتْ فَرَائِصِي. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا فَاطِمَةُ، أَتَدْرِينَ مَنْ بِالْبَابِ؟ هَذَا هَادِمُ =

حدّق أبو القاسم طويلاً بجبريل، هذا الكائن الذي تجلّى له للمرة الأولى قبل عشرين عامًا وأمره بأن يقرأ نصًّا لم يستطع إلى فكّ حروفه سبيلاً. في ذلك اليوم، ظنَّ محمّد أن الجنون ذهب برشده؛ كان كلّ جسده يرتعش في غَشِيَّة جعلته يعتقد في البداية أن شيطانا تملّكه. أما اليوم، وبعد عقدَيْن من الزمن فإنّه، وبنفس الجسد المرتعش، يستقبل جبريل الآتي ليعلمَه بأن كتاب حياته لا بدّ له من أن يُطوى الآن. ولكي يعينه على هذا الانتقال الكبير، لم يحضر جبريل لوحده، بل مصحوبًا بعزرائيل الذي قال لمحمد: «يا رسول الله يا أحمد! إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني، إن أمرتني أن أقبِض نفسك قبضتُها، وإن أمرتني أن أتركها تركتُها»(*). وجد محمّد في نفسه ما يكفي من القوة ليجيب مُتَمْتِمًا: «اللهم الرفيق الأعلى»[1]، «مع الرفيق الأعلى في الجنّة».

رأت عائشة وجه محمّد يتّشح بالسكينة، ونظرته تَشِعّ فيما جفناه مستقرّان لا يتحرّكان وعيناه معلّقتان بالسقف. راح كل شيء يختفي من حوله، وتناهت إلى مسمعه، كما لو أنه كان يغوص في منام، بضع كلمات من القرآن كانت عائشة تُتَمْتِم بها. في الخارج، كانت الشمس تغيب[2]. اغْرَقَ جبينه، واكتسحت ارتعاشة جسده بكامله، ثم أخذ

=اللَّذَّاتِ، ومُفَرِّقُ الْجَمَاعَاتِ، هَذَا مُرَمِّلُ الْأَزْوَاجِ، ومُوتِمُ الْأَوْلَادِ، هَذَا مُخَرِّبُ الدُّورِ، وَعَامِرُ الْقُبُورِ، هَذَا مَلَكُ الْمَوْتِ، ادْخُلْ رَحِمَكَ اللهُ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ».

(*) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٥٩.

(١) الإمام مالك، **الموطأ**، ١/٢٣٩؛ انظر أيضًا: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ٢/٦٥١؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٤٣/٣٦٦؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/٢١٩؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/٢٣٠؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤/٤٧٧؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٦٠.

(٢) بحسب بعض الروايات، «توفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين اشتد الضُّحى=

التيبُّس يتصاعد. نَفَسٌ أخير فتح فمه وسرعان ما أغلقه، كلمة التهمها الصمت قبل أن تُلفَظ؛ قالت عائشة: «فخرجت من فيه نُطْفَة باردة، فوقعت على ثُغْرَة نَحْري فاقشعرّ لها جلدي»[1]. «وَمَالَتْ يَدُهُ فِي الْمَاءِ»[2]. مات الرسول.

=من ذلك اليوم، وقيل «عند زوال الشمس»؛ هذا ما أفاد به ابن كثير (السّيرة النبوية، ٤٨٤/٤) قائلاً بالتالي إن اعتماد الإمكانيّتَيْن جائز.

(١) ابن سعد، الطبقات...، ٢٦١/٢؛ انظر أيضًا: ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٢/٥؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤٧٩/٤.

(٢) ابن كثير، عينه.

الفصل السادس عشر
«كيف يموت وهو شهيدٌ علينا؟»(*)

وقع خبر وفاة محمّد على المؤمنين كالصاعقة، وقد أعلنه على ما يبدو الشخص الوحيد الذي كان شاهدًا على اللحظة المُفْجِعَة ونعني به عائشة، التي لم تدرك في بداية الأمر أن الرسول قد مات، بل ظَنّت أنه دخل إغماءة جديدة. لكن عندما رأته لا يستفيق، سجّته ونادت على عمر والمغيرة بن شُعْبَة الواقِفَيْن في باب الحجرة؛ وبينما حاول عمر إيقاظ الرسول، قالت له: «غشي عليه منذ ساعة». قالت:

فَسَجيَّتُهُ ثَوْبًا. فَجَاءَ عُمَرُ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ فَاسْتَأْذَنَا فَأَذِنْتُ لَهُمَا، وَمَدَدْتُ الْحِجَابَ، فَقَالَ عُمَر: يَا عَائِشَةُ. مَا لِنَبِيِّ اللهِ؟ قُلْتُ: غُشِيَ عَلَيْهِ مُنْذُ سَاعَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وجهه، فَقَالَ: وَاغَشْيَاهُ مَا أَشَدَّ غَشْيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم. ثُمَّ قَامَا فَلَمَّا دَنَوَا مِنَ الْبَابِ قَالَ الْمُغِيرَةُ: يَا عُمَرُ مَاتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ: كذبت بل أَنت رجل تَحُوسُكَ فِتْنَةٌ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِيَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ[1].

(*) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٧١.

(١) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٤/٤٣؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٦٢؛ ابن=

أدركت عائشة أن محمّدًا قد قُبِض، فخرجت من الحجرة مُوَلْوِلةً:

«عن يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عبّاد، قال: سمعت عائشة تقول: [...] وقمتُ ألْتَدم مع النساء، وأضرب وجهي»[1].

جزمت الرواية الأكثر رواجًا في مصادر التراث الإسلامي بأن الرسول توفّي في حِجْر زوجته عائشة. غير أن ثمّة روايات أخرى نجدها حتى في المصادر الإسلاميّة السنيّة قالت إن الرسول مات بين ذراعَيّ عليّ. بل إن مصنّفًا من مصاف ابن سعد على سبيل المثال، أبدى ارتيابه في حضور عائشة في جانب زوجها المحتضر[2]. وإذ ردّ على أبي غَطفَان الذي سأله: «أَرَأَيْتَ رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، توفّي ورأسه في حجر أحد؟». قال ابن عَبّاس: «توفّي وهو لمستند إلى صدر عليّ»؛ قال ابن غَطفَان:

> فإنّ عروة حدّثني عن عائشة أنّها قالت تُوفّي رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، بين سَحْري ونَحْري! فقال ابن عَبّاس: أَتَعْقِلُ؟ واللهِ لَتُوُفّي رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، وإنّه لمستندٌ إلى صدر عليّ، وهو الذي غسله وأخي الفضل بن عبّاس[3].

ومن جهته، أكّد النّسائي هو الآخر هذه الرواية وتحدّث عن مجيء

=كثير، السّيرة النبوية، ٤٧٩/٤؛ ابن سعد، الطبقات...، ٢٦٧/٢؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٣٧/٢؛ البيهقي، دلائل، ٢١٤/٧.

(١) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٥٥/٢؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٦٨/٤٣؛ ابن سعد، الطبقات...، ٢٦٢/٢؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٣٦/٢؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢٣٢/٢.

(٢) خصّص ابن سعد فصلاً كاملاً لهذه المسألة في الطبقات...، ٢٦٢/٢ - ٢٦٣.

(٣) ابن سعد، عينه، ٢٦٣/٢؛ انظر أيضًا: المتّقي، كَنْز العمّال، ٧٥٣/٢؛ ابن حَجَر، فَتْح الباري، ١٣٩/٨.

عليّ الاثنين، وقد كان يوم وفاة محمّد؛ وهو في هذا الصدد ذكر شهادة أم سَلَمة التي قالت:

والذي تحلف به أم سَلَمة أن كان أقرب الناس عهدًا برسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ قالت لما كان غداة قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ وكان في حاجة أظنه بعثه فجعل يقول جاء علي ثلاث مرات فجاء قبل طلوع الشمس فلما أن جاء عرفت أن له إليه حاجة فخرجنا من البيت وكنا عدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ في بيت عائشة فكنت في آخر من خرج من البيت ثم جلست أدناهن من الباب، فأكب عليه عليّ فكان آخر الناس به عهدًا جعل يساره ويناجيه[1].

وفي كتاب سُلَيم، وهو مصدر شيعي، ثمّة فصل مخصّص لآخر كلمات الرسول: والشخصيّة الرئيسيّة في هذا المشهد كانت عليًا الذي جزم بأن محمّدًا أسَرّ إليه برغباته الأخيرة قبل لحظات على موته. آنذاك، كان الرسول يُسْنِد رأسه إلى صدر صهره، فيما كانت اثنتان من نسائه (أي عائشة وحَفْصة) تسترقان السمع؛ قال الرسول:

اللهم سدّ مسامعهما؛ ثم قال لي: يا علي، أرأيت قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [٩٨، سورة البيِّنَة، الآية ٧]، أتدري مَنْ هم؟ [...] قال: فإنهم شيعتك وأنصارك، وموعدي وموعدهم الحوض يوم القيامة إذا جثت الأمم على ركبها وبدا الله في عرض خلقه ودعا الناس إلى ما لا بدّ لهم منه.

---

(١) النّسائي، كتاب الوفاة، ١/٥٢؛ انظر أيضًا: النّسائي، سُنَن، ٧/٤٦٥.

فيدعوك وشيعتك، فتجيئون غرا محجلين شباعا مرويين.

يا علي، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [سورة البينة، الآية: ٦] فهم اليهود وبنو أمية وشيعتهم، يبعثون يوم القيامة أشقياء جياعًا عطاشى مسودة وجوههم(١).

عرفت عائشة بأنهم يشكّكون بوجودها في جانب الرسول لحظة وفاته، فثارت ثائرتها ضد الرواية التي ادّعت أن زوجها لفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعَيّ صهره:

قيل لعائشة أكانَ رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، أوصى إلى عليّ؟ قالت: لقد كان رأسُه في حجري فدعا بالطّسْت فبال فيها فلقد انخنث في حجري وما شعرتُ به، فمتى أوصى إلى عليّ؟(٢).

نلاحظ هنا أن مصير الخلافة مرهون رمزيًا بذراعي مَنْ كان الشاهد على أنفاس الرسول الأخيرة.

نزل خبر موت محمّد بالمدينة كالزَّلْزَلَة. راح آل بيت أبي القاسم وصحابته يتراكضون، وقد فقدوا صوابهم، باتجاه منزل عائشة كما لو أنهم أرادوا التحقّق من واقع صَعُبَ عليهم تقبّله؛ ومن جهته، أسدى أسامة بن زيد للجيش المعَسْكِر في الجُرْف الأمر بالعدولِ عن الحَمْلة

---

(١) كتاب سُلَيم، ٣٥٩/١.

(٢) ابن سعد، الطبقات...، ٢٦١/٢ و٢٦٠/٢؛ انظر أيضًا: ابن ماجة، سُنَن، ٥١٩/١؛ النّسائي، سُنَن، ١٥١/٦؛ البيهقي، دلائل النبُوّة، ٢٢٦/٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧١/٥ - ٢٧٢. وفي الطبقات الكبرى (٢٦٠/٢)، ثمّة جملة قالتها عائشة: «ما ترك رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، دينارًا ولا درهمًا ولا شاةً ولا بعيرًا ولا أوصى بشيء».

نحو بلاد الشام والعودة أدراجهم فورًا إلى المدينة. ولما وصل، سأل بُرَيْدَة بن حُصَيْب رَفْعَ راية الإسلام أمام باب بيت الرسول[1]. وإذ دخلت حجرة الرسول، وضعت أسماء بِنْت عُمَيْس يدها بين كتِفَيّ الرسول، وصاحت: «قد تُوفّي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد رُفع الخاتَمُ من بين كتفَيْه»[2]. وسرعان ما سُمِع صوت قائل من عمق الغرفة وقد كان صوت الخَضِر، الذي أتى آل محمّدٍ معزّيًا:

عن أنس بن مالك، قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أَحْدَق به أصحابه فبكوا حوله واجتمعوا، فدخل رجل أشهب اللحية جَسِيم صَبِيح فتخطّى رقابهم فبكى، ثم التفت إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة، وعوضًا من كل فائت، وخَلَفا من كل هالك، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا، ونَظَره إليكم في البلايا فانظروا، فإن المصاب من لم يُخْبَر، فانصرف. فقال بعضهم لبعض: تعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعلي: نعم هذا أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم الخَضِر[3].

---

(1) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٥٦/٢.

(2) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٢/٢؛ انظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٤٠/٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤٨٣/٤. ولقد قيل في خاتَم النبوّة إنّه «شَعْرٌ مجتمع عند كتِفَيّ [الرسول] مثل بيضة الحمامة» أو بوصفه «سَلعة مثل بيضة الحمامة»، أو «كأنها الثآليل». انظر: ابن سعد، **الطبقات...**، ٤٢٥/١ - ٤٢٦.

(3) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٥٥١/٤؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦٠/٢. إنّ شخصيّة الخَضِر، التي يُرى إليها كرسول أو قدّيس بحسب المعتقدات، كائن سرمدي ماثل في مِخيال كل الأديان التوحيديّة (وهو مُتَمثّل بالقديس جاورجيوس لدى المسيحيّين وبالنبي اليَسَع (أو اليَشَع)، ابن عم الياس النبي عليهما السلام، لدى اليهود). ويَعُدّه المتصوّفة المسلمون بشكل خاص، مختزن المعرفة الكليّة النابعة من الله.

تجمّع المسلمون البكايا في المسجد[1]، وقد سارعوا إليه مذعورين صائحين: «كيف يموت وهو شهيدٌ علينا ونحن شهداء على الناس فيموت ولم يظهر على الناس؟ لا والله ما مات ولكنه رُفع كما رُفع عيسى بن مريم، صلى الله عليه وسلم، وَلَيَرْجَعَنّ!»[2]. أما عمر فلم يصدّق الخبر هو الآخر واندفع باتجاه القوم المحتشدين أمام بيت محمّد وصاح بهم: «إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تُوفّي، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات؛ والله ليرجعَنّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى»[3].

إن انعدام قدرة عمر على تصديق الخبر يجد له صدى في جملة نطق بها إبّان حادثة الوصيّة: «مَن لفلانة وفلانة مَدائن الرّوم؟ إنّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليس بميت حتّى نَفْتَحها ولو مات لانتظرناه كما انتَظَرتْ بنو إسرائيل موسى!»[4] وإذ كان كعادته لاذعًا، أضاف عمر وقد تزبّد فمُه[5]:

---

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٦٣/٥.

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧١/٢؛ انظر أيضًا: الشَّهْرَستاني، **المِلَل والنِّحل**، ٢١/١؛ الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٣٣٢/٢؛ وبحسب البلاذُري في **أنساب الأشراف** (٢٤٢/٢ - ٢٤٣)، فإن عثمان هو الذي قارن محمّدًا بيسوع عليه السلام.

(٣) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٥٥/٢؛ انظر أيضًا: ابن أبي شَيْبَة، **المصنّف**، ٤٢٩/٧؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٣٠/٢٠؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦٦/٢؛ الدارمي، **سُنَن**، ٥٢/١؛ **صحيح البخاري**، ١٣٤١/٣؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٤٣/٢؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٢/٢؛ المتقي، **كَنْز العمّال**، ٢٤٤/٧.

(٤) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٤٤/٢؛ انظر أيضًا: الفصل الحادي عشر من كتابنا هذا.

(٥) الدارمي، **سُنَن**، ٥٢/١؛ ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ٢٩٧/١؛ السُّيوطي، **جامع الأحاديث**، ٣٥٠/٢٨؛ المتقي، **كَنْز العمّال**، ٢٤٤/٧.

إِنَّ رِجَالاً مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تُوُفِّيَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مَاتَ، وَلَكِنَّهُ ذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ كَمَا ذَهَبَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، فَقَدْ غَابَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ قِيلَ قد مَاتَ، ووالله لَيَرْجِعَنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا رَجَعَ مُوسَى، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ زَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ[1].

وتشير روايات أخرى إلى أنَّ عمرَ قال أيضًا في هذا الخِضمّ: «لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا»![2].

كان ابن الخطّاب معتادًا على هذا الأسلوب: فهو يحبِس معارضيه في دوامة من الكلمات والحركات العنيفة لاقتناعه بأن قسوة ألفاظه الغليظة وخشونة تصرفاته تضمنان له إظهار إيمان راسخ لا يتزعزع؛ علمًا أننا لو تفحّصنا مليًا هذا السلوك، لحملنا على التساؤل ما إذا كانت فَوْعَته ليست إلا أداء ممثّل فاشل...

أمام تهديدات عمر، لزم القوم الصمت؛ فهم «كانوا قومًا أُمّيين لم يكن فيهم نبي قبله»[3].

في الواقع، يحيل تهديد عمر ووعيده المنذران مَنْ يدّعون أن الرسول

(1) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٥٥/٢؛ انظر أيضًا: البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٤٠/٢ - ٢٤٣؛ الطّبري، تاريخ...، ٢٣٢/٢ - ٢٣٣.

(2) النّسائي، سُنَن، ٣٩٥/٦؛ انظر أيضًا: ابن الأثير، أُسْد الغابة، ٢٢٧/٣.

(3) النّسائي، كتاب الوفاة، ٧٣/١. إن لفظ «أمّي» وجمعه «أميّون» أجاز ببناء أسطورة الرسول الأمّي؛ لكن قول النّسائي يُزوّدنا ببرهان مفاده أن «الأميّين» هم «القوم المفتقرون إلى رسول» أو إلى «كتاب»، وهو بلا شك ما أدى بمفهوم الأميّة إلى إثارة الإرباك.

قد مات، بعودته وبتقطيعه أوصالهم، إلى عقاب أنزله الرسول يومًا في بَدَوِيّي عُرَيْنَةَ الذين سرقوا قطيعه وقتلوا يسّار، راعيه. في ذلك اليوم، استبد الغضب بمحمّد، فأمر بملاحقتهم وإعادتهم بالقوة، ليُنْزِل بهم حكمه الصارم المنزوع الشّفقة:

إن أناسًا من عُرَينة قدموا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتووا المدينة. فقال «لو خرجتم إلى ذود لنا، فشربتم من ألبانها وأبوالها» ففعلوا. فارتدوا على الإسلام. وقتلوا راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم. واستاقوا ذوده فبعث رسول الله في طلبهم فجيء بهم. فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَر أعينهم وتركهم بالحرّة حتى ماتوا»[١].

وعَقِب هذه الحادثة، أنزلَت آية قرآنيّة[٢]، كان لموقف عمر أن ذكّر بها إخوته في الدين.

وخلال هذا الوقت، عاد أبو بكر من السُّنْح الواقعة على بعد كيلومترَيْن «شرقيّ المدينة»[٣]، ودخل الغرفة المأتميّة ليجد ابنته عائشة تجهش بالبكاء وتلطم وجهها، وكان جسد الرسول قد «سُجِّيَ [...] بثوْب حِبْرَة»[٤]، والنساء متحلّقات حول سريره[٥]. «فكشف الثوب عن

---

(١) ابن ماجة، سُنَن، ٢/٨٦١؛ انظر أيضًا: النّسائي، سُنَن، ٧/٨٣ - ٨٤ و٣/٤٢٩ - ٤٣٠.

(٢) إنها الآية ٣٣ من سورة المائدة، وترتيبها ٥: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(٣) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٣/٢٦٥؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤/ ٤٨٤.

(٤) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٦٤؛ وفيه أيضًا: «عن عائشة قالت: إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين توفّي سُجّي ببُرد حِبَرَة».

(٥) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٦٣.

وجهه ثم قبّل جبهته»(*)، قائلاً: «بأبي أنت وأمي! أما المَوْتَة التي كتب الله عليك فقد ذُقْتَها، ثم لن يصيبَك بعدها موتةٌ أبدًا»(١)، مضيفًا: «ما أطيب حياتك وأطيب ميتتَك!»(٢). وبصوت تخنقه العبرات، قال أبو بكر: «وانبيّاه! [...] واخليلاه! [...] واصفيّاه!»(**). «ثم ردّ الثوب على وجهه، ثم خرج»(٣).

في الخارج، كان الارتباك على أشدّه(٤). تقدّم العبّاس، عمّ الرسول، أمام حشد المسلمين وقال لهم: «اشهدوا أيها الناس أن أحدًا لا يشهد على رسول الله بعهد عَهِده إليه في وفاته، والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت»(٥). وإذ رأى عمرَ يخطُب

(*) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦٥/٢.

(١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٣٢/٢؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/ ٢٦٥، وفيه: «ما أطْيَبَ مَحْياكَ ومماتك! لأنتَ أكْرَمُ على الله من أن يسقيك مرّتين!».

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦٤/٢ - ٢٦٥؛ انظر أيضًا: **صحيح البُخاري**، ١٣٤١/٣ - ١٣٤٢؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٣/٢. وتجدر الإشارة إلى أن الجملة المنسوبة إلى أبي بكر القائل للرسول المسجّى: «ما أطيب حياتك وأطيب ميتتك!» أو «ما أطيب مَحْياكَ ومماتك!»، موجودة في **السّيرة النبويّة** لابن إسحاق، وفي **السّيرة النبويّة** لابن هشام، ولكن بصيغة مختلفة.

(**) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦٥/٢.

(٣) الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٢/٢؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦٥/٢؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٣٧/٢.

(٤) الواقدي، **كتاب الرّدّة**، ٢٧/١. يخصّص الواقدي فصلاً كاملاً لوصف الاضطراب الذي هزّ المدينة عَقِب الإعلان عن وفاة الرسول؛ وفي وصفه هذا ما يعلمنا بالكثير عن الضَّعْضَعة التي نالت من دين محمّد بعد الإعلان عن موته مباشرة، فيكتب قائلاً: «لَمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ صلّى الله عليه وعلى آله وَسَلَّمَ، شَمِتَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِأَهْلِ الإِسْلامِ، وَظَهَرَ النِّفَاقُ فِي الْمَدِينَةِ مِمَّنْ كَانَ يُخْفِيهِ قَبْلَ ذلك، وماج الناس».

(٥) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤٨١/٤؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦٥/٢؛ **صحيح البُخاري**، ١٦١٨/٤؛ النّسائي، **سُنَن**، ٣٨٦/٢؛ الحاكم النّيسابوري،=

في القوم ويستفيض، ناكرًا موت محمّد ومهدّدًا مَنْ يعارض قوله هذا، سارع أبو بكر إلى التهدئة من رَوْع المحتشدين[1]. ثم حاول حمل عمر على تحكيم العقل (أو لعله تظاهر بأنّه يفعل)، فطلب منه الجلوس مرّتين على التوالي، غير أن عمر، الشديد الاضطراب، رفض: «قال الزهري: وحدثني أبو سلمة، عن ابن عبّاس، أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس. فقال: اجلس يا عمر. فأبى عمر أن يجلس. فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس»[2]:

فَقَالَ: عَلَى رِسْلِكَ يَا عُمَرُ، أَنْصِتْ، فَأَبَى إلاَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ لاَ يَنْصِتُ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ كَلاَمَهُ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ. ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: وَما مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ، وَمن يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ٣: ١٤٤[3].

وفي هذا الشأن، كتب ابن هشام: «فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن

=مُسْتَدْرَك، ٣٢٣/٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٣/٥؛ السُّيوطي، جامع الأحاديث، ٣٨/٢٥؛ المتّقي، كَنز العمّال، ٢٣٤/٧.

(١) ابن هشام، السيرة النبويّة، ٦٥٦/٢؛ ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٤/٤٣؛ ابن سعد، الطبقات...، ٢٧١/٢؛ صحيح البُخاري، ٤١٩/١، ١٣٤١/٣ - ١٣٤٢؛ ابن ماجة، سُنَن، ٥٢٠/١؛ الطبري، تاريخ...، ٢٣٢/٢ - ٢٣٣؛ الحاكم النّيسابوري، مُسْتَدْرَك، ٣٢٣/٢؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٨٠/٤ - ٤٨١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٣/٥؛ المتّقي، كَنز العمّال، ٢٣٤/٧.

(٢) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٨٠/٤؛ انظر أيضًا: الإصفهاني، حِلية الأولياء، ٢٩/١.

(٣) صحيح البُخاري، ١٣٤١/٣ - ١٣٤٢.

هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ»[١]. هذا مع العلم، وبحسب أهم تفاسير القرآن، أن هذه الآية يوم نزلت إبّان وقعة أُحُد، أثّرت في نفوس المسلمين، لأنهم ظنّوا أن محمّدًا قد قُتل. غير أن المثير للاستهجان هو أنّ ما من مقرّب واحد من الرسول احتفظ بذكرى هذه الآية في خُلْده[٢].

ثمّة رواية أخرى عن إنكار عمر وردّ فعل أبي بكر تظهر اختلافًا بسيطًا وتستحق مع ذلك أن نتوقف عندها ونحلّلها: «لما قبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دخل عمر أمر جليل، فأقبل والهًا مدلهًا يقول: ما مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا يموت، إنما هذه غشية. فقال أبو بكر: أشككت في دينك يا عمر؟»[٣]. وقد سبق لنا ورأينا أن عمرَ، ذا الطبيعة الارتيابيّة على ما يبدو، غالبًا ما يقع فريسة للشكّ. وسرعان ما

---

(١) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٢/٦٥٦؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٦٨، ٢/٢٧٠؛ **صحيح البُخاري**، ١/٤١٩؛ ابن ماجَة، **سُنَن**، ١/٥٢٠؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤/٤٨٠ - ٤٨١.

(٢) وإذ نُحْجِم عن الخوض في متاهة التفسير القرآني، نلفِت إلى رواية تعزّز الغموض المحيط بالآية موضوع الاستغراب. فبحسب السُّيوطي، ليست هذه الآية إلا جملة نطق بها مُصْعَب بن عُمَيْر، حامل لواء الرسول في ساحة وَقْعَة أُحُد. ففي مشهديّة، بلغت فيها استمالة النفوس من خلال استغلال عواطف القوم ومشاعرهم ذروتها، نرى مُصْعَبًا يصرخ بهذه الجملة، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة متأثّرًا بجراحه. كان يومذاك يحمل راية محمّد بيُمناه، فلما قطعت، التقط الراية بيسراه، ناطقًا بالجملة التالية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...﴾. وعندما بترت يده اليسرى، «فحنا على اللواء وضمّه بعضويه إلى صدره، وهو يقول (وما محمد إلا رسول). وما لبث مُصعَب أن قُتل فَهَوَت راية الرسول أرضًا. ولقد أدْرَج السُّيوطي هذه الآية في الفصل المخصّص للآيات التي نزلت «على لسان الصحابة». هذا ما يفسّر الارتباك الكبير الذي أحاط بآية لا نعرف ما إذا كانت كَشْفًا إلهيًا أو جملة نَطَق بها صحابيّ من صحابة الرسول. انظر السُّيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ١/١٠١.

(٣) البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/٢٤١.

أضاف أبو بكر: «أما سمعت الله يقول لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾» [٣٣، سورة الزُّمَر، الآية: ٣٠]. إذ ذاك شعر عمر بالارتياح وقال: «والله لكأني لم أسمعها قبل يومي هذا. وأكبّ على رسول الله ﷺ يقبّل جبينه ويبكي»[١]. وفي هذه الرواية، نرى أبا بكر يستذكر آية قرآنيّة أخرى لإقناع عمر بوفاة الرسول، ولكن ردّ فعل ابن الخطّاب بقي هو هو لا يتغيّر: فهو لم يسمع قطّ بهذه الآية من قبل!

ويحسب مصنّفين معتبرين من أمثال الواقدي وابن كثير، استذكر أبو بكر، يوم وفاة الرسول، ثلاث آيات أخرى لإقناع عمر، غير أن ما من أحد كان يذكرها[٢]، علمًا أن الرسول هو نفسه قد أطلق على أبي بكر لقب «الصدّيق»؛ لذا، فإنه لم يكن على عمر إلا الانصياع فالامتثال لما قال[٣]. ومن هنا، شكّلت كلمات أول الخلفاء الراشدين لحظة تأسيسيّة

---

(١) عينه.

(٢) بحسب ابن كثير، في السّيرة النبويّة (٤٨٢/٤)، كانت الآيات التي استذكرها أبو بكر هي التالية: ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٢٨، سورة القصص، الآية: ٨٨]؛ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾ [٥٥، سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ و٢٧]؛ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ [٣، سورة آل عِمْران، الآية: ١٨٥]. في المقابل، يؤكد الواقدي في كتاب الرِّدّة (٣٠/١) أن أبا بكر تلفظ بالآيات التاليات:
﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [٣٩، سورة الزُّمَر، الآية: ٣٠]؛
﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [٢١، سورة الأنبياء، الآيتان: ٣٤ و٣٥].
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [٣، سورة آل عِمْران، الآية: ١٤٤].

(٣) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٣٨/٢.

في تاريخ الإسلام؛ فانطلاقًا من هذه اللحظة الحاسمة، تكشّف القرآن عن وظيفته كأداة فعّالة في السيطرة على المشاعر الجماعيّة، وهو ما سيتذكره كل الذين توالوا على الحكم بعد أبي بكر...

تمادى عمر في التظاهر المبالَغ فيه وفي لعب دور الشخص المصدوم. ونستشف هذه المغالاة عندما نقرأ الوصف الوارد على لسانه إذ قال: «فعَقِرت حتى وقعت إلى الأرض ما تَحْمِلُني رِجْلاي، وعرفت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد مات»[1]. وبهذا نجحت برودة أبي بكر العقلانيّة بترويض ردّ فعل عمر الأهوج والمتهوّر: إذ ولكونه رجلًا حكيمًا وسياسيًا ممكّنًا، أمكن له الارتقاء إلى مستوى الحدث وتهدئة الخواطر. ولقد كان لموقفه الرابط الجأش هذا أن هيّأه لقيادة الأُمّة حتى ولو لم يكن قد بويعَ خليفة بعد، ذلك أنه هو مَنْ حمل المسلمين على الإقرار بموت الرسول:

> قالت أم سَلَمة: فصِخْنا وصاح أهل المسجد، فارتجَّت المدينةُ صَيْحَة واحدة، وأذّن بلال بالفجر، فلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى وانتحب، فزادنا حزنًا وعالج الناسُ الدخول إلى قبره فغُلق دونهم، فيا لها من مصيبة ما أُصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به صلى الله عليه وسلم[2].

---

(1) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٦٥٤/٢ - ٦٥٦؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٤/٤٣؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦٧/٢؛ **صحيح البُخاري**، ٤١٩/١، ١٣٤١/٣ - ١٣٤٢، ٤/ ١٦١٨؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ٥٢٠/١؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٣/٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤٨١/٤؛ المتقي، **كَنْز العمّال**، ٢٣٣/٧ - ٢٣٤.

(2) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٥٣٨/٤ - ٥٣٩؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/ ٢٩١. ويقول البلاذُري في **أنساب الأشراف** (٢٣٨/٢ - ٢٣٩؛ ٢٥٢/٢) إن الانفعال بلغ حدًا أوشكت أسقف المنازل معه على الوقوع أرضًا، بسبب نُواح المسلمين.

من شأن موقف الرجلَيْن خلال اللحظات الأولى التي تلت وفاة الرسول أن يستثير عددًا من الأسئلة ومنها: لماذا كان أبو بكر غائبًا عن المدينة لحظة موت محمّد؟ وكيف نفسّر عدم حضوره في جانب صديقه المحتضِر؟ ألم تقل لنا المصادر الإسلاميّة إنّه أمّ المصلّين بالنيابة عنه؟ ما السبب الكامن وراء ذهابه إلى السُّنْح، البعيدة عن المدينة، في حين لديه منزلٍ يأويه في جوار أبي القاسم مباشرة؟ ولنذكّر في هذا السياق، إن أبا بكر كان قد عصى أوامر الرسول وغادر معسكر أسامَةَ محتجًّا بنيّته السهر عليه في مرضه؛ فلما نجده إذن وقد قصد السُّنح في تلك اللحظة الدقيقة الحرجة؟ تُعْلِمُنا كتب التراث الإسلامي أنه كان يأوي في ذاك المنزل «بَيْتَ مال» مُحْكَم الإقفال؛ وفي هذا الشأن، يكتب ابن سعد، في **الطبقات الكبرى**، عن جُبير بن الحُويرث، «أن أبا بكر كان له بيتُ مال بالسُّنْح معروف ليس يَحْرسُه أَحَدٌ، فقيل له: يا خليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ألا تَجْعَلُ على بيت المال من يحرسه؟ فقال: لا يُخافُ عليه، قلت: لِمَ؟ قال: عَلَيْه قُفْلٌ»[1]؛ فأيّة ضرورة أَحْوَجَتْه إلى البقاء في جانب ماله، في تلك اللحظة الحرجة؟ أكان يتحضّر لمناورة ما تقتضي منه أن يدفع للناس مالاً؟

ثم إن موقف عمر يبدو هو نفسه موقفًا مثيرًا للارتياب: ذلك أن ابن الخطّاب أنكر وفاة الرسول وزعم عدم معرفته بالآية التي تلاها أبو بكر (أي الآية ١٤٤ من سورة آل عِمْران)؛ وإنه لمن الصعب أن نصدّقه بما أن الآية نزَلَت يوم وقعة أُحُد، عندما فرّ مع الفُرّار بحسب قوله. فكيف لواحد من أقرب الصحابة إلى محمّد أن يجهل آية تحيل إلى حدث بهذه الأهميّة؟ وإن كان الأمر يثير الارتياب فلأن عُمَرَ خصوصًا لا يستطيع أن

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢١٣/٣؛ انظر أيضًا: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٣٢٠/٣٠؛ ابن الأثير، **الكامل**، ٢٦٤/٢؛ المتقي، **كنز العمّال**، ٦١٤/٥.

يكون جاهلاً لها، لأن المشهور هو أن العديد من آيات القرآن «استُلهمَت» من كلماته. في الواقع، لا تتوقّف المصادر الإسلاميّة عن التوكيد على دور ابن الخطّاب في تنزيل بعض المقاطع القرآنيّة. ففي فصل عنوانه «فيما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة»، لا يذكر السّيوطي إلا واحدًا من هؤلاء الصحابة، وهو عمر بن الخطّاب[1]؛ فعندما كان الأخير يدلي برأي، كانت تنزل آية تؤكّده؛ ولقد حصل ذلك ثلاث مرات أقلّه، وتحديدًا في شأن الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالحجاب. ثم إن كان فقدان الذاكرة الذي ادّعاه عمر مدعاة للشكوك في صدقيّة مزاعمه فلأنه كان، ومن بين كل صحابة الرسول، أكثرهم احتكامًا على الحافظة الأفضل للقرآن[2]. فعلى سبيل المثال، وحتى أواخر أيامه، لم يكفّ عمر يومًا عن التأكيد على أن آية الرجم [وآية رِضاع الكبير] قد أنزلتا حقًّا وغُيّبتا عن القرآن. كان إذن الوحيد الذي تذكّرهما:

فجلس عمر على المِنبَر فلما سكت المؤذن قام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس فإني قائل مقالةً وقد قدِّر لي أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدَي أجَلي، فمن وعاها وعَقلها فليحدّث بها حيث انتهت به راحلته، ومن لم يَعِها فلا أُحلُّ له أن يَكْذب عليّ.

إن الله بعث محمّدًا بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرَّجْم فقرأناها ووعيناها وعقلناها، ورجَم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجَمْنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آيةَ الرجم في كتاب الله.

---

(١) السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١/١٠٠ - ١٠٢.

(٢) لنذكّر في هذا السياق بأن ابنته حَفْصة كانت تمتلك مصحفًا للقرآن ما عاد اليوم موجودًا.

فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله عزّ وجل، فالرجم في كتاب الله حقٌّ على من زنى إذا أحْصِن من الرجال والنساء إذا قامت البيّنة أو كان الحبَل أو الاعتراف(١).

وبالإضافة إلى ذلك، احتكم عمر على ذكريات أكثر دِقّة في الظروف التي أحاطت بالتنزيل. فإذ استذكر آية أُنزلت إبّان حجّة الوداع، قال عمر: «إني لأعلم حين أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت: أنزلت يوم عرفة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة»(٢).

ولقد سبق لنا أن رأينا كيف أن الآية المذكورة (﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾)(٣)، أبكت عمرَ يوم نزلت لكونه رأى فيها إشارة تنذِر بوشوك موت الرسول(٤). وبالتالي، فإنه من المثير للاستغراب أن يكون أول من استشعر وفاة محمّد الوشيكة، هو مَنْ كان أكثر الصحابة ضراوة في إنكارها ساعة حلّت!

وثمّة فعل غريب آخر وقع في اللاحق من الزمن، غداة مبايعة عمر خليفةً، حيث قال لابن عبّاس مبرّرًا موقفه:

فقال: يا ابن عبّاس، هل تدري ما كان حملني على مقالتي التي قلتُ حين تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: قلت: لا أدري يا أمير المؤمنين، أنت أعلم؛ قال: فإنه والله، إن كان الذي حملني على ذلك إلا أني كنت أقرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ

---

(١) ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤٨٧/٤؛ انظر أيضًا: ابن ماجة، سُنَن، ٨٥٣/٢.
(٢) تفسير الطبري، ٥٢٤/٩؛ انظر أيضًا: تفسير ابن كثير، ٢٧/٣.
(٣) سورة المائدة، وترتيبها في القرآن ٥، الآية: ٣.
(٤) انظر الفصل الرابع من كتابنا هذا.

الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾[1]. فوالله إن كنت لأظنّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سَيَبْقَى في أُمّته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، فإنه الذي حملني على أن قلت ما قلت[2].

هذا مع العلم أن عمرَ نفسه رَجَع عن قوله واعتذر، يوم الاجتماع الذي عقد في سقيفة بني ساعدة، عن تصرّفه لحظة وفاة الرسول، معترفًا بأنّ ما قاله في ذلك اليوم، افتقر إلى أي سند «في كتاب الله»:

عن أنس ابن مالك: لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر، فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، إني كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدًا عهِدَ إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدبِّر أمرنا؛ يقول: يكون آخرنا وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هَدى الله رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم[3].

---

(1) سورة البقرة وترتيبها في القرآن ٢، الآية: ١٤٣.

(2) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٦١/٢؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧١/٢؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٤٣/٢؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٨/٢؛ المتّقي، **كَنْز العمّال**، ٢٤٧/٧.

(3) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٦٠/٢ - ٦٦١؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/ ٢٧١؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٧/٢؛ السُّهَيْلي، **الرَّوْض الأُنُف**، ٥٩١/٧؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٤٩٢/٤؛ السُّيوطي، **جامع الأحاديث**، ٢١١/٢٥؛ المتّقي، **كَنْز العمّال**، ٦٠٠/٥.

لكن، ماذا بشأن الآية المقتَبَسة من سورة البقرة التي قرأها على مسمع ابن عبّاس؟ ألم يبرّر تحديدًا خطأه بالإحالة إلى آية من «كتاب الله»[1]؟

ومن هنا، نرى أن متناقضات عمر تجعل من إنكاره لموت الرسول أمرًا مُريبًا للغاية؛ ذلك أننا نعتقد أن موقف عمر الغريب ليس إلا تكتيكًا سياسيًّا متعلّقًا بمسألة الخلافة. إذ يؤكد الواقدي أن مسألة الخلافة السياسيّة طُرحَت لحظة وفاة الرسول على الفور، ويروي:

أَقْبَلَ مَالِكُ بْنُ التَّيْهَانِ الأَنْصَارِيُّ حَتَّى وَقَفَ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَنْصِتُوا وَاسْمَعُوا مَقَالَتِي، وَتَفَهَّمُوا مَا أُلْقِيهِ إِلَيْكُمْ، اعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ شَمِتَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِمَوْتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَقَدْ ظَهَرَتْ حَسِيكَةُ أَهْلِ الرِّدَّةِ، وَعِظَمُ الْمَصَائِبِ عَلَيْنَا أَنَّ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ خَرَجَ بِأَرْضِ الْيَمَامَةِ بِرَعْدٍ وَبَرْقٍ، وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ فِي حَيَاةِ نبينا صلّى الله عليه وعلى آله وَسَلَّمَ، وَالآنَ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ طُلَيْحَةَ بْنَ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيَّ أَيْضًا قَدِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بِبِلادِ نَجْدٍ[2]، وَأَنَا وَاللَّهِ خَائِفٌ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ أَنْ تَرْتَدَّ عَنْ دِينِ الإِسْلامِ، فَإِنْ لَمْ يَقُمْ بِهَذَا الأَمْرِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، أَوْ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَهُوَ وَاللَّهِ الْهَلاكُ والبوار[3].

في ضوء هذا التوتر السياسي الكبير، يجاز لنا تفسير موقف عمر على الشكل التالي: كان بلا شك يحاول كسب الوقت بانتظار عودة أبي بكر

(١) تجدر الإشارة إلى أن ابن كثير يعدّد في واحد من فصول البداية والنهاية (٢٤٢/٥)، آيات القرآن التي تعلن عن وفاة الرسول.

(٢) انظر الفصل السادس من كتابنا هذا.

(٣) الواقدي، كتاب الرِّدّة، ٢٩/١.

من السُّنح. بل إن الطّبري ذهب حدّ القول إن والد عائشة لم يَعُد إلى المدينة إلا عَقِب ثلاثة أيام على وفاة محمّد: «قال: لما قُبِض النبيُّ صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائبًا، فجاء بعد ثلاث»[1]. وباعتماده هذه التمثيليّة، كان عمر يحاول السيطرة على الوضع بانتظار أن تجد مسألة الخلافة لها حلًّا. وفي هذا الشأن ثَمّة فكرة أتى بها ابن أبي الحديد تستحق الاهتمام، فهو يقول بخصوص موقف عمر:

> ولكنّه لمّا عَلِمَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وعلى آله قد مات، خافَ من وقوعِ فِتْنَةٍ في الإمامة، وتَقَلّبِ أقوام عليها؛ [...] فاقْتَضَتْ المصلحَةُ عندَه تسكينَ الناسِ بأن أظهرَ ما أظهره من كون رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لم يَمُتْ، وأوقعَ تلك الشُّبْهَة في قلوبهم، فكسر بها شَرَّةَ كثيرٍ منهم [...] وكذلك عمر أظهر ما أظهر حراسةً للدين والدولة، إلى أن جاء أبو بكر وكان غائبًا بالسُّنح»[2](*).

تظاهر إذن عمر بعدم التصديق وانتظر وصول «شريكه» أبي بكر إلى المدينة.

في غضون ذلك، بدأ جَسد الرسول بالتحلّل: «حدثنا ابنُ حُميد، [...] قال: لما قُبِض النبيُّ صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائبًا، فجاء بعد ثلاث، ولم يجترئ أحدٌ أن يكشِفَ عن وجهه؛ حتى إرْبَدَّ بطنُه»(**). حاول العبّاس حمل عمر على التعقّل طالبًا منه الاستعجال في

---

(١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/٢٣٣. إنّ العودة المتأخرة لأبي بكر إلى المدينة يوم وفاة الرسول كانت غرضًا للتحليل في كتاب كرّسناه لظهور الخلافة الأولى في تاريخ الإسلام.

(٢) ابن أبي الحديد، **شرح النّهج**، ٢/٤٣.

(*) التشكيل من وضع المترجمة.

(**) الطبري، **تاريخ...**، ٢/٢٣٣.

مواراة محمّد الثرى؛ قال: «إنّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يأسنُ كما يأسَنُ البشر، وإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد مات، فادفنوا صاحبكم»[1]. وبإملاء من الحِسّ العملي الذي اتّصف به الهاشميّون، أضاف العبّاس: «فإن كان كما تقولون فليسَ على الله بعزيز أن يبحث عنه التّرابَ فيُخرِجه إن شاء الله»[2]. وإن تبيَّنّا فرضيّة التصنّع الذي أدّاه عمر، وجدنا أنفسنا نتساءل عما إذا كان لجأ إلى القوة لمنع عائلة الرسول من الاضطلاع بدفن الفقيد؛ ولنا عَوْد إلى هذا الموضوع.

ولأسباب استراتيجيّة، اقترحت بعض السرديّات أن خبر وفاة الرسول قد حُجِبَ عن الملأ خِشية خروج الوضع عن السيطرة؛ ولقد كان عُرْوَة مَنْ ذكّر بهذا «التكتيك»، عندما قال:

> فلما فرغوا من البَيْعَة واطمأن الناسُ، قال أبو بكر لأسامة «امضِ لوجهك الذي بَعَثَكَ له رسول الله (صلى الله عليه وسلم)»، فكلّمه رجال من المهاجرين والأنصار وقالوا «أمسك أسامة وبعثه فإنا نخشى أن تميلَ علينا العربُ إذا سمعوا بوفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)»[3].

ليست استراتيجيّة التكتّم منافية للعقلانيّة؛ إذ، ·وما إن علمت بوفاة الرسول، حتى عمدت مجموعاتٌ من القبائل العربيّة في الواقع إلى

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦٧/٢؛ انظر أيضًا: الدارمي، **سُنَن**، ٢٢١/١؛ ابن منظور، **المختَصر**، ٣٨٥/٢؛ السُّيوطي، **جامع الأحاديث**، ٣٥٠/٢٨؛ المتّقي، **كَنز العمّال**، ٢٤٤/٧.

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٦٧/٢؛ انظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٤٣/٢؛ السُّيوطي، **جامع الأحاديث**، ٣٥٠/٢٨؛ المتّقي، **كَنز العمّال**، ٢٤٤/٧.

(٣) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٥٣/٢؛ انظر أيضًا: ابن منظور، **المختصَر**، ١٧٣/١؛ الذّهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٣٧٤/٢؛ الذّهبي، **تاريخ الإسلام**، ٢٠/٣؛ السُّيوطي، **جامع الأحاديث**، ٢٣٧/٢٥؛ المتّقي، **كَنز العمّال**، ١٥٨/١٠.

الانتفاض، ورفضت الاعترافَ بسلطة أبي بكر، وهو ما استثار حروبَ «الرِّدَّة» الضروس، حيث بلغت الفظاعةُ ذروتها في فصل شهير استُبيحَ فيه أكْلُ لحم البشر[1].

في تلك اللحظة مباشرة، اعتُبرت وفاة الرسول كما لو أنها كانت زَلْزَلة، لا بسبب العواقب السياسيّة فحسب التي أدركها صحابته سريعًا، بل لأن وفاة محمد أدخلت مجموع الأمة في حالة من الاضطراب النفسي الهائل؛ إذ «اقتحم النّاس على النبيّ، صلى الله عليه وسلم، في بيت عائشة»[2] صائحين «على الباب: لا تدفنوه فإنَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم يَمُتْ!»[3] وثمّة سببان يفسّران تلك الحَيْرَة وذلك الاضطراب. فمن غير المستغرب أن تكون خسارة زعيمهم الروحيّ قد دفعت بالمسلمين حكمًا في عمق الشعور بالفَقْد والضَّياع؛ وأمام مشهدهم هذا، قالت عائشة: «وصار المسلمون كالغَنَم المَطِيرة في الليلة الشّاتية، لِفَقْد نبيّهم صلى الله عليه وسلم، حتى جمعهم الله على أبي بكر»[4]. ومن جهة ثانية، ارتبط موت محمّد في ذهن المؤمنين برؤية أُخْرَويّة: فبالنسبة إليهم، عنى الحدث الجلل واحدًا من اثنَيْن: إما أن يتزامن موت محمّد مع نهاية العالم، إما ألا يموت لأنه من المفترض به

---

(١) إن المشهديّة التي تخطر في بالنا في هذا الشأن هو القتل المروِّع بشكل خاص، الذي ذهب ضحيته مالك بن نويرة، وقد أعدمه خالد بن الوليد؛ إذ ضرب عنقه، «وأمر برأسه فجعل مع حجرَيْن وطبخ على الثلاثة قدرًا، فأكل منها خالد تلك الليلة»، وذلك قبل أن يغتصب «امرأة مالك بن نويرة، وهي أم تميم ابنة المنهال، وكانت جميلة». حتى عمر الذي لم يشتهر يومًا بوداعته، اقْشَعَرّ لفظاعة الارتكاب وتوعّد بالرَّجم خالدًا، «سيف الله المسلول» (انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣٥٤/٦).

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧١/٢.

(٣) عينه.

(٤) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٦٦٥/٢؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣٠٠/٥.

حضور يوم القيامة، أي أنه «سَيَبْقَى في أُمَّته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها»[١].

إذن، تجد رياح الذُّعر العاتية التي هبّت على المدينة ما يفسّرها في الخوف من وشوك قيام الساعة. ولقد استفاد عمر من هذا الاقتناع ليعلّق مسار الأحداث بانتظار تسوية مسألة الخلافة. وإذ أوجد، عَقِب وفاة محمّد مباشرة، نوعًا من الوقت المستقطع، نجح عمر، من خلال هذه المهلة الزمنيّة التي أتاحها، في القيام بضربة سياسيّة ناجعة، اعتمدت على عنصر أساسي للعقيدة الأصليّة التي كانت مسيطرة على ذهن الجيل الأول من المسلمين ومِخياله؛ ولهذا السبب نرى عمرَ يقول إن الرسول لن يموت قبل أن يقضيَ على كل المنافقين: «ما مات رسول الله، صلى الله عليه وسلم، [...] ولن يموت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى يُفْني المنافقين»[٢].

بالنسبة إلى أتباعه، بُعِث محمّد لينذرَ بنهاية العالم الوشيكة وليشهدَ اليوم الآخر[٣]. وإن كان القرآن يكثر من التأكيد على قرب القيامة، إلا أنه

---

(١) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٢/٦٦١؛ انظر أيضًا: **الطبقات الكبرى** (٢/٢٧١) حيث روى ابن سعد، نقلاً عن محمّد بن عمر، كيف «اقتحم النّاس على النبيّ، صلى الله عليه وسلم، في بيت عائشة ينظرون إليه فقالوا: كيف يموت وهو شهيد علينا ونحن شهداء على النّاس فيموت ولم يظهر على النّاس؟». وانظر كذلك: الطبري، **تاريخ...**، ٢/٢٣٨ والمتّقي، **كنز العمّال**، ٧/٢٤٧. وفي موقف المسلمين هذا نجد صدى لآية وردت في القرآن (٢: سورة البقرة، الآية: ١٤٣)، ونَقَلَت صورة الرسول الشاهد على اليوم الآخر: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾.

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٦٧.

(٣) في الواقع، أكّد على هذه الفكرة العديد من المستشرقين، ومنهم خصوصًا بول كازانوفا، **في محمّد ونهاية العالم. دراسة نقديّة في فجر الإسلام** Paul Casanova, *Mohammed et la fin du monde. Étude critique sur l'Islam primitif*, 2 vol., Paris, P. Geuthner, 1911-1913.

لا يحدّد موعدها بدقّة[1]. ولقد عمد ابن عبّاس إلى شرح تنزيل الآيات المُنذِرَة بوشوك الساعة على هذا الشكل: نظرًا إلى أن الله قد أنزل الآية ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (٥٤: سورة القمر، الآية: ١)، شعر الناس بالقلق ثم، ولأن شيئًا لم يحدث، استغرقوا في «اللامبالاة»؛ فأنزل الله إذ ذاك الآية الأولى من سورة الأنبياء (وترتيبها في القرآن ٢١): ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾؛ فإذا بالقلق يستبدّ بقلوب الكافرين. لكن، وبما أنَّ شيئًا لم يحدث، عادوا إلى عدم التصديق. عند ذاك أنزل الله الآية الأولى من سورة النّحل (وترتيبها في القرآن ١٦): ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. كانت تلك هي المناسبة التي قال الرسول فيها: «بُعِثْتُ أنا والسّاعة كهاتين» وقرن بين إصبَعَيْه السَّبَّابة والوسطى»[2]، كما قال: «بُعِثْتُ أنا والساعة جميعًا، إن كادت لتَسبِقني»[3]. وفي **الطبقات الكبرى**، يستشهد ابن سعد، بقول أحصى به أحد صحابة الرسول، وهو جُبَيْر بن مُطْعِم، «أسماءَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، [...] وهي ستّة: محمّد وأحمد وخاتم وحاشر وعاقب وماح، فأمّا حاشر فبعث مع الساعة نذيرًا لكم بين يدي عذاب شديد، وأمّا العاقب فإنه عَقِب الأنبياء، وأمّا

---

(١) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (٧٩: النّازعات، الآيات: ٤٢ - ٤٥).

(٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٧/١؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٦٠/٣١؛ **صحيح البُخاري**، ٢٣٨٥/٥؛ **صحيح مسلم**، ١١/٣؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ١٧/١؛ النّسائي، **سُنَن**، ٣٠٨/٢.

(٣) الطبري، **تاريخ...**، ١٧/١؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٦٠/٣١؛ الطبراني، **المعجم الكبير**، ١٢٦/٢٢؛ السّهلي، **الرّوْض الأُنُف**، ٢٠٤/٤؛ المتقي، **كَنز العمّال**، ١٩٥/١٤.

الماحي فإنّ الله محا به سيّئات من اتّبعه»[1]. أما الراهب بَحِيرى[2]، الذي التقى محمّدًا قبل التنزيل بزمن، فلقد تعرّف فيه على خصائص «نبيّ آخر الزمان» أو على «نَبيّ المَلْحَمَة»[3]. وفي أحد الأيام، قال محمّد: «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم» [أي «إنما هي نفس مخلوقة يومئذ»][4]. ولقد كان من شأن هذه النبوءة أن تسبَّبت بهلع عارم. وإذ علّق على هذا التحذير وأراد قطع دابر الخوف الشديد الذي ألمَّ بالمسلمين، فسَّر عليّ قول الرسول كالتالي:

جاءه عقبة أبو مسعود، فقال له عليّ: أما أراك تفتي الناس؛ فقال: أما أني أحدثهم أن الآخر شر، فقال: حدثنا ما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم يقول في المائة، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يأتي على الناس مائة سنة وفي الأرض عين تطرف؛ فقال علي: أخطأت، إنما قال لمن هو يومئذ على وجه الأرض»[5].

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ١/١٠٥؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٧/٥؛ **صحيح البُخاري**، ١٧٨٧/٤؛ التِّرمذِي، **سُنَن**، ٤٥١/٥؛ ابن حبّان، **صحيح**، ٤٨٦/١٤؛ الحاكم النيسابوري، **المُسْتَدْرَك**، ٣٠٤/٤؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٣٠/١.

(٢) التقى محمّد، وقد كان في العاشرة من سِنّه تقريبًا، بالراهب النسطوري بحيرى (أو بَحيرا)، عندما كان يرافق عمّه أبي طالب في رحلة إلى بلاد الشام. وقد قيل إن بحيرا اكتشف بين كتِفِيّ الفتى محمّد، خاتَم النبوّة.

(٣) ابن إسحاق، **السّيرة النبوية**، ٧٣/١ - ٨٠.

(٤) **صحيح مسلم**، ١٨٨/٧؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٢٠/٢ - ١٢١؛ الطبراني، **المعجم الكبير**، ٧١/٧؛ الحاكم النيسابوري، **المُسْتَدْرَك**، ٥٤٤/٤؛ السّيوطي، **جامع الأحاديث**، ٦٠/١٩؛ ابن حَجَر، **الإصابة**، ١٣١/٣؛ المتقي، **كَنْز العمّال**، ١٩٥/١٤.

(٥) الطبراني، المعجَم الكبير، ٢٤٨/١٧ - ٢٤٩؛ انظر أيضًا: الحاكم النيسابوري، المُستَدْرَك، ٥٤٣/٤؛ المتقي، كَنْز العمّال، ٥٤٦/١٤.

ولا بدّ من الإقرار أن هذا الأمر ما كان يحتاج البتّة هذا النوع من التنبّؤ!

بنى محمّد هو نفسه مسجدًا مؤقّتًا شبيهًا بعَريش موسى لاعتباره أن لا فائدة ترتجى من تشييد مسجد دائم بما أن الساعة وشيكة. وفي يوم، عمد الأنصار إلى جمع المال وسألوا الرسول توظيفه في تعزيز بنية المسجد وتزيينه وهو ما رفضه:

عن عُبادة، أن الأنصار جمعوا مالاً فأتوا به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ابنِ هذا المسجد وزيّنه، إلى متى نصلّي تحت هذا الجريد؟ فقال: ما بي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى[1].

وفي **المصنّف** لصاحبه عبد الرزّاق الصَّنْعاني، أن الرسول قال للأنصار: «بل عريش كعريش موسى، ثُمَام وخَشَبات» مضيفًا في معرض كلامه على اقتراب نهاية العالم: «فالأمر أعجل من ذلك»[2].

(1) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٣٠٤/٢؛ وفي **الطبقات الكبرى** لابن سعد (٢٤٠/١): «فقيل [للرسول]: ألا تُسَقّفه؟ فقال: عريش كَعَريشِ مُوسى خُشَيْبَاتٌ وثُمَامٌ، الشّأنُ أعْجَلُ من ذلك»؛ انظر أيضًا: البَيْهقي، **دلائل النبُوّة**، ٥٤٦/٢.

(2) عبد الرزّاق الصنعاني، **المصنّف**، ١٥٤/٣؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات**...، ٢٤٠/١؛ الدارمي، **سُنَن**، ٥٤٢/٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٣٠٤/٢؛ السّيوطي، **جامع الأحاديث**، ٢٠٢/١٤؛ المتقي، **كَنْز العمّال**، ٣٨٩/١٥؛ الدّيار بَكْري، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس**، ٣٤٦/١. ولنلفِت إلى أن محمّدًا، في الحديث الذي أوردناه أعلاه، يستخدم للإحالة إلى القيامة، لفظ «الأمر» المُرْبِك لتعدّد معانيه، وهو ما ذكّرنا به عندما أحَلْنا إلى رأي محمّد - علي أمير مُعِزّي وفيه أن «الأمر» لفظ مُبْهم يعني «الشيء»، و«المسألة أو القضيّة» وفي الوقت عينه «الأمر» (وهو صيغة معتمدة في نظام تصريف الأفعال في اللغة العربيّة) و«السلطة أو الحكم». ومن الغرابة بمكان أن يُشار إلى مَفهومَي نهاية العالم والسلطة أو الحكم، باللفظ الملتبِس عينه.

ولقد نُسِبَت إلى رسول الإسلام جملة مهمّة يمكن لها أن تشرح بوضوح اعتناق الدين الجديد، وهي: «والذي نفسي بيده ليوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم»(١). ومن المؤكّد أن هذا هو السبب الذي حمل اليهود - المسيحيين في البدء على دعم محمّد، إذ بدا لهم النبيّ السابق مباشرة المسيح. هذا ما قالته خديجة نفسها لزوجها عندما استقبل التنزيل: «أبشر فوالله لقد كنت أعلم أن الله لن يفعل بك إلا خيرًا، وأشهد أنك نبي هذه الأمة الذي تنتظره اليهود»(٢). في الواقع، اعتقدت اليهود في فجر الإسلام، أن محمّدًا هو إيليا الجديد والمنتظر، وذلك بحسب ما تظهره الروايات الواردة في كتب التراث الإسلامي، ومنها تحديدًا تلك الرواية حيث الخبر عن اليهودي العلّامة عبد الله بن سلّام (وهذا اسم غريب يسمّى به يهوديّ) وعمّته خالدة بنت الحارث اللذين آمنا بمحمّد لأنهما رأيا فيه النبيّ الذي ينزل مع حلول الساعة:

قال ابن إسحاق: وكان من حديث عبد الله بن سلام، كما حدثني عنه وعن إسلامه حين أسلم، وكان حبرًا عالمًا، قال:

---

(١) صحيح مسلم، ١/٩٣؛ انظر أيضًا: صحيح البُخاري، ٢/٧٧٤؛ التِّرْمِذي، سُنَن، ٤/ ٥٠٦؛ البَيْهقي، سُنَن، ١/٣٧٠؛ المتقي، كَنْز العمّال، ١٤/٣٣٨. وفي معرض حديثه عن يسوع المسيح، أضاف الرسول: «لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى بن مريم حكمًا مقسطًا وإمامًا عدلاً. فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» «حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (ابن ماجة، سُنَن، ٢/١٣٦٣)؛ انظر أيضًا: المتقي، كَنْز العمّال، ١٤/٦١٨. وفي تعليقه على هذا القول الجازم، قال أبو هُرَيْرَة: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (٦: سورة النساء، الآية: ١٥٩). وانظر: صحيح البخاري، ٣/١٢٧٢ وصحيح مسلم، ٢/١٨٩: «ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: واقرؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾».

(٢) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ١/٤٠٨.

لما سمعتُ برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفتُ صفته واسمه وزمانه الذي كنّا نَتوكّف له، فكنت مُسِرًّا لذلك، صامتًا عليه، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ، فلما نَزل بقُباء، في بني عمرو بن عوف، أقبل رجلٌ حتى أخبر بقُدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمّتي خالدةُ ابنة الحارث تحتي جالسة، فلما سمعتُ الخبرَ بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبَّرتُ؛ فقالت لي عمّتي، حين سمعت تكبيري: خيَّبك الله، والله لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عِمْران قادمًا ما زِدْت، قال: فقلت لها: أيْ عمّة، هو والله أخو موسى بن عِمْران، وعلى دينه، بُعِثَ بما بُعِث به. قال: فقالت: أي ابنَ أخي، أهو النبيّ الذي كُنَّا نخْبَر أنَّه يبعثُ مع نَفْس الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم. قال: فقالت: فذاك إذًا. قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلمتُ، ثم رجعتُ إلى أهل بيتي فأمرتُهم فأسلموا(١).

إن هذه الشهادة عينها، الصادرة هذه المرة عن مَنْ كان غير مسلم ولكنه عاصر وفاة الرسول، هي التي نجدها في رسالةٍ كتبَها باليونانيّة

---

(١) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ١/٥١٦ - ٥١٧؛ انظر أيضًا: السُهَيلي، **الرّوْض الأُنُف**، ٤/ ٢٠٣ - ٢٠٤. ومما لا شك فيه أن القارئ تنبّه إلى التشابه بين أحياد [أو: أحِيَد] (إيليّا في العبريّة) وأحمد. بل إن الرسول نفسه يُقِرّ بأن لديه أسماء عِدّة: «سمّى لنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نفسه أسماءً، منها ما حفظنا، فقال: أنا مُحَمّدٌ وَأحْمَدُ وَالمُقَفّى وَالحاشِرُ وَنَبيّ الرّحْمَةِ وَالتّوْبَةِ وَالمَلْحَمَةِ» (ابن سعد، **الطبقات...**، ١/ ١٠٤ - ١٠٥). انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٨/٤٣٦؛ **صحيح مسلم**، ٧/٩٠؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٣/٢٥. **وغالبًا ما يضاف إلى هذه الأسماء اسم الخاتَم (انظره في ابن عساكر**، تاريخ دمشق، ٣/٢٩). وفي شأن أسماء الرسول وألقابه المختلفة، انظر: Mohammed H. Benkheira, "Onomastique et religion: à propos d'une réforme du nom propre au cours des premiers siècles de l'Islam", *op. cit.*

بتاريخ تموز/يوليو من العام ٦٣٤م وأرسلها رَباني يهودي إلى أخيه المقيم في قرطاج، يذكر له فيها محمّدًا قائلاً في شأنه: «كان يعلن مجيء المسيح»(١).

في الواقع، كان أوائل المسلمين يؤمنون هم أيضًا بمعتقدات بعض الطوائف اليهوديّة - المسيحيّة التبشيريّة المنتظِرَة بعثة الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم، واسمه الباراقليط [أو: بيريقليط، بيريكليت، بيريكليتوس Paraclet, Periclytos -؛ ومعنى الاسم اليوناني: المشهور أو المَمْدوح أو الممجّد أو المَحْمود (م.)](٢) المذكور في العهد القديم (سِفْر حَجّي) والذي يجد له مرادفًا في اسم «أحمد» المشتَقّ من «محمّد»(٣)؛ بل إن الرسول هو نفسه يقِرّ بأن لديه أسماء عدة: «عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «سَيِّدُ بَنَى دَارًا وَاتَّخَذَ مَأْدَبَةً وَبَعَثَ دَاعيًا، فَالسَّيِّدُ الْجَبَّارُ، وَالْمَأْدُبَةُ الْقُرْآنُ وَالدَّارُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي أَنَا، فَأَنا اسْمِي في الْقُرْآن مُحَمَّدٌ، وَفِي الإِنْجيلِ أَحْمَدُ، وَفِي التَّوْرَاةِ أَحْيَدُ، وإِنَّمَا سُمِّيتُ أَحْيد؛ لأَنِّي أَحِيدُ عنْ أُمَّتِي نَار جهَنَّم»(٤).

من هنا، تسوّغ نبوءة محمّد الأخرويّة الطابع مشروع الفتح المسدّد باتجاه الشرق الأوسط، وباتجاه أورشليم - القدس تحديدًا. ولقد كان لغزوتيّ مؤتة وتَبوك أن جسّدتا هذا التوق إلى أرض الميعاد. فبما أن

(١) ترد هذه الرسالة في نص بعنوان *Doctrina Jacobi*؛ انظر: وبعد... في كتابنا هذا.

(٢) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم يا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾ (٦١: سورة الصَّفّ، الآية: ٦).

(٣) انظر في هذا الشأن:

Marie-Thérèse Urvoy, "Annonce de Mahomet", in Mohammad-Ali Amir-Moezzi, Dictionnaire du Coran, Paris, Robert Laffont, 2007, pp. 55-56.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٢/٣.

محمّدًا رسولُ آخر الزمان، كان من الطبيعي أن نراه يقود المعتنقين لدينه، أي الإسلام، باتجاه القدس، حيث عليهم انتظار اليوم الآخر.

وفي ظلّ هذه الظروف، ندرك السبب في عدم إقدام الرسول على التفكير في تسمية خليفته، إذ كان هذا الإجراء بلا جدوى بما أن نهاية العالم وشيكة. بل إن باستطاعتنا الذهاب بهذه الفكرة أبعد من ذلك لنسأل: بما أن محمّدًا بُعث ليبشّر باقتراب نهاية الزمان، فلما أسَّس دينًا جديدًا؟ أيكون الإسلام في النهاية «بَدْعًا» متأخّرًا عن وفاة الرسول؟ أيكون الإسلام دينًا أو «عقيدة لآخر الزمان»؟ هذه أسئلة تتسبّب لطارِحها بالدّوار.

كان أبو بكر وعمر هما بلا شك أول مَنْ أدركا أن وفاة الرسول ما كانت نذيرًا بوشوك القيامة؛ إذ فَهِما، وعَقِب بضع ساعات لا غير على قَبْض محمّد، أن نهاية العالم لن تحِلّ، وأدركا ضرورة أن يُعْمَدَ مباشرة إلى إرساء مؤسّسة سياسيّة تنوب عنه للحفاظ على الإسلام الذي كان على وشْك الزوال: ونعني بهذه المؤسّسة، الخلافة. لم تكن الفكرة سيّئة وبخاصة أنه عُمِلَ بمقتضياتها طوال أكثر من ثلاثة عشر قرن وهي لا تزال تغذّي في أيامنا، وبطريقة صريحة أو ضِمنيّة، مِخيال المسلمين السّياسي.

ومن الصعوبة بمكان الاعتقاد أن مؤلّفي المصادر الإسلاميّة قد ابتدعوا ذاك الاعتقاد لدى المسلمين الأوائل بوشوك القيامة، في وقت كان الزمن الذي يمضي، يُنْزِل به تكذيبًا لا سبيل إلى نكرانه. وبما أن الساعة لم تأتِ، فَقَدَ هذا الاعتقاد علّة وجوده، وفرضَ التأخيرُ في حلول نهاية العالم، مراجعةً تاريخيّةً شاملةً، أطلق عليها پول كازانوڤا (Paul Casanova) اسم «التدليس التّقِيّ»، واستُهِلَّت عَقِب قرن أقلّه على وفاة الرسول. إذ ذاك تجلّت على ممر القرون، صورة الرسول الإصلاحي الذي كسب، من دون أن يمحوها كليًّا، صورة رسول القيامة.

ولقد وجد المِخيال الأخروي المرتبط بحلول الإسلام له رديفًا في اعتقاد بدائي ما لبث أن طُمِر تحت طبقات متلاحقة من التأليف التاريخي. غير أن بعض الأحاديث والآيات القرآنية - وهي شبيهة في ذلك بالكتابة القديمة التي لم تُمْحَ كُلّيًا من المخطوطات العتيقة -، أبقى على أثر هذا الاعتقاد البدائي الذي يعود ليطفو على السطح في كل مرّة يستغرق فيها المتبصّر في تلك اللحظة الحاسمة التي شكّلتها وفاة الرسول...

من جهة أخرى، وإذ وجد نفسه في مواجهة اعتقاد أُخرويّ راسخ، ما لبث أن تكشّف عن بُطلانه، اجتهد الجهاز الثقيل الذي يَعْتَدُّ به التفسير الإسلامي، في إعطاء نهاية الزمان، آجالاً زمنيّة لا محدودة. لهذا السبب، وعلى الرغم من المبدأ الذي وضعه محمّد القائل بأنه «خاتَم الأنبياء» وبأن من بعده «خَلَت الرُسُلَ»، وجد المسلمون أنفسهم محمولين على تصوّر وجه المهدي، وهو ليس إلا استمراريّة لمحمّد بوصفه السابق للمسيح. أما الشيعة بشكل خاص، فإنهم يعتقدون بأن النبوّة تتواصل من خلال الأئمّة.

وفي أيامنا هذه، لا نزال نحسُّ بارتدادات هذه التدابير الكلاميّة والفقهية وتداعياتها، حيث نَشْتَمُّ، عبر العودة القوية لمسألة الجهاد المقدّس، رائحةَ اعتقادٍ قديم فَلَحَ أربعة عشر قرنًا من «الرياضة» الكلاميّة في السيطرة عليها من دون النجاح في إزالتها كليًّا.

فإن كان محمّد قد بُعِثَ لينذِر بنهاية العالم، فإن بعض المسلمين يَبْدون كأنهم يبتغون اليوم إعادة إحياء هذه الرسالة الأولى للإسلام بوصفه دينًا ملائمًا لـ «نهاية التاريخ»، التي لم تحِلّ بالتزامن مع وفاة محمّد. غير أن ذلك لا أهميّة له في نظر بعض المسلمين الذين، وفي اندفاعة تدميريّة، أعادوا إحياء الرسالة الأصليّة لرسولهم، وباتوا يسعَوْن اليوم إلى الدفع بالعالم إلى نهايته...

الفصل السابع عشر
جَنازَة محمّد

ما من كتاب واحد من بين كتب التراث الإسلامي حدّد بدقّة المدّة التي انتظرها جثمان الرسول قبل أن يُوارى الثّرى: أكانت يومَيْن أو ثلاثة أو أربعة أيام؟ هذا مع العلم أن ثمّة إجماع على أن الوفاة وقعت في يوم الاثنَيْن. وفي هذا الشأن، لا بدّ من الإشارة إلى أن تاريخ وفاة محمّد هو الآخر لم يحدّد على الإطلاق بدقّة. ومع أنهم كانوا على يقين من اليوم، إلا أن مصنّفي المصادر الإسلاميّة طرحوا تاريخَيْن مختلفَيْن وبقَوْا عاجزين عن حسم الأمر، إذ تفاوتت طروحاتهم بين ثاني أيام شهر ربيع الأول (وقد وافقه الثامن والعشرين من أيار/مايو من العام ٦٣٢م) واليوم الثالث عشر من الشهر عينه (أي الثامن من حزيران/يونيو من العام ٦٣٢م)[1].

---

(1) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٧٢ - ٢٧٣؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/ ٢٣٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٧٥ - ٢٧٦. وبالنسبة إلى الشيعة، توفّي الرسول في تاريخ سابق بقليل، أي في الثامن والعشرين من شهر صَفَر من العام الحادي عشر من الهجرة (أي في ٢٥ أيار/مايو من العام ٦٣٢م). وكما سبق لنا أن أشرنا في الفصل الخامس من كتابنا هذا (وتحديدًا في الحاشية رقم ٣)، فلقد عمد ابن كثير في **البداية والنهاية** (٥/٢٧٥ - ٢٧٦) إلى استعادة كل الاختلافات في تاريخ بَدْء مرض الرسول وفي تاريخ وفاته، مضيفًا في هذا الشأن أنه لا سبيل إلى فهم اللُّبْس المهيمن على هذا =

يصعب علينا أن نفهم السبب في انعدام الدقّة هذا، وبخاصة أن كتب التراث الإسلامي وصفت لنا بالتفصيل عمليّة غَسْل الجثمان. ولقد تجلّى هذا التَّمَلْمُل الذي نضحت به المصادر حِيال جنازة محمّد، في إقدام مؤرّخ من مصاف الطّبري على تزويدنا بعدة تواريخ لوفاته:

قالوا: قُبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نصف النهار يوم الاثنين، لليلتَيْن من شهر ربيع الأول [...] وقال الواقديُّ: تُوفِّيَ يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خَلَتْ من شهر ربيع الأول، ودفن من الغد نصف النهار حين زاغت الشمس، وذلك يوم الثلاثاء. [...] أقبل الناس على جِهازِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم: كان ذلك من فعلهم يوم الثلاثاء؛ وذلك الغدُ من وفاته صلى الله عليه وسلم. وقال بعضهم: إنما دُفن بعد وفاته بثلاثة أيام، وقد مضى ذكرُ بعض قائلي ذلك. [...] فلمّا فُرِغَ من جهاز رسول الله يوم الثلاثاء [...] دفن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من وسَط الليل ليلة الأربعاء. [...] عن عائشة أم المؤمنين، قالت: ما علمنا بدفن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى سمِعنا صوتَ المَسَاحي من جوف الليل ليلة الأربعاء. [...] قال: توفِّيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول في اثنتي عشرة ليلة مضتْ من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ودفن ليلة الأربعاء[١].

= التاريخ الأخير إلا بالاعتماد على تفاوت ظهور القمر بين مكّة والمدينة؛ إذ لا بدّ من أن يكون المكيّون قد رَأَوْا قمر شهر ذي الحُجّة يوم الخميس، في حين رآه أهل المدينة اليوم التالي، أي الجمعة؛ وبالتالي، أيًا كانت مدة الأشهر (أي أعدّت تسعًا وعشرين أو ثلاثين يومًا)، فإن الأول من شهر ربيع الأول وقع في يوم خميس ووقع الثاني عشر من هذا الشهر، في يوم اثنَيْن.

(١) الطبري، تاريخ...، ٢٣٢/٢ - ٢٣٣؛ ٢٣٨/٢ - ٢٣٩.

ولقد جزم ابن هشام أن مواراة الجثمان الثرى وقعت يوم الثلاثاء، مباشرة عَقِب مبايعة أبي بكر خليفة («فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه، أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء»[1]، وذلك قبل أن يكتب بعد صفحَتَيْن أن الرسول دُفِن «جوف الليل من ليلة الأربعاء»[2]. ومن جهته، طرح ابن كثير كذلك تاريخ الأربعاء ليلاً[3]؛ بل إنه أعطى تفسيرًا لهذا التأخير عندما جزم بأن الناس تقاطروا طوال ثلاثة أيام (الاثنين والثلاثاء والأربعاء) إلى الغرفة المأتميّة ليودّعوا الرسول الوداع الأخير: «وقد قيل: إنهم صلوا عليه من بعد الزوال يوم الاثنين إلى مثله من يوم الثلاثاء، وقيل إنهم مكثوا ثلاثة أيام يصلون عليه»[4]. ولا يزوّدنا ابن سعد بمعلومات أكثر دقّة في هذا الشأن: فالفصل المخصّص في **الطبقات الكبرى** لـ «ذكر دفن رسول الله، صلى الله عليه وسلم»، هو من أكثر الفصول لُبْسًا[5]، حيث إنه يذكر عددًا وفيرًا من الروايات المتناقضة[6]: فعلى سبيل المثال، أكد المؤلِّف على أن بني غَنْم «سمعوا صريفَ المساحي ورسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، يدفن ليلاً»، وعلى أن بني ليث قالوا: «كُنّا نسمع صريفَ المساحي ورسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، يدفن بالليل»؛ وذلك قبل أن يذكر شهادة عائشة التي «قالت: ما علمنا بدفن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى سمعنا صوت المساحي ليلةَ الثلاثاء في السَّحَر». أخيرًا، أورد ابن سعد رواية جزمت بأن جثمان الرسول انتظر ثلاثة أيام قبل أن يرقد في

(١) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٢/٦٦٢.
(٢) ابن هشام، عينه، ٢/٦٦٤.
(٣) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٧٥.
(٤) ابن كثير، عينه، ٤/٥٢٨؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٩٢.
(٥) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٣٠٤ - ٣٠٥.
(٦) عينه، ٢/٢٧٣.

جوف التراب: «أخبرنا نوح بن يزيد المؤدّب قال: سئل إبراهيم بن سعد كَمْ نزّل النبيّ، صلى الله عليه وسلم، في الأرض؟ قال: ثلاثًا»[1].

وعلى العموم، ثمّة تردّد في المصادر الإسلاميّة في شأن تاريخ الدفن، بين الثلاثاء الواقع فيه التاسع من حزيران/يونيو والأربعاء الواقع فيه العاشر من حزيران/يونيو[2]، علمًا أن غالبيّتها تميل إلى ليلة الأربعاء الذي على ما يبدو حقّق إجماعًا بناء على ما يؤكده ابن كثير: «والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه من أنه عليه السلام توفي يوم الاثنين، ودفن ليلة الأربعاء»[3]؛ وفي غالب الأحيان، عمد مصنّفو كتب التراث الإسلامي إلى الاعتماد، في هذا الشأن، على شهادة عائشة، التي قالت: «ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمِعنا صوتَ المَسَاحي من جوف الليل ليلة الأربعاء»[4]. ولقد فصل رَدْح مهم من الزمن بين موت محمّد ودفنه، وهو ما يتنافى والعادة الإسلاميّة، بل حتى وتلك التي كانت سائدة في الجاهليّة، والتي تقتضي ألا يستضيء جثمان رجل توفّي في العشيّة بشمس اليوم التالي أبدًا[5]؛ ذلك أن «إكرام الميت دفنه»، بناء على ما يصرّح المثل العربي به. بل إن الرسول هو نفسه كان يقول: «أسرعوا بالجنازة» و«زجر [...] أن يقبر الرجل بالليل»[6].

---

(1) ابن سعد، **الطبقات...**، ٣٠٤/٢ - ٣٠٥.

(2) ابن ماجة، **سُنَن**، ٥٢٠/١.

(3) ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٥٣٩/٤.

(4) الطّبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢٣٩/٢؛ انظر أيضًا: ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٦٣/٢؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٦٩/٤٣؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٣٩/٢؛ البيهقي، **سُنَن**، ٥٧٤/٣؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٥٣٨/٤.

(5) دُرج في شبه الجزيرة العربية على المسارعَة إلى دفن الأموات ليلاً لأسباب مناخيّة بلا شك.

(6) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٢٠٨/١٢؛ انظر أيضًا: ابن ماجة، **سُنَن**، ٤٧٤/١؛ **صحيح** =

في شهر حزيران/يونيو، وفي ظل قَيْظ شبه الجزيرة العربيّة الحارق، لم يدفن جثمان الرسول في النهاية إلا عندما بدأ يتعفَّن، وذلك بحسب ما لفت إليه عمّه العبّاس[1]. ولقد وصفت كتب التراث الإسلامي حالة التأذّم التي نالت من الجسد: إذ «إربدّ بطنه»[2]، واخضرّت أظافره («حتى عُرف الموت فيه في أظفاره اخضرّت»[3])، وتَعَقّفت أصابعه («ورُئِيَ في خِنْصَره انثناءٌ»[4]). وفي صيغة أكثر اقتضابًا ولكنها فصيحة بليغة، قال البلاذري إن محمّدًا «تغيّر لونه»[5].

رأينا أن أبا بكر، لمّا ضَمّ جسد محمّد الفاقد للحياة، قال: «بأبي أنت وأمّي! طبْت حيًا وطبْت مَيْتًا!»[6]. ونجد الجملة عينها منسوبةً إلى عليّ ساعة اضطلاعه بغسل جثمان ابن عمّه، إذ قال: «بأبي أنت وأمّي! طِبْتَ ميّتًا وحيًا»[7]. ومن جهتها، زعمت أم سَلَمة، إحدى أزواج الرسول، أنه كفاها أن تضع يدها على جثمانه لكي تتخضّب بريح

= البُخاري، ١/٤٤٢؛ صحيح مسلم، ٣/٥٠؛ التِّرمِذي، سُنَن، ٣/٣٣٥؛ النّسائي، سُنَن، ٢/٤١٦؛ المتقي، كَنْز العمّال، ١٥/٥٩٢.

(١) ابن سعد، الطبقات...، ٢/٢٦٧؛ المتّقي، كَنْز العمّال، ٧/٢٤٤؛ الدّارمي، سُنَن، ١/٥٢.

(٢) الطبري، تاريخ...، ٢/٢٣٣؛ انظر أيضًا: ابن سعد، الطبقات...، ٢/٢٧٤؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٦٣/١٠١؛ الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ٧/٥٧٠؛ الذّهبي، تاريخ الإسلام، ١٣/٤٥١.

(٣) ابن سعد، الطبقات...، ٢/٢٧٤.

(٤) عينه؛ انظر أيضًا: الذّهبي، تاريخ الإسلام، ١٣/٤٥١.

(٥) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/٢٤٤.

(٦) الطبري، تاريخ...، ٢/٢٣٣؛ انظر أيضًا: ابن أبي شيبة، المصنّف، ٧/٤٢٧؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/٢٣٢؛ المتّقي، كَنْز العمّال، ٥/٦٤٠.

(٧) ابن سعد، الطبقات...، ٢/٢٧٧؛ انظر أيضًا: ابن ماجة، سُنَن، ١/٤٧١؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/٢٤٧.

المسك[1] التي لم تفارقها بعد ذلك أبدًا: «عن أم سَلَمة قالت: وضعت يدي على صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات، فمرَّت لي جُمع آكل وأتوضأ وما يذهب ريح المِسك من يدي»[2]. حتى فاطمة استذكرت رائحة والدها عَقِب دفنه؛ فيوم التَمَّت على نفسها عند لَحْد أبيها، التقطت بأطراف أصابعها قَبْضة من تراب حملتها إلى أنفها وقالت مندهشة: «ما أطيب هذه الرائحة»[3]. ونلحظ في هذا الخبر عن رائحة القداسة، التأثير الجليّ الذي أرخاه تاريخ القدّيسين المسيحيّين على المصادر الإسلاميّة. غير أن الطريقة التي تنتهجها هذه الأخيرة للتأكيد على الرائحة العذبة المنبعثة من جثمان محمّد، ما هي إلا مسعى غير موفّق إلى إخفاء رائحة العفونة التي ولا شك انبعثت منه. وللخروج من هذه الحالة المحرجة للغاية، زعمت كتب التراث الإسلامي أنه إن بدأ جسد الرسول بالتحلّل فلأن الله أراد إعطاء المسلمين غير المصدّقين لوفاته الدليل القاطع عليها: «إن عدة من الصحابة منهم عمر قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت، فأحبّ الله أن يريهم آية الموت»[4].

من الممكن في الواقع طرح عدة فرضيّات لتفسير التخلّي عن جثمان الرسول. إذ اعتقد المسلمون، الذين تذكّروا ربما حديثًا لمحمّد، أن جسده لن يفنى؛ قال أبو القاسم: «إن الأرض لم تُسلّط على أجساد

---

(١) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١/٥٦٧؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٤١.

(٢) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤/٤٧٨؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥/٢٦١.

(٣) الدارمي، **سُنَن**، ١/٥٤؛ انظر أيضًا: **صحيح البخاري**، ٤/١٦١٩؛ الطبراني، **المعجم الكبير**، ٢٢/٤١٦؛ المتّقي، **كَنْز العمّال**، ٧/٢٦١. ولقد شَدَت فاطمة ببضعة أبيات تحدثت فيها عن الرائحة الطيّبة المنبعثة من لحد أبيها (انظر: الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٣/٤٢٦).

(٤) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٣/٤٥١.

الأنبياء»[1]. غير أن التفسير الأكثر شيوعًا هو أن المسلمين الذين شابهوا عمر في إنكاره لوفاة الرسول، لم يسارعوا إلى دفنه مباشرة إثر قبضه، لاعتقادهم - وهو ما سبقنا إلى ذكره - أنه عائد. وهم لم يسلّموا بواقع الحال إلا عندما رأوا جسده يتحلّل.

إن أقدم المؤلّفات الغربيّة المكرّسة لسيرة محمّد والتي تجاهر بعدائها للإسلام، تتوقف عند المصير الذي أفرد لجثمانه واصفة مشهديات مقيتة صراحة، كما هي الحال في كتاب **قصّة محمّد** (*Istoria de Mahomet*)، العائد إلى نحو العام ٨٥٠م. وبحسب صاحب المؤلّف (المعاصر للطّبري، وهذا أمر يجدر بنا لَفْت القارئ إليه)، أن محمدًا تنبأ أمام مريديه بأنّ موته بات وشيكًا وبأنّه سيقوم في اليوم الثالث عَقِب وفاته. وبعدما قُبِض الرسول، انتظر المسلمون إذن حصول هذه المعجزة. وإذ لاحظوا أن جثمان محمّد ماضٍ في تحلّله، خَلَصوا إلى أن تحلّقهم حوله يحول دون قيامته؛ إذ ذاك قرروا الابتعاد عن الجثمان. غير أن الكلاب، التي اشتمّت رائحة العفن المنبعثة من الجسد المتحلّل، تألّبت حوله والتهمته. عندها انتهى المسلمون إلى دفن البقايا، وقرروا، عملاً بإجراء انتقامي، قتل الكلاب كل عام[2].

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٩٩؛ انظر أيضًا: ابن أبي شيبة، **المصنّف**، ٢/٢٥٣؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٢٦/٨٤؛ الدارمي، **سُنَن**، ١/٤٤٥؛ أبو داود، **سُنَن**، ١/٥٦٢؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ١/٥٢٤؛ ١/٣٤٥؛ النَّسائي، **سُنَن**، ٢/٢٦٢؛ الطبراني، **المعجم الكبير**، ١/٢١٦؛ الحاكم النيسابوري، **المُستَدْرَك**، ١/٤١٣؛ المتّقي، **كَنْز العمّال**، ١١/٤٧٦.

(٢) انـظـر: Kenneth B. Wolf, "The Earliest Latin Lives of Muhammad", in *Conversion and Continuity. Indigenous Christian Communities in Islamic Lands. Eighth to Eighteenth Centuries*, Michael Gervers et Ramzi Bikhazi (éd.), *Papers in Medieval Studies 9*, Pontifical Institute of Medieval Studies, 1990, pp. 89-101.

وفي الجهة الإسلاميّة، تؤكّد الرواية الرسميّة على أن صحابة الرسول أخّروا ساعة دفنه بانتظار تسوية المسائل السياسيّة وضمان تسمية الخليفة. ولقد حرصت المصادر السنيّة على الجزم بأن تحضيرات الجنازة بدأت مباشرة عَقِب مبايعة أبي بكر. غير أن هذه الحجّة لا تبدو لنا ذات مصداقية عالية؛ ويعود السبب في ذلك إلى أن الأشخاص الذين شُغلوا بجهاز الرسول ودفنه، لم يحضروا الاجتماع الذي التأم في سقيفة بني ساعدة؛ وعلى العكس، لم يكن لمَنْ حضروا هذا الاجتماع مَنْ يمثّلهم في جنازة الرسول...

عندما هُمَّ بدفن محمّد، برز شقاق في الرأي في شأن موقع الدفن: أينبغي دفنه في المسجد، أو في غرفته حيث قُبض، أو في مقبرة بقيع؟[1].

فلما فُرغ من جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء، وُضع في سريره في بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه. فقال قائل: ندفنه في مسجده وقال قائل: بل ندفنه مع

= وثمّة رواية عن هذا الخبر في حوليّة أرمنيّة بعنوان: *Mxit'ar of Ani*، وأخرى في رواية محمّد (*Le Roman de Mehomet*) وهو المؤلّف الأدبي الأول المحرّر بالفرنسيّة، والمكرّس لمحمّد، والصادر في العام ١٢٥٨ (انظر في هذا الخصوص: Etan Kohlberg, "Western Accounts of the Death of the Prophet Muhammad", op. cit.).

وبوجه عام، لقي هذا النوع من السرديّات رواجًا كبيرًا في الأدب القروسطي (انظر في كتابنا هذا: «وبعد...»).

(١) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٦٦٣/٢؛ انظر أيضًا: الإمام مالك، **الموطأ**، ٢٣١/١؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٩٢/٢؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٥٠/٢ - ٢٥١؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٩/٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٨٧/٥؛ المتّقي، **كَنز العمّال**، ٧/ ٢٢٦.

أصحابه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما قُبِضَ نبيّ إلا دُفن حيث يُقْبضُ(١).

وعملاً برأي «الصدّيق» أبي بكر، اتّخذ القرار بدفن الرسول في غرفة زوجته عائشة، فرُفع سريره وحُفِر في مكانه.

أجمعت كل مصادر التراث الإسلامي، السنيّة منها والشيعيّة، على الإفادة بأنّ عليًا هو مَنْ اضطلع بالغَسْل، يعاونه عليه الملاك جبريل، بحسب ما قيل:

قال سلمان [الفارسي]: فأتيت عليًا وهو يغسل رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله) أوصى عليًا (عليه السلام) أن لا يلي غسله غيره. فقال: يا رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله) مَنْ يعينني على ذلك؟ فقال: جبرئيل. فكان علي (عليه السلام) لا يريد عضوًا إلا قلب له(٢).

غير أن أفرادًا آخرين من العائلة الهاشميّة شاركوا في المهمّة، أي عمّه العبّاس وابناه، قُثَم والفضل(٣) (وثَمّة روايات ذكرت حضور

---

(١) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٦٣/٢؛ انظر أيضًا: الإمام مالك، **الموطأ**، ٢٣١/١؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٩٢/٢؛ الطّبري، **تاريخ...**، ٢٣٩/٢؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٥٠/٢ - ٢٥١؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٨٧/٥؛ المتّقي، **كَنْز العمّال**، ٢٢٦/٧.

(٢) المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٦٢/٢٨.

(٣) من المشروع الاعتقاد إن مؤرّخي تلك الحِقْبة كانوا أقل اهتمامًا بالصدقيّة التاريخيّة مما كانوا بإعطاء جَدّ العباسيّين دورًا من الطراز الأول في هذا الفصل المهم من تاريخ الإسلام: «أخبرنا محمد بن عمر، حدّثني محمد بن عبد الله عن الزهريّ عن عبد الله بن ثَعْلبة بن صُعير، قال: «غَسل النبيَّ، صلى الله عليه وسلم، عليٌّ والفضل وأسامة=

عقيل، شقيق عليّ[1]، بالإضافة إلى أسامَةَ بن زيد وشُقْران، مولى الرسول:

قال ابن إسحاق: فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه، أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء، فحدثني عبد الله بن أبي بكر وحسين بن عبد الله وغيرهما من أصحابنا: أن عليّ بن أبي طالب، والعبّاس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وقُثَم بن العباس، وأُسامة بن زيد، وشُقْران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، هم الذين ولُوا غَسْله، وأن أوس بن خَوْليّ، أحد بني عوف بن الخزرج، قال لعليّ بن أبي طالب: أنشُدُك الله يا عليّ وحظّنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أوس من أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأهل بدر، قال: أدخل، فدخل فجلس، وحضر غَسْل رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فأسنده عليّ بن أبي طالب إلى صدره، وكان العباس والفضل وقُثَم يقلبونه معه، وكان أُسامة بن زيد وشُقْران مولاه، هما اللذان يصبّان الماء عليه، وعليّ يُغسِّله، قد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه، لا يُفضي بيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليّ يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيًّا

=بن زيد وشُقْران ووَليَ غسل سَفِلَتِه عليّ والفضل محتضنه وكان العبّاس وأُسامة بن زيد وشُقْران يصبّون الماء» (ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٩/٢).

(١) ابن سعد، عينه، ٢٧٩/٢: «أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا عبد الله بن محمد عن أبيه عن جدّه عن عليّ: أنّه غسل النبيّ، صلى الله عليه وسلم، وعبّاس وعقيل بن أبي طالب وأوس بن خَوَليّ وأُسامة بن زيد».

وميتًا! ولم يُرَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء مما يُرَى من الميت[١].

ولقد أعلمتنا المصادر الإسلاميّة كذلك أن عائلة الرسول اختلت بجثمانه من دون أن تشرح لنا الأسباب الحقيقية في هذه العزلة: «قال ابن إسحاق: ولما قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم انحاز هذا الحيُّ من الأنصار إلى سعد بن عُبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل عليّ بن أبي طالب والزُّبير بن العوّام وطلحة بن عُبيد الله في بيت فاطمة»[٢]: أتراهم أقفلوا على أنفسهم أم أُقفِل عليهم؟ وفي بعض الروايات، نرى العبّاس يغادر الغرفة ويجلس أمام الباب، قائلاً: «لم يمنعني أن أحضر غَسْلَه إلاّ أنّي كنتُ أراه يَستحي أن أراه حاسرًا»[٣]. وإذ عبّر رجال من عشيرة بني زُهْرة (وهم أخوال الرسول) عن رغبتهم في المشاركة في الجهاز، وقع الاختيار على عبد الرحمن بن عوف: «أخبرنا الفضل بن دُكين، أخبرنا سفيان الثوريّ عن إسماعيل عن عامر قال: حدّثني مَرْحَب أو ابن أبي مَرْحَب قال: كأنّي أنظر إليهم في قبر النبيّ، صلى الله عليه وسلم، أربعة أحدهم عبد الرحمن بن عوف»[٤].

---

(١) ابن هشام، **السّيرة النبويّة**، ٦٦٢/٢. وذكر ابن سعد في **الطبقات الكبرى** (٢٧٨/٢)، معتوق آخر هو صالح: «أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن صالح بن كَيْسان عن ابن شهاب: أنّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وَلِيَ غَسْلَه العبّاسُ ابن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب والفضل بن العبّاس وصالح مولَى رسول اله، صلى الله عليه وسلم».

(٢) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٥٦/٢؛ انظر أيضًا: السُّهَيلي، **الرّوْض الأُنُف**، ٥٨٧/٧؛ مُحِبّ الدين الطبري، **الرّياض النادرة**، ٢٣٥/١؛ العِصاميّ، **سَمْط النجوم**، ٣٣٠/٢.

(٣) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٩/٢.

(٤) عينه، ٣٠٠/٢؛ انظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٥٤/٢ - ٢٥٥؛ ابن الأثير، **أُسْد الغابة**، ٤١/١؛ وفي **الطبقات الكبرى** (٣٠٠/٢): «وأخبرني مَرْحَب أو ابن أبي=

وثمّة آخرون، كما أسلفنا، أرادوا المشاركة في الغَسْل، ومنهم أوس بن الخَوْلي[1]. وإذ تذكر هذا الشخص، تؤكّد المصادر الإسلاميّة على تعلّق الأنصار بمحمّد الذين كانوا يرَوْن فيه واحدًا منهم؛ ومن خلال قرابتهم به (وإن كانت بعيدة بلا شك)، طرحوا أنفسهم بوصفهم «أخوال» الرسول قائلين فيه إنه «ابن أختهم»:

عن عليّ بن أبي طالب قال: لمّا أخذنا في جهاز رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أغلقنا البابَ دون النّاس جميعًا فنادت الأنصار: نحن أخواله ومَكانُنا من الإسلام مكاننا!

أخبرنا محمّد بن عمر قال: فحدّثني عمر بن محمّد بن عمر عن أبيه عن عليّ بن حسين، قال: نادت الأنصار إنّ لنا حقًّا فإنما هو ابن أختنا ومكاننا من الإسلام مكاننا، وطلبوا إلى أبي بكر فقال: القوم أولى به فاطلبوا إلى عليّ وعبّاس فإنّه لا يدخل عليهم إلا من أرادوا[2].

إن محمّدًا هو الذي، وأثناء احتضاره، أوكل عليًّا الاهتمام

=مَرْحَب أنّهم أدخلوا معهم في القبر عبد الرحمن بن عوف، قال وكيع في حديثه قال الشّعبيّ: وإنّما يلي الميّتَ أهلُه».

(1) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٦٢/٢؛ ابن سعد، الطبقات...، ٢٧٩/٢ - ٢٨٠؛ ابن ماجة، سُنَن، ٥٢٠/١؛ الطبري، تاريخ...، ٢٣٨/٢.

(2) ابن سعد، الطبقات...، ٢٧٨/٢؛ من شأن هذه الصيغة أن تثير الإرباك لكون أم محمّد، آمنة بنت وَهب، قرشيّة؛ فهل كان الأنصار يحيلون بلفظ «أختنا» إلى سلمة، جدّة الرسول، أي عبد المطّلب، التي كانت تعود في أصلها إلى بني نجّار، وقد كانوا عشيرة من قبيلة الخزرج المدينيّة؟ مع ذلك يبدو من غير المعقول أن يذكّر أنصار المدينة المنوّرة برابط قرابة من الدرجة الثالثة لكي يسوّغوا حضورهم غَسْل محمّد وجهازه.

بجنازته[١]. وثمّة روايات أخرى، أكّدت على أن أبا بكر هو الذي طلب من عليّ والعبّاس التكفّل بغسل الرسول وجهازه، مذكّرًا مرة جديدة، وهو المحتكم على ذاكرة ممتازة، بحديث لأبي القاسم؛ ولم تكن تلك المرة الوحيدة التي سوّغ فيها أبو بكر قرارًا بحديث كان على ما يبدو الوحيد الذي سمعه منه:

يا معشر المسلمين كلّ قوم أحق بجنازتهم من غيرهم، فننشُدُكم الله فإنّكم إن دخلتم أخرّتموهم عنه، واللهِ لا يدخل عليه أحدٌ إلاّ من دُعِي. أو: قال [أبو بكر]: القوم أولى به[٢].

زوّدتنا كتب التراث الإسلامي بوصف مفصّل عن غَسْل الرسول وجهازه[٣]، وفيه أن الحَيْرة أَلمّت بالحاضرين لجهلهم ما إذا كان ينبغي تجريد الفقيد من ثيابه بالكامل أو لا[٤]. وإذ روى مجريات الحدث لابن عمّه عبد الله بن عبّاس، قال عليّ: «أوصى النبيّ، صلى الله عليه وسلم، ألا يغسله أحدٌ غيري فإنّه لا يرى أحدٌ عَوْرتي إلا طُمِسَت عيناه»[٥]. وبحسب رواية أخرى تدخل في باب الغرائب، وبينما كان أبناء عمومة الرسول يتساءلون ما إذا كان ينبغي عليهم أن يُبْقوا على الفقيد ثيابَه أو يخلعونها عنه، أنزل بهم الله نعاسًا ثقيلاً (يُرْجع صدى الغَفْوة

---

(١) يُجمِع السُّنة كما الشّيعة على هذه المعلومة.
(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٨/٢.
(٣) عينه، ٢٧٥/٢ - ٢٧٨.
(٤) الإمام مالك، **الموطأ**، ٢٣١/١؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٥/٢ - ٢٧٦؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٨/٢.
(٥) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٨/٢؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٨٢/٥؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٥٢٠/٤.

التي حلّت بهم إبان غزوتَيّ بَدْر وأُحد)[1] ليرتفع من عمق البيت صوت مجهول أمَرَهم بما يفعلونه:

عن عائشة، قالت: لما أرادوا غَسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه. فقالوا، والله ما ندري، أنجرّد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثيابه كما نجرّد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا ألقَى الله عليهم النوم، حتى ما من رجل إلا ذقنُه في صدره، ثم كلَّمهم مكلِّم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغسلوا النبيّ وعليه ثيابه؛ قالت: فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فغسَّلوه وعليه قميصُه، يصبُّون الماء فوق القميص، ويَدْلُكونه والقميص دون أيديهم[2].

ومن شأن هذه الهَجْعَة التي استولت على آل الرسول أن تفسِّر ربما عدم تنبُّههم إلى «الانقلاب» السياسي الذي وقع في اللحظة عينها، في سقيفة بني ساعدة!

وإذ اعتراها الغضب لما علمت بأن عليًا أُوْكِل مهمَّة الغَسْل، اعترضت عائشة قائلة: «لو استَقْبَلْتُ من أمري ما استدبرتُ ما غسلَ رسولَ الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، إلاّ نساؤه»[3]، وهذا قول يفيدنا بأن

---

(١) وفي القرآن آية في هذه الغَفْوة (٨: سورة الأنفال، الآية: ١١): ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾.

(٢) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٦٢/٢؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٦/٢ - ٢٧٧؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٨/٢؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٥١٧/٤.

(٣) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٦/٢؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ٤٧٠/١؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢/ ٢٣٩؛ الحاكم النيسابوري، **مُسْتَدْرَك**، ٦١/٣؛ البيهقي، **دلائل النبوّة**، ٢٤٢/٧؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٨١/٥.

تعليقها على الأمر إنما هو مرتبط بعُري الرسول[1]. وفي بعض الروايات المختلفة الأخرى، قال مصنِّفو كتب التراث الإسلامي إن أبناء عمومة محمّد ومواليه غسلوا جثمانه وقد عصبوا عيونهم: «قال عليّ: فكان الفضل وأسامة يناولاني الماءَ من وراء السّتر وهما معصوبا العين»[2]؛ وفي هذا ما يوحي أن الرسول قد جرّد فعلاً من ثيابه. وفي روايات أخرى، غُسِل من دون أن تُخْلَع ثيابه عنه:

أخبرنا سليمان بن بلال جميعًا عن جعفر بن محمّد عن أبيه: أنّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، غُسل في قميص، [...]، حين قبض[3].

عن عائشة، قالت: فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسّلوه وعليه قميصه يصبّون عليه الماء فوق القميص، ويدلكُونه والقميص دون أيديهم[4].

فراح عليّ يسكب الماء بين الجسد والقميص: «قال: فغسله عليّ يُدخِل يده تحت القميص والفضل يُمْسك الثوبَ عليه والأنصاريّ ينقل الماء وعَلى يَدِ عَليٍّ خِرْقَةٌ تَدْخُلُ يَدُه وعليه القميص»(*).

وامتثالاً بإرشادات محمّد، استُقْدم الماء من بِئرٍ يقال لها الغَرْس»(**)

(١) يبدو أن النساء كن معتادات في مجتمع تلك الحِقْبَة الاهتمام بغسل أزواجهم: فعَقِب سنتَيْن على وفاة الرسول، وعندما قبض أبو بكر، اضطلعت زوجته أسماء بنت عُمَيْس بغسله (انظر: الإمام مالك، **الموطأ**، ١/٢٢٣؛ ابن عبد البَرّ، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ٩٧٧/٣).

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٨/٢.

(٣) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٥/٢ - ٢٧٦.

(٤) الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٨/٢؛ انظر أيضًا: الإمام مالك، **الموطأ**، ٢٣١/١.

(*) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٨٠/٢.

(**) عينه.

(قال فيها الرسول إنها نابعة من واحد من أنهار الجنّة[1] مُزِجت بالسّدر. إن ابنا العبّاس، الفضل وقُثَم، هما اللذان كانا يقلبان جثمان الرسول، بينما كان أسامة يناول عليًا الماء من وراء الستارة؛ ولقد ساعدهما شُقْران، خادم الرسول، فيما جلس العبّاس وأوس جانبًا يراقبان المشهد: «عن أشعث عن الشّعْبيّ قال: غُسل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والعبّاسُ قاعدٌ والفضل مُحْتَضِنُهُ وعليّ يغسله وعليه قميصٌ وأسامةُ يختلف»[*]. ثم خضّب الجسد بزيت الكافور وكفِّن في ثلاثة أثواب (أو «في سبعة أثواب»[2]) بيض سَحوليّة من اليمن («كفِّن في ثلاثة أثواب يمانية كُرْسُفٍ ليس في كَفَنِه قميص ولا عِمامة»[3])، تمامًا كما طلب محمّد:

قال ابن إسحاق: فلما فُرِغ من غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كُفِّن في ثلاثة أثواب، ثوبين صُحارِيّين وبُرْد حِبَرة، أُدرج فيها إدراجًا[4].

عندما حلّت لحظة تحضير قبر الرسول، وجد آل بيته وصحبه أنفسهم أمام معضلة أخرى اقتضت منهم مواجهتها، فراحوا يتساءلون ما إذا كان عليهم، في هذا الشأن، اتباع عادات المدينة أم العمل بموجب عادات مكّة: «عن أبي طلحة قال: اختلفوا في الشّق واللّحد للنبيّ، صلى الله عليه وسلم، فقال المهاجرون: شُقّوا كما يحفر أهل مكّة، وقالت

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، عينه؛ ابن ماجة، **سُنَن**، ٤٧١/١.

(*) ابن سعد، عينه، ٢٧٧/٢.

(٢) ابن سعد، عينه، ٢٨٧/٢.

(٣) عينه، ٢٨١/٢ - ٢٨٢. ويتعلّق الأمر بقماشة استُقْدِمَت من منطقة السّحول. انظر: الإمام مالك، **الموطأ**، ٢٣٣/١.

(٤) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٦٣/٢؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٨٢/٢ و٢٨٦/٢.

الأنصار: ألحدوا كما نحفر بأرضنا»(*). في تلك اللحظة، كان عُبَيْدة بن الجرّاح، لاجِد المكّيّين المعتَمد، غائبًا عن المدينة وهو ما يثير الاستغراب[1]: «قالوا: اللّهم خِرْ لنبيّك، ابعثوا إلى أبي عبيدة وإلى أبي طلحة فأيُّهما جاء قَبْل الآخر فليعملْ عمله. [...] فجاء أبو طَلْحَة فقال والله إنّي لأرجو أن يكون الله قد خارَ لنبيّه، صلى الله عليه وسلم، إنّه كان يرى اللّحد فيُعجبه»(**). ولقد اتّضح أن عُبَيْدة بن الجرّاح كان بمعيّة عمر وأبي بكر في سقيفة بني ساعدة، يَسْعَوْن إلى «الاستيلاء» على السلطة، وهذا دليل يثبِت أنّ أبا بكر وعمر لم يحضرا جَنازة محمّد، وأن مبايعة الخليفة الأول ما كانت على الأرجح سابقة للدفن. في المقابل - وهو ما أشرنا إليه توًا - كان أبو طَلْحَة، لاحِد أهل المدينة موجودًا، فعادت إليه في النهاية مهمّة تحضير قبر الرسول:

> عن ابن عبّاس قال: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو عبيدة بن الجَرّاح يَضْرَح كحفر أهل مكّة، وكان أبو طَلْحَة زيد بن سَهْل هو الذي يحفر لأهل المدينة، فكان يَلْحد، فدعا العبّاس رجلين، فقال لأحدهما: اذهب، إلى أبي عُبيدة الجرّاح، وللآخر اذهب إلى أبي طلحة. [...] فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به، فلَحَد لرسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

وإذ «رُفع فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي

(*) ابن سعد، الطبقات...، ٢٩٨/٢.

(١) ابن سعد، عينه، ٢٩٨/٢ - ٢٩٩؛ انظر أيضًا: البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٥٠/٢ - ٢٥١؛ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٥١٩/٤.

(**) ابن سعد، الطبقات...، ٢٩٨/٢ - ٢٩٩.

(٢) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٦٣/٢.

عليه»(*)، قام أبو طَلْحَةَ، وعملاً بالعادة المدينية المرعيّة الإجراء، بحفر مِشْكاة في جنب الحفرة، وُضع الجثمان فيها[1]؛ ثم رُصِفت أرضيّة الحفرة بتسع قطع من اللبن: «وذكر البيهقي عن بعضهم أنه نُصب على لحده عليه السلام تسع لبنات»[2].

أخيرًا، وامتثالاً لإرشادات الرسول، بُسِط الجثمان «على شَفير قبره»(**)، لكي يتمكّن المسلمون من تقديم آيات الاحترام لنبيّهم وإلقاء النظرة الأخيرة عليه: «ثم دخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُصَلُّون عليه أرْسالاً، دخل الرجال، حتى إذا فرغوا أُدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أُدخل الصبيان»(***).

عندما أعطى إرشاداته في شأن جنازته، قال محمّد:

إذا غسلتموني فضعوني على سريري هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، وأنّ أول من يصلي عليّ خليلي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ادخلوا عليّ فوجًا فوجًا، فصلّوا وسلّموا تسليمًا، ولا تؤذوني بتزكية، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم، واقرأوا السلام على من غاب من أصحابي[3].

(*) ابن هشام، السيرة النبويّة.

(١) أما أبو عُبَيْدة، فإنّه كان يَشُقُّ قبورًا مستقيمة على طريقة المكّيين.

(٢) ابن كثير، السّيرة النبوية، ٥٣٥/٤. أتكون تلك القطع اللَّبِنِيّة التسع هي الأحجار المغناطيسيّة التي، في المِخيال الغربي، أبقت على تابوت محمّد معلّقًا (انظر الحاشية ١ في الصفحة ٢٢٤ من كتابنا هذا).

(**) ابن كثير، السّيرة النبوية، ٥٣٥/٤.

(***) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٦٣/٤.

(٣) البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٣٩/٢.

فراح القوم يتقاطرون ليصلّوا على الرسول جماعة إثر جماعة[1]، ولكن «لم يؤمّهم أحد»:

> ودخل الناس على رسول الله يصلّون عليه أرْسالاً، دخل الرجال، حتى إذا فرغوا أُدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أُدخل الصبيان. ولم يَؤم الناسَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد[2].

في الواقع، عندما تساءل القوم عمّن يتولّى الصلاة الجنائزيّة، أجاب عليّ قائلاً: «ألا يقوم عليه أحدٌ لعلّه يؤم؟ هو إمامكم حيًا وميّتًا!»[3] إذ ذاك، صُلّي على الفقيد بلا اللجوء إلى إمام[4]. ولنذكّر في هذا السياق بأنه افترض أنَّ أبا بكر هو مَنْ أدّى وظيفة الإمام إبّان احتضار الرسول، علمًا أن الارتكاز على هذا التكليف هو الذي أجاز، وبشكل كبير، تسويغ أسبقيّته على غيره في تولّي منصب الخليفة. فكيف لم يؤدِّ، عَقِب وفاة الرسول، هذه المهمّة العباديّة العالية الرمزيّة خلال مراسم تشييع مَنْ كان ليحلّ محلّه؟

من جهة أخرى، زوّدتنا المصادر الإسلاميّة بتفاصيل كثيرة في شأن كيفية لَحْد الرسول، ومما قالته «إنه كان للرسول قطيفة (وهي كساء منسوج من شعر الجمل) حمراء اللون كان يحبّها جدًا ويفترشها في العادة للنوم. فإذا بشُقْران، مولى محمّد، يأتي بها ويرميها في اللحد

---

(1) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٦٣/٢؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢٣٩/٢؛ السُيوطي، جامع الأحاديث، ١٩٧/٢٥؛ المتّقي، كَنز العمّال، ٢٣٧/٧.

(2) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٦٣/٢؛ انظر أيضًا: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/ ٢٨٨؛ الإمام مالك، الموطأ، ٢٣١/١؛ المتّقي، كَنز العمّال، ٢٤٣/٧.

(3) ابن سعد، الطبقات...، ٢٩١/٢؛ انظر أيضًا: المتّقي، كَنز العمّال، ٢٥٤/٧.

(4) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٦٣/٢؛ ابن سعد، الطبقات...، ٢٨٨/٢ - ٢٨٩؛ البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢٥١/٢.

قائلاً: «لا يلبسها أحد بعدكَ أبدًا!»(١) ويقال إن أرض المدينة المنوّرة «كانت أرضًا نديّة»(*)، أي سَبِخِيّة، لكثرة المستنقعات فيها، ما اقتضى فَرْش قَعْرِ القبر بهذه القماشة السميكة(٢):

عن أبي جَمْرة قال: سمعت ابن عَبّاس يقول: جُعل في قبر النبيّ، صلى الله عليه وسلم، قطيفة حمراء؛ قال وكيع: هذا للنبيّ، صلى الله عليه وسلم، خاصّةً.

[و]عن جعفر بن محمّد عن أبيه: أن الّذي ألْقَى القَطيفةَ شُقْرَان مولى النبيّ، صلى الله عليه وسلم.

[و]عن الحسن: أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بُسط تحتَه سَمَلُ قَطيفةٍ حمراءَ كان يلبسها، قال: وكانت أرضًا نَديّة(**).

وتجدر الإشارة إلى أنّ محمّدًا نفسه أعطى هذا التوجيه قائلاً: «افرشوا لي قطيفتي في لَحْدي فإنَّ الأرض لم تُسلّط على أجساد الأنبياء»(٣). وسرعان ما نزل كل من علي والعبّاس والفضل وقُثَم وشُقْران

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٩٩/٢؛ انظر أيضًا: ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٦٤/٢، وفيها: «وقد كان مولاه شُقْران حين وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حُفرته وبنى عليه قد أخذ قطيفة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها ويفترشها، فدفنها في القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبدًا». انظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٥٤/٢.

(*) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٩٩/٢.

(٢) البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٥٣/٢ - ٢٤٥؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٨٩/٥.

(**) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٩٩/٢.

(٣) ابن سعد، عينه؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٨٩/٥؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٥٣٥/٤ وفيها: «وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افرشوا لي قطيفةً في لحدي فإن الأرض لم تُسلّط على أجساد الأنبياء».

القبرَ الذي تدافع حوله المسلمون[1]. فإذا بأوس بن الخولي يرجو عليًا أن يجيز له النزول وإيّاهم في حفرة النبي، قائلًا: «يا عليّ، أنشدك الله، وحظّنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم»[2]، مضيفًا: «قد علمتم أنّي كنتُ أشهد قبور الشّهداء، فالنبيّ، صلى الله عليه وسلم، أفضلُ الشهداء، فأدخَلوه معهم»[3].

صعد الرجال من القبر بعد أن وضعوا الجثمان فيه. وقد قيل إن عليًا كان آخرهم وإن ابن عمّه قُثَم بن عبّاس ادعى أنه أضاع خاتمهُ لما نزله، ليتسنى له نزوله من جديد بحيث يكون آخر مَنْ يرى وجه محمّد. ولكونهم كانوا يكتبون في ظِلّ حكم العباسيّين، ومن باب الحرص على رمزيّة أدقّ التفاصيل، عمد مصنّفو المصادر الإسلاميّة بلا شك إلى القيام ببعض «الترتيبات» التي تجيز لواحد من أبناء العبّاس أن يكون آخر مَنْ يرى وجه الرسول:

قال ابن إسحاق [...] عن مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن مولاه عبد الله بن الحارث، قال: اعتمرت مع عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه في زمان عمر أو في زمان عثمان، فنزل على أخته أم هانئ بنت أبي طالب، فلما فرغ من عُمرته رجع فسُكب له غِسل، فاغتسل، فلما فرغ من غسله دخل عليه نفر من أهل العراق، فقالوا: يا أبا حسن، جئنا نسألك عن أمر نحبّ أن تخبرنا عنه؟ قال: أظنّ المغيرة بن شعبة يحدّثكم أنه كان أحدث الناس عهدًا برسول الله صلى الله عليه وسلم. قالوا: أجل، عن ذلك جئنا نسألك، قال: كذب؛

(1) ابن سعد، الطبقات...، ٢/٣٠٠ - ٣٠٢.
(2) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٢/٦٦٤؛ انظر أيضًا: ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤/٥٣٥.
(3) ابن سعد، الطبقات...، ٢/٣٠٠ - ٣٠١.

قال: أحدث الناس عهدًا برسول الله صلى الله عليه وسلم قُثَم بن عباس[1].

ثم أهيل التراب على الحفرة بحيث سُدَّت كلّ فجواتها، وذلك قبل أن تراق فوقها قربَة ماء، ثم «جُعِل على قبره شيء مرتفع من الأرض حتى يُعرف أنّه قبره»[2].

أجمعت مصادر التراث الإسلامي - وهو أمر نادر - على معلومة مفادها أن مراسم الصلاة الجنائزيّة على الرسول ولَحْده جرت وسط الليل، مع العلم أنه حَظّر صراحة وقطعًا وأد الموتى في الليل؛ قال: «لا تدفنوا موتاكم بالليل إلا أن تضطروا»[3]. أتعلّق الأمر في النهاية بدفن سِريّ؟ إن طَرْحَ السؤال مشروع بالنّظر إلى الظروف الغامضة التي أحاطت بجنازة محمّد (كتلك التي أحاطت بالسبب في موته ولم تكن أقل غموضًا) وهي على التوالي: التأخير في المبادرة إلى الدفن؛ اعتزال آل الرسول مع جثمانه في الغرفة المأتميّة، كما والغياب الغامض لعائشة التي، على ما يبدو، غادرت الحجرة (حيث زعِم أن الرسول لفظ أنفاسه الأخيرة) والتي لم تتنبّه إلى دفن الرسول «حتى سمعنا [على حدّ قولها]

---

(١) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٢/٦٦٤ - ٦٦٥؛ انظر أيضًا: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٣٠٤؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢/٢٣٩. ادّعى المغيرة بن شعبة أنه آخر من رأى وجه محمّد (ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٢/٦٦٤؛ ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٣٠٢ - ٣٠٣؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/٢٥٥). وبحسب ابن كثير، في **السّيرة النبويّة** (٤/٥٣٨): «ألقى المغيرة بن شعبة خاتمه في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عليّ: إنما ألقيته لتقول: نزلتُ في قبر النبي صلى الله عليه وسلم. فنزل فأعطاه [الخاتم] أو أمر رجلًا فأعطاه».

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٣٠٦.

(٣) ابن ماجة، **سُنَن**، ١/٤٨٧؛ انظر أيضًا: المتّقي، **كَنْز العمّال**، ١٥/٦٠١.

صوت المساحي ليلة الثلاثاء في السَّحَر»[١] أي «جوف الليل من ليل الأربعاء»[٢].

يسعنا أن نضيف إلى ذلك عنصرًا لا يقلّ إرباكًا عن العناصر الآنفة الذِّكر، ونقصد به: غياب أبي بكر وعمر عن جنازة محمّد. ذلك أن غياب الخليفتَيْن الراشدَيْن مثبَت، في الواقع، في العديد من الكتب المحرّرة بأقلام سُنّيّة[٣]. فعلى سبيل المثال، عندما طرح كَعْب الأَحْبار أسئلة تعلّقت بغسل الرسول وجهازه ودفنه، على عمر، لم يستطع إجابته وطلب منه بالحرى سؤال عليّ في هذا الشأن:

عن جابر بن عبد الله أن كعبَ الأحبار قدم زمن عمر بن الخطاب فقال ونحن جلوس عنده: يا أمير المؤمنين ما كان

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٣٠٥/٢؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبل، **مُسْنَد**، ٣٦٩/٤٣؛ الطبري، **تاريخ...**، ٢٣٩/٢؛ البيهقي، **سُنَن**، ٥٧٤/٣؛ ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٥٣٨/٤. وفي **الموطأ** للإمام مالك بن أنس (٢٣١/١)، أن أم سَلَمة هي التي سمعت «وَقْع الكرازين»: «أخبرنا مالك بن أنس أنه بلغه: أن أمّ سلمة زوج النبيّ، صلى الله عليه وسلم، كانت تقول: ما صدّقتُ بموت النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى سمعت بوَقْع الكرازين» (ابن سعد، **الطبقات...**، ٣٠٤/٢).

(٢) ابن هشام، **السّيرة النبوية**، ٦٦٤/٢.

(٣) وحدها بعض الترتيبات التاريخيّة المُخْتَلَقَة هي التي تظهر أبا بكر وعمر يؤديان آيات الاحترام لجثمان سيّدهما وصديقهما ويصلّيان عليه (انظر في هذا الشأن: ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٩٠/٢) وفيها: «عن موسى بن محمّد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْميّ قال: وجدتُ هذا في صحيفة بخطّ أبي فيها: لمّا كُفِّن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ووُضع على سريره، دخل أبو بكر وعمر فقالا: السلامُ عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته! ومعهما نَفَرٌ من المهاجرين والأنصار قَدْرَ ما يَسَعُ البَيْتُ؛ فسلّموا كما سلّم أبو بكر وعمر وصفّوا صُفوفًا لا يؤمّهم عليه أحد، فقال أبو بكر وعمر، وهُما في الصفّ الأوّل حِيَالَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم: اللّهمّ إنا نَشهد أن بَلّغ ما أُنزل إليه ونَصح لأمّته وجاهد في سبيل الله حتى أعزّ الله دينَه...». انظر أيضًا: ابن كثير، **السّيرة النبوية**، ٥٢٧/٤ - ٥٢٨).

آخر ما تكلّم به النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: سَلْ عليًا، فقال: أين هو؟ قال: هو ذا فسأله، فقال عليّ: أسندته إلى صدري فوضع رأسه على منكبي وقال: الصلاة الصلاة، فقال كعب: كذلك عهد الأنبياء وبه أمروا وعليه يبعثون، قال: فمن غسله يا أمير المؤمنين؟ قال: سَلْ عليًا فسأله، فقال: كنت أغسله وكان عباس جالسًا وكان أسامة وشُقران يختلفان إليّ بالماء[1].

كان لكل من أبي بكر وعمر أولويّات أخرى على ما يبدو؛ والدليل على ذلك إنما يكمن في أنْ جاء مَنْ يحذّرهما، عَقِب قَبْض محمّد بوقت قصير:

قال ابن إسحاق: ولما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم انحاز هذا الحيُّ من الأنصار إلى سعد بن عُبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل عليّ بن أبي طالب والزُّبير ابن العوّام وطَلْحَة بن عُبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقيّة المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أُسَيد بن حُضَير، في بني عبد الأشهل، فأتى آت إلى أبي بكر وعمر، فقال: إن هذا الحيّ من الأنصار مع سعد بن عُبادة في سقيفة بني ساعدة، قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرُهم، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم يُفرغ من أمره قد أغلَق دُونه الباب أهله. قال عمر: فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه[2].

---

(١) المتّقي، كنز العمّال، ٧/٢٥٢ - ٢٥٣.

(٢) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٢/٦٥٦؛ انظر أيضًا: البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/ ١٢٦٤ ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤/٤٨٩.

ويضاف إلى هذا القول آخرُ، إذ «قال قائل من الأنصار: [...]: فكثر اللَّغط، وارتفعت الأصوات حتى تخوّفت الاختلاف»:

يقول البلاذري نقلاً عن الواقدي: بينما المهاجرون في حجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد قبضه الله إليه، وعلي بن أبي طالب والعباس متشاغلان به، إذ جاء معن بن عدي، وعويم بن ساعدة فقالا لأبي بكر: باب فتنة، إن لم يغلقه الله بك فلن يغلق أبدًا»[1]. فإذا بأبي بكر وعمر يسارعان إلى سقيفة بني ساعدة حيث كان الأنصار مجتمعين لمبايعة سيّد الخَزْرَج، سعد بن عبادة[2].

وإن كانت بعض المصادر الإسلاميّة قد فسَّرت غيابهما بواقع أنهما كانا في اجتماع السقيفة[3]، فإنّ هذه المعلومة وجدت لها ما يكذّبها في مصادر أخرى جزمت بأن مراسم دفن الرسول لم تبدأ إلا بعد مبايعة الخليفة الجديد: فعلى سبيل المثال، قال كل من البلاذُري وابن كثير إن أبا بكر بُوْيع خليفةً قبل الفراغ من غَسْل الرسول وجهازه. وفي هذا الشأن، كتب ابن كثير: «فلما ماتت [أي فاطمة] بعد ستة أشهر من وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم رأى عليٌّ أن يجدد البيعة مع أبي بكر رضي الله عنه، مع ما تقدّم له من البيعة قبل دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم»[4]؛ وكتب أيضًا «قد قدمنا أنهم رضي الله عنهم اشتغلوا ببيعة الصدّيق بقية يوم الاثنين وبعض يوم الثلاثاء، فلما تمهّدت وتوطّدت

---

(1) ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٢/٦٦٠؛ انظر أيضًا: البلاذُري، أنساب الأشراف، ٢/ ٢٦٢.

(2) من جهته، أكّد ابن أبي شَيْبَة في المصنّف (٤٣٢/٧)، إن أبا بكر وعمر عادا إلى المدينة عَقِب دفن الرسول.

(3) عينه.

(4) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤/٤٩٥ - ٤٩٦.

وتمت شرعوا بعد ذلك في تجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم مُقْتَدين في كل ما أَشْكَل عليهم بأبي بكر الصديق رضي الله عنه»[1].
إذن، إن انتظر المسلمون مبايعة أبي بكر خليفة حتى يشرعوا في مراسم تشييع الرسول، فلما لم يكن الخليفة الجديد موجودًا في جنازة صاحبه؟

أفادت بعض الروايات أن أبا بكر، وخلال غَسْل الرسول وجهازه، وقف في باب حجرته مترصِّدًا ومانعًا أيًا يكن من دخولها؛ فهل كان في هذا الموقع لحماية عائلة أبي القاسم أم لمراقبتها؟ وما السبب في عدم مشاركته في الغَسْل. فسّر ابن أبي قُحافة هذا الأمر قائلاً: «يا معشر المسلمين كلّ قوم أحقّ بجنازتهم من غيرهم [...] القوم أولى به»[2].
لكن، ألم يكن أبا بكر مقرّبًا من الرسول؟ ألم تكن حيثيّة هذه القرابة هي التي طرحها ليسوّغ أَحقيّته بمنصب الخلافة؟ هذا، ومن شأن لُبْس الروايات المتعلّقة بتاريخ مواراة الرسول الثرى وغياب الخليفتَيْن الراشدَيْن الأوّلَيْن (أو حضورهما الحذِر) عن الجنازة أن يعكِس حالة الارتباك هي نفسها التي شهدتها أمّة المسلمين في الساعات الأولى - بل وفي الأيام الأولى - اللاحقة لموت محمّد. وبطبيعة الحال، عرف أبو بكر وعمر كيف يستفيدان من الذهول العام بحيث يَسْتَوْليان على السلطة.

أما فيما يتعلّق بعائشة، فلما لا نراها في أي من المشاهد التي روتها المصادر الإسلاميّة في باب ذكر غسل الرسول وجهازه ودفنه، ولا حتى في تلك التي أظهرت لنا الأمة في تقاطرها للصلاة والسلام على سيّدها؟

---

(١) ابن كثير، عينه، ٥١٧/٤، حيث جزم صاحب **السيرة النبوية** بأن مفاوضات السقيفة دامت يومَيْن، ما يفسّر التأخير في دفن الرسول. انظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٦٣/٢.

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٧٨/٢ - ٢٧٩؛ انظر أيضًا: ابن منظور، **المختصَر**، ٣٩٢/٢؛ النويري، **نهاية الأَرَب**، ٣٩٠/١٨.

في الواقع، إن غيابها عن السرديّات في جنازة زوجها هو أكثر إثارة للإرباك واللُّبْس من غياب كل من أبي بكر وعمر، وبخاصة أنها كانت المحظيّة الملازمة للرسول طول فترة احتضاره. ولنذكّر القارئ بأنّ عائشة نفسها هي مَنْ أقرّت بعدم معرفتها بلَحْد الرسول إلا بعد أن سمعت صوت المساحي في السَّحَر[1]. ثمّة تفسيران لهذا الغياب: إما أن الرسول لم يدفن في حجرة عائشة وإنما في مكان آخر (بعيد جدًا عنها)؛ إما أن المحظيّة أخلت الحجرة، مطرودةً من عليّ الذي ترأس المراسم الجنائزيّة. فالتباغض الكبير بين الشخصيتَيْن يجعل هذه الحجّة الأخيرة قابلة للتصديق.

ثمّة عنصر أخير يلقي بظلاله الكثيفة على شهادات عائشة الضعيفة المصداقيّة. وقد يبدو هذا العنصر داخلًا في باب الطرفة فيمرّ بالتالي مرور الكرام؛ إلا أنه متعلّق باختفاء آيات قرآنيّة في ظروف مثيرة للاستغراب خلال جنازة الرسول. وفيما يلي سرد بوقائع هذا الحدث: عندما أصبح خليفة، أراد عمر أن يجمع القرآن من خلال تقميش الشذرات المبعثرة التي دوِّنت فيها الآيات المُنْزَلة في حياة محمّد. غير أن واحدة منها بقيت ضائعة، وهي الآية في الرَّجم ورضاعة الكبير، التي كان عمر مع ذلك متأكدًا من أنها نزلت[2]. وإذ سأل عائشة بشأنها، أتاه جواب أم المؤمنين مُذهلًا، إذ شرحت له، وبلا استياء ولا اضطراب قائلة: «لقد نزلت آية الرجم، ورضاعة الكبير عشرًا. ولقد كان في صحيفة تحت سريري. فلما

---

(1) ابن هشام، السّيرة النبوية، ٦٦٣/٢؛ ابن حَنْبَل، مُسْنَد، ٣٦٩/٤٣؛ ابن سعد، الطبقات...، ٣٠٥/٢؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢٣٩/٢؛ البيهقي، سُنَن، ٣/ ٥٧٤؛ ابن كثير، السّيرة النبوية، ٥٣٨/٤.

(2) ابن كثير، السّيرة النبوية، ٤٨٧/٤؛ ابن ماجة، سُنَن، ٨٥٣/٢.

مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشاغلنا بموته، دخل داجن[1] فأكلها»[2] وإن بدت هذه الرواية تسرد حدثًا مستبعَد حصوله، فإن السبب لا يعود فحسب إلى الشاة «الآكلة للآيات القرآنيّة»، بل إلى إقرار عائشة في رواية أخرى بعدم حضورها لجنازة زوجها. أما عمر، فإنه لم يصدّق كلمة واحدة مما روته له عائشة وبقي حتى أواخر أيامه يصرخ غضبه جراء ضياع آية الرجم التي كانت، بحسب ما قال، موجودة في القرآن بلا شك:

فجلس عمر على المنبر فلما سكت المؤذن قام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد، أيها الناس فإني قائل مقالةً وقد قدّر لي أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدَي أجَلي، فمن وعاها وعقلها فليحدّث بها حيث انتهت به راحلته، ومَن لم

(١) إن لفظ «داجن» وجمعه «دواجن»، اسم نوع يدلّ في اللغة العربية على ما أَلِف البيوت وأقام بها مع الناس من الحيوان والطَّير. ومن المرجَّح جدًا أن يحيل اللفظ في السياق الوارد في المتن إلى شاة.

(٢) خلافًا لما يمكن لنا اعتقاده، لا ترد هذه الرواية في كتاب كان صاحبه يهوى المزاح، بل نقلها مصنّفون يعدّون بما تركوه من مؤلّفات في التراث الإسلامي حجّة، ومنهم خصوصًا ابن ماجة، **سُنَن**، ٦٢٥/١؛ وانظر القول أيضًا في: ابن قُتَيْبَة، **تأويل مختَلَف الحديث**، ٤٣٩/١؛ أبو يعلى الموصلي، **مُسْنَد**، ٦٣/٨؛ الطبراني، **المُعْجم الأوسط**، ١٢/٨؛ الدارقُطني، **المختار من السُّنَن المأثورة**، ٣١٦/٥؛ البيهقي، **معرفة السُّنَن والآثار**، ٢٦١/١١؛ ابن حزم الأندلسي، **المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار**، ٢٣٦/١١؛ السّيوطي، **الدُّر المنثور**، ٤٧٢/٢؛ الألوسي، **تفسير روح المعاني**، ٢/ ٤٦٢). ولقد أصابت هذه الرواية مُفسِّري القرآن بالحَيْرة والإرباك، لدرجة عمد معها القُرْطُبي إلى رفضها رفضًا تامًا، قائلاً فيها إنها بدعة أتى بها الملحدون والمهرطقون (انظر: **تفسير القرطبي**، ١١٣/١٤). غير أن اعتراضه هذا غير مقبول إذ من غير الممكن، ولا في أي حال من الأحوال، اعتبار المصنّفين الذين سبقنا إلى ذكرهم، من أهل الكفر أو الهرطقة!

يَعِها فلا أُحلُّ له أن يَكْذب عليّ. إن الله بعث محمدًا بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرَّجْم فقرأناها ووعيناها وعقلناها، ورجمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ورجَمْنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرَّجم في كتاب الله. فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله عز وجل، فالرجم في كتاب الله حقٌّ على من زنى إذا أحْصِن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحَبل أو الاعتراف[1].

ومما لا شك في أنه يَسَعُنا مشاركة عمر حَيْرته وارتباكه والتساؤل كم من الآيات التهمتها الدّاجن؟...

---

(١) ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤٨٧/٤؛ انظر أيضًا: الإمام مالك، **الموطأ**، ٨٢٣/١ - ٨٢٤؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٤٥١/١؛ **صحيح البُخاري**، ٢٥٠٤/٦ - ٢٥٠٥؛ أبو داود، **سُنَن**، ٢٥٠/٤؛ **صحيح مسلم**، ١١٦/٥؛ **التّرمِذي، سُنَن**، ٣٨/٤؛ **البيهقي، سُنَن**، ٣٧٠/٨؛ المتّقي، **كَنْز العمّال**، ٤٢٩/٥؛ أما نص هذه الآية التي زُعِمَ اختفاؤها فهو التالي: «الشيخ والشيخة فارْجموهما البَتَّةَ». ولقد استقوى عمر بحجّة يستحيل دحضها ومفادها أن الرسول هو نفسه اضطلع بالرَّجم عقابًا على الزنى (انظر: الإمام مالك، **الموطأ**، ٨٢٤/١). وتجدر الإشارة أن أقدم كتب التراث الإسلامي ذكرت آية الرَّجم هذه (وهذا دليل يثبت وجودها في القرآن): فعلى سبيل المثال، قال الإمام مالك بن أنس بوضوح إن الرسول، عندما أرسى عقوبة الرَّجم، استلهم التوراة (انظره في **الموطأ**، ٨١٩/١). أما في شأن ممارسة رضاعة الكبير المثيرة للغرابة، فيبدو أنها كانت في تلك الأزمنة مألوفة، إذ كانت أزواج الرسول تلجأ إليها متوسّلة شقيقاتهن، وذلك بحسب ما تؤكده الروايات الغريبة الواردة في كتب التراث الإسلامي الأكثر تمسّكًا باستقامة التقاليد، ومنها: الإمام مالك، **الموطأ**، ٦٠٣/١ - ٦٠٥؛ ابن أبي شَيْبَة، **المصنّف**، ٥٤٨/٣؛ عبد الرزاق الصنعاني، **المُصنّف**، ٤٦٩/٧؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٣٤٢/٤٣.

الفصل الثامن عشر
المسلمون وذاكرة رسولهم

تقول الرواية «الرسمية» إن محمّدًا دُفن في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة لغرفة عائشة، شرقي مسجد المدينة الحالي الذي يُعَدّ، بعد الكعبة في مكّة، المكان الأكثر قداسة في الإسلام. قبل تشييد القبر الحالي للرسول في العام ٧٠٧م، خلال فترة الحكم الأمويّ، كانت المعلومات في شأن المصير الذي آل إليه البيت الذي دُفن فيه محمّد، معلومات متضاربة. وقد قيل إن معاوية بن أبي سفيان «أرسل إلى عائشة: أنت أحقّ بالشفعة. وبعث إليها بالشراء، واشترى من عائشة منزلها، يقولون بمائة وثمانين ألف درهم»[1].

وعَقِب عمليّة البيع والشراء هذه، بقيت أرملة الرسول تشغل المكان حتى وفاتها: «وشرط لها سكناها حياتها»[*]. وثمّة روايات أخرى تقول إن ابن أخت عائشة، عبد الله بن الزّبير، اشتراه منها و«بعث إليها يقال خمسة أجمال بخت تحمل المال»[**].

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٦٤/٨ - ١٦٥؛ انظر أيضًا البيهقي، **سُنَن**، ٥٧/٦؛ ابن عساكر، **تاريخ دِمشق**، ١٩٠/٢٨؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٤٥٢/٤.

(*) ابن سعد، **الطبقات...**، ١٦٥/٨.

(**) ابن سعد، عينه.

في البداية، «لم يكن على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على بيت النبيّ حائطٌ فكان أوّلُ مَن بنى جدارًا عمر بن الخطّاب؛ قال عُبيد الله بن أبي يزيد: كان جداره قصيرًا»[1].

غير أن هذه المعلومة تُشكّك فيها بعض الروايات. فعلى سبيل المثال، قال أبو داود إن القاسم بن محمّد بن أبي بكر وهو حفيد أول الخلفاء، دخل يومًا، زمن معاوية، على خالته عائشة وطلب منها أن «تكشف له عن قبر النبي صلى الله عليه وسلم»[2].

نستنتج بالتالي أنَّ المسلمين، حتى في حياة عائشة، ما كانوا يعرفون بدقّة موضع ضريح الرسول، علمًا أن بعض المؤلّفين قد جزموا أن ارتفاعه بلغ شبرًا، وأنه كان مُعَلَّمًا بحجر (يقال له «نَقَلٌ») أو بحَصَوات صغيرة حمراء (يقال لها «حَصْبَاء»):

أخبرنا طَلْق بن غنّام النّخَعيّ [...]: أنّ النبيّ، صلى الله عليه وسلم، جعل على قبره شيءٌ مرتفع من الأرض حتى يُعرف أنّه قبره. [...] [و]أخبرنا محمّد بن عمر [...] قال: كان نَبَثُ قبر النبيّ، صلى الله عليه وسلم، شِبْرًا. [...] وكان قبر النبيّ، صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعمر مسنّمة عليها نَقَلٌ. [...] [و]عن عمرو بن عثمان قال: سمعتُ القاسم بن محمّد يقول اطّلعتُ وأنا صغير على القبور فرأيت عليها حَصْبَاء حمراءَ[3].

---

(١) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٩٤؛ انظر أيضًا: المتقي، **كَنْز العُمّال**، ٧/١٨٥ - ١٨٦.

(٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/٣٤٩؛ انظر أيضًا: أبو داود، **سُنَن**، ٣/٢٠٨؛ البَيْهقي، **سُنَن**، ٤/٣ - ٤؛ الحاكم النيسابوري، **مُسْتَدْرَك**، ١/٥٢٤.

(٣) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٣٠٦ - ٣٠٧؛ انظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/ ٢٥٤.

على العموم، وحتى العام ٧٠٧م، كان المسلمون لا يعلمون بدقّة المكان الذي دفِن فيه رسولهم، وهذا واقع أبرزته الرواية التي سردت مجريات بناء مسجِد المدينة، في ظِلّ حكم الخليفة الأموي السادس، أي الوليد بن عبد الملك (٦٦٨ - ٧١٥م)[١]، الذي أمر عمر بن عبد العزيز (٦٨٢ - ٧٢٠)، وقد كان في تلك الحِقْبة والي المدينة (قبل أن يصبح هو نفسه خليفة) بشراء حجرات أزواج الرسول وتدميرها بغرض توسيع مسجد المدينة. أثارت هذه الأشغال استياء سكّان المدينة الذين عارضوا قرار الخليفة. ومن بين هؤلاء المعترضين، ذكرت كتب التراث الإسلامي خاصة خُبَيْب بن عبد الله بن الزّبير[٢]، الذي أنزل به عقاب شديد جرّاء احتجاجه على تدمير منزل الرسول وجرّاء ما أحدثه هذا الاحتجاج من بلبلة في المدينة: «[...] ضرب عمر بن عبد العزيز خُبيبَ بن عبد الله بن الزبير بأمر الوليد إيّاه، وصبّ على رأسه قِربةً من ماء بارد. ذكر محمد بنُ عمَر، أن أبا المليح حدّثه عمّن حضر عمَر بن عبد العزيز حين جَلَد خُبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سَوْطًا، وصَبَّ على رأسه قِرْبةً من ماء في يوم شاتٍ، ووَقفه على باب المسجد، فمَكَث يومَه ثم مات». وقد قيل إن عمرَ بن عبد العزيز شعر بالذنب جرّاء تنفيذه حكم الخليفة لدرجة تسلّطت عليه الأَهْلاس حتى صار يعتقد أنه يرى طيف خُبَيْب أينما حلّ:

وكان عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعْدَ مَوْتِ خُبَيْبٍ شَدِيدَ الْخَوْفِ لاَ يَأْمَنُ، وَكَانَ إِذَا بُشِّرَ بشيء مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ يَقُولُ: وَكَيْفَ وَخُبَيْبٌ لِي بِالطَّرِيقِ؟ وَفِي رِوَايَةٍ يَقُولُ هَذَا إِذَا لَمْ يكن خبيب

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/٢٥٤.

(٢) كان خُبيب يتحدّر من أصول مرموقة: فهو حفيد الزُّبَيْر بن العوّام، وابن خال الرسول، وحفيد الخليفة أبي بكر (أي حفيد ابنته أسماء).

فِي الطريق، ثُمَّ يَصِيحُ صِيَاحَ الْمَرْأَةِ الثَّكْلَى، وَكَانَ إِذَا أُثْنِيَ عَلَيْهِ يَقُولُ: خُبَيْبٌ وَمَا خُبَيْبٌ إِنْ نَجَوْتُ مِنْهُ فَأَنَا بِخَيْرٍ[1].

وأثناء هدم حجرة عائشة على يد الوالي، ظهرت للعيان القبور الثلاثة التي كانت موجودة فيها، أي قبر الرسول، وقبرَيّ أبي بكر وعمر. وبحسب ما رواه البُخاري في **الصحيح**، انهار الرمل الذي كان يغطيهما ليجد القوم أنفسهم أمام مشهد مرعب، إذ برزت قدم من الضريح:

أخبرنا سُويد بن سعيد قال: أخبرنا عليّ بن مُسْهِر عن هشام بن عروة قال: لما سقط الحائط عنهم في زمن الوليد بن عبد الملك أُخِذَ في بنائه فَبَدَتْ لهم قَدَمٌ ففزعوا وظنّوا أنّها قدَمُ النبيّ، صلى الله عليه وسلم، فما وجدوا أحدًا يعْلَمُ ذلك حتى قال لهم عروة: لا والله ما هي قدم النبيّ، ماهي إلاّ قدَمُ عمر[2].

قبض الخوف على عمر بن عبد العزيز، الذي كان يتابع الأشغال، لاعتقاده بأن القدم قدم الرسول، وسارع ليطمر القبر بنفسه[3]. غير أن الإرباك الناجم عن هذه الأشغال وذلك الظهور المخيف للقدم يثبتان مرةً جديدة أنه لم يكن للمسلمين في العام ٧٠٧م، أيّة فكرة عن المكان الذي يوجد فيه قبر رسولهم[4]؛ وهو ما فسّرته عائشة بقولها:

---

(١) الطبري، **تاريخ...**، ٢٠/٤؛ انظر أيضًا: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠٣/٩؛ ابن حَجَر، **فتح الباري**، ٢٥٧/٣.

(٢) ابن سعد، **الطبقات...**، ٣٦٨/٣؛ انظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٤٦٨/١؛ ابن كثير، **السّيرة النبويّة**، ٥٤١/٤ - ٥٤٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٢٩٣/٥.

(٣) تقول كتب التراث الإسلامي إن القَدَم عائدة في الواقع إلى عمر (ولا نعرف كيف توصّل هشام بن عُرْوَة المذكور في **الطبقات...**، إلى هذا الاستنتاج).

(٤) يستشهد ليور هاليڤي (Leor Halevi) بالمؤرّخ السّمهودي الذي دخل غرفة عائشة ووجدها مغطاة بالأنقاض لدرجة استحال عليه تحديد المكان الدقيق لقبر محمّد. وفي =

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي لم يَقُمْ منه: «لَعَنَ الله اليَهُودَ والنَصارَى، فإنَّهُمْ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنبيائهم مساجِدَ». قالت: «ولولا ذلك، أُبرِز قَبْرُهُ، غيرَ أنَّهُ خَشِيَ أن يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[1].

ومن جهة أخرى، فإن حادثة بروز تلك القدم من خارج القبر (هل هي رِجْل الرسول أم رِجْل عمر؟ لا ندري) يُحِيلنا إلى فكرة عمليّة تدنيس غير إرادي لقبر محمّد، وهو ما، إن ربطناه بالفصل المأسوي الذي أهمل فيه جثمانه وبدفنه المتأخّر، يؤكد على أن الجيل الأول من المسلمين لم يولوا نبيّهم المكانة التي تليق به. وقد أهمل قبره طوال القرن الأول، ولم يُعرف ولم يُقدَّس إلا بعد قرن من وفاته (أي أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلادي)، وهي الفترة التي تأسّس فيها الإسلام «الإمبراطوري» مع الدولة الأموية. ولأنّهم لا يمتلكون معالم تاريخيّة يمكن التحقّق من أصليّتها، فإنّ المسلمين في النهاية لا يعرفون إلاّ أماكن العبادة...

إن القوس الذي فتحناه عن قبر النبي وموقعه المشكوك فيه يثير مسألة المكانة التي كان يحتلّها محمّد في نظر الأجيال الأولى من المسلمين، التي لم يكن النبي بالنسبة إليها على الأرجح موضوعَ تقديس. وللتدليل على ذلك، نحتاج فقط إلى النظر إلى المعاملة التي عانى منها أحفاده المباشرون، الذين ماتوا جميعًا إما مقتولين أو في ظروف غامضة. إن هذا التخريب الأصلي بقي مدفونًا في اللاوعي الجمعي للمسلمين ويشرح في

= شأن التفاصيل المتعلّقة بقبر الرسول، انظر: السّمهودي، **خلاصة الوفاء** وليور هاليفي، **ضريح محمّد**:
Leor Halevi, *Muhammad's grave*, *op. cit.*, pp. 192-195.

(1) ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٥٨/٤١.

رأينا، كما لو أنه كان طفوًا للمكبوت، هوس المسلمين اليوم بالتجديف. ولعل هذا الشعور بالذنب المتجذّر بعمق في الفكر التاريخي الدفين للمسلمين، هو الذي يقف وراء الانفعالات العاطفيّة التي يثيرها اليوم أقل مَسّ بصورة محمّد.

من الواضح أن تقديس محمّد متأخر جدًا. وقد أسفرت الأبحاث في أقدم السرديّات والكتابات في تاريخ الإسلام، والتي شهدت تقدّمًا ملحوظًا في السنوات الأخيرة، عن معلومات مذهلة في بعض الأحيان... ذلك أن دراسة أقدم النقوش الأثريّة في الإسلام تكشِف عما يسمّيه فريديريك إمبير (Frédéric Imbert) «دليل الغياب»: لا يظهر اسم محمّد على أي من أقدم الكتابات المكتشفة في شبه الجزيرة العربيّة[1]. ويرجع أقدم ذكر للنبي إلى نقش حجري يعود إلى العام مئة واثني عشر من الهجرة/٧٣٨ - ٧٣٩م ويرِد في صلاة تربط بينه وبين إبراهيم: «آمين ربّ محمّد وإبراهيم».

وعلاوة على ذلك، تشهد أقدم الوثائق المكتوبة على ورق البَرْدي على أن الروايات الأولى تعود إلى بداية القرن الثامن على الأقل. ولم تصل إلينا سوى قطعة بَرْديّة واحدة من ثمانية أسطر من هذه الفترة؛ تحتوي الوثيقة المعنيّة المكتشَفة في خِربة المِرْد (وهي تَقَع شمالي غربي

---

(١) بناء على ما يذكّرنا به فريدريك إمبِرت، «ومن وجهة نظر المعطيات الماديّة، فإن الإشارة الأقدم إلى الرسول تعود إلى العام ٦٦هـ/٦٨٥م، على دراخْمَة (أي قطعة نَقْد يوناني) عربية - ساسانيّة؛ ثم على شاهد قبر مصري عائد إلى العام ٧١هـ/٦٩١م، وعلى نقش موجود على قبّة الصخرة في أورشليم - القدس وهو عائد إلى العام ٧٢هـ/٦٩٢م؛ انظر:

Frédéric Imbert, "L'Islam des pierres: l'expression de la foi dans les graffiti arabes des premiers siècles", in *Écriture de l'histoire et processus de canonisation dans les premiers siècles de l'islam, hommage à A.-L. de Prémare, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, no. 129, 2011, pp. 55-77.

البحر الميّت) والمحتويَة على بعض تفاصيل وَقْعَة بدر (أول انتصار للمسلمين على «كُفّار» مكّة)[1]، ذُكر اسم محمّد مرتَيْن في هذه القطعة، والغريب في الأمر أن اسمه لم يقترن بعبارة التبريك المعتادة: «صلّى الله عليه وسلّم».

وقد أدى غياب ذكر الرسول في أقدم النقوش الأثريّة إلى ظهور بعض نظريات «النفي»، حيث ذهب باحثون من أمثال يِهودا نيڤو (Yehuda D. Nevo)[2]، إلى حدّ التشكيك في وجود محمّد أصلاً. ومن دون أن نؤيد بالضرورة هذه الفرضيّات الراديكاليّة، إلاّ أننا مع ذلك نُدهَش لِغياب الإشارات المباشرة إلى الدين في أقدم السجلات المكتوبة في تاريخ الإسلام. فعلى سبيل المثال، تحتوي الكتابة المعروفة باسم «نقش زهير»، والتي يعود تاريخها إلى العام أربع وعشرين من الهجرة/٦٤٤ للميلاد[3]، والتي تشكّل ثاني أقدم وثيقة مكتوبة في تاريخ الإسلام[4]، على الجملة التالية: «أنا زهير كتبتُ زمن تُوُفِّيَ عمر سَنَةَ أربع وعشرين». إن نَصَّ هذا النَّقْش، وعلى الرغم من طابعه المقتضَب، يثير هو الآخر وفي العمق، مسألة غياب ذِكر محمّد، عَقِب مرور نحو اثني عشر عامًا

---

(١) انظر: أدولف غروهمان، بَرْدِي عربي من خِرْبَة المِرْد، Adolph Grohmann, *Arabic Papyri from Hirbet el-Mird*, Bibliothèque du Muséon 52, Louvain, 1963.

(٢) انـظـر: Yehuda Nevo et Judith Koren, *Crossroads to Islam. The Origins of the Arab Religion and the Arab State*, Amherst, NY, Prometheus Books, 2003.

(٣) انظر علي غبّان، «أقدم نقش إسلامي مؤرّخ بسنة ٢٤هـ/٦٤٤ - ٦٤٥م». في: *Arabia*, 1, 2003, pp. 293-342.

(٤) إن أقدمها صحيفة بَرْدي عائدة إلى العام ٢٢ من الهجرة: ويتعلّق الأمر هنا بوثيقة مكتوبة بالعربيّة واليونانيّة، وموجّهة من قائد عسكري مسلم من إهناسيا (مصر)، اكتشفت في العام ١٨٧٧، وهي اليوم محفوظة في مكتبة ڤِيِنّا الوطنية.

على وفاته. ومن المثير للدهشة أيضًا غياب أدنى صيغة دينيّة: فقد ورد اسم عمر (بن الخطّاب)، في شكله الأكثر اقتضابًا، وبلا أية إشارة إلى أيّ من لقبَيْه: أي الخليفة وأمير المؤمنين. كما أن ذكر هذا الصحابي غير مرفوق بأية صيغة تبريكيّة[١].

جزم كل من روبرت هويلاند (Robert Hoyland)[٢] وجيرمي جونز (Jeremy Johns)[٣]، أن غياب أية إشارة دينيّة في أقدم النقوش لا يثبت بالضرورة أن «الإسلام المحمّدي» لم يكن موجودًا (وهو ما يدافع عنه التيار التشكيكي «الإنكاري»)، وإنما يثبت أن ذِكر الرسول لم يكن آنذاك ضروريًا. فبالنسبة إلى الباحثين، كان تشكيل دولة حقيقيّة في عهد الخليفة عبد الملك (وقد امتد بين عاميّ ٦٤٦ و٧٠٥م)، هو الذي أنتج التجليّات العامة المعبّرة عن أيديولوجيّة إمبراطوريّة تعتمد الدين مرجعًا. وبالتالي، فإن غياب الإعلانات الإسلاميّة الصريحة قبل خلافة عبد الملك يثبت أن ذكر النبي لم يصبح قوة كفيلة بإضفاء الشرعيّة الدينيّة إلا عندما احتاج الخليفة الأموي إلى دعم ادعاءاته السياسيّة في مواجهة التمرّد الذي قاده عبد الله بن الزبير. ففي عهد عبد الملك تحديدًا، أمر الحجّاج بن يوسف الثقفي، والي العراق الشهير، بالاضطلاع بتشكيل نهائي للمصحف القرآنيّ، من خلال فرضه كتابًا واحدًا موحّدًا[٤]. وهكذا، كان من

---

(١) إن أسماء صحابة الرسول متبوعة في العادة بعبارة «رضي الله عنه».

(٢) انظر: Robert G. Hoyland, "New Documentary Texts and the Early Islamic State", in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 69, 2006, pp. 395-416.

(٣) انظر: Jeremy Johns, "Archaeology and the History of Early Islam. The First Seventy Years", in *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, 46, 2003, pp. 411-436.

(٤) انظر: ألفرد - لويس دو بريمار، «عبد الملك بن مروان وعملية تشكيل القرآن»،=

الواضح أن تأسيس نص القرآن وانبثاق دين محمّد في عهد الأمويّين مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بإضفاء الشرعيّة على السلطة السياسيّة الجديدة وفرضِها[(١)].

وفي المحصّلة، توشِك الاكتشافات المُسْتَنْجِرة في المنقوشات على إحداث ثورة في مقاربتنا لتاريخ الإسلام، ليس فقط على مستوى التصور الذي كان لدى الأجيال الأولى من المسلمين عن الرسول، وإنما أيضًا على مستوى المبادئ التأسيسيّة للدين، مثل الشهادتَيْن، ومنهما شهادة أن لا إله إلا الله، التي تمّ العثور على صيغ سابقة لها، تختلف عن تلك التي نعرفها اليوم[(٢)]. إن الحفريات الأثرية ودراسة الوثائق غير الإسلاميّة المعاصرة لظهور الإسلام، تُحدِث اليوم «ثورة كوبرنيكيّة» حقيقيّة في معرفتنا بفجر الإسلام. وبالتالي، فإننا نشهد تقدّم عمليّة إعادة النظر الشاملة والجديدة لكتابة التاريخ...

تُبيّن الأدلة الأثرية أن معاصري محمّد كانوا غير مبالين إلى حدّ ما بديمومة ذِكراه. رجل واحد فقط أدرك بلا شك أهميّة الحفاظ على ذكرى الرسول حيّة لكي يؤسِّس شرعيّته السياسيّة: إنه الخليفة الأول أبو بكر

Alfred-Louis de Prémare, "'Abd al-Malik b. Marwân et le processus de= constitution du Coran", in *Die dunklen Anfânge. Newe Forschungen Zur Entstehung und frühen Geschichte des Islam*, Karl-Heinz Ohlig, Volker Popp, Gred-Rüdiger Puin (éd.), Berlin, Hans Schiler, 2005, pp. 179-211.

(١) يمكن إدراج هذا الإجراء في الإطار العام للكتابة التملكيّة للتاريخ الذي حلّله عبد السلام شِدّادي في مؤلّفه العرب وتملّك التاريخ Abdessalam Cheddadi, *Les Arabes et l'appropriation de l'histoire, op. cit.*

(٢) انظر: سولانج أوري، «الجوانب الدينيّة للنصوص النقشيّة العائدة إلى فجر الإسلام»، Solange Ory, "Aspects religieux des textes épigraphiques du début de l'Islam", in *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, no. 58, 1990, pp. 30-39.

الصّديق. ففي أعقاب وفاة محمّد، عرف كيف يستغل ذكرى صديقه أبي القاسم لتبرير توليه الخلافة. وكما رأينا توًّا في رواية اللحظات الأولى التالية لوفاة محمّد، نجح أبو بكر في السيطرة على الوضع في عدّة مناسبات من خلال التذكير بهذه الآية أو بذاك الحديث الذي كان هو الوحيد الذي يتذكّره من بين جميع الصحابة المقرّبين من النبي.

وفي حيال ذاكرة أبي بكر القويّة، لدينا فقدان الذاكرة لدى ابن عبّاس. في الواقع، إن أمسك أبو بكر بالسلطة فلأنه عرف كيف يتذكّر في تلك اللحظة الدقيقة والحرجة التي مرّ بها الدين الناشئ؛ أما الهاشميون فقد خسروا السلطة لأن ذاكرتهم كانت ضعيفة؛ ويتّضح ذلك من النسيان العارض الذي أصاب ابن عباس، ابن عم الرسول، وهو الذي عجز عن تذكّر الوصية الثالثة التي أوصى بها محمّد في مرضه الأخير[1]. وبهذا، انتصرت ذاكرة الصحابي اليقظة على نسيان ابن العمّ، وأصبحت الخلافة في يد أبي بكر.

تَجَلّت عبقريّة الخليفة الأول إذن في إدراكه قبل غيره أنَّ السيطرة على الذاكرة الجماعيّة هي حجر الزاوية في ممارسة السلطة: ذلك أن التمكّن من القرآن وحديث الرسول شكّلا على امتداد القرون، أداة لا يمكن الاستغناء عنها لمن أراد الهيمنة وإضفاء الشرعية على السلطة؛ ولقد تعلّم هذا الدرس جميع من تقلّد السلطة بعد الخليفة الأول. وبمساعدة عمر، أثبت أبو بكر مهارة وحنكة سياسيّة لا تضاهيها إلا حنكة ومهارة الرسول. فكثيرة هي الأحاديث التي أظهرت الخليفتَيْن الأوَّلَيْن مُلازمان للرسول[2]؛ فهو كان يقول: «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر»[3].

---

(١) انظر الفصل الحادي عشر من كتابنا هذا.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٣٣٤/٢؛ انظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/ ٢٠٨.

(٣) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢٩٣/٢؛ انظر أيضًا: البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢٠٨/٢.

وقد رأت عائشة ذات مرة منامًا شاهدت فيه ثلاثة أقمار تسقط في حُجْرتها[1]؛ وقد تحقّق الحلم، إذ دفن كلّ من أبي بكر وعمر في جوار محمّد في حجرة عائشة التي ساهمت، وبشكل كبير، في الارتقاء بالرجلَيْن إلى مصاف «نائبَيّ الرسول». ومن جهتها، عمدت كتب التراث الإسلامي إلى الإحالة إليهما باسم «أبَوَيّ الإسلام»، فأبو بكر أمّه وعمر أبوه: «أخبرنا محمد بن عاصم الأصبهاني قال سمعت أبا أسامة يقول: تدرون مَن أبو بكر وعمر هما أبوا الإسلام وأمّه»[2]. إن كانت تلك هي الحال، فماذا عن الرسول؟ ما هي «صلة القرابة» بينه وبين الدين الجديد؟ أيكون أبو بكر وعمر في نهاية المطاف هما المؤسّسان الحقيقيّان للإسلام؟

غداة موت محمّد، وفي اللحظة التي أوشك فيها الدين الجديد الذي أسّسه على الانهيار، سارع أبو بكر وعمر مباشرة إلى إيقاف رِدّة القبائل العربيّة. ولقد عاد لهما الفضل (وبفضل عمر على وجه الخصوص) في أن عرف الإسلام لاحقًا انطلاقته وتوسّعه؛ ذلك أنه، وعندما تجاوز حدوده الجغرافيّة، لم يعد الإسلام دين العرب وحدهم بل أصبح دينًا للبشريّة جمعاء. لقد نجح أبو بكر وعمر في إعطاء دين العروبة بعدًا كونيًا، كما أنهما أعطيا دين آخر الزمان مستقبلاً. لهذا السبب، ومن قبرَيْهما الملاصقَيْن لقبر محمّد، يواصل الرجلان اليوم، وهما اللذان يشكّلان معه نوعًا من «الثالوث»، التحكّم في قسم كبير من البشريّة.

---

(1) ابن سعد، **الطبقات...**، ٢/٢٩٣؛ انظر أيضًا: الإمام مالك، **الموطأ**، ١/٢٣٢؛ البلاذُري، **أنساب الأشراف**، ٢/٢٤٩ - ٢٥٠.

(2) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٤٤/٣٨٦؛ انظر أيضًا: الذّهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٢/٤١٢؛ الذّهبي، **تاريخ الإسلام**، ٣/٢٧٤؛ السّيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ١/٩٩.

في الختام...
موتُ رسولٍ وولادةُ دين

يضعنا الاستقصاء في الفصل الأخير من حياة الرسول أمام صعوبة - باعثة على اليأس أحيانًا - في رسم صورة مترابطة، متماسكة الملامح للإنسان الذي كان عليه. ويعود السبب في ذلك إلى أننا نجد كل حدث من أحداث حياته، وكل سِمَة من سمات شخصيّته، تذوب في كَمّ مذهل من الروايات المتباينة، بل والمتناقضة. ولقد كان لمؤلِّفي كتب التراث الإسلامي هم أنفسهم، أن شعروا بالحيرة أمام هذا الكم الهائل من الروايات والأحاديث المتضاربة التي جمعوها. إن حلقات سيرة الرسول هي سديم حقيقي، حيث غالبًا ما يصاب المرء بالدوار بسبب اختلاف الروايات ووُجُهات النظر وتباينها[1]. وخلال اضطلاعنا بتأليف هذا الكتاب، أتيحت لنا الفرصة أكثر من مرة لإبداء هذه الملاحظة المربكة: إذ يمكن لعائشة، على سبيل المثال، أن تعطيَ عن الحدث نفسه، روايتَيْن مختلفتَيْن تمامًا - وهو بلا شك ما دفع بالرسول إلى القول: «خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء» لعلمه ربما بإمكانية أن يكون النصفُ الآخرُ خاطئًا!

---

(1) انظر الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب وهي بعنوان «وبعد...».

على الرغم من وَفْرَة المعلومات التي تنطوي عليها، إلا أن كتب التراث الإسلامي تتَّسم بقدر كبير من التذبذب، ولا تعطي في نهاية المطاف سوى معلومات تقريبيّة. هذا ما يفسِّر عجز المصنِّفين المسلمين لهذه المصادر عن تزويدنا بأبسط المعطيات الأوليّة عن الرسول، مثل عدد أولاده بالضبط أو تاريخ ميلاده الذي لم يتم إطلاقًا تحديده بدقّة.

أضف إلى ذلك التشويش المعمَّم على التسلسل الزمني للأحداث والمواقف، حيث هامش الخطأ يَعُدّ عشر سنوات على الأقل. وبالتالي، لا داعي للإسهاب في الحديث عن عواقب هذا الإبهام المتسلّط على إعادة التشكيل التاريخي لسيرة الرسول. بل، إن ما يثير الاستغراب أكثر - وقد سبقنا إلى لفتِ القارئ إليه - هو افتقارنا إلى أيّة وثيقة، إلى أي أثر ملموس معاصر لحِقبة الرسول، ما يحكم على المؤرّخ بتلمّس طريقه في متاهة الماضي المدْلَهِمَّة، مسترشدًا بذاك الشعاع الخافت المرتعش الذي ينبعث من كتب التراث الإسلامي، والمساهم أحيانًا - للمفارَقة - في ابتداع أوهام بصريّة، عوض أن يضيء له ولنا الطريق.

ونتيجة لهذا الغموض، يستحيل علينا تبيّن شخصيّة محمّد. فمن ناحية، لدينا صورة الرجل المتواضع ذي الطبع اللطيف، الذي أعطته بعض المصادر الإسلامية ملامح ربّ العائلة الحنون والودود، الذي يشفق على المُعْوَزين ويعاملهم برفق. ومن ناحية أخرى، نكتشف في الكتب نفسها صورة رجل قاس، يأمر بالأعمال اللصوصيّة والمجازر؛ إذ تتخلل حلقات من حياته مشاهد شنيعة فظيعة، كتلك التي نرى فيها الرسول يطلب من ابن عمّه الزبير تعذيب اليهودي كِنانة بن الربيع تعذيبًا ضاريًا، حتى يكشِف له المكان الذي خبّأ فيه كنز بني النّضير[1]. وثمّة

(١) عن ابن هشام، في السيرة النبويّة (٣٣٦/٢): «وأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بكِنانة بن الربيع، وكان عنده كَنز بني النَّضير، فسأله عنه. فجحد أن يكون يعرف=

مشهديات لا تقلّ ترويعًا، نرى الرسول فيها يأمر بإبادة عائلة بكاملها[1]. وفي مشهد آخر، نرى الرسول يأمر إخوته في الدين تجريد جثّة الرجل الذي يقتلونه أو يأخذونه رهينة مما يملك[2]: «مَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ قَتِيلاً فَلَهُ سَلْبُهُ». تارة، تصوّر كتب التراث الإسلامي محمّدًا على أنه كان يعيش في ترف، مراكمًا الثروة ومراعيًا الميسورين؛ وتارة تثني على زهده، وفقره المقصود، وتَجَرُّده من مَتاع الدنيا، فتظهره لنا مقيمًا في منزل متواضع، حيث يقوم بالأعمال المنزليّة بنفسه، ويحلِب شاته بيدَيْه، ويرتّق ثيابه ويصلح نعلَيْه بنفسه. أما فيما يتعلق بموقفه حِيال خصومه، فيمكننا أن نرى أن ردود أفعال النبي متناقضة بشكل جذري: فقد يكون قاسيًا مع

=مكانه، فأتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رجل من يهود، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخَرِبة كلّ غداة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكِنانة: أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك؟ قال نعم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخِربة فحفُرت، فأخرج منها كَنْزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يُؤدّيه، فأمر به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الزّبيرَ بن العوّام، فقال: عذّبه حتى تَسْتأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزَنْدٍ في صَدره، حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمّد بن مسْلمة، فضرب عُنقه بأخيه محمود بن مَسْلَمة» (انظر أيضًا: الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣١٨/٢).

(١) عن الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣٨/٢: «ثم ارتحل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الرَّوْحاء، لقيَهُ المسلمون يهنّئونه بما فَتَح الله عليه ومَنْ معه من المسلمين، فقال سلمة بن سلامة بن وقْش - كما حدّثنا ابن حميد، فقال: حدثنا سَلَمة، قال: قال محمّد بن إسحاق، كما حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة، ويزيد بن رومان: وما الذي تُهَنّئون به! فوالله إن لقينا إلاّ عجائز صُلعًا كالبُدْنِ المعَقّلَة، فنحرناها. فتبسَّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا بنَ أخي، أولئك الملأ. قال: ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسارى من المشركين وكانوا أربعة وأربعين أسيرًا، وكان من القتلى مثل ذلك» (انظر أيضًا: ابن هشام، السّيرة النبويّة، ٦٤٤/١).

(٢) صحيح البخاري، ١١٤٤/٣؛ أبو داود، سُنَن، ٢٢/٣؛ صحيح مسلم، ١٤٧/٥؛ الذّهبي، سِيَر أعلام النبلاء، ١٦٩/٣.

الشعراء الذين يهجونه في أبيات تهكميّة، كما يمكن له، في المقابل، أن يبرهن على حِلْمه. ومن ناحية أخرى، يمكن أن يظهر حِلْمًا تجاه أشخاص حاولوا اغتياله[1].

كيف للمسلمين والحالة هي هذه أن يقتدوا بسيرة من المفترض بها أن تكون مثاليّة و«أُسوة حسنة»، في حين نراها مشكّلة من هذا الكمّ الهائل من المفارقات؟ وبأيّة من هذه الصور يمكن لهم التماهي؟ أبتلك الصورة السامية لكائن أسطوري أم بتلك العاكسة لرسول بشري، لم يكن فوق العيوب والهموم التي تصيب سائر الناس؟ وبهذا المعنى، فإن حَظْر أي تمثيل مصوَّر للرسول يجد له ما يسوِّغه في الطابع الضبابيّ الذي اكتَسَتْ به هذه الشخصيّة.

ومن جهة أخرى، فإن المؤرّخ الذي ينكَبّ على سيرة محمّد يجد نفسه في مواجهة عقبة كبيرة أخرى: إذ ثمّة اختلال صارخ بين الكمّ الهائل من المعلومات والروايات عن حياة الرسول بعد الوحي وشُحّ تلك التي تزوّدنا بها المصادر الإسلاميّة عن حياته قبل البعثة النبويّة. وبالتالي، تبدو لنا الأمور كما لو أن تعمدًا عازِمًا قصَد إزالة الهيكليّة التي شيّد الدين الجديد على أساسها. فنحن لا نعرف أي شيء تقريبًا عن حياة أبي القاسم قبل نبوءته، وهي تعدّ أربعين عامًا، أي ما يعادل ثُلُثَيّ حياته.

بوسعنا القول بوجود فاصلَيْن كبيرَيْن، بل فجوتَيْن رئيسيتَيْن، في سيرة محمّد. فمن ناحية، كانت هناك الهجرة إلى المدينة (نحو العام ٦٢٢) التي شكلت بالفعل بداية تاريخ الإسلام، وهي بمثابة السنة صفر التي انطلق منها التأريخ؛ ومن شأن هذا الفاصل أن يميّز بوضوح جانبَيْن من مهمّة محمّد النبويّة، يمكن الإشارة إليهما باقتضاب بـ «المرحلة

(١) انظر الفصل الثاني من كتابنا هذا.

الروحانيّة» الحماسيّة (أي الفترة المكيّة)، و«المرحلة السياسيّة العقلانيّة» (أي الفترة المدينيّة)[1]. ومن ناحية أخرى، ثمّة قطيعة ثانية أكثر جذريّة تتموضع على مستوى الوحي (أي نحو العام ٦١١م) وتُغرِق «ما قبل تاريخ النبي» أي حِقْبة ما قبل البعثة، في ظلام دامس لا يمكن سبر أغواره. مع ذلك، كان لهذه الفترة بلا شك تأثير حاسم على نشأة الإسلام.

حتى ولو بَخَلَتْ علينا كتب التراث الإسلامي بمعلومات عن حياة محمّد قبل النبوءة، فهي لم تكن مع ذلك صامتة تمامًا. إذ يسعنا تخمين هذا الماضي الغابر بفضل الآثار الباهتة التي خلّفها. فعلى سبيل المثال، ثمّة شخصيّات دمَغت حياة محمّد قبل النبوّة، تشبه الكائنات الشبحيَّة التي يتكهّن المؤرِّخ دورها المهم: تلك هي بخاصة حال الراهب النسطوري بحيرى الذي التقاه محمّد في بلاد الشام وربما في مكّة فيما بعد؛ وتلك هي أيضًا حال ورقة بن نوفل (ابن عمّ خديجة) الذي كان أول مَنْ اعترف بنبوّة محمّد ولكنه، ويا للغرابة، لم يعتنق الإسلام. ومن الواضح أن خديجة هي نفسها لعبت بلا أدنى شك دورًا رئيسيًا في مستهل مسيرة زوجها؛ إذ كانت على تواصل مع الراهب بحيرى، الذي قيل إنه «أمرها» بالزواج من محمّد قبل عشرين عامًا على البعثة:

فقالت خديجة: أبشر فوالله لقد كنت أعلم أن الله لن يفعل

---

(١) هذه هي الفرضيّة التي دافع عنها العلاّمة السوداني محمود محمّد طه في **الرسالة الثانية من الإسلام**، وهو كتاب صدر في العام ١٩٦٧ واتّصف بالجرأة وسداد الحجّة، وجرّ على مؤلّفه الحكم بالإعدام بتهمة الرِّدّة عن الإسلام، إذ أعدمه النميري في العام ١٩٨٥. وفي العام ١٩٩٦، صدر عن هذا الكتاب المهم ترجمة بالإنكليزيّة بعنوان:
The Second Message of Islam (Syracuse, Syracuse University Press, 1996)
وأخرى بالفرنسيّة بعنوان: *Un islam à vocation libératrice* (Paris, L'Harmattan, 2002).

بك إلا خيرًا، وأشهد أنك نبيّ هذه الأمة الذي تنتظره اليهود، قد أخبرني غلامي وبحيرى الراهب، وأمرني أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة[١].

في الواقع، تستحق علاقة خديجة ببحيرى التوضيح لأنها بالتأكيد تشكّل أحد مفاتيح فهم نشأة الإسلام. فبحسب المصادر الإسلاميّة، ذهبت خديجة بعد نزول الوحي مباشرة إلى الراهب النسطوري، «وكان قريبًا من مكّة»[*]، لتخبره بظهور الملاك جبريل لزوجها؛ فقالت: «أقبلت إليك لتخبرني عن جبريل».

ثُمَّ خَرَجَتْ إِلَى الرَّاهِبِ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ فَلَمَّا دَنَتْ مِنْهُ وَعرفهَا، قَالَ: مَا لك يَا سَيِّدَةَ نِسَاءِ قُرَيْشٍ؟ فَقَالَتْ: أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ لِتُخْبِرَنِي عَنْ جِبْرِيلَ. فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّنَا الْقُدُّوسِ! مَا بَالُ جِبْرِيلَ يُذْكَرُ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الَّتِي يَعْبُدُ أَهْلُهَا الْأَوْثَانَ؟! جِبْرِيلُ أَمِينُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَهُوَ صَاحِبُ مُوسَى وَعِيسَى. فَعَرَفْت كَرَامَةَ اللَّهِ لِمُحَمَّدٍ[٢].

وثمّة شخصيّات أخرى لا تزال في غياهِب التاريخ، مثل العبد النصراني عُداس النِّيْنَوِيّ الذي قصدته خديجة هو الآخر لتسأله في شأن التنزيل الذي تلقّاه محمّد:

ثم أتت عَبْدًا لعتبة بن ربيعة يقال له عداس، فسألته فأخبرها بمثل ما أخبرها به الراهب وأزيد، وقال: جبريل كان مع

---

(١) ابن كثير، السّيرة النبويّة، ٤٠٨/١؛ انظر أيضًا: ابن كثير، البداية والنهاية، ٢١/٣.

(*) ابن كثير، السّيرة النبويّة، عينه.

(٢) ابن كثير، عينه، ٤٠٨/١ - ٤٠٩؛ انظر أيضًا: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٨/٦٣؛ السُّهَيْلي، الرّوْض الأُنُف، ١٥٧/٢ - ١٥٨؛ ابن منظور، المختَصَر، ٢٨٠/٢٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢١/٣.

موسى حين أغرق الله فرعون وقومه، وكان معه حين كلّمه الله على الطُور، وهو صاحب عيسى بن مريم الذي أيّده الله به[1].

ومن شأن العودة إلى هذه الحِقبة السابقة للنبوّة أن تمكّننا من إعادة تشكيل العلاقات الجينيّة التي تربط بين الإسلام والعقائد اليهوديّة - المسيحيّة الموجودة في شبه الجزيرة العربيّة في القرن السابع الميلادي.

وبالنسبة إلينا، مكنتنا دراسة الأيام الأخيرة للرسول من تجاوز بعض الأفكار الشائعة المبتذلة. في الواقع، يقال في غالب الأحيان إن موت محمّد أثار موجة من العنف والفتن والحروب الأهليّة أدّت بالمسلمين إلى قتل حفيدَيْه، الحسن والحسين، وهي جريمة يمكن تشبيهها بالقتل الرمزي للنبي نفسه. ومع ذلك، إن نظرنا بتمعّن إلى نهاية حياة محمّد، لتنبّهْنا إلى أن هذا العنف قد تجلّى في حياة الرسول الذي أضحت سلطته محلّ معارضة وتشكيك من قِبل المسلمين أنفسهم؛ فحتى وهو على فراش الموت، رأى الرسول كيف أن المقرّبين منه وضعوا بجدّيّة سلطته على المِحَك.

وفي ضوء إعادة التشكيل التاريخي الذي قُمنا به في هذا الكتاب، يسعنا القول إن لحظة الانكسار الداخلي وقعت إبّان الهزيمة التي مُنِيَ بها المسلمون في وَقْعَة مُؤْتَة ضد البيزنطيّين، وقد كانت هزيمة زعزعت جدّيًا هيبة الرسول: إذ غداة السَّحق الذي تعرّضوا له على أيدي الروم، اضطر المسلمون إلى التشكيك في مكانتهم المنيعة كجنود الله.

ومما لا شكّ فيه أنه يجب أن ننقل موقع الصدع الذي مزّق الأمّة الإسلامية، لنضعه في فترة سبقت وفاة محمّد بقليل؛ بل يسعنا الذهاب في هذا الأمر أبعد من ذلك والاعتقاد، بالنظر إلى محاولات الاغتيال

---

(1) السّيرة الحلبية، ١/٣٤٨.

وشبهة التسميم، إننا أمام العناصر المشكّلة لـ «جريمة موصوفة في قتل الأب». وبالتالي، لم تكن وفاة الرسول السبب في العنف الذي لا يزال يمزّق المسلمين حتى يومنا هذا، بل أتت نتيجة شحْنة عدائيّة داخليّة، لم ينجح الدين الجديد يومًا في نزع فتيلها.

وفي هذا السياق، أجازت لنا بلا شك الصورة المقرّبة التي قدّمناها عن الأيام الأخيرة من حياة محمّد، بإلقاء ضوء جديد على الإسلام المبكّر[1]. إذ بيّنت لنا الدراسةُ وجودَ رابط جوهري بين موت الرسول وإتمام الدين. إنها فكرة نطق القرآن بها صراحة، وعبّر عنها الرسول هو نفسه في خطبة الوداع العالية الرمزيّة. غير أن هذا الاكتمال مزدوج المعنى لانطوائه على تكافؤ الضدَّيْن، فهو يدل على النهاية (بمعنى أنه يحيل إلى البعد الأخروي للرسالة النبويّة) بقدر ما يدل على الإنجاز (بمعنى أنه يحيل إلى فكرة الدين الكامل الصفات).

إن وفاة محمّد لحظة تاريخيّة بالغة الحساسيّة، تتموضع على الخيط الرفيع الفاصل بين النهاية والتّمام. إذ يتعلّق الأمر هنا بلحظة التبديل والتداول الحاسمة، حيث شكّلت نهاية النبوة - وعلى نحو مفارق - لحظة تأسيسيّة افتتاحيّة استهلاليّة، أي لحظة ظهور دين جديد. فلقد جرى كل شيء كما لو أن الإسلام لم يستطع إلى الانبثاق سبيلاً إلا عَقِب الزوال الجسديّ لرسوله. ومن شأن هذه المفارقة أن تدفعنا إلى التساؤل عن الروابط الحقيقيّة الموجودة بين الدين، الذي أطلق عليه اسم

---

(١) عمد ستفين ج. شومايكر بوضوح إلى إظهار التزامن بين لحظة موت الرسول ولحظة ولادة الإسلام في كتابه:

Stephen J. Shoemaker, *The Death of a Prophet. The End of Muhammad' Life and the Beginning of Islam, op. cit.*

ومن جهتنا، نؤيّد المقاربة التي اعتمدها لذلك تأييدًا كبيرًا.

«الإسلام»، والدعوة الأولى لمحمّد. ولنذكّر بأن الأخيرة كانت متمركزة حول استعادة الإيمان التوحيدي الإبراهيمي الذي سميّ بـ «الحَنيفِيّة»[1]. ذلك أن الرسول هو نفسه درج على القول إنه بُعِثَ ليدعوَ إلى الدين الحنيف المتسامح واليسير: «بُعِثْتُ بالحَنِيفِيّة السَّمْحَةِ»[2].

ومع موت محمّد، نجدنا أمام نقطة مِفْصليّة تأسيسيّة لدين بات، غداة رحيل رسوله، يواجه اختبارًا للاستمرار وللبقاء على قيد الحياة، وهو اختبار يزداد خطورة لأن محمّدًا لم يترك أيّة مؤسّسة ذات طبيعة سياسيّة، ولا أية وثيقة أيًا يكن نوعها أو مضمونها، لتكون نقطة الانطلاق باتجاه إرساء بنية سياسيّة أو لاهوتيّة ولو أوليّة.

بعد رحيل الرسول، وجب على الإسلام إذن أن يعيد ابتداع نفسه أو ربما أن يعمل على ابتداع نفسه بنفسه. إذ ذاك، برز رجلان لعِبا دورًا رائدًا، ونعني بهما أبا بكر وعمر اللذين اضطُرا إلى ارتجال مؤسّسة سياسيّة غير مسبوقة وإرسائها على أساس الحلول محل الرسول والنيابة عنه، أي الخلافة، وهي التي لا تزال تغذّي المِخيال الجماعي للمسلمين

(١) لتفاصيل أكثر تبحّرًا في الديانة البَدْئِيّة في شبه الجزيرة العربيّة، انظر مؤلّف رينهارت دوزي، **مَبْحَث في تاريخ الإسلام**:
Reinhart Dozy, *Essai sur l'histoire de l'islamisme*, trad. Victor Chauvin, Leyde - Paris, Brill - Maisonneuve, 1879.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٩٢/١؛ انظر أيضًا: ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ٦٢٤/٣٦؛ الطبراني، **المعجم الكبير**، ٢٢٢/٨؛ الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٢٠٩/٧؛ الذّهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٢٤/٤٩؛ ابن رَجَب، **فتح الباري**، ١٤٩/١؛ السّيوطي، **جامع الأحاديث**، ١٢٧/١١؛ المتّقي، **كَنْز العمّال**، ١٧٨/١. وفي العديد من أحاديثه، عَدّ الرسول الحَنِيْفِيّةُ أفضل الأديان وأصدقها: إنه الدين المفضّل لدى الله (انظر: عبد الرزّاق، **المصنّف**، ٧٤/١؛ ابن حَنْبَل، **مُسْنَد**، ١٧/٤؛ ابن سعد، **الطبقات**...، ٣/ ٣٩٥؛ السّيوطي، **جامع الأحاديث**، ١٦٨/٣ و٤١٥/١؛ المتّقي، **كَنْز العمّال**، ١/ ١٧٨).

الذي عَقَلها بوصفها مؤسّسة سياسيّة معصومَة من الخطأ؛ بل إنه يسعنا القول إنَّ تمسّك المسلمين بالخلافة حتى يومنا هذا، يجد له ما يفسّره في واقع أن ابتداع نظام الخلافة تزامن والولادة الحقيقيّة للإسلام، أو على الأقل ودخول هذا الدين التاريخ.

غير أن الفعل المؤسّس الذي أتى به «الشّيخان» لم يكن ذات طبيعة سياسيّة فحسب، بل كان دينيًا بامتياز. فمنذ الساعات الأولى التالية لموت محمّد، رأينا كيف سيطر أبو بكر على الموقف مستعينًا بالقرآن (آية لم يتذكرها أحد) والأحاديث النبوية (لإعطاء الوصايا أثناء جنازة محمد وكذلك لحرمان فاطمة من الميراث). منذ البداية، أسس أبو بكر سلطته السياسيّة على القرآن وأحاديث النبي، التي أضحت مذ ذاك الحين حجر الزاوية في الإمبراطوريّة الثيوقراطيّة التي أنشأها والد عائشة.

وعلى مرّ الأيام الختاميّة في حياة محمّد، رأينا كيف أن القرآن ظهر كخيط يمُرُّ في ثنيّات الروايات بحيث إننا شهِدنا، بدءًا من الآية التي التهمتها الداجن وصولاً إلى الآية التي ذكرها أبو بكر لحظة وفاة محمّد (والتي لم يعرفها أحد)، التحوّل العميق الذي حصل في تمثّل القرآن ذاته، بحيث انتُقِل به من نص مهمَل بلا أية مبالاة تحت سرير الرسول وأكلته العنزة، إلى نص مقدّس لا استغناء عنه!

وفي سياق استكشافنا للأيام الأخيرة للرسول، رأينا أيضًا بروز شخصيتَيْن براغماتيتَيْن متسلّطتَيْن: أبو بكر وعمر. وبعيدًا عن القوالب النمطيّة التي تحيط بشخصيّة أبي بكر، وجدنا أنفسنا أمام رجل يتمتّع بقوة الشخصيّة - وكانت عائشة بالفعل «ابنة أبيها» كما لاحظ محمّد. فخلف ملامح الكائن الحسّاس ذي العين الدامعة، اختبأ رجل كان في آنٍ واحد

رابطَ الجأش عنيدًا لدرجة ذهب معها البلاذُري حدّ القول فيه إنه كان أكثر صحابة محمّد حزمًا وعزمًا[1].

أما شريكه عمر، فقد كان رجلاً حاد الطباع، شديد البأس، سريع الغضب، يهابه الجميع. من المدهش أن نرى عمر، الذي كان أحيانًا «أكثر إسلامًا من الرسول»، فريسة للشك من وقت إلى آخر[2]: فقد دفعه طبعه الارتيابي إلى التشكيك في صدق الرسول أحيانًا، وأحيانًا أخرى إلى رفض آيات من القرآن. هذا بالإضافة إلى أنه كان، على العكس، يجزم بأن بعض الآيات قد أنزلت بالفعل، وإن كان الوحيد الذي يتذكّرها. وأمام الضعف الذي كان ينال تدريجًا من محمّد في مرضته الأخيرة، أبرز عمر، وبشكل مذهل، طبعه المتغطرس حدّ الصّفاقة.

عَقِب موت الرسول، دخل أبو بكر وعمر مسرح التاريخ دخولاً حاسمًا. ألم يكونا في النهاية المؤسسَّيْن الحقيقيَّيْن لدين جديد وجب عليهما إعادة بنائه على أنقاض عقيدة أوليّة انهارت فجأة لحظة وفاة محمّد؟ ولقد كان لفعلهما هذا أن اكتسى بُعدًا مسرحيًا خلال الاجتماع المغلق الذي جرى في سقيفة بني ساعدة، والذي أسفر، بعد مخاض أليم، عن بروز النّواة الأولى للدّولة الإسلاميّة.

أغلق أبو بكر وعمر باب حجرة الرسول حيث يرقد جثمانه، وحثّا

---

(1) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ٥٣/٢؛ ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ١٧٣/١؛ الذّهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٣٧٤/٢؛ الذّهبي، **تاريخ الإسلام**، ٢٠/٣؛ السّيوطي، **جامع الأحاديث**، ٢٣٧/٢٥؛ المتّقي، **كَنْز العمّال**، ١٥٨/١٠.

(2) ثمّة تشابه كبير بين عمر بن الخطاب والقديس بطرس (حواري عيسى) الذي كان هو الآخر رجلاً مندفعًا، عرف الكثير من لحظات «الشك»؛ وفي تاريخ المسيحية والإسلام، كان كل من الرجلين صاحب نبيّ ومؤسّسًا، إذ أرسى الأول أسس الخلافة الإسلاميّة ووضع الثاني أسس الكنيسة.

الخُطى نحو شُعَب بني ساعدة برفقة أبي عبيدة بن الجرّاح، فدخلوه قاصدين السقيفة حيث كان سادات الأنصار مجتمعين، وقد توسّطهم، ملتحفًا بأغطية عديدة، سيد الخَزْرَج سعد بن عبادة، الذي كان مريضًا ومستلقيًا على دكّة، فاستوى قليلاً عندما رأى أبا بكر وعمر يقتحمان السقيفة. ظلّ الجميع لدقائق طويلة يحدّقون في بعضهم البعض في صمت. في غالب الأحيان، لا يدرك الأشخاص المدعوون إلى لَعِبِ دور حاسم في التاريخ أنهم يحملون على عاتقهم مصيرًا جماعيًا. إذ لم يخطر في بال صحابة محمّد المجتمعين في السقيفة أنهم كانوا في ذلك اليوم، على وشك وضع أسس صراع سيستمر لأكثر من أربعة عشر قرنًا.

أمسك عمر بمقبض سيفه، وَهَبّ قيس بن سعد بن عُبادة واقفًا أمام أبيه ووضع يده هو الآخر على سيفه، وسدّد لابن الخطّاب نظرة تهديد. وبإشارة خفيّة وضع أبو بكر يده على يد عمر وهمس له: «انتظر! دعني أتحدث إليهم أولاً...».

وللحديث بقيّة...

وبعد...

مسائل تأريخيّة

«صعد «دوق أوج» (Le duc d'Auge) إلى قمّة برج قصره لإلقاء نظرة سريعة على الوضع التاريخي، فوجده مائلاً إلى الضبابيّة. كانت بقايا الماضي لا تزال عالقة، سائبة، مفكّكة، تتهادى متبعثرة هنا وهناك».

ريمون كونو، **الزهور الزرقاء**

Raymond Queneau - *Les Fleurs bleues*

إفصاحات المصادر غير الإسلاميّة

اهتمّ التأريخ الغربي القديم اهتمامًا كبيرًا بموت محمّد[1]، الذي وُصف بشكل بشع ومثير للسخرية. ففي كتاب **حياة محمّد** (*Vita Mahumeti*)، الذي وضعه إمْبريكون دو مايانس (Embricon de Mayence)، أوائل القرن الثاني عشر ميلادي، قُدِّمَ محمد على أنه زنديق مسيحي اندفع نحوه قطيع من الخنازير البريّة فقتله (وهو ما يفسّر، في نظر الكاتب، الكراهيّة التي يكنّها المسلمون لهذا الحيوان). نجد «الخرافة» نفسها في كتاب آخر بعنوان **حروب الإفرنج الصليبيّة** (*Dei gesta per Francos*) الذي وضعه غيبِرت دو نوجان (Guibert de Nogent)، المتوفّى في العام ١١٢٤م، وفيه نرى محمّدًا يتعرّض لهجوم من الخنازير التي صادفها في الغابة فافترسته غير مبقيّة منه إلا ذراعه اليمنى. وفي القرن الثاني عشر، ثمّة رواية للفرنسي جيرالد باري (Gérald Barry) تدّعي أن محمدًا مات وهو في حالة سُكر[2]. يبدو لنا هذا النوع

(١) انظر في هذا الخصوص مقالة إيتان كولبرغ: Etan Kohlberg, "Western Accounts of the Death of the Prophet Muhammad", *op. cit.*

(٢) انظر ماثيو ديموك، **أساطير حول الرسول محمّد في بدايات الثقافة الإنكليزيّة المعاصرة**، Mathew Dimmock, *Mythologie of the Prophet Muhammad in Early Modern English Culture*, Cambridge, Cambridge University Press, 2013, p. 36.

من الروايات مطابقًا لفكرة شائعة في الأدب القروسطي، نجد لها أثرًا في المؤلَّف الأكثر رمزيّة الذي أنتجته تلك الحِقبة، ونعني به **أنشودة رولان** (*Chanson de Roland*) حيث بوسعنا أن نقرأ البيتَيْن التاليَيْن:

أما محمّد، فلقد رُمي في حفرة

حيث داسته الكلاب والخنازير وعَضّته[١]

قد تبدو هذه الروايات للوهلة الأولى خياليّة، لكنها في الحقيقة ذات أهميّة أدبيّة كبيرة للغاية، لكونها تشكّل في الواقع تضخيمًا كاريكاتوريًا للعنف المكنون في التفاصيل الفظيعة نوعًا ما، التي تعرضها كتب التراث الإسلامي، عندما تروي احتضار محمّد وكيفية إهمال جثمانه. وعلى الرغم من مساهمتها في تحليل التمثّلات، فإن هذه الروايات «القوطِيّة» (gothique) لا تقوى على تشكيل إسهام تأريخي يوفر معرفةً أفضل بالوقائع.

في المقابل، ثمّة مصادر غير إسلاميّة أضحت اليوم ضروريّة لمعرفتنا ببدايات الإسلام، ونقصد بها الحوليّات العائدة إلى القرن السابع، كتلك التي تركها لنا الأسقف الأرمني سيبوس (l'évèque Sebèos)[٢] ويعقوب الرُهاوي، أسقف الرُها (Jacob d'Édesse)[٣] أو أُورفَة، اللذين ذكرا النبي محمّد الذائع صيته في وقت مبكر جدًا في الشرق الأوسط. وتجدر الإشارة إلى أن استكشاف هذه المصادر يشهد اليوم استقطابًا لعمليّة عظيمة في إعادة كتابة التاريخ. وفي الواقع، يكذّب تناقض الوثائق معلومة

---

(١) انظر: **أنشودة رولان** (*Chanson de Roland*)، القسم ٢٩، السطور ٢٥٩٠ - ٢٥٩١.

(٢) ارتكز الأسقف الأرمني سيبيوس (l'évêque Sebèos) في كتاباته التي وضعها نحو العام ٦٦٠م، على شهود عِيان عاصروا الغزوات العربيّة الأولى في أرمينيا.

(٣) ينقل الكاتب السّرياني يعقوب الرُهاوي (المتوفّى في العام ٧٠٨م)، في تأريخه الزمني، معلومات مقتَضبة بلا شك ولكن أصليّة المصدر موثوقة.

أُجمع عليها في كتب التراث الإسلامي، وهي تتعلّق بوفاة الرسول في المدينة في العام ٦٣٢م. فوفقًا لهذه النصوص العائدة إلى القرن السابع، كان محمّد لا يزال على قيد الحياة في العام ٦٣٤م ولم يكن في المدينة، بل إنه قاد في ذلك العام حملة إلى فلسطين وانتصر في معركة في غزّة.

وتكمن فائدة هذه المصادر في كونها معاصرة أو لاحقة بقليل لوفاة رسول الإسلام، وهو أبعد ما يكون عن حال المصادر الإسلاميّة التي تعود إلى قرن على الأقل بعد وفاة محمد. والأمر الأكثر إرباكًا من هذا يكمن في أن كل هذه النصوص، وعلى الرغم من اختلاف أصولها، أجمعت على أن محمّدًا كان في غزّة في العام ٦٣٤م. ولا بدّ في هذا السياق من أن نلفِت القارئ إلى الكتاب المهم الذي وضعه روبيرت ج. هويلاند (Robert G. Hoyland)[١] وفيه استعرض المصادر النصرانيّة واليهوديّة والزرادَشتيّة المستذكرة لبدايات الإسلام، والمنطوية، من بين أمور أخرى، على شهادة غير قابلة للدّحض في شأن الحملات العسكريّة التي قادها، في جنوب فلسطين، رجالٌ زعموا انتماءهم إلى الرسول الجديد.

ومن بين هذه المصادر[٢]، يسعنا التوقف عند حوليّة سريانيّة قصيرة حرِّرت في العام ٦٤٠م في رأس العين (أو الحَسَكة) في شمال بلاد ما بين النهرَيْن؛ يتحدث صاحبها، وهو الشيخ القسّيس توما المشيخي

(١) انظر روبيرت ج. هويلاند، **الإسلام كما رآه الآخرون. كَشف وتقويم للكتابات المسيحيّة واليهوديّة والزرادَشْتِيّة في فجر الإسلام**، Robert G. Hoyland, *Seeing Islam as Others Saw It. A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam*, Princeton, The Darwin Press, 1997.

(٢) لا بدّ من الإشارة في هذا الشأن إلى أن هذه المصادر غير الإسلاميّة لا تتحدّث عن وفاة محمّد، وإنما عن وجوده في غَزّة في العام ٦٣٤م لا غير.

(Thomas le Presbytre)[١] عن أعراب طيء محمّد (في السّريانيّة tayyiiye d-Mhmt) (طيء مصطلح سرياني يفيد بالعرب) وعن انتصارهم في معركة وقعت قرب غَزَّة في العام ٦٣٤م[٢].

وفي هذا الشأن، يؤكّد هويلاند على أن هذه هي الإحالة الصريحة الأولى إلى محمّد، وقد أرفِقَت بتأريخ محدّد وشهادة مباشرة أصليّة، مأخوذة من مصدرها. إن ذكر توماس المشيخي لاسم قائد الحملة بأحرف MHMT (وهو صيغة غير منطوقة لاسم محمّد)، أمر محيّر: أَيُقْصَد به القائد الحقيقي للحملة أم السلطة الرمزيّة التي تمّ تنفيذ هذا الفعل العسكري باسمها[٣]؟ وإن كان من الصعب الجزم في الأمر، إلا أنه من الضروري الإقرار بأنه من النادر أن يؤتى على ذكر حملة ما مرفوقًا باسم قائد توفّي قبل عامَيْن. إن المعلومة التي يزوّدنا بها هذا النص تؤيدها معلومة أخرى كُتبت في وقت سابق قليلاً، ولكن على بعد آلاف الأميال، في كتاب **ديداسكاليا يعقوب المعمَّد الجديد** (*Doctrina Jacobi nuper baptizati*) - وهذا عنوان ترجم في الفرنسيّة بحرفيّته، أي *Enseignement de Jacob le nouveau baptisé*، وترجمته الحرفية «تعليم يعقوب المعمَّد الجديد». وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب حبِّر باليونانيّة في

(١) في حوليّته (*Chronique*) المحرّرة نحو العام ٦٤٠، يذكر توما المشيخي (Thomas le Presbytre)، حكم الإمبراطور البيزنطي هِرقل الذي عاصر بدايات الإسلام.

(٢) يكتب روبيرت ج. هويلاند في مؤلّفه **الإسلام كما رآه الآخرون** (م. س.، ص١٢٠) التالي: «في العام ٩٤٥، *indiction 7*، عند الساعة التاسعة من يوم الجمعة الواقع فيه الرابع من شباط/فبراير من العام ٦٣٤، وقعت معركة بين الروم وأعراب محمّد، في فلسطين، على بعد اثني عشر ميلاً شرقيّ غَزَّة».

(٣) إن المعركة التي ذكرها توماس المشيخي (Thomas le Presbytre) تتطابق في المصادر الإسلاميّة ومعركة داثِن، التي وقعت في ربيع العام ٦٣٤م شرقيّ غَزَّة، في ظل حكم الخليفة أبي بكر. وبحسب هذه المصادر، تولّى يزيد بن أبي سُفيان قيادة هذه الحملة.

تموز/يوليو من العام ٦٣٤م، في قرطاج، عاصمة مقاطعة إفريقيّة البيزنطيّة[1]، وهو عبارة عن مؤلّف اعتذاريّ دفاعي عن الديانة المسيحيّة موجّه إلى اليهود الحاخاميّين، وفيه ذكر لرسالة بعث بها يهوديّ مقيم في قيصريّة واسمه أبراهام (Abraamès-Abraham)، إلى أخيه جوستوس (Justus) المقيم آنذاك في قرطاج. يذكر جوستوس هذه الرسالة ليعقوب (المؤلف المفترَض للعمل)، فعمد الأخير إلى إدراجها في كتابه بكاملها وبأمانة. تحدّث جوستوس عن «نبيّ كاذب» ظهر مع «المسلمين» «الساراسانيين»؛ ويحتوي المقطع الذي ذُكر فيه محمّد على المعلومة نفسها الواردة في رسالة توماس المشيخي:

كان جوستوس قد سمع عن هذا «النّبيّ» وعن أعراب قتلوا عنصرًا في الحرس الإمبراطوري، تحيل إليه اللاتينيّة بلفظ «كانديداتوس» (Candidatus). وكان أبراهام هو مَنْ أعلم أخاه جوستوس بهذه الحادثة في رسالة بعثها له وقال فيها:

عندما قُتل الكانديداتوس على أيدي الساراسانيّين [وهم أعراب متديّنين بالإسلام]، كنت في قيصريّة أستعد لركوب السفينة قاصدًا سيكا [(Sykamine) المعروفة اليوم باسم الكاف في تونس (م.)]. راح الناس يقولون: «قُتِلَ الكانديداتوس»، وغمرت الفرحة قلوب اليهود. قيل إن النبيّ ظهر، قادمًا مع الأعراب المسلمين، ومبشّرًا بمجيء المسيح الآتي. ولما

(١) لمعلومات أوفر في خصوص هذا النص، انظر: جيلبير داغرون (بالتعاون مع ڤانسان ديروش)، اليهود والنّصارى في الشرق البيزنطي، Gilbert Dagron (en collaboration avec Vincent Déroche), *Juifs et chrétiens en Orient byzantin*, Centre d'histoire et de civilisation de Byzance, Bilan de recherche, 5, Paris, 2010.

وصلتُ إلى سيكا، توقفتُ عند رجل عجوز مُتَضَلِّع في الكتب المقدّسة وسألته: «ما قولك في النبي الذي ظهر مع الأعراب المسلمين؟». أجابني بتنهيدة عميقة: «إنه نبيّ كاذب، لأن الأنبياء لا يأتون مسلّحين، شاهرين السيوف وراكبين العربات الحربيّة...». أما أنا، أبراهام، فتقصّيتُ الأمرَ وعلمتُ أن الذين التقَوْا ذاك النبيّ المزعوم، لم يجدوا فيه أي شيء أصيل: وبالتالي، لم يكن الأمر برمّته إلا سفكًا لدماء البشر. ولقد قال أيضًا إنه يمسك بمفاتيح الفردوس، وهذا أمر لا يصدّق[١].

يزوّدنا هذا النص بمعلومات مثيرة للاهتمام عن المعتقدات البدائيّة المرتبطة باسم محمّد، الذي رأى فيه اليهود إيليًا جديدًا يبشر بمجيء المسيح[٢]. ومن هنا، نخلص إلى أن الرسالة المنذِرة بمجيء المسيح المنتَظر، الذي سيخلّص البشر من الخطيئة ويقيم مملكة الله في الأرض، قد ضَمِنَت لمحمّد، في مستهل بعثته، بعض الآذان الصاغية لدى يهود المدينة؛ غير أن حِقبة السلام تلك لم تدم طويلاً.

ليست الشهادتان (تلك المخطوطة باليونانيّة، وتلك المكتوبة بالسّريانيّة) الوثيقتَيْن غير الإسلاميتَيْن الوحيدتَيْن اللتين تزوّدانا بهذه المعلومة. بل إن ستيفن ج. شومايكر (Stephen J. Shoemaker)[٣] أحصى ما لا يقل عن اثني عشر مصدرًا (يعود تاريخ هذه المصادر إلى القرنَيْن السابع والثامن)، تشهد بأن محمدًا نفسه قاد الحملة المتوجهة إلى الأراضي المقدّسة، عَقِب سنتَيْن أو ثلاث على التاريخ المفترض لوفاته في المدينة.

---

(١) Robert G. Hoyland, *Seeing Islam as Others Saw It, op. cit.*, p. 57

(٢) انظر الفصل السادس عشر من كتابنا هذا.

(٣) انظر: Stephen J. Shoemaker, *The Death of a Prophet, op. cit.*, pp. 18-72.

من الصعب التشكيك في صحّة هذه المعلومة الزمنيّة، لكونها خالية من أي طابع أيديولوجي أو لاهوتي. بالإضافة إلى ذلك، نلاحظ أن هذه المصادر غير الإسلاميّة قد كُتِبت بطريقة مستقِلّة وفي مناطق تفصل بينها جغرافيًا مسافات كبيرة. ومن المستبعد جدًا أن تحتوي هذه النصوص المختلفة على الخطأ نفسه. أخيرًا، لا يوجد مصدر إسلامي واحد يقدر اليوم على دحض هذه المعلومة، لأن أيًا من المصادر الإسلاميّة التي وصلتنا، لا يقدر على الزعم بأن صاحبه جاور الحِقبة التي عاش فيها محمّد.

في الواقع، إن التباينات بين التأريخ الإسلامي وهذه المصادر غير الإسلاميّة فيما يتعلق بتاريخ وفاة محمّد، ليست مجرد إشكاليّة في التسلسل الزمني فحسب، بل وفي مسألة الجغرافيا أيضًا. إذ يبدو أن المراجعة الزمنيّة لتاريخ وفاة الرسول قد رافقها تحول جغرافي: من فلسطين إلى الجزيرة العربيّة. إن إعادة كتابة التاريخ المقدّس، أواخر القرن السابع الميلادي، اقتضت الانتقال بوفاة الرسول إلى المدينة، وذلك بهدف تحويل الحجاز إلى مركز للسلطة الروحيّة والسياسيّة لأسباب أيديولوجيّة بديهيّة واضحة. وتذكرنا هذه المناورة بتحويل آخر تمّ في حياة محمّد، الذي قرّر أن اتجاه قِبْلَة الصلاة يجب ألا يكون نحو أورشليم - القدس، بل باتجاه مكّة. وبالتالي، فإن إعادة توجيه القِبْلة هذه، تعكس إعادة توجيه أخرى، جغرافيّة الطابع هذه المرة، لمجمل التاريخ المقدّس للإسلام الذي لم تعد «نقطة ارتكازه» (المطابقة لموت محمّد) متموضعة في أورشليم - القدس وإنما في شبه الجزيرة العربيّة.

ولنذكّر في هذا السياق إن محمّدًا قد حدّد لبعثته النبويّة هدفًا جغرافيًا محددًا: القدس. وفي المصادر الإسلاميّة نجد آثارًا لهذا التوجه الأولي صوب الأراضي المقدّسة، تمّ التعبير عنها بعبارات حُلُميّة ورمزيّة، من خلال الإسراء والمِعراج. كان للبعثة النبويّة أن تقود محمّدًا باتجاه بلاد

الشام، وهو ما يظهره لنا هذا الحوار الذي دار بين ابن عم محمّد وأحد الحاخامات. إذ سأل ابن عبّاس يومًا كَعْبَ الأَحْبَار «كيف تَجِدُ نَعْتَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في التَّوْرَاةِ؟ فَقَالَ كَعْبٌ: «نَجِدُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ يُولَدُ بِمَكَّةَ، وَيُهاجِرُ إلى طَابَةَ(١)، وَيَكُونُ مُلْكُهُ بِالشَّامِ»(٢).

لقد أجاز هذا الرابط الأصلي بين بعثة محمّد والأراضي المقدّسة لبعض المؤرّخين بطرح فرضيّة مفادها أن الرسول أعاد تسمية يثرب بالمدينة، بالإحالة إلى مدينة مودين مَدْيَن الواقعة في أرض يهودا، مسقط رأس الأسرة المكابية (أو المكابيم أو المقابيم)، المعروفة اليوم باسم ميديا المديّة والواقعة على بعد ثلاثين كيلومترًا شمالي - غربي القدس(٣). أما الاسم الجديد الذي أطلقه محمد على المدينة التي قرر أن يستقر فيها، فإنه يدل على رغبة واضحة من جانبه في إرساء رابط تاريخي ورمزي مع مدن الشمال ذات الأهميّة الإبراهيميّة والعِبريّة القويّة. ولا شك في أن هذا هو السبب الذي جعلنا نرى محمدًا يوجه حملاته الأخيرة صوب بلاد الشام، وقد كانت على التوالي مؤتة وتَبوك، بل وربما أيضًا حملة غَزَّة حيث - وهو ما نذكّر به قارئنا - مات جدّه الأكبر هاشم!

ومن المحتمل، كما يعتقد ستيفِن ج. شومايكر، أن كتب التراث الإسلامي قد وضعت وفاة الرسول في المدينة قبل فتح فلسطين بغرض

---

(١) إن «طَيْبا» و«طابا» اسمان من أسماء المدينة المنوّرة (انظر: المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٤٨/٢١).

(٢) الدارمي، **سُنَن**، ١٥٦/١؛ انظر أيضًا: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ١٨٤/١.

(٣) انظر: إدوارد - ماري غاليز، **المسيح ورسوله. في فجر الإسلام**، Edouard-Marie Gallez, *Le Messie et son prophète. Aux origines de l'Islam*, Paris, Éditions de Paris, coll. "Studia Arabica", 2 vol., 2005.

التوافق مع النموذج التوراتي: فكموسى الذي مات قبل الوصول إلى أرض الميعاد، لم ينجح محمّد في فتح الأراضي المقدّسة؛ وهي المَهَمَّة التي سينجزها صحابة الرسولَيْن: يشوع في حالة موسى، وأبو بكر (أو عمر) في حالة محمّد. غير أن مصنّفي كتب التراث الإسلامي لم يكتفوا بتقليد الأفكار الرائجة في الأدبيّات المقدّسة، بل يبدو أنهم انصاعوا إلى ضرورات سياسيّة: فخلافًا للبعثة النبويّة التي أُعلن عن إتمامها رسميًا في خطبة الوداع، بقيت مهمّة محمّد الغازي العسكريّة غير مكتملة؛ وبهذا المعنى، فإن النهاية الغريبة التي أعطاها مؤلّفو التاريخ الرسمي لحملته الأخيرة إلى تَبوك، تدل على عدم الاكتمال المتعمَّد، أي على تلك المناورة التي جعلت من الممكن الحفاظ على مشروع الفتح العسكري قائمًا ومشروعًا، والذي لا تزال القدس حتى أيامنا هذه أُفُقَه المنشود...

في المصادر الإسلاميّة:
كتابة التاريخ أو سرد حكايات؟

ليس لدينا عن الإسلام أي أثر مكتوب معاصر لظهوره[1]. إذ تبدو نشأته كأنها عمل خيميائي، حدث في ظلام حالك. ومن شأن هذه الظاهرة الخاصة بالإسلام أن تثير الاستغراب، وبخاصة أن مجتمع المدينة (المنوّرة) كان يعرف الكتابة. وبحسب كتب التراث الإسلامي، فإن الرسول هو نفسه كان رجلَ حرف وقلم. وما أميّته المزعومَة إلا أسطورة يسهل دحضها بالنظر إلى العدد الكبير من الوثائق التي قيل إنه خطّها أو أملاها طوال مسيرته، خاصة بعد هجرته إلى المدينة. بل إنه كان لمحمّد فريق من الكَتَبَة الذين شكّلوا طبقة خاصةً بين الصحابة، وهم كانوا مكلّفين بتدوين الوثائق السياسيّة كما بخطّ الآيات القرآنيّة إثر تنزيلها أولاً بأول. ومع ذلك، فإنه من المثير للدهشة ألا نجد أية وثيقة كتبها أو أملاها الرسول، ولا أي تدوين لأية آية قرآنيّة معاصرة لحياته...

(١) لعل هذه الصعوبات على وشك التلاشي بفضل أعمال التنقيب عن المنقوشات الحجريّة التي يقودها حاليًا كل من فريدريك إمْبِر (Frédéric Imbert) وكرستيان روبين (Christian Robin)، من بين علماء آثار كثر آخرين. ففي نيسان/أبريل من العام ٢٠١٣، قدّم فريدريك إمْبِر، أمام أكاديميّة المنقوشات والآداب (Académie des inscriptions et belles-lettres)، مداخلةً عرض فيها لاكتشافاته المدهشة التي اضطلع بها في المملكة العربيّة السعوديّة.

ثمّة ثلاث مدوّنات لا تزال تشكّل اليوم الأساس المعتَمَد لكتابة سيرة محمّد. أولاً القرآن الذي اعتبر باكرًا مصدرًا لمعرفة حياة الرسول؛ غير أن المدوّنة القرآنيّة كما نعرفها اليوم، لم تثبَت إلا في حِقبة متأخرة عن التنزيل[1].

وفي المرتبة الثانية، تأتي الأحاديث، وخاصة الكتب السّتة[2]. وتتألف المجموعة الهائلة من الأحاديث والأفعال والمآثر المنسوبة إلى الرسول والتي دوِّنت أساسًا في عهد العباسيّين في القرن الثالث الهجري/ القرن التاسع الميلادي، وهي السُّنَّة التي لا بدّ لكل مسلم من الاقتداء بها. وبمرور الزمن، أصبحت الأحاديث موضوع تقديس، وأضحت اليوم ركيزة أساسيّة بالنسبة إلى المسلم السُّنّي. ومع ذلك، فمن المعروف منذ فترة طويلة، حتى في الأوساط الإسلاميّة الموثوقة، أن الأحاديث النبويّة كانت في معظمها ملفّقة ومَنْحولة. بل إن محرّري كتب التراث الإسلامي كانوا مربَكين أمام الكَمّ الهائل من الروايات والأحاديث التي جمعوها بأنفسهم. فعلى سبيل المثال، انتهى البُخاري إلى الإقرار بأن سبعة آلاف حديث لا غير، من أصل مئتي ألف حديث جمعها، كانوا في نظره أحاديث موثوقة. وقد يقودنا القليل من الفحص النقدي إلى تقليص هذا العدد إلى أقل من ذلك. أخيرًا، يُحال الراغبون في التعرّف على حياة محمّد إلى كتب السّير والمغازي، علمًا أنه كان لهذه السّير وظيفةً تفسيريّة في المقام الأول، بمعنى أنها كانت بمثابة «تفسير عملي» للقرآن.

(١) في مستهل القرن الثاني الهجري/القرن الثامن الميلادي، بالنسبة إلى التقليد السّنّي. أما الشيعة، فإنهم يطرحون تسلسلاً زمنيًا آخر لتَثْبت النص القرآني، جازمين بأنّ عليًا جمع القرآن غداة وفاة الرسول.

(٢) هذه الكتب هي: صحيح مسلم وصحيح البُخاري، وسُنَن النَّسائي، وسُنَن أبي داود، وسُنَن التِّرمِذي، وسُنَن ابن ماجة.

ومن جهة أخرى، كان لهذه السِّيَر وظيفة عقائديّة، بمعنى أنها ساهمت في تأسيس الشريعة ونَظَمَت الطقوس الدينية العباديّة(١). وبالتدريج، اكتسبت السيرة النبوية قيمة قدسِيّة ترافقت وتطوّر تبجيل الشخصيّة المحمديّة.

ظهر كل من التأريخ الإسلامي والروايات الأولى لحياة محمّد أواخر القرن الأول للهجرة، أي في مستهل القرن السابع الميلادي، وقد حرّرها بعض الكَتَبَة المسلمين(٢). تلك كانت حال سليمان بن قَيْس الهلالي(٣)، وهو المؤلّف الشيعي الذي وضع **كتاب السَّقيفة** المعروف أيضًا باسم **كتاب سُلَيْم**، والذي يُعَدّ بلا شك، أقلّه في نسخته الأوليّة (العائدة إلى مستهل القرن الثاني من الهجرة)، واحدًا من أقدم الكتابات التي وصلتنا(٤). ومن جهة السّنة، فإن أوائل الكَتَبَة الذين حرّروا نصوصًا في

---

(١) على سبيل المثال، تَمّ ثبت الصلاة بفضل التقليد المنصوص عنه في سيرة الرسول.

(٢) يؤكد عبد السلام شدّادي أن «التبلّر الأول (وقد كان مدينيًا) للمغازي، جرى بين الربع الأخير من القرن الأول والربع الأول من القرن الثاني من الهجرة»؛ ولقد «ارتبط [هذا التبلّر الأول] بتقليد يمني مستقل مثّله وَهَب بن مُنبّه المعروف بكتاباته المخصّصة للتراث اليهودي - المسيحي» (انظره في **العرب وتملّك التاريخ**: Abdesselam Cheddadi, *Les Arabes et l'appropriation de l'histoire, op. cit.*, p. 172.

(٣) إنّ سليمان بن قَيْس الهلالي (٢ - ٧٦هـ/٦٢٣ - ٦٩٥م)، هو مؤلّف **كتاب سُلَيم**، وقد كان تلميذ عليّ بن أبي طالب.

(٤) «يتعلّق الأمر بنص منقوش منتحَل مَعْزُوٌ إلى نصيرٍ معاصر لعليّ، ومكوّن من عدة طبقات من التواريخ المختلفة. أما النواة البَدْئيّة، أي الطبقة الأكثر قدمًا، والتي هي على الأرجح واحدة من الكتابات الأقدم التي وصلتنا، فإنها تعود إلى الربع الأول من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي؛ وهذا النص مكرّس بشكل أساسي للأعمال العنفيّة التي فجّرتها مسألة خلافة محمّد» (انظر: محمّد - علي أمير مُعِزي، **القرآن الصامت والقرآن الناطق**، م. س.، ص٢٣: Mohammad-Ali Amir-Moezzi, *Le Coran silencieux et le Coran parlant, op. cit.*, p. 23).

حياة محمّد كانوا عُرْوَة بن الزّبير (المتوفى في العام ٩٤هـ/٧١٢م) وتلميذه الزُّهْري (المتوفّى في العام ١٢٤هـ/٧٤١م)، وقد عاشا في ظلّ حكم الأمويّين. يُقال إن عُروة كتب روايات عن بعض الفصول من حياة الرسول بطلب من الخليفة الأموي عبد الملك (وقد امتدّ عهده من العام ٦٨٥ إلى العام ٧٠٥م)، واتخذت شكل عدّة رسائل وجهها إليه. مع ذلك، لم يبقَ عن هذه الرسائل أي أثر مع أن عروة عاش لمدة سبع سنين في مصرَ، حيث لم تكن أوراق البَرْدي لتنقصَه.

من جهتنا، لم نطّلع على عمل عُرْوَة إلا من خلال الروايات والاقتباسات الواردة تحديدًا في كتب مؤلّفين لاحقين كمحمّد بن إسحاق (المولود في المدينة المنوّرة في العام ٨٥هـ/٧٠٤م، والمتوفّى في العام ١٥١هـ/٧٦٨م)، الذي لم يكن أستاذه إلا الزُّهْري، تلميذ عُرْوَة. إن ابن إسحاق، وقد انتمى إلى عائلة من «المؤرّخين»، كتب أواخر النصف الأول من القرن الثاني من الهجرة، سيرة نبويّة تنقل فصولاً من سيرة الرسول ومن مغازيه. وعلى غرار تكليف عُرْوَة بكتابة الرسائل، يُقال إن ابن إسحاق قد كُلّف من قبل الخليفة العباسي المنصور (وقد امتدّ عهده بين عامي ٧٥٤ و٧٧٥م)، بالكتابة لابنه ولي العهد المهدي، علمًا أن سيرة ابن إسحاق لم تصلنا، شأنها في ذلك شأن رسائل عُروة[1]. ومع أننا لا نستطيع الوصول إليها للاطلاع عليها مباشرة، إلا أننا نستطيع أن نكوّن فكرة عنها لأنها مُقْتَبَسَة بكثرة في أعمال لاحقة وعائدة إلى أواخر

(١) في العام ١٩٧٨، أمكن لسُهَيْل زكّار أن يطرح نسخة من السّيرة النبويّة لابن إسحاق، جمعها من شذرات مخطوطات وجدها في كل من المغرب وسوريا: ابن إسحاق، **كتاب السّير والمغازي**، تحقيق سُهَيْل زكّار، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨.

القرن الثالث والقرن الرابع الهجريَّيْن (أي بين عاميّ ٨٥٠ و٩٥٠م على وجه التقريب)[١].

تعدُّ سيرة ابن إسحاق، وبناء على ما يقوله فيها عبد السّلام شِدادي، «حاسمة في تشكيل الوعي التاريخي وفي تطوّر كتابة التاريخ في الإسلام»[٢]. وسرعان ما أصبحت الروايات المنسوبة إلى ابن إسحاق مصدرًا أساسيًا لكتابة سيرة الرسول كما كرّستها كتب التراث الإسلامي. ولا بدّ من القول إن كل ما لدينا من كتاب ابن إسحاق هو إعادة صياغة متفاوتة بل ومتباينة في كثير من الأحيان، استُقِيَت من الأعمال التي كُتبت منذ القرن الثالث الهجري/القرن التاسع الميلادي وما بعده، ومنها على وجه الخصوص **السّيرة النبوية** لابن هشام (المتوفّى في العام ٢١٨هـ/ ٨٣٢م) الذي قام بتهذيب مؤلفات ابن إسحاق. ومن هنا، لا تنقل سيرة ابن هشام بأمانة رواية ابن إسحاق، الذي كان شخصيّة مثيرة للجدل. وإذ بدت رواياته بحاجة إلى بعض التعديلات[٣]، عمد ابن هشام خصوصًا إلى حذف كل التفاصيل التي لم تكن في صالح الرسول[٤]. ومع ذلك، فإن هذا النص هو الرواية شبه الرسميّة ويشكل نموذجًا مكتملاً ومنظَّمًا للسيرة. كانت الفترة التي عاش فيها ابن هشام (امتدت من القرن الثالث إلى القرن الرابع الهجري/القرن التاسع إلى القرن العاشر الميلادي) فترة

(١) Abdesselam Cheddadi, *Les Arabes et l'appropriation de l'histoire*, *op. cit.*, p. 17.

(٢) عينه، ص١٦٣.

(٣) طالت الملامة ابن إسحاق خصوصًا بسبب «تعاطفه» مع الشيعة، وبسبب إكثاره من الإحالة إلى التراث اليهودي وذاك المسيحي.

(٤) يقارن السُهَيْلي (القرن السادس الهجري/القرن الثاني عشر الميلادي) السيرتَيْن، أي سيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام، ويختزلهما في مؤلّفه **الرَّوْضُ الأُنُف**.

حاسمة فُرضت خلالها الرواية الرسميّة لتاريخ الإسلام ولسيرة الرسول، وذلك بإيعاز حثيث من العبّاسيّين.

وتميّزت هذه الحِقبة أيضًا بكتابات مؤلّف آخر كان معاصرًا لابن هشام، ونعني به الواقدي (١٣٠هـ - ٢٠٧هـ/٧٤٧م - ٨٢٣م)، وقد كان عالمًا عاش في بلاط العبّاسيّين، حيث تمتّع بحظوة الخلفاء ولا سيما منهم المأمون (امتدت فترة حكمه من العام ٨١٣ إلى العام ٨٣٣م). ألّف الواقدي العديد من الكتب بما فيها **كتاب المغازي**، وهو أقدم المؤلّفات (السُّنيّة) في تاريخ بدايات الإسلام التي وصلتنا. ولقد أصبح الواقدي ذائع الصيت بفضل كاتبه ابن سعد (١٦٨ - ٢٣٠هـ/٧٨٥ - ٨٤٥م) الذي، وانطلاقًا من كتابات معلّمه، وضع كتابًا ضخمًا بعنوان **الطبقات الكبرى** خصّصه لصحابة الرسول وذريّاتهم ولتاريخ الخلفاء حتى عصره[١]. وفي الجيل اللاحق، أضحى **تاريخ الطبري** الشهير (٢٢٤ - ٣١٠هـ/٨٣٩ - ٩٢٣م)، أي **تاريخ الأمم والملوك**، أحد المراجع الرئيسيّة لمن شاء التبحّر في سيرة الرسول. وتجدر الإشارة إلى أن مؤلّفاته تستند إلى حدّ كبير على أعمال المؤلّفين السابقين له الذين ذكرناهم توًا[٢].

تطرح المصادر الأساسيّة في التراث الإسلامي صعوبة أخرى تمثّل تحدّيًا بالنسبة إلى المؤرّخ؛ فهي لم تُكْتَب فحسب عَقِب قرن على الأقل من وفاة محمّد، بل تنضح بخاصيّات أدبيّة تجعل من قراءتها عملاً يقتضي جهدًا. إذ تتخلّل الروايات المتقطّعة المكتوبة بأسلوب جاف

---

(١) إن «الطبقات» لفظ يدل في اللغة العربية على الأجيال؛ وتوسّعًا، صار اللفظ يحيل إلى ما هو منضّد أو مَنْضود.

(٢) ثمّة مؤلّفات أخرى عصيّة على الاجتناب لمعرفة بدايات الإسلام (انظر فهرس المصادر العربيّة في كتابنا هذا).

متقشف، سلاسل من الأسانيد[1]، تعلن في كل مرّة بَدء سرديّة جديدة أو رواية مختلفة للخبر أو للفصل نفسه. وثمّة جملة نقع عليها في **الطبقات الكبرى** تعبّر عن هذا الخلط في الروايات، إذ يقول ابن سعد: «دخل حديثُ بعضِهم في حديث بعض»[2].

وقد أدّت هذه التناقضات العديدة بالمستشرقين إلى التشكيك في موثوقيّة المصادر الإسلاميّة، إذ استُهِلَّ هذا «الشك المنهجي» مع أعمال العالم بالإسلاميّات المَجَري إينياز غولدزِهِر (Ignaz Goldziher) الذي أخضع، في بداية القرن العشرين، مدوّنة الأحاديث إلى فحص نقديّ دقيق. ولقد أحدثت هذه التشكيكات التي طرحها هذا العمل، صدمة معرفيّة، وأدت في بعض الأحيان إلى نظريات «تنقيحية». في الواقع، يسعنا بالتأكيد انتقاد بعض المستشرقين مثل هنري لامنز (Henri Lammens)، بسبب عداوتهم المُعلَنة للإسلام، وشراستهم العالمة، والتّلذّذ الخبيث الذي يبدونه في بعض الأحيان عندما يشيرون بالإصبع إلى المفارقات التاريخيّة والأكاذيب الفادحة التي تزخر بها كتب التراث الإسلامي. غير أنهم مع ذلك نجحوا في إدخال نظرة تعتمد نزع الأوهام والخرافات، ساهمت في تخليص تاريخ الإسلام من قبضة العقيدة الدينيّة ومن رؤية اعتذاريّة حصريّة. لكن، مع ذلك، لا يزال يُنظر في العالم الإسلامي إلى هذه الأعمال النقديّة، التي ينتجها المستشرقون، نظرة ملؤها الارتياب، بحيث يبدو الأمر كما لو أن المسلمين يفضّلون التشكيك بنوايا العلماء الغربيّين، بدلاً من فحص أسس تاريخهم. ونحن نعلم أن هذا التحيّز العدائي ضد الاستشراق ارتُقِيَ به إلى مرتبة النظريّة،

---

(1) يعني لفظ «سند» سلسلة أسماء الذين نقلوا الرواية تباعًا، علمًا أن السلسلة تعود بالزمن حتى تصل المصدر الأول للخبر.

(2) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/٢٢٥.

بمبادرة من إدوارد سعيد الذي كان يرى في الاستشراق «أسلوبًا غربيًا للهيمنة على الشرق، وإعادة هيكلته والسيطرة عليه»[١]. ولقد ساهم هذا النوع من المقاربات في إغراق العديد من المثقّفين المسلمين في شكل من أشكال التوحّد الذي يحملهم على رفض كل رؤية نقديّة لتاريخهم رفضًا تامًّا، علمًا أن معظم المؤرخين العرب المعاصرين الذين كتبوا سيرة محمد، لم ينأوا بأنفسهم بما فيه الكفاية عن البعد الاعتذاري المهيمن[٢].

في الحقيقة، لا بدّ من الإقرار بأن عدم موثوقية المعلومات الواردة في المصادر الإسلاميّة، كانت نتيجة لواقع تمثّل في أن الهدف الرئيسي منها لم يكن إرساء حقيقة تاريخيّة بالمعنى المعاصر للفظ؛ ذلك أن هذه الأعمال ترتكز على نوايا دينيّة تهدف إلى تأسيس تاريخ مقدّس، «تاريخ خَلاصي» كما يقول جون وانسبرو (John Wansbrough). فبالنظر إلى وظائفها التفسيريّة والعقائديّة الأصليّة، سعت السّير النبويّة الأولى إلى صياغة أساطير وإلى إرسائها كحقائق ثابتة.

انتهت الحَيْرة المربِكة التي يشعر بها المؤرّخون أمام ضبابيّة التراث الإسلامي، إلى تأسيس علاقة ملتبسة به: فبينما يعبّر المؤرخ الذي يدرس بدايات الإسلام عن أقصى درجات الشك في مصداقيّة التأريخ الإسلامي، لا يمكن للباحث الذي يدرس هذه البدايات، الاستغناء عن

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، نقله إلى العربية كمال أبو ديب، بيروت، مؤسّسة الأبحاث العربية، ١٩٧٨.
(Edward Saïd, *Orientalism*, New York, Pantheon Books, 1978; trad. fr., *L'Orientalisme L'Orient créé par l'Occident*, Paris, Le Seuil, 2003).

(٢) لم يجرؤ العلماء المسلمون على الاضطلاع بعمل نقديّ عميق لكتب التراث المؤسّسة لتاريخهم، باستثناء بعض المحاولات النابعة أساسًا من باحثين انتموا إلى الثقافة الإسلاميّة وأقاموا في غالبيّتهم في أوروبا أو الولايات المتّحدة الأميركيّة.

هذه المدوّنة الضخمة والمربِكة، والتي يعلم مُسبقًا أنها محشُوّة بالخِدَع والاحتيالات من كل شكل ولون.

بالتالي، وفي كل مرّة نحاول الكتابة عن حياة الرسول، نجدنا في مواجهة معضلة نجح هارالد موتزكي (Harald Motzki) في اختصارها بوضوح، ومفادها أنه يستحيل على المرء كتابة سيرة محمّد من دون أن يُتّهم باستخدام غير نقديّ لمصادر التراث الإسلامي؛ وفي الوقت نفسه، وبمجرد أن نشرع في عمل نقديّ للمصادر الإسلاميّة، يصبح من المستحيل كتابة سطر واحد في سيرة الرسول[1]. وقد دفع هذا الأمر ببعض المؤرّخين، ومنهم جاكلين شَبّي (Jacqueline Chabbi)، إلى الإدلاء بتصريحات يائسة وإلى الجزم بأن سيرة الرسول تبدو بكل بساطة «مستحيلة»[2]. ومن جهته، يعتقد جون وانسبرو أن هذه «الاستحالة» لا تتأتّى من قلّة المعلومات بل من واقع آخر مفاده أن التاريخ الذي تسرده كتب التراث الإسلامي هو في حدّ ذاته تاريخ بِناءٍ مركّب.

والواقع أن السّير النبويّة الأولى استندت إلى اعتبارات رمزيّة وأدبيّة أملاها عليها السياق السياسي الذي كتبت فيه. ومن جهته، يؤكد تشايس ف. روبِنسون (Chase F. Robinson)[3]، في دراسته عن التأريخ الإسلامي، أن مصنّفي كتب التراث الإسلامي لم يكونوا بالضرورة سيّئي

(١) انظر: هارالد موتزكي، **سيرة محمّد: في مسألة المصادر**، Harald Motzki (éd.), *The Biography of Muhammad. The Issue of the Sources*, Leyde-Bostan-Cologne, Brill, 2000, p. XIV.

(٢) انظر: جاكلين شَبّي، «التاريخ والتراث المقدّس. سيرة محمّد المستحيلة» Jacqueline Chabbi, "Histoire et tradition sacrée. La Biographie impossible de Mahomet", in *Arabica*, 43, 1996, pp. 189-205.

(٣) انظر: تشايس ف. روبنسون، **التأريخ الإسلامي**، Chase F. Robinson, *Islamic Historiography*, Cambridge University Press, 2003.

النيّة، وأن مقصد المؤرخين العبّاسيّين لم يكن هو الآخر بالضرورة تزويرًا للتاريخ، بل تمثّل في «إنتاج ماضٍ مُقْنِع يعطي معنىً لحاضر متحوّل»[1]. يُحرّك مؤلّفي كتب التراث الإسلامي شعورٌ بالانتماء إلى أمّة جديدة حريصة على تعزيز تفردها والتأكيد عليه. ومع إعادة تأسيس الخلافة في بغداد في القرنَيْن الثالث والرابع الهجري/القرنَيْن التاسع والعاشر الميلادي، تبلور التراث الإسلامي وأرسى رواية رسميّة للتاريخ. إذ تعلّق الأمر هنا بعمليّة إعادة كتابة تَمَلُّكِيّة للماضي مشابهة للعمليّة التي طبعت على سبيل المثال، المِخيال السياسي للحضارات القديمة، الذي عمل على إبرازه بجلاء عالم المِصريّات يان آسْمان (Jan Assman)[2]. ومن جهته، يحلل عبد السلام شِدّادي هذه العمليّة نفسها في التأريخ الإسلامي حيث ابتدع العبّاسيّون - وإلى حدٍّ ما الأمويّون - «ماضٍ جديد» قدّمهم باعتبارهم أوصياءَ على تراث ثقافي وديني[3].

لقد ولّد تمجيد آل بيت الرسول وصحابته، الذين أصبحوا بفعل ذلك موضع تهليل وتبجيل، أثرًا متأخّرًا، وذلك في القرن الثاني من الهجرة، في لحظة أصبحت فيها كتابة التاريخ (أو تزويره بحسب وُجُهات النظر) رهانًا سياسيًّا حاسمًا في إضفاء الشرعيّة على السلطة. وإلى حدٍّ كبير،

---

(١) انظر: أنطوان بورّو، «صناعة التاريخ والتراث الإسلاميّين»، Antoine Borrut, "La fabrique de l'histoire et de la tradition islamiques", in *Écriture de l'histoire et processus de canonisation dans les premiers siècles de l'Islam, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, no. 129, 2011, pp. 17-30 et p. 18.

(٢) **انظر يان أسْمان، الذاكرة الثقافية: الكتابة، الذكرى والمِخيال السياسي في الحضارات القديمة:**

Jan Assman, *La Mémoire culturelle. Écriture, souvenir et imaginaire politique dans les civilisations antiques*, Paris, Aubier, 2010.

(٣) انظر: Abdesselam Cheddadi, *Les Arabes et l'appropriation de l'histoire, op. cit.*, pp. 313-315.

كانت المهمّة الأساسيّة للتدوين التاريخي، ابتداع نوع من «الخرافة المطابقة للحقيقة»، القادرة على تعزيز النظام القائم وقطع الطريق، بطريقة وقائية استباقيّة، على أيّة أصوات معارضة طامعة في السلطة. وبناء على ما يشرحه محمّد - علي أمير - مُعِزّي بشكل جيد، كُتبت مؤلّفات التراث الإسلامي في سياق الحروب الأهليّة التي مزّقت الأمّة الإسلاميّة(١).

لم يُسْتَثْنَ جمع القرآن هو نفسه من هذه الديناميكيّة: فالتجميع الذي أمر به عثمان، ثالث خلفاء الإسلام، لم يكن بدافع أسباب لغويّة، بل كان تحقيقًا لأهداف سياسيّة، من أجل إحباط مطامِحَ عليّ بن أبي طالب(٢). فالسيطرة على الذاكرة هي مسألة سلطة لا تقتصر على تاريخ الإسلام وحده، بل إن كتابة التاريخ تتوافق دائمًا مع «حاجات إضفاء الشرعيّة على كل سلطة سياسيّة»، وهو ما عمل على إيضاحه مؤرّخون من مصاف جاك لوغوف (Jacques de Goff) وپول ڤاين (Paul Veyne).

تحوّل النقد التاريخي للمصادر الإسلاميّة في السنوات الأخيرة من التركيز على «ما حدث بالفعل» إلى تحليل «نوايا المؤلّفين». ومن شأن هذا المنهج المثمِر أن يسلّطَ الضوءَ على الطرق التي وُضعت بها نصوص المصادر التراثيّة الإسلاميّة، وهي التي أُنيطت بها وظيفة أخرى غير تلك التي كانت تقتضي منها تقديم سرد دقيق لوقائع الماضي. ولقد أدّى هذا

---

(١) انـــظـــر: Mohammad-Ali Amir-Moezzi, *Le Coran silencieux et le Coran parlant*, *op. cit.*

(٢) تجدر الإشارة إلى أن الصراعات بين أبناء الدين الواحد والتي اتصفت بعنف دموي بشكل خاص وميّزت تاريخ الإسلام، لم تتعلق فقط بالنزاع بين السّنة والشيعة؛ بل إن التمزّق نال من المعسكر السّني هو نفسه جراء الصراعات الداخليّة. ومما لا شك فيه أن هذا السياق المأزوم سياسيًا كان شبه موصول، وقد ارتد على كيفيّات تمثُّل تاريخ الإسلام وحياة الرسول في كتب التراث الإسلامي.

الاتجاه الجديد إلى ظهور مؤلّفات ثريّة للغاية تجاوزت ثنائيّة «الصائب» و«الخاطئ»، لتنصرف إلى دراسة آليّات إنتاج النصوص[1].

«نجدنا دائمًا تحت تأثير سرديّة ما»: هذا ما خلص إليه جان ـ فرانسوا ليوتار (Jean-Francois Lyotard)، في كتابه **إرشادات وثنيّة** (*Instructions païennes*)[2]. وبدورنا نستنتج أن مؤلّفي كتب التراث الإسلامي كانوا يُشبهون الوثنيّين الذين يشير إليهم الفيلسوف بالقول: «إنهم لا يتساءلون عن مطابَقَة السرديّة لموضوعها، فهم يعلمون أن المرجعيّات تنظُمها الكلماتُ وأن الآلهةَ ليست ضامنة لها»[3]. وبناء عليه، لا تُعدُّ المسألة بالنسبة إلينا معرفة ما الذي حصل فعلًا (فهذه أمور لن نعرفها أبدًا)؛ بل إننا، وبناء على ما شرحه ميشال فوكو (Michel Foucault)، في التحليل الذي خصّصه للوحة ماغريت (Magritte)

---

(١) تفكّر فريد م. دونر في الأسباب التي دفعت الأمة الإسلاميّة إلى إعادة كتابة تاريخها (انظره في: Fred M. Donner, *Narratives of Islamic Origins. The Beginnings of Islamic Historical Writings*, Princeton, Darwin Press, 1998).

وفي مؤلَّف صدر له حديثًا كرّسه للخلفاء الأربعة، حلّل طيّب الهِبْري تاريخ كل منهم لا كـ «سرديّات واقعيّة» بل كـ «نصوص مشفّرة»، وكـ «قصص رمزيّة تحمل مغزىً أخلاقيًا»، لا بدّ من سَبْرِ دلالتها الرمزيّة. انظره في: Tayeb el-Hibri, *Parable and Politics in Early Islamic History. The Rashidun Caliphs*, New York, Columbia University Press, 2010.

ولقد سبق لبُواز شوشان أن تبنّى المنهجيّة التي اعتمدها طيّب الهِبْري، وذهب حدّ الاضطلاع بـ «تفكيك» حوليّات الطّبري، رافضًا استخدام **تاريخ الأمم والملوك** كمصدر تاريخي؛ انظره في: Boaz Shoshan, *Poetics of Islamic Historiography. Deconstructing Tabari's History*, Leyde, Brill, 2004.

(٢) انظر: Jean-François Lyotard, *Instructions païennes*, Paris, Galilée, 1977, p. 47.

(٣) عينه، ص٤٥.

الشهيرة بـ «هذا ليس غليونًا» (*Ceci n'est pas une pipe*)، ننتقل بانتباهنا من الغرض أو الشيء المتملِّص لنركِّزه على كيفيّة تَمَثُّله.

فهرس الأعلام بالتسلسل الزمني

المؤلفون الشيعة مُشار إليهم بعلامة نجمية

القرن الأول/ القرن السابع

* سليم ابن قيس الهلالي: ٢ - ٧٦/ ٦٢٣ - ٦٥٩

القرن الأول - القرن الثاني/ القرن السابع - القرن الثامن

مجاهد ابن جبر: ٢١ - ١٠٤/ ٦٤٢ - ٧٢٢

ابن إسحاق: ٨٥ - ١٥٠/ ٧٠٤ - ٧٦٧

مالك ابن أنس: ٩٣ - ١٧٩/ ٧١٢ - ٧٩٥

القرن الثاني - القرن الثالث/ القرن السابع - القرن التاسع

* الحسن بن محمد الديلمي ؟

عبد الرزاق: ١٢٦ - ٢١١/ ٧٤٤ - ٨٢٧

الواقدي: ١٣٠ - ٢٠٧/ ٧٤٧ - ٨٢٢

ابن هشام: متوفّى سنة ٢١٣/ ٨٢٢

ابن أبي شيبة: ١٥٩ - ٢٣٥/ ٧٧٥ - ٨٤٩

الجاحظ: ١٦٠ - ٢٥٥/ ٧٧٦ - ٨٦٩

ابن حنبل: ١٦٤-٢٤١/ ٧٨٠-٨٥٥

ابن سعد: ١٦٨ - ٢٣٠/ ٧٨٤ - ٨٤٥

ابن شيبة: ١٧٢ - ٢٦٢/ ٧٨٩ - ٨٧٦

الدارمي: ١٨١ - ٢٥٥/ ٧٩٧ - ٨٦٩

البخاري: ١٩٤ - ٢٥٦/ ٨١٠ - ٨٧٠

القرن الثالث/ القرن التاسع

أبو داود: ٢٠٢ - ٢٧٥/ ٨١٧ - ٨٨٩

مسلم: ٢٠٢ - ٢٦١/ ٨١٧ - ٨٧٥

ابن ماجة: ٢٠٩ - ٢٧٣/ ٨٢٤ - ٨٨٧

الترمذي: ٢١٠ - ٢٧٩/ ٨٢٥ - ٨٩٢

ابن قتيبة: ٢١٣ - ٢٧٦/ ٨٢٨ - ٨٨٩

البلاذري: متوفّى سنة ٢٧٩/ ٨٩٢

اليعقوبي: متوفّى سنة ٢٨٤/ ٨٩٧

القرن الثالث - القرن الرابع/ القرن التاسع - القرن العاشر

أبو يعلى: ٢١١ - ٣٠٧/ ٨٢٦ - ٩٢٠

النّسائي: ٢١٥ - ٣٠٣/ ٨٣٠ - ٩١٥

الطبري أبو جعفر: ٢٢٤ - ٣١٠/ ٨٣٩ - ٩٢٣

* الجوهري: متوفّى سنة ٣٢٣/ ٩٣٤

ابن عبد ربيع: ٢٤٦ - ٣٢٨/ ٨٦٠ - ٩٤٠

* الكليني: متوفّى سنة ٣٢٩/ ٩٤٠ - ٩٤١

المسعودي: ٢٨٣ - ٣٤٦/ ٨٩٣ - ٩٥٦

أبو فرج الأصفهاني: ٢٨٤ - ٣٥٦/ ٨٩٧ - ٩٦٧

الطبراني: ٢٦٠ - ٣٦٠/ ٨٧٣ - ٩٧١

ابن حِبّان: ٢٧٠ - ٣٥٤/ ٨٨٣ - ٩٦٥

القرن الرابع/ القرن العاشر

الدارقطني: ٣٠٦ - ٣٨٥/ ٩١٨ - ٩٩٥

القرن الرابع - القرن الخامس/ القرن العاشر - القرن الحادي عشر

الحاكم النيسابوري: ٣٢١ - ٤٠٥/ ٩٣٣ - ١٠١٤

أبو نعيم الإصفهاني: ٣٣٦ - ٤٣٠/ ٩٤٨ - ١٠٣٨

* المفيد: ٣٣٦ - ٤٣٠/ ٩٤٨ - ١٠٣٨

ابن عبد البر: ٣٦٨ - ٤٦٣/ ٩٧٨ - ١٠٧١

البيهقي: ٣٨٤ - ٤٥٨/ ٩٩٤ - ١٠٦٦

ابن حزم الأندلسي: ٣٨٤ - ٤٥٦/ ٩٩٤ - ١٠٦٤

الخطيب: ٣٩٢ - ٤٦٣/ ١٠٠٢ - ١٠٧٢

القرن الخامس/ القرن الحادي عشر

البكري: متوفّى سنة ٤٨٧/ ١٠٩٤

القرن الخامس - القرن السادس/ القرن الحادي عشر - القرن الثاني عشر

الغزالي: ٤٥٠ - ٥٠٥/ ١٠٥٨ - ١١١١
الزمخشري: ٤٦٧ - ٥٣٨/ ١٠٧٥ - ١١٤٤
الشهرستاني: ٤٧٩ - ٥٤٨/ ١٠٨٦ - ١١٥٣
ابن عساكر: ٤٩٩ - ٥٧١/ ١١٠٥ - ١١٧٦

القرن السادس/ القرن الثاني عشر
البغوي: متوفّى سنة ٥١٦/ ١١٢٢
* الطبرسي: متوفّى سنة ٥٤٨/ ١١٥٣
ابن الجوزي: ٥١٠ - ٥٩٧/ ١١٢٦ - ١٢٠٠
السهيلي: ٥٠٨ - ٥٨١/ ١١١٤ - ١١٨٥

القرن الخامس - القرن السابع/ القرن الثاني عشر - القرن الثالث عشر
ابن الأثير مجد الدين: ٥٤٤ - ٦٠٦/ ١١٥٠ - ١٢١٠
الرازي فخر الدين: ٥٤٤ - ٦٠٦/ ١١٥٠ - ١٢١٠
ابن الأثير: ٥٥٥ - ٦٣٠/ ١١٦٠ - ١٢٣٣
ياقوت: ٥٧٤ - ٦٢٦/ ١١٧٩ - ١٢٢٩
ابن أبي الحديد: ٥٨٦ - ٦٥٦/ ١١٩٠ - ١٢٥٨

القرن السابع/ القرن الثالث عشر
القرطبي: ٦٠٠ - ٦٧١/ ١٢٠٤ - ١٢٧٣
ابن خليكان: ٦٠٨ - ٦٨١/ ١٢١١ - ١٢٨٢
الطبري محب الدين: ٦١٥ - ٦٩٤/ ١٢١٨ - ١٢٩٥

النووي: ٦٣١ - ٦٧٦/ ١٢٣٣ - ١٢٧٧

البيدوي: متوفى سنة ٦٩١/ ١٢٩٢

القرن السابع - القرن الثامن/ القرن الثالث عشر - القرن الرابع عشر

ابن منظور: ٦٣٠ - ٧١١/ ١٢٣٣ - ١٣١٢

أبو حيّان: ٦٥٤ - ٧٤٥/ ١٢٥٦ - ١٣٤٤

أبو الفداء: ٦٧٢ - ٧٣٢/ ١٢٧٣ - ١٣٣١

الذهبي: ٦٧٣ - ٧٤٨/ ١٢٧٤ - ١٣٤٧

النويري: ٦٧٧ - ٧٣٣؟/ ١٢٧٨ - ١٣٣٣؟

التبريزي: متوفى سنة ٧٤١/ ١٣٤٠

القرن الثامن/ القرن الرابع عشر

ابن كثير: ٧٠٠ - ٧٧٤/ ١٣٠٠ - ١٣٧٢

ابن رجب: ٧٣٦ - ٧٩٥/ ١٣٣٥ - ١٣٩٢

القرن الثامن - القرن التاسع/ القرن الرابع عشر - القرن الخامس عشر

ابن خلدون: ٧٣٢ - ٨٠٨/ ١٣٣٢ - ١٤٠٦

الهيثمي: ٧٣٥ - ٨٠٧/ ١٣٣٥ - ١٤٠٥

المقريزي: ٧٦٦ - ٨٤٥/ ١٣٦٤ - ١٤٤٠

ابن حجر: ٧٧٣ - ٨٥٢/ ١٣٧٢ - ١٤٤٨

القرن التاسع - القرن العاشر/ القرن الخامس عشر - القرن السادس عشر

السيوطي: ٨٤٩ - ٩١١/ ١٤٤٥ - ١٥٠٥

المتّقي: ٨٨٨ - ٩٧٥/ ١٤٨٣ - ١٥٦٧

القرن العاشر/ القرن السادس عشر

الديّار بكري: متوفّى سنة ٩٦٦/ ١٥٥٩

القرن العاشر - القرن الحادي عشر/ القرن الخامس عشر - القرن السابع عشر

القاري علي: متوفّى سنة ١٠١٤/ ١٦٠٦

الحلبي: ٩٧٥ - ١٠٤٤/ ١٥٦٧ - ١٦٣٥

القرن الحادي عشر - القرن الثاني عشر/ القرن السابع عشر

* المجلسي: ١٠٣٧ - ١١١١/ ١٦٢٧ - ١٦٩٩

العصامي: ١٠٤٩ - ١١١١/ ١٦٣٩ - ١٦٩٩

* المدني: ١٠٥٢ - ١١٢٠/ ١٦٤٢ - ١٧٠٨

القرن الثاني عشر - القرن الثالث عشر/ القرن الثامن عشر - القرن التاسع عشر

الشوكاني: ١١٧٣ - ١٢٥٥/ ١٧٦٠ - ١٨٣٩

القرن الثالث عشر/ القرن التاسع عشر

الألوسي: ١٢١٧ - ١٢٧٠/ ١٨٠٢ - ١٨٥٤

القرن الثالث عشر - القرن الرابع عشر/ القرن التاسع عشر - القرن العشرين

* التبريزي حسين النوري: ١٢٤٥ - ١٣٢٠/ ١٨٢٩ - ١٩٠٢

ابن عاشور: ١٢٩٦ - ١٣٩٣/ ١٨٧٩ - ١٩٧٣

فهرس المصادر والمراجع العربية

- ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمد أبو إبراهيم، ٢٠ مجلد، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩.
- ابن أبي شيبة (أبو بكر)، **المصنّف في الأحاديث والآثار**، تحقيق كمال يوسف الحوت، ٧ مجلدات، الرياض، مكتبة الرشد، ١٩٨٨.
- ابن إسحاق، **كتاب السِّير والمغازي (السِّيرة)**، تحقيق سهيل زكّار، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨.
- ابن الأثير (عز الدين)، **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، ٦ مجلدات، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٩.
- ابن الأثير (عز الدين)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ١٠ مجلدات، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٧.
- ابن الأثير (مجد الدين)، **النهاية في غريب الحديث والآثار**، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، ٥ مجلدات، بيروت، المكتبة العلمية، ١٩٧٩.
- ابن الأثير (مجد الدين)، **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط وساعده في ذلك: مأمون الصّاغرجي، وعدنان عبدربّه ومحمد أديب الجادر، ١٢ مجلد، مطبعة الملاح، ١٩٧٠.
- ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ مجلدات، بيروت، دار صادر، ١٩٣٩.

- ابن الجوزي، **صفة الصفوة**، تحقيق أحمد بن علي، مجلدين، القاهرة، دار الحديث، ٢٠٠٠.
- ابن حِبّان، **الصحيح**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ١٨ مجلد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣.
- ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق علي محمد البِجاوي، ٨ مجلدات، بيروت، دار الجيل، ١٩٩١.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ١٣ مجلد، بيروت، دار المعرفة، ١٩٥٩.
- ابن حزم الأندلسي، **المحلّى بالآثار**، ١٢ مجلد، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٩.
- ابن حنبل، **المُسْند**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وشركائه، ٥٠ مجلد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩.
- ابن حنبل، **فضائل الصحابة**، تحقيق وَصِي الله محمّد عباس، مجلدين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣.
- ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والأخبار في تاريخ العرب والبربر**، تحقيق خليل شحادة، ٨ مجلدات، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨.
- ابن خليكان، **وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، ٧ مجلدات، بيروت، دار صادر، ١٩٩٤.
- ابن رجب (زين الدين)، **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، تحقيق محمود بن شعبان بن عبد المقصود، ٩ مجلدات، القاهرة - المدينة، مكتب دار الحرمين، ١٩٩٦.
- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، تحقيق إحسان عباس، ٨ مجلدات، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨.
- ابن شِبَّة، **تاريخ المدينة المنورة**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، طبع في جدّة على نفقة السيد حبيب محمود أحمد، ١٩٧٩.

- ابن عاشور (طاهر)، **التحرير والتنوير**، ٣٠ مجلد، تونس، دار سهنون، ١٩٩٧.

- ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق علي محمد البِجاوي، ٤ مجلدات، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢.

- ابن عبد الربيع الأندلسي، **العقد الفريد**، تحقيق مفيد محمّد قُمَيحة، ٩ مجلدات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣.

- ابن عساكر (أبو القاسم)، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي، ٨٠ مجلد (منها ٦ مجلدات مكرّسة للفهارس)، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥.

- ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، تحقيق طه محمّد الزيني، بيروت، دار المعرفة، ١٩٦٧.

- ابن قتيبة، **المعارف**، تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٠.

- ابن قتيبة، **تأويل مختلف الحديث**، بيروت - الدوحة، المكتب الإسلامي، مؤسسات الإشراق، ١٩٩٩.

- ابن كثير القرشي، **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، ١٤ مجلد، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨.

- ابن كثير القرشي، **السِّيرة النبوية (مقتطف من البداية والنهاية)**، تحقيق مصطفى عبد الواحد، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٦.

- ابن كثير القرشي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق سامي بن محمّد سلامة، ٨ مجلدات، بيروت، دار طيبة للنشر والتوزيع، طبعة ثانية، ١٩٩٩.

- ابن ماجة، **الصحيح**، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، مجلدين، بيروت - دمشق، دار الفكر، د. ت.

- ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، تحقيق روحية النحاس وشركائها: رياض

عبد الحميد مراد، محمّد مطيع الحافظ، حسن إسماعيل مروة وآخرين، ٢٩ مجلدًا، بيروت - دمشق، دار الفكر، ١٩٨٤.

- ابن هشام، **السِّيرة النبوية**، تحقيق محمد السقا وشركائه، مجلدين، القاهرة، مكتبة مصطفى الحلبي، ١٩٥٥.

- أبو الفداء، **المختَصَر في تاريخ البشر**، ٤ مجلدات، القاهرة، المطبعة الحسينية المصرية، ١٩٠٧.

- أبو الفرج الأصفهاني، **كتاب الأغاني**، تحقيق س. جابور (S. Jabeur)، ٢٤ مجلد، بيروت، دار الفكر، د. ت.

- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ٥ مجلدات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧١.

- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمّد شاكر، ٢٤ مجلد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠.

- أبو حيّان الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق **جميل العطار**، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٩.

- أبو داود السِّجيستاني، **سنن**، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، ٤ مجلدات، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥.

- أبو نعيم الإصفهاني، **حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ١٠ مجلدات، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤.

- أبو يَعلى الموصلي، **مُسْنَد**، تحقيق حسين سليم أسد، ١٣ مجلد، دمشق، دار المأمون للتراث، ١٩٨٤.

- الألوسي (شهاب الدين)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم**، تحقيق علي عبد الباري عطيّة، ١٦ مجلد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤.

- البخاري، **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق مصطفى ديب البغا، ٦ مجلدات، بيروت، دار ابن كثير، ١٩٨٧.

- البغوي (أبو محمد)، **شرح السُنة**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، ١٥ مجلد، بيروت - دمشق، المكتب الإسلامي، ١٩٨٣.
- البغوي (أبو محمد)، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة وضميريّة سليمان مسلم الحرش، ٨ مجلدات، الرياض، دار طيبة، ١٩٩٧.
- البكري (أبو عبيد)، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقا، ٤ مجلدات، بيروت، أعلام الكتب، ١٩٨٢.
- البلاذري، **أنساب الأشراف**، تحقيق زهير زكّار ورياض الزركلي، ١٣ مجلد، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٦ (حقّق المجلد الأول حميد الله، دار المعارف، ١٩٥٩).
- البلاذري، **فتوح البلدان**، بيروت، دار الهلال، ١٩٨٨.
- البيضاوي (ناصر الدين)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق محمّد عبد الرحمن المرعشلي، ١٥ مجلد، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧.
- البيهقي (أبو بكر)، **السُنن الكبرى**، تحقيق محمّد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.
- البيهقي (أبو بكر) .**دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ٧ مجلدات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٤.
- البيهقي (أبو بكر)، **معرفة السُنن والآثار**، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ١٥ مجلد، القاهرة، دار الوفاء، ١٩٩١.
- التبريزي (ولي الدين، أبي عبد الله)، **مِشكاة المصابيح**، تحقيق محمّد ناصر الدين الألباني، ٣ مجلدات، بيروت - دمشق، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥.
- التِّرمذي، **الجامع الصحيح/سنن**، تحقيق أحمد محمد شاكر، ٥ مجلدات، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.
- الجاحظ، **البرصان والعرجان والحولان**، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٩.

- الجوهري، **السقيفة وفدك**، تحقيق محمد هادي الأميني، بيروت، شركة الكتب للطباعة والنشر، طبعة ثانية، ١٩٩٣.
- الحاكم النّيسابوري (أبو عبد الله)، **المُستدرك على الصحيحَين**، تحقيق محمّد عبد القادر عطا، ٤ مجلدات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.
- الحلبي (نور الدين)، **السِّيرة الحلبية**، تحقيق عبد الله محمّد الخليلي، ٣ مجلدات، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦.
- الدارقُطني، **السُّنن**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله وأحمد برهوم، ٥ مجلدات، بيروت، الرسالة، ٢٠٠٤.
- الدارمي (أبو أحمد)، **السُّنن (أو مسند الدارمي)**، تحقيق حسين سليم أسد الدّاراني، ٤ مجلدات، المملكة العربية السعودية، دار المغني للنشر، ٢٠٠٠.
- الديار بكري، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس**، مجلدين، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣.
- الديلمي، **إرشاد القلوب**، تحقيق هاشم الميلاني، طهران، دار الأسوة للطباعة والنشر، ٢٠٠٣.
- الذهبي (شمس الدين)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، ٥٢ مجلد، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٣.
- الذهبي (شمس الدين)، **سِيَر أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ١٨ مجلد، القاهرة، دار الحديث، ٢٠٠٦.
- الرازي (فخر الدين)، **مفاتيح الغيب: التفسير الكبير**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩.
- الزمخشري، **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل**، ٤ مجلدات، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت.
- سُليم ابن قيس الهلالي، **كتاب سليم ابن قيس (أو كتاب السقيفة)**، تحقيق محمّد باقر الأنصاري، قوم، مطبعة الهادي، ١٩٨٥.

- السمهودي، **خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى**، تحقيق محمّد الأمين محمّد محمود الجكني، مجلدين، المدينة، حبيب محمود أحمد، ١٩٩٦.
- السُّهيلي، **الروض الأُنف في شرح السِّيرة النبوية**، تحقيق عمر عبد السلام، ٧ مجلدات، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠.
- السُّيوطي (جلال الدين)، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمود مرسي عبد الحميد محمّد عوض هيكل، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٨.
- السُّيوطي (جلال الدين)، **الدر المنثور**، ٨ مجلدات، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٣.
- السُّيوطي (جلال الدين)، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمّد مرسي عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٥٢.
- السُّيوطي (جلال الدين)، **جامع الأحاديث**، تحقيق علي جمعة، ١٣ مجلد، القاهرة، هـ. أ. زكي، ٢٠٠٢.
- الشُّهرستاني، **المِلَل والنِّحل**، تحقيق محمّد سيد كيلاني، مجلدين، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٣.
- الشَّوكاني، **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.
- الطَّبراني (أبو القاسم)، **المعجم الأوسط**، تحقيق عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ١٠ مجلدات، القاهرة، دار الحرمين، ١٩٩٤.
- الطَّبراني (أبو القاسم)، **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ٢٠ مجلد، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، ١٩٨٣.
- الطبرسي (أبو منصور أحمد ابن علي بن أبي طالب)، **الاحتجاج**، تحقيق محمد باقر الخرسان، مجلدين، النجف الأشرف، دار النعمان للطباعة والنشر، ١٩٦٦.
- الطبرسي (حسين النوري)، **مستدرك الوسائل**، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قُمْ، مطبعة سعيد، د. ت.

- الطَّبري (مُحِب الدين)، **الرياض النضرة في مناقب العشرة**، ٤ مجلدات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤.
- عبد الرزّاق الصنعاني، **المصنّف في الحديث**، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ١١ مجلد، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٢.
- العصامي، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، ٤ مجلدات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨.
- الغزالي (أبو حامد)، **إحياء علوم الدين**، ٤ مجلدات، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٨.
- القاري (علي)، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، ٩ مجلدات، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٢.
- القرطبي (شمس الدين)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ٢٠ مجلد، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٦٤.
- الكاتب البغدادي، **تاريخ بغداد**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦.
- الكليني، **أصول الكافي**، تحقيق عبد الرسول الغفار، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٩٤٣.
- مالك بن أنس، **الموطأ**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥.
- المتّقي (الهندي)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١.
- المجاهد بن جبر، **تفسير**، تحقيق عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي، مجلدين، بيروت، المنشورات العلمية، د. ت.
- المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، تحقيق محمّد الباقر البهبودي، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٩٨٣.

- المدني، **الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة**، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، قُمْ، مكتبة البسيراتي، ١٩٧٦.

- المسعودي، **مروج الذهب**، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، الشرقية العالمية للكتاب، ١٩٨٩.

- مفيد (محمد ابن محمد النعمان العكبري الشيخ المفيد)، **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، تحقيق مؤسسة آل البيت، مجلدين، بيروت، دار المفيد، ١٩٩٣.

- مفيد (محمد ابن محمد النعمان العكبري الشيخ المفيد)، **المقنعة**، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي، ١٩٩٠.

- المقريزي، **الرسائل**، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٨.

- النَّسائي، **السُّنن الكبرى**، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي وشعيب الأرناؤوط، ١٠ مجلدات، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١.

- النَّسائي، **فضائل الصحابة**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٤.

- النَّسائي، **كتاب الوفاة**، تحقيق محمّد السعيد زغلول، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، د. ت.

- النووي (أبو زكريا)، **المناهج: شرح صحيح مسلم**، ١٨ مجلد، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٢.

- النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ٣٣ مجلد، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٢.

- الهيثمي (نور الدين)، **مجمَع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق حسام الدين القدسي، ١٠ مجلدات، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٩٩٤.

- الواقدي، **كتاب الرِّدَّة**، تحقيق يحيى الجبُوري، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠.

- الواقدي، **كتاب المغازي**، تحقيق ماردسن جونز (Marsden Jones)، ٣ مجلدات، بيروت، دار الأعلمي، ١٩٨٩.
- ياقوت الرومي، **معجم البلدان**، ٥ مجلدات، بيروت، دار الفكر، د. ت.
- اليعقوبي، **التاريخ**، تحقيق عبد الأمير المهنّا، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠.

فهرس المراجع الأجنبيّة

- AMIR-MOEZZI Mohammad-Ali, *Le Coran silencieux et le Coran Parlant. Sources scriptuaires de l'islam entre histoire et ferveur*, Paris, CNRS, 2011.

- AMIR-MOEZZI Mohammad-Ali, *Dictionnaire du Coran*, Paris, Robert Laffont, 2007.

- ANDRAE T., *Mahomet, sa vie et sa doctrine*, Paris, Adrien-Maisonneuve, 1945.

- BENKHEIRA Mohammed H., "Onomastique et religion: à propos d'une réforme du nom propre au cours des premiers siècles de l'Islam", in C. Müller et M. Roiland-Rouabah (dir.), *Les Non-dits du nom. Onomastique et documents en terres d'Islam. Mélanges offerts à Jacqueline Sublet*, Beyrouth, Presses de l'IFPO-IRHT, 2013.

- BERQUE Jacques, *L'Islam au temps du monde*, Paris, Sindbad, coll. "La bibliothèque de l'islam", 1984.

- BLACHÈRE Régis, *Le Problème de Mahomet. Essais de biographie critique du fondateur de l'Islam*, Paris, PUF, 1052.

- BLACHÈRE Régis, "L'allocution de Mahomet lors du pèlerinage d'adieu", *in Mélanges Louis Massignon*, Damas, 1956.

- BORRUT Antoine, "La fabrique de l'histoire et de la tradition islamiques", in *Écriture de l'histoire et processus de canonisation dans les premiers siècles de l'Islam, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, no. 129, 2011, pp. 17-30.

- CAETANI L., *Annali dell' Islam*, Milan, Ulrico Hoepli, 1905-1'926.

- CASANOVA Paul., *Mohammed et la fin du monde. Étude critique sur l'Islam primitif,* 2 vol., Paris, P. Geuthner, 1911-1913.

- CAUSSIN DE PERCEVAL A.-P., *Essai sur l'histoire des Arabes,* Paris, Firmin Didot Frères, 1848.

- CHABBI Jacqueline, "Histoire et tradition sacrée. La biographie impossible de Mahomet", *in Arabica,* 43, 1996.

- CHABBI Jacqueline, *Le Seigneur des tribus L'Islam de Mahomet,* Paris, Noêsis, 1997.

- CHASE R. F., *Islamic Historiography,* Cambridge, Cambridge University Press, 2003.

- CHEDDADI Abdessalam, *Les Arabes et l'appropriation de l'histoire. Émergence et premier développements de l'historiographie musulmane jusqu'au IIe/ VIIIe siècle,* Arles, Sindbad-Actes Sud, 2004.

- DIMMOCK M., *Mythologies of the Prophet Muhammad in Early Modern English Culture,* Cambridge, Cambridge University Press, 2013.

- DJAÏT H., *La Gande Discorde. Religion et politique dans l'Islam des origines,* Paris, Gallimard, 1989, rééd, 2008.

- DJAÏT H., *La Vie de Muhammad,* tome I, Paris, Fayard, 2007.

- DONNER F., *Narratives of Islamic Origins. The Beginnings of Islamic Historical Writings,* Princeton, Darwin Press, 1998).

- DOZY Reinhart, *Essai sur l'histoire de l'islamisme,* trad. Victor Chauvin, Leyde - Paris, Brill - Maisonneuve, 1879.

- ECKHARDT Alexandre, "Le cercueil flottant de Mahomet", in *Mélanges de philologie romane et de littérature médiévale offerts à Ernest Hoepffiner,* Publications de la faculté des lettres de l'université de Strasbourg 113, Paris, Les Belles Lettres, 1949.

- EFFENDI M., "Mémoire sur le calendrier arabe avant l'islanisme et sur la naissance et l'âge du Prophète Mohammad", *in Journal asiatique,* février - mars 1858, pp. 109-192.

- EL-HIBRI Tayeb, *Parable and Politics in Early Islamic History. The Rashidun Caliphs,* New York, Columbia University Press, 2010.

- GAUDEFROY-DEMOMBYNES M., *Mahomet*, Paris, Albin Michel, 1957.
- HALEVI Leor, *Muhammad's Grave. Death Rites and the Making of Islamic Society*, New York, Columbia University Press, 2007.
- HOYLAND Robert G., *Seeing Islam as Others Saw It. A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam*, Princeton, The Darwin Press, 1997.
- IMBERT Frédéric, "L'Islam des pierres: l'expression de la foi dans les graffiti arabes des premiers siècles", in *Écriture de l'histoire et processus de canonisation dans les premiers siècles de l'islam, hommage à A.-L. de Prémare, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, no. 129, 2011, pp. 55-77.
- KOHLBERG Etan, "Shī'ī Views of the Death of the Prophet Muhammad", in *Medieval Arabic Thought. Essays in Honour of Fritz Zimmermann*, Warburg Studies and Texts, 4, 2012, pp. 77-86.
- KOHLBERG Etan, "Western Accounts of the Death of the Prophet Muhammad", in M.-A. Amir-Moezzi et J. Scheid (dir.), *L'Orient dans l'histoire religieuse de l'Europe. L'Invention des origines*, Turnhout-Paris, Bibliothèque de l'École des hautes études, Sciences religieuses 110, 2000, pp. 165-195.
- KOHLBERG Etan, "Abû Turab", *The Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, no. 41, 1978, pp. 347-352.
- LAMMENS Henri, *Fâtima et les filles de Mahomet. Notes critiques pour l'étude de la Sîra*, Institut biblique pontifical, Rome, Bretschneider, 1912.
- LAMMENS Henri, "L'âge de Mahomet et la chronologie de la *Sîra*", in *Journal asiatique*, dixième série, t. XVII, 1911, pp. 209-250 et p. 239.
- LAMMENS Henri, "Le "triumvirat" Abû Bakr, 'Umar et Abû 'Ubayda", in *Mélanges de la faculté orientale de Beyrouth*, tome 4, 1910, pp. 113-144.
- LAMMENS Henri, "Qoran et Tradition. Comment fut composée la vie de Mahomet?", in *Recherches des sciences religieuses*, I, 1910, pp. 27-51.

- MADELUNG Wilferd, *The Succession to Muhammad. A Study of the Early Caliphate*, Cambridge - New York, Cambridge University Press, 1997.
- MARGOLIOUTH D. S., *Mohammed and the Rise of Islam*, New York, Putnam, 1905, p. 46.
- MOTZKI Harald (éd.), *The Biography of Muhammad. The Issue of the Sources*, Leyde-Bostan-Cologne, Brill, 2000, p. XIV.
- POWERS David S., *Muhammad Is Not the Father of Any of Your Men. The Making of the Last Prophet.* Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 2009.
- PRÉMARE A.-I., de, *Les Fondations de l'Islam. Entre écriture et histoire*, Paris, Le Seuil, 2002.
- RENAN Ernest, "Mohamet, les origines de l'islamisme", *in Revue des Deux Mondes, Nouvelle Période*, t. 12, 1851, pp. 1063-1101.
- RODINSON Maxime, *Mahomet*, Paris, Le Seuil, 1968; rééd. 1994.
- RUBIN U., *The Eye of the beholder. The Life of Muhammad as Viewed by the Early Muslims. A Textual Analysis*, Princeton, The Darwin Press, 1995.
- RUBIN U. (éd.), *The Life of Muhammad*, Aldershot-Brookfield-Singapore-Sydney, Ashgate, 1998.
- SHOEMAKER Stephen J., *The Death of a Prophet. The End of Muhammad's life and the Beginning of Islam*, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 2012.
- SHOSHAN B., *Poetics of Islamic Historiography. Deconstructing Tabari's History*, Leyde, Brill, 2004.
- WATT M., *Muhammad at Mecca*, Oxford, Clarendon Press, 1956; trad. fr. *Mahomet à La Mecque*, Paris, Payot, 1958.
- WATT M., *Muhammad at Medina*, Oxford, Clarendon Press, 1956; trad. fr. *Mahomet à Médine*, Paris, Payot, 1959.

الفهرس

توطئة: ارْسُم لِيَ نبيًّا ٩
الفصل الأول: تَبُوك، آخر الغزوات ٢٥
الفصل الثاني: مؤامرة العَقَبَة ٤١
الفصل الثالث: موت إبراهيم، الابن المرجوّ ٥١
الفصل الرابع: حَجَّة الوداع ٦٣
الفصل الخامس: مؤامرة الصّحيفة الملعونة ٧٣
الفصل السادس: بَعْثُ أُسامَةَ ٨٧
الفصل السابع: الجدران تتصدّع ١٠٥
الفصل الثامن: بداية النهاية ١١٩
الفصل التاسع: محمّد و«روايته العائليّة» ١٣٩
الفصل العاشر: الابنةُ والصّهر ١٦٣
الفصل الحادي عشر: عائِشَة، الحُمَيْراء اللّعوب المتوهّجة ١٨٧
الفصل الثاني عشر: «رَزِيّة الخميس»: الوصيّة التي لم تُكتب ٢٠١
الفصل الثالث عشر: مَنْ ذا الذي ناب عن الرسول في المسجد؟ . ٢٢٥
الفصل الرابع عشر: أصل الدّاء: السّمّ أم ذات الجَنب؟ ٢٤٧
الفصل الخامس عشر: الرسول يموت ٢٧٧
الفصل السادس عشر: «كيف يموت وهو شهيدٌ علينا؟» ٢٩١

الفصل السابع عشر: جَنازَة محمّد ٣٢١
الفصل الثامن عشر: المسلمون وذاكرة رسولهم ٣٥١
في الختام... موتُ رسولٍ وولادةُ دين ٣٦٣
وبعد... مسائل تأريخيّة ٣٧٥
إفصاحات المصادر غير الإسلاميّة ٣٧٧
في المصادر الإسلاميّة: كتابة التاريخ أو سرد حكايات؟ ٣٨٧
فهرس الأعلام بالتسلسل الزمني ٤٠١
فهرس المصادر والمراجع العربية ٤٠٩
فهرس المراجع الأجنبيّة ٤١٩

هذا الكتاب

نتطلع من خلال سرد الأيام الأخيرة من حياة محمّد، إلى اقتلاع الرجل من الأسطورة الملحميّة ـ الدينيّة التي طُمِرَ تحتها وإرجاعه إلى التاريخ، أي إلى «الزمن البشري»، كما يقول المستشرق جاك بيرك. ولا بدّ من القول في هذا الصدد إن هذا النهج قد فرض نفسه علينا لبداهته؛ إذ، وبناء على ما أشار إليه إرنست رينان، كان محمّد «شخصيةً تاريخيّةً حقًّا». ولنذكّر القارئ بأن النّبيّ عاصر كلاًّ من فلافيوس أغسطس هرقل، إمبراطور بيزنطيّة، وداجوبيرت الأول، ملك الفرَنْج، والبابا بونيفاس الخام. غير أننا نتبيّن أن الجذور التاريخيّة للإسلام ماضية في الغوص في رمال الدوغماتيّة المتحرّكة. فعلى مَمَرّ القرون، بدا أن انغلاق الإسلام على نفسه في «تمثّل مطلق»، هو السبب اليوم في رفض [هذا الدين] «التَوافُق مَنْطِقِه مع زمن الآخرين»، وذلك بناء على ما تشير إليه المؤرّخة جاكلين شابّي. ولمّا كانوا يرفِضون النظر إلى أنفسهم إلا في المرآة المُجَمِّلة التي تقدّمها لهم مصادرهم، يعتقد المسلمون بقدرتهم على اختزال تاريخهم بل ومستقبلهم في وهم الأزليّة والمعصوميّة.

الغلاف : سكينة صلوَن


ISBN 978-9922221441

